مَالِينَ وَالْمُوالِمِينِ الْمُعْلِمِينِ الْمُعْلِمِينِ الْمُعْلِمِينِ الْمُعْلِمِينِ الْمُعْلِمِينِ الْمُعْلِم مِالِهِبَ تِحَالِعَرِي حَتى فَصَايَة العَصْلِفِاطِمِي

التكتوراً حمر عبدالران أحمد أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية كلية الآداب بجامعة عين شمس الحائز لجائرة الدولة في التاريخ عام ١٩٨١

٠٢٤١٥ / ١٩٩٩م

ملتزم الطبع والنشر دار الفكر الحربي

۹۶ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة ت: ۲۷۵۲۷۳۵ - فاكس: ۲۷۵۲۷۳۵

٩٦٢ أحمد عبد الرارق أحمد

أح ت ا تاريخ وآثار مصر الإسلامية: منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي/ أحمد عبد الرازق أحمد. _ القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٩.

٢٤ ص: إيض؛ ٢٤ سم

بىليوجرافية: ص ٢٧١ ـ ٢٨٦

يشتمل على ثىت باللوحات

تدمك: ٣ _ ٥٨٦ _ ١٠ _ ٩٧٧ .

١ _ مصر _ الآثار الإسلامية ٢ _ مصر _ تاريخ.

1994 / 2770	رقم الإيداع
977 - 10 - 0586 - 3	I. S. B. N الترقيم الدولي

« ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع الصنائع»

مقدمة

ابن خلدون

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
1 9	تمهيد
	الفصل الأول
	مصر قبل الفتح العربي
71 - 17	الأسباب الدينية
71 – V1	الأسباب الاقتصادية
\ <i>A</i> - \ <i>V</i>	الأسباب العسكرية
١٨	الأسباب الاجتماعية
	الفصل الثانى
	الفتح العربي لمصر
۲۲ – ۲۱	أسباب فتح مصر
78 - 77	الطريق الذي سلكته الحملة
78	معركة عين شمس
37 - 77	الاستيلاء على حصن بابليون
YV	معاهدة الإسكندرية
۲۸	غزو النوبة ومعاهدة البقط
	الفصل الثالث
	نظم الحكم في عصر الولاة
T0 - TT	الوالى
TV - To	صاحب الشرطة
79 - 7 1	القضاة
1 - 49	صاحب البريد
	الفصيل الرابع
	انتشار الإسلام واللغة العربية
0 20	موقف العرب من أقباط مصر

00-0.	المضايقات التى تعرض لها أقباط مصر
04-00	ثورات الأقباط
٧٥ - ٠٢	انتشار اللغة العربية
	الفصل الخامس
	منشآت عصر الولاة المعمارية
$\gamma r - \lambda r$	الفسيطاط
$\lambda F - 3 \lambda$	جامع عمرو ب <i>ن العاص</i>
٥٧ – ٢٧	العسكن
۸۳ – ۷۷	مقياس النيل بالروضة
	الفصبل السادس
	الدولة الطولونية
VA - FP	أحمد بن طولون
1.4-47	أبو الجيش خماروية
1.4-1.4	أبو العساكر جيش
1.8-1.5	أبِي موس <i>ىي</i> ھارو <i>ن</i>
3.1-7.1	شييان وسنقوط الدولة
	الفصل السابع
	آثار الدولة الطولونية
117-1.9	القطائع
117-117	البيمارسىتان العتيق
118-115	حصن الجزيرة
118	مسجد التتور
114-118	قناطر المياه
171 - 114	الجامع الطولوني
121 - 121	الدور الطولونية
141	كنيسة العذراء

الفصل الثامن الدولة الإخشيدية

131 - 731		ثورة محمد بن على الخلنجي
127 - 127		الحملات الفاطمية على مصر
101-122		ولاية محمد بن طغج
104-101		ولاية أبو القاسم أنوجور
108-108		ولاية على بن الإخشيد
301-901		ولاية كاغور
171-171		سقوط الدولة الإخشيدية
171 - 071		عمائر الدولة الإخشيدية
	الفصل التاسع	
	الدولة الفاطمية	
171 - 371		ظهور الشيعة
177 - 178		قيام الخلافة الفاطمية
771 - 111		فتح مصر
144 - 144		المعز لدين الله وابنه العزيز
111 - 111		الحاكم بأمر الله وابنه الظاهر
197 - 189		المستنصر والأزمات الاقتصادية
197 - 197		عصس نفوذ الوزراء
7.7-197		سقوط الدولة الفاطمية
7.7 - 7.7		سياسة الفاطميين في مصر
	الفصل العاشر	
	آثار الدولة الفاطمية	
71 7 - 7.9		مدينة القاهرة
Y19 - Y17		أسوار بدر الجمالي
TTV - T19		الجامع الأزهر
٧		

728 - 727	جامع الحاكم
337 - 437	مشبهد الجيوشي
707-759	الجامع الأقمر
Y09 - Y0Y	الجامع الأفخر
P 07 - VF7	جامع الصالح طلائع
777 77	الحمام الفاطمي
	ثبت المصادر والمراجع
787 - 787	أولا: المصادر والمراجع العربية
777 - 277	ثانيا: المراجع الأجنبية.
YAY	اللوحات

\bigcirc

الم الم الم

منذ أن خرجت علينا سلسلة الألف كتاب التي كانت تصدر بمعاونة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، بمجموعة الكتب القيمة التي تتناول تاريخ مصر الإسلامية مثل: كتابى مصر في فجر الإسلام، ومصر في عصر الولاة للأستاذة الدكتورة سيدة كاشف، وكتاب مصر في عصر الطولونيين، للأستاذ الدكتور حسن محمود، وكتاب مصر في عصر الإخشيديين للأستاذة الدكتورة سيدة كاشف، وكتاب مصر في عصر الفاطميين للمرحوم جمال الدين سرور، وكتاب مصر في عصر الأيوبيين للمرحوم الباز العريني، وكتاب مصر في عصر المماليك البحرية، للأستاذ الدكتور سعيد عاشور، وكتاب مصر في عصر المماليك البحرية، للأستاذ الدكتور سعيد عاشور، وكتاب العريني، وكتاب مصر في عصر الماليك الجراكسة، للأستاذ الدكتور إبراهيم طرخان، وكذا موسوعة تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثاني، الذي وضعه نخبة من المؤرخين العظام نذكر من بينهم المرحوم محمد عبد العزيز المرحوم محمد عبد العزيز مرزوق، والأستاذ الدكتور حسين مؤنس، والتي نفدت طبعاتها منذ زمن طويل.

منذ ذلك الوقت لم تحظ المكتبة العربية بكتاب جامع يتناول فى أسلوب مبسط تاريخ وآثار مصر الإسلامية منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر المملوكي سوى الموسوعة المصرية التي أصدرتها مؤخرا الهيئة العامة للاستعلامات وخصصت الجزء الثاني منها لتاريخ وآثار مصر الإسلامية وهو سفر ضخم يستحق التقدير إلا أنه بكل أسف ليس فى متناول أيدى أبناء هذا الجيل بسبب ارتفاع ثمنه، وياليت هيئة الاستعلامات قد عمدت إلى إصدار طبعة شعبية رخيصة التكلفة لتخدم الهدف الذي من أجله وضعت هذه الموسوعة الثقافية الضخمة.

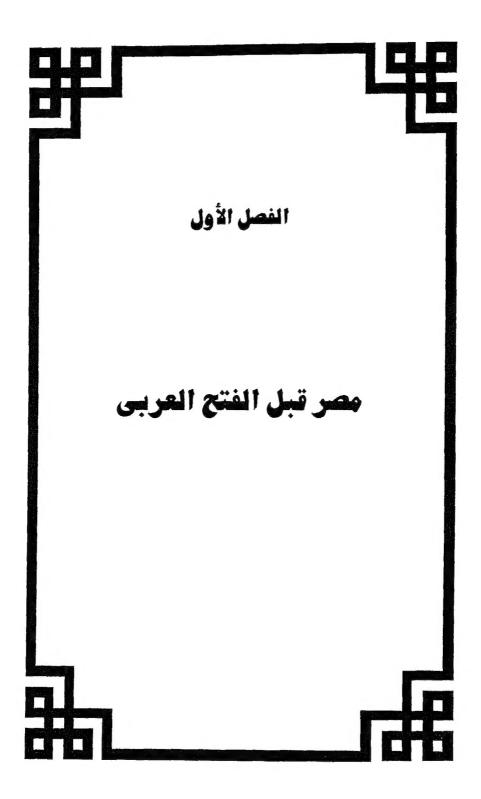
على أى حال كان من الضرورى التفكير في أبناء هذا الجيل خاصة بعد أن لمسنا مدى حاجتهم إلى مؤلف شامل ومبسط عن تاريخ وآثار مصر الإسلامية. بيد أن طول هذه الفترة الزمنية وكثرة الآثار التي وصلتنا منها حتمت علينا أن نقدم هذا العمل في جزأين خصص الأول منهما للفترة منذ الفتح حتى نهاية العصر الفاطمي والثاني للفترتين الأيوبية والملوكية.

ويقع الجزء الأول في عشرة فصول، خصص الأول منها للحديث عن أوضاع مصر قبل الفتح العربي لها والأسباب التي مهدت لهذا الفتح. والفصل الثاني لمراحل الفتح العربي لمصر وما صاحبه من أحداث انتهت بدخول مصر تحت لواء الإسلام. والفصل الثالث لنظم الحكم في عصر الولاة، والفصل الرابع لكيفية انتشار الإسلام واللغة العربية. والفصل الخامس لمنشآت عصر الولاة المعمارية، أما الفصل السادس فقد خصص لاستعراض أهم أحداث الدولة الطولونية، والفصل السابع لآثار هذه الدولة، والفصل الثامن لتاريخ الدولة الإخشيدية، والفصل التاسع لتاريخ الدولة الفاطمية والعاشر لأهم الآثار التي وصلتنا من عصر هذه الدولة التي حكمت مصر زهاء قرنين ويضع سنوات.

وقد حرصنا على تذييل هذه الدراسة بالعديد من الرسوم التوضيحية والصور الفتوغرافية لأهم الآثار الإسلامية التى تعرضنا لها فى هذا الجزء الذى ذيلناه أيضا بثبت لأهم المصادر والمراجع العربية والأجنبية التى استعنا بها فى هذه الدراسة فعسى أن نكون قد وفقنا فيما قد أخذنا على عاتقنا القيام به والله الموفق.

أحمد عبد الرازق أحمد

المعادي في مارس ١٩٩٣



من المعروف أن مصر كانت في بادئ الأمر إحدى الولايات التابعة للدولة الرومانية وذلك منذ انتصار أغسطس قيصر على كليوباترا في موقعة أكتيوم الشهيرة في سبتمبر سنة ٣١ ق. م (١) حيث تم له بعد ذلك الاستيلاء عليها نهائيا في العام التالى. ومن المعروف أيضا أنها صارت منذ القرن السابع الميلادي جزءا من الدولة البيزنطية التي رغم الإصلاحات التي قامت بها داخل مصر إلا أن البلاد ظلت فريسة للتدهور والانحلال لأن الإصلاحات البيزنطية كانت بهدف تنظيم استغلال مصر حتى يعم النفع على الدولة نفسها لا على المصريين أصحاب البلاد الأصليين. لذلك لا عجب أن صارت مصر أكثر الولايات البيزنطية استعدادا لقبول الإسلام والدخول في حوزة العرب لأسباب عديدة يمكننا أن نجملها في النقاط الرئسية التالية:

الأسباب الدينية:

كانت المشاكل الدينية قبل الفتح العربى غاية فى التعقيد وخاصة بعد أن تسربت المسيحية إلى داخل البلاد فى القرن الأول الميلادى، وأخذت فى الانتشار تدريجيا فى جميع أنحاء مصر اعتبارا من القرن الثانى الميلادى، وكان طبيعيا أن تلقى هذه الديانة الجديدة العداء من أباطرة الدولة البيزنطية الوثنيين الذين عمدوا إلى اضطهاد مسيحيى مصر اعتبارا من حكم الإمبراطور سفيروس (١٩٣ – ٢١١م) الذن قام بحملة اضطهاد واسعة النطاق فى غضون سنة ٢٠٢م ضد كل من يعتنق الدين المسيحى $\binom{(Y)}{Y}$, بل وعهد بعض الأباطرة مثل الإمبراطور ديكيوس $\binom{(Y27 - (Y57))}{Y}$ إلى إلزام المصريين فى سنة ٥٠٠م بضرورة الحصول على شهادة تثبت قيامهم بتقديم القرابين إلى الآلهة الوثنية $\binom{(Y)}{Y}$. وهكذا ظلت المسيحية منذ تسربها إلى مصر تلقى اضطهادا كثيرا وتسامحا قليلا حتى ولى عرش الإمبراطورية دقلديانوس $\binom{(Y57 - (Y57))}{Y}$ الذى بلغ اضطهاد المسيحيين على عهده أقصاه بدليل أن الكنيسة القبطية بدأت تقويمها المعروف بتقويم الشهداء بالسنة الأولى من حكم بدليل أن الكنيسة القبطية بدأت تقويمها المعروف بتقويم الشهداء بالسنة الأولى من حكم دقلديانوس أى بسنة $\frac{(Y57 - (Y57))}{Y}$

⁻⁻ إبراهيم نصحى، مصر في عصر الرومان، تاريخ العضارة المصرية، المجلد الثاني، القاهرة (بدون تاريخ)، ص ١١٠.

٢- رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة، قسطنطين، القاهرة ١٩٨٢، جـ٢، ص ٣٤.

٣- هـ. ايدرس بل، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، ترجمة عبد اللطيف أحمد على، محمد عواد حسين القاهرة ١٩٤٥، ص ١٧٣.

المسيحية أن تحرز بعض النصر ولاسيما بعد أن اعترف بها الإمبراطور قسطنطين الأول (٣٢٣ – ٣٣٣م) كأحد الأديان المسموح بممارستها داخل الإمبراطورية البيزنطية (٥) ثم اعقبت هذا النصر بنصر آخر بعد أن اتخذها الإمبراطور تيودوسيوس الأول (٣٧٩ – ٣٥٩م) دينا رسميا للدولة وأصدر مرسوما إمبراطوريا بذلك في فبراير سنة ٣٨٠م، ويناير ١٣٩٨م وأعقبهما بآخرين في سنتي ٣٩١ ، ٣٩٢م حرم فيهما ممارسة العبادات الوثنية على الإطلاق (٢).

بيد أن مصر لم تكن لتنعم طويلا بمسيحيتها إذ سرعان ماثار الجدل والنزاع بين المسيحيين أنفسهم حول صفات المسيح وطبيعته، وكان طبيعيا أن يتدخل الأباطرة لفض هذه المشاحنات الدينية عن طريق عقد المجامع الدينية التي بلغت أقصاها حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي بعد أن احتدم النزاع بين كنيستي الإسكندرية والقسطنطينية، إذ ذهبت الكنيسة المصرية إلى المناداة بأن المسيح طبيعة واحدة (المونوفيزت)، على حين أشارت كنيسة القسطنطينية بأن للمسيح طبيعتين(٧). لذلك دعا الإمبراطور مركيان (٤٥٠ – ٧٥٧م) إلى عقد مجمع ديني في خلقدونية بآسيا الصغرى في سنة ١٥١م انتهى إلى إقرار مذهب الطبيعتين واعتبر مذهب الطبيعة الواحدة كفراً وخروجا على الدين الصحيح^(٨)، كما قرر أيضا حرمان ديسقورس بطرك الإسكندرية من الكنيسة مما أفضى إلى اتخاذ الخلاف الديني في مصر شكلا قوميا إذ رفض ديسقورس ومسيحيو مصر ما أقره مجمع خلقدونية وأطلقوا على أنفسهم اسم الارثوذكس أى أتباع الديانة الصحيحة، وعرفوا أيضا باسم اليعاقبة نسبة إلى يعقوب البرادعي أسقف مدينة الرها في النصف انشاني من القرن السادس الميلادي الذي زار مصر ضمن بلاد الشرق لتنظيم كنائسها المونوفيزتية، أما أتباع الكنيسة البيزنطية فقد عرفوا بعد الفتح العربى باسم الملكانيين من كلمة ملك العربية وذلك، لاعتناقهم المذهب الملكي أو الإمبراطوري الذي ينادي بالطبيعتين. وعاد المصريون إلى التعرض من جديد لحركة اضطهاد واسعة النطاق من قبل الحكومة البيزنطية التي سعت

C. N. Cochrance, Christianity and Classical Culture, Oxford, 1940, p.178. - o

٦- رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة، ثيودوسيوس وأمبروز، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١١٨، ١٢٠، ١٣٩،
 ١٤٠.

٧- وهيب عطا الله جرجس، تعليم كنيسة الإسكندرية فيما يختص بطبيعة السيد المسيح، القاهرة ١٩٦١،
 ص ١٥ - ١٦ ؛ إسحق عبيد، الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبريرية، مع دراسة في مدينة الله، القاهرة ١٩٩٧، ص ٨٨.

A.A. Vasiliev, History of Byzantine Empire, Madison, 1961, I, pp104-106--A

على إجبار المصريين على اعتناق المذهب الإمبراطوري، وجرت أحداث كبيرة واضطهادات كثيرة تحملها المصريون بالمقاومة الإيجابية أحيانا، وبالهرب إلى المعابد والأديرة وبهجر المزارع والقرى أحيانا أخرى (٩) إلى أن تمكن هرقل من الثورة ضد الإمبراطور فوكاس (٢٠٢ - ٦٠٢م) وساعد المصريين قائدة نيكيتاس الذي وكل إليه هرقل الاستيلاء على مصر لقطع الغلة عن القسطنطينية وتم تتويج هرقل إمبراطورا في سنة ١٠٦م ورحب المصريون بمقدم جنده على أمل أن يكون حكم هرقل (٦١٠ - ١٤٢م) أخف وطأة من حكم من سبقه من الأباطرة، ولعلهم كانوا يعتقدون أيضا أن عهده سيكون نهاية للاضطهادات وسفك الدماء التي طالما عانوا منها، بيد أن الفرس سرعان ما نجحوا في غزو مصر في سنة ٦١٦م^(١٠) وذلك في عهد ملكهم كسرى الثاني حيث نعم المصريون طوال مدة حكمهم الذي امتد إلى سنة ٦٢٩م بالصرية الدينية عين أثناها البطرك بنيامين على كنيسة الإسكندرية ودان اسلطانه الروحي أهل البلاد بعد أن أعاد للكنيسة المصرية مركزها وعاش في الإسكندرية هادئا مطمئنا إلى أن تمكن هرقل من طرد الفرس في سنة ٦٢٩م واستعاد من جديد أملاك الدولة البيزنطية (١١). وكما عمل هرقل على إنقاد الدولة البيزنطية من الفرس، عمل أيضنا على إنقاذها من الخلافات الدينية حول طبيعة المسيح، ولذلك أصدر صورة توفيق Mono Thelma تقضى بأن يمتنع الناس عن الكلام في طبيعة المسيح وصفته وأن يعترفوا جميعا بأن له إرادة واحدة (١٢). وغاب على هرقل أن أهل مصر لن يقبلوا المذهب الجديد، ومن ثم فقد عاد الاضطهاد الديني بكل قسوته وعنفه حيث قضى المصريون ما يقرب من عشر سنوات وهي المدة التي مرت بين طرد الفرس ودخول العرب، تحت الإرهاب والبطش الذي سلطه الحاكم البيزنطي قيرس، المعروف عند مؤرخي العرب باسم المقوقس، والذي أرسله هرقل سنة ١٦٢م إلى مصدر ليكون على رأس السلطتين الدينية والسياسية بها مما أضطر البطرك بنيامين إلى الهرب في الصحراء والاختفاء تماما توقعا لما سيحل به ويطائفته من الشدائد حتى دخل العرب مصر^(١٢). وقد عمل قيرس بكل وسائل الترغيب والترهيب لضم المصريين إلى مذهب الدولة إلا أن أغلب المصريين

٩- سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الولاة، ص ٩ - ١٠.

١٠- بل، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، ص ٢٥٣.

۱۱- الباز العريني، الدولة البيزنطية، القاهرة ۱۹۲۰، ص ۱۱۳؛ أومان، الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة مصطفى بدر، القاهرة ۱۹۵۳، ص ۱۰۵ - ۱۰۰ ؛ حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة ۱۹۸۳، ص ۳۳.

١٢ – سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الولاة، ص ١٠.

١٣- إبراهيم نصحي، مصر في عصر الرومان، ص ٢٢٥.

ثبتوا على مذهبهم ولم يزدهم الإرهاب إلا تمسكا بعقيدتهم فيما عدا فئة قليلة ممن لم يستطيعوا الهرب، اعتنقت مذهب الدولة، وعبثا حاول هرقل من جديد رتق الصدع ولم شمل رعاياه في وحدة دينية، إلا أن الأمر بدا واضحا أن مصر قد انفصمت تماما من الناحية الروحية عن الدولة البيزنطية، وتطورت المسألة الدينية إلى مسألة قومية بعد أن قطع سيف قيرس آخر ما كان يربط المصريين بالدولة البيزنطية من مظاهر الولاء (١٤).

الأسباب الاقتصادية:

كذلك كانت النواحي الاقتصادية أكثر سوءا، فمن الواضح أن مصر كانت بالنسبة للدولة البيزنطية بمثابة سلة الخبز التي تمد الدولة بالمؤن اللازمة، ولذلك حرص البيزنطيون على أن يكون النظام الإداري والاقتصادي في مصر في خدمة هذا الغرض، فقد كانت العلاقة بين مصر والقسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية مادية بحتة، إذ لم يكن يعنى الدولة البيزنطية إلا ما ترسله مصر من غلال وأموال حيث ابتكروا الوسائل لاستغلال موارد البلاد إلى أبعد الحدود. وأثقلت الضرائب كواهل المصريين من فلاحين في الوقت الذي أعفى منها كبار الملاك مما أثار شكوى الفلاحين وتذمرهم، بل ودفعتهم المظالم الكثيرة التي تعرضوا لها أثناء جباية الأموال إلى السعى لوضع أنفسهم تحت حماية أمير من الأمراء، وهو ما يعرف بنظام الحماية، ولكن ذلك كان أشبه بمن يلقى بنفسه في النهر هربا من الأسد فيتلقفه التمساح (٥٠٠)، إذ بمضى الزمن أصبحت الأرض ملكا للأمير الذي وتكونت بذلك الإقطاعات الكبيرة الموزعة بين عدد من الأسر الغنية القوية، وأصبحت البلاد في القرن السابع الميلادي تحت نظام أشبه بالنظام الإقطاعي. كذلك عمل التقسيم الإداري لمصر إبان هذه الفترة على إضعاف سلطة الدولة بها، فقد كانت مصر مقسمة إلى خمسة أقسام إدارية كبرى هي:

- الإسكندرية، وهي أهم هذه الاقسام وترتبط بالدولة البيزنطية ارتباطا وثيقا، وكان يقيم فيها الحاكم البيزنطي.
 - شرق الدلتا،
 - غرب الدلتا وكان يسمى بليبيا.

G.Wiet, L' Egypte musulmane, Le Caire, 1932, p.116. -\ &

٥١ - محمد حمدى المناوى، مصر في ظل الإسلام من الفتح العربي إلى نهاية العصر القاطمي، القاهرة
 ١٩٧٠، جـ١ ص٧.

- مصر الوسطى ويدخل فيها إقليم الفيوم.
- مصر العليا وكانت تمتد حتى أخر حدود مصر الجنوبية (١٦).

وكان يحكم كل إقليم أمير يعرف في المصطلح البيزنطي باسم الدوق^(۱۷). وكان يكاد أن يكون مستقلا بإقليمه ويجمع بين يديه السلطتين المدنية والعسكرية، بل ويعتبر الرئيس الأعلى للإدارة والقضاء والشرطة، ومن الواضح أن الهدف الأساسي من وراء هذا التقسيم هو إضعاف مقاومة أهل البلاد من المصريين والمحافظة على الأمن والنظام في البلاد، مما أفضى في النهاية إلى قصم الوحدة الإدارية في البلاد وعمل على إضعافها.

الأسباب العسكرية:

وقد ترتب على هذا التقسيم الإداري لمصر تحت حكم الدولة البيننطية أن أصبح لكل إقليم جيشه الخاص الذي يخضع لسلطة الدوق، وهذا يعنى أن جيش مصر كان جيشا إقليميا مهمته الدفاع عن الجهات التي يرابط فيها، وكان جنوده بالتالي مرتبطين بالإقليم المقيمين به، وكان معظمهم من المصريين المجندين بعد أن قامت الدولة البيزنطية بتغيير سياستها التي اتبعتها في أول الأمر وهي عدم تجنيد المصريين في الجيش، إذ تشير أوراق البردي على أن معظم الجنود في هذا الجيش قبيل الفتح العربي كانوا من المصريين وأنهم كانوا يجندون إما بالاقتراع أو بالتطوع أو بالوراثة. كذلك لم يكن لهذا الجيش من الصفات العسكرية إلا حظ ضبئيل بعد أن أغفل التدريب العسكري ونشر روح النظام بين الجنوب بدليل اتخاذ أفراد الجيش لأنفسهم مهنا وحرفا إلى جانب مهنة الحرب. إذ يفهم من الوثائق البردية أنه كان يسمح لهم بالاشتغال بالزراعة أو التجارة، كما كانوا يعملون بالقرب من بالادهم. كذلك كانت مهمة أفراد الجيش الرئيسية هي مساعدة الموظفين في أعمالهم، والقضياء على قطاع الطرق، وإخماد الثورات الدينية، والاشتراك في جباية الضرائب (١٨). لذلك كان من الطبيعي أن يشارك أفراد هذا الجيش أهل البلاد من المصريين فيما يحسون من آلام وفي كراهيتهم للبيزنطيين، وإذا فقد كانت تعوزه الوحدة والانسجام رغم أنه كان تحت رئاسة «سيد جند الشرق» ومقره القسطنطينية، مع هذا فلم يكن قائد أعلى في مصر بل كان يخضع لخمسة قواد كلهم على قدم الساواة كما سبق أن أشرنا

١٦ - سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الولاة، ص ١٣.

١٧- بل، مصر من الإسكندر، ص ٢٣٩.

١٨ - سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الولاة، هر، ١٩.

من قبل، لذلك عندما جاء العرب فاتحين لمصر لم يقاتلوا جيشا موحدا، بل كان جيش كل إقليم ينتظر ظهور العرب في إقليمهم ليدافعوه (١٩).

الأسباب الاجتماعية:

ومن العوامل التى عجلت أيضا بالقضاء على الحكم البيزنطي في مصر ومهدت السبيل للفتح العربي الظروف الاجتماعية التي كان يمر بها أهل البلاد من المصريين، فقد كانت الإسكندرية وبقية أجزاء البلاد على طرفي نقيض. فالإسكندرية كانت بمثابة مدينة يونانية أجنبية عن مصر، لدرجة أن سكان البلاد من المصريين كانوا يعدون التوجه إليها رحيلا عن مصر وخروجا منها، إذ اشتهرت هذه المدينة بالبذخ والثراء (٢٠٠) على العكس من بقية أجزاء البلاد التي كانت بمثابة أقاليم زراعية تتقاسم فيها أسر قوية، على حين أصبح الفلاح قنًا، كما سبق أن نوهنا من قبل، تحت حماية الملاك الأقوياء الذين ابتزوا أموال البلاد دون أي محاولة من جانبهم لتوفير الرفاهية للرعية أو إصلاح الأمور بالبلاد لذلك كان الحكم حكم غرباء لا يعتمد إلا على القوة، ولا يحس بالعطف على الشعب المحكوم (٢٠٠). وكانت السلطات البيزنطية تفرض قبضتها القوية على الإسكندرية عاصمة البلاد ومنف وحصن بابليون وبعض المدن الحصينة الأخرى، وكان رجال الجيش ينتشرون في كل مكان إلى جانب جباة الضرائب لجمع الأموال بالقوة ولإظهار هيبة السلطة الحاكمة، في الوقت الذي كان ينعم فيه تجار الروم واليهود حيثما يحلون بحماية هؤلاء الجند، منافسين بذلك التجار المصريين منافسة شديدة.

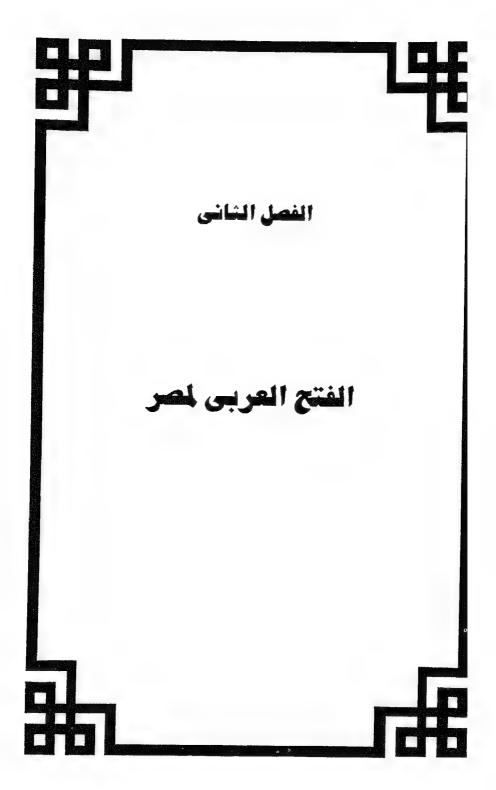
وهكذا تعاونت كل هذه الأسباب جميعا على إضعاف مصر فأهملت الأرض وبارت التجارة وانتشر القحط في أنحاء البلاد، ومع هذا فقد صحب هذا التدهور والانحلال يقظة الروح القومية بين المصريين، وقد تجلت آثار هذه اليقظة في ازدهار اللغة القبطية بل ومزاحمتها للغة اليونانية (٢٢)، كما هيأت هذه الأسباب البلاد في أوائل القرن السابع الميلادي لهذا الحدث العظيم ولطفرة جديدة بالبلاد، ونعني بها الفتح العربي الإسلامي لمصر، وانتقال السلطة من أيدى البيزنطيين إلى أيدى العرب. فكيف كان ذلك، وما هي الأسباب الرئيسية لفتح مصر؟.

١٩ - محمد حمدي المناوي، مصر في ظل الإسلام، ص ٤٠

R.L. Devonshire, L' Egypte musulmane et les fondateurs de ses monuments, Le -Y. Caire, 1982, p.18.

٢١- بل، مصر من الإسكندر، ص ٢٤٤ - ٢٤٦.

٢٢ - محمد حمدي المناوي، مصر في ظل الإسلام، ص ٥٠



اختلفت الآراء وتعددت الأسباب في فتح مصر، فقد روى بعض المؤرخين أن عمرو ابن العاص أشار على الخليفة عمر بن الخطاب بعد الاستيلاء على بيت المقدس في سنة الاهـ / ١٣٨٨م بضرورة فتح مصر (۱) بيد أن الوقت لم يكن ملائما لذلك مما دفع عمرو بن العاص إلى معاودة عرض الفكرة من جديد على الخليفة في خريف العام التالى سنة العاص إلى معاودة عرض الفكرة من جديد على الخليفة في خريف العام التالى سنة ١٨هـ / ١٣٩٩م عند حضوره إلى الشام لتسلم بيت المقدس من بطركها صفرونيوس وذلك في الجابية إحدى القرى القريبة من دمشق (۱) وخوفه من أن الأرطبون أو الأريطيون الحاكم البيزنطي لبيت المقدس قد لجأ إلى مصر وأخذ في حشد الجنود بها لاستعادة بيت المقدس من أيدى العرب، لذا ينبغي الإسراع بالقضاء عليه عن طريق الاستيلاء على مصر الذي سوف يزيد من قوة المسلمين ببلاد الشام في نفس الوقت، فأذن له الخليفة عمر بعد تردد وندب معه ثلاثة آلاف وخمسمائة أو أربعة آلاف رجل، وأمره بالمسير على أنه إذا لحقه كتاب من الخليفة يأمره بالعودة، فعليه أن يعود إذا لم يكن قد دخل حدود مصر، وإلا فليسر في طريقه إن جاءه الكتاب بعد اجتياز المدود (۱).

كما روى البعض الآخر أن فكرة فتح مصر ترجع إلى الخليفة عمر بن الخطاب نفسه إذ يذكر المؤرخ ابن عبد الحكم نقلا عن الليث بن سعد أن عمر كتب إلى عمرو بن العاص بعد فتح الشام ما نصه «أن اندب الناس إلى المسير معك إلى مصر، فمن خف معك فسر به وبعث مع شريك بن عبيدة، فندبهم عمرو فأسرعوا إلى الخروج معه»(٤).

وذهب فريق ثالث إلى القول بأن عمرو بن العاص سار سرا إلى مصر دون استئذان الخليفة، فأرسل إليه عمر بن الخطاب يؤنبه ويطلب منه إذا جاءه كتابه قبل أن يجتاز حدود مصر، لأنه كان مصر فليرجع، وأن عمرا حبس الكتاب ولم يفتحه إلا بعد أن دخل حدود مصر، لأنه كان يعلم مسبقا بما فيه (٥).

۱- ابن عبد الحكم، كتاب فتوح مصر وأخبارها، عنى بنشره وتصحيحه هنرى ماسيه، القاهرة ١٩١٤،
 ص١٥.

٢- محمد حمدي المناوي، مصر في ظل الإسلام، ص ٩.

٣- المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة بولاق ١٢٧٠هـ، ج١، ص ٢٨٨.

٤- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٥٠؛ البلاذري، كتاب فتوح البلدان، ليدن ١٨٦٦، ص ٢١٢؛ سعيد بن بطريق المعروف باوتيخا، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت ١٩٠٥، ١٩٠٩، جـ٢، ص١٩٠.

٥- البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢١٢؛ الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، بيروت ١٩٠٨، ص ٧ - ٨؛
 المقريزي، الخطط، جـ ٢١ ص ٢٨٨.

بيد أننا لا نستطيع أن نسلم بمثل هذه المزاعم لأن عملا مثل فتح مصر لا يمكن أن يتم بدون اقتناع تام من قبل الخليفة، وخاصة أن العرب في ذلك الحين كانوا قد أزالوا تقريبا ملك الأكاسرة في فارس عقب انتصارهم في موقعة القادسية في أواخر سنة ١٦هـ/ ١٣٧٨م واستيلائهم على عاصمتهم المدائن، ونجحوا في الاستيلاء أيضا على بلاد الشام وفلسطين، وكانت الضرورة الحربية تحتم عليهم فتح مصر لتأمين فتوحاتهم في الشام، وكذا حماية المدينة نفسها مركز الخلافة لأنها قريبة من القلزم ولا يبعد أن يرسل الروم حملة من تلك الناحية تنتقم لما حل بممتلكاتها في الشام. يضاف إلى هذا أن مصر والشام غالبا ما خضعت في العصور المختلفة لقيادة موحدة لأن كليهما يتمم الآخر ومن الصعب في الواقع اعتبار الحدود بين البلدين حدا منيعا فاصلا، هذا عدا أن كلا من البلدين كان يقع على طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب وكانت تربطهما مصالح تجارية وحربية واحدة (١).

ويجب علينا أيضا ألا نغفل أن العرب كانوا على علم تام بثراء مصر وخصبها، خصوصا وقد جاء إليها كثير منهم للاتجار في أيام الجاهلية مثل عمرو بن العاص (٧) وعثمان بن عفان (٨) والمغيرة بن شعبة (٩)، ولا يبعد أن كثيرا من الأعراب والتجار العرب كانوا يفدون إلى الصعيد عن طريق البحر الأحمر ووديان الصحراء الشرقية بدليل أن المؤرخ والجغرافي إسترابون ذكر أن مدينة قفط من صعيد مصر تعتبر نصف عربية (١٠).

وكان العرب أيضا على يقين تام من معاناة أهل مصر من الاحتلال البيزنطى والعداء الدينى بين المصريين والروم، بل كانوا يعرفون أن الأقباط من أهل مصر سيقفون على الأقل موقف الحياد بينهم وبين البيزنطيين إن لم يكونوا عونا للعرب المسلمين، ولابد أن كل ذلك كان معروفا للخليفة ولقواده قبل خوض غمار فتح مصر.

كذلك ليس من المستبعد أن يكون عمرو بن العاص هو الذى سبق إلى إبداء وجهة النظر فى ضرورة الإسراع بفتح مصر وحسنها للخليفة، ولعله سعى أيضا ليكون قائدا للحملة؛ وذلك لعلمه التام بمصر وأحوالها من جهة، وفى محاولة للحصول على ميدان جديد يظهر فيه نشاطه من جهة أخرى. ومن المرجح أيضا أن الخليفة عمر قد أرسل بالفعل إلى عمرو بن العاص كتابا يأمره فيه بضرورة العودة فى حالة عدم اجتيازه للحدود المصرية

٣- سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، القاهرة ١٩٧٠، ص ١٠.

V-1 ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٥٣؛ الكندى، كتاب الولاة، ص V-V.

٨- السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة ١٣٢٧هـ، ج١ ، ص ٩٢.

٩- سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص١٠.

Encyclopédie de Islam, art. Kibt, II, p.991. - 1.

خوفا من عدم قدرة الجيش على مواصلة السير إليها في المدة التي اعتبرها الخليفة كافية لاجتياز الحدود حرصا منه على عدم التضحية بجيش عمرو.

خلاصة القول أن عمرو بن العاص خرج من قيسارية بفلسطين على رأس جيش صغير يتراوح ما بين أربعة آلاف مقاتل أو ثلاثة آلاف وخمسمائة (١١) في أواخر سنة ١٨هـ/ ٦٣٩م، متخذا الطريق الذي سلكه أغلب غزاة مصر، وهو طريق الصحراء الشرقية مساحلا للبحر الأبيض المتوسط، ومبتعدا في الوقت نفسه عن فروع النيل حتى حط الرحال في العريش التي استولى عليها في ذي الحجة سنة ١٨هـ/ ديسمبر ٦٣٩م، واحتفل هناك بعيد الأضحي(١٢) ليواصل بعدها المسير إلى الفرما أو مدينة بلوز القديمة، شرقي بورسعيد الحالية، ومفتاح مصير من الشرق، حيث لقى هناك أول مقاومة من الجنود الروم استوقفته شهرا كاملا، ولكنه استطاع التغلب عليها في أوائل سنة ١٩هـ/ ١٤٠م، ثم واصل السير بعد أن تم له تأمين طريق العودة في حالة الهزيمة، حتى بلغ بلبيس في النصف الأول من شهر المجرم سنة ١٩هـ/ يناير ١٤٠م فحاصرها أيضا شهرا حتى تمكن من الاستيلاء عليها بعد قتال شديد مع قوات الروم خسر فيه العرب عددا ليس بالقليل، كما خسر البيرنطيون ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير (١٢)، ويذلك انفتح الطريق على مصراعيه أمام العرب إلى رأس الدلتا وحصن بالليون الذي بناه الإمبراطور تراجان^(١٤) (٩٨ - ١١٧م) والمعروف في المصادر العربية باسم قصر أو حصن الشمع(١٥)، فواصل عمرو وجيشه السبير متغلبا على ما يصادفه من مقاومات حتى بلغ أم دنين، وهي قرية كانت تقع على النبل شمال حصن بابليون (١٦). ويبدو أن الروم تنيهوا حينذاك لخطورة الموقف حيث سارع قبرس إلى حفر خندق حول حصن بالليون وعمل على تعبئة الجيوش البيزنطية به لمواجهة العرب، حيث نشب قتال شديد بين المسلمين والروم الذين تحصنوا داخل الحصن مما اضطر عمرو بن العاص إلى طلب النجدة من الخليفة عمر بن الخطاب، والتوجه إلى الفيوم انتظارا لوصول المدد(١٧)، حيث قضى في غزوه بضعة أسابيع قدم خلالها المدد الذي بلغ

١١- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٥١؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢١٢.

١٢ - محمد حمدى المناوى، مصر في ظل الإسلام، ص ١٠.

١٥٩- الفرد بتلر، فتح العرب لمصر، تعريب محمد فريد أبق حديد، القاهرة ١٩٤٦، ص ١٥٩.

Devonshire, L'Egypte musulmane, p.15. - \ \£

Wict, L'Egypte musulmane, p.109. -10

١٦- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٢٨٩؛ حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص ٣٣٤.

١٧- الفرد بتار، فتح العرب لمصر، ص ١٦٢ وما بعدها.

عدته أربعة آلاف رجل(١٨)، وفي قول آخر اثنا عشر ألفا(١٩) على رأسهم الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت. ويعد وصنول المدد إلى عمرو تقابل مع الروم في معركة رائعة تجلت فيها عبقرية عمرو الحربية هي معركة عين شمس التي ذكرها بتلر باسم هليوپوليس وذلك في رجب سنة ١٩هـ/ أغسطس ١٤٠م، وكانت خطة عمرو أن يغرى الروم بالخروج من حصن بابليون ليقاتلوه على أرض مفتوحة بعيدا عن جدران الحصن، فلما خرجت القوات البيزنطية من الحصن، سار عمرو مع معظم جيشه للقاء الروم بعد أن أرسل تحت جنح الظلام كتيبتين من جنده إحداهما إلى أم دنين، والأخرى إلى جبل المقطم قرب موضع قلعة الجبل اليوم، وأمرهما بمهاجمة مؤخرة الروم في الوقت المناسب (٢٠)، وبعد قتال عنيف بين الفريقين دارت خلاله الدائرة على القوات البيزنطية مما اضطرهم إلى الفرار إلى داخل الصصن والتحصن بداخله من جديد (٢١) الأمس الذي دفع العرب إلى ضسرب الحصار حوله بضعة أشهر ضعفت خلالها الروح المعنوية لقوات الروم، ولم يعد أمامهم سوى التفكير في مفاوضة العرب على فك الحصار في مقابل أن يبذلوا لهم مبلغا من المال، وقد أرسل قيرس إلى عمرو من جزيرة الروضة وفدا من بينهم أسقف بابليون الملكاني وطلبوا من عمرو أن يرسل إليهم رجلا لمفاوضتهم بيد أن عمرو رفض هذا العرض وخيرهم بين أشياء ثلاثة: الدخول في الدين الإسلامي، أو دفع الجزية، أو القتال، ومع هذا فقد عاد قيرس إلى المفاوضة من جديد مما اضطر عمرا إلى أن يبعث إليه بوفد على رأسه عبادة ابن الصامت، الذي عرض عليه قيرس ان يبذل لكل فرد منهم دينارين، وأن يبعث إلى خليفتهم بألف دينار في مقابل انسحاب العرب وعودتهم إلى بلادهم(٢٢). وكان من الطبيعي أن يرفض عمرو هذا العرض، واستؤنف القتال من جديد بين الفريقين حتى سلم الروم في النهاية صاغرين(٢٣)، ويقال أيضا أن العرب فتحوا الحصن عنوة دون أن تحدث مفاوضات ۱۸- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٥٦؛ القريزي، الخطط، جـ١ ص ٢٨٩؛ Chronique de Jean (٢٨٩ eveque de Nikiou, Paris 1882, p.554.

eveque de Nikiou, l'alis 1602, p.354. المحرين، فتوح البلدان، ص ٢١٣؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص

۲۸۹ ,

٢٠ محمد حمدي المناوي، مصر في ظل الإسلام، ص ١٢ - ١٣.

٢١ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٢٨٩.

٢٢- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٦١.

٢٣- القريزي، الخطط، جـ١، ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

وذلك بفضل بسالة الزبير بن العوام (٢٤) الذي تسور الحصين على سلم وتمكن من فتح بابه أمام العرب. ثم عقد العرب مع المصريين معاهدة عرفت باسم معاهدة بابليون الأولى في سنة ١٩هـ/ ١٤٠م، أجازها الخليفة عمر بن الخطاب. وهذه المعاهدة كانت على درجة بالغة من الأهمية، بسبب أن بابليون كانت من أهم المراكز المصرية إن لم تكن أهمها جميعا نظرا لموقعها على رأس الدلتا، ولكونها على الطريق الموصل إلى الإسكندرية عاصمة البلاد منذ العصر الإغريقي(٢٠)، بمعنى أن بابليون كانت في الواقع بمثابة قلب مصر وعاصمتها الحقيقية وإن كانت الإسكندرية هي العاصمة الرسمية. وبمقتضى هذه المعاهدة أصبح المصريون أهل ذمة يؤدون الجزية (٢٦)، كما نصت المعاهدة على أن قيمة الجزية تتوقف على مقدار ارتفاع أو انخفاض ماء النيل في كل عام، وأن تدفع الجزية على ثلاثة أقساط في السنة (٢٧). ويالرغم من هذا الصلح فقد اشترط قيرس ضرورة موافقة الإمبراطور هرقل عليها وإلا عادت الحالة بين الروم والعرب إلى ما كانت عليه (٢٨). وبالفعل أسرع قيرس بالسيفر إلى الإسكندرية حيث بعث إلى الإمبراطور شيارحا الموقف، لكن هرقل ثار على قيرس ونائبه وأرسل إليهما مويخا على تخاذلهما في الدفاع عن البلاد، ودعا قيرس للقدوم عليه(٢٩)، وهناك في القسطنطينية حاول قيرس أن يوضح للإمبراطور أن المقاومة ضد المرب باتت مستحيلة وأن الجزية يمكن تدبيرها عن طريق فرض ضرائب جديدة على متاجر الإسكندرية وسلعها، كما لوح للإمبراطور بأنه عرض على عمرو بن العاص أن يتزوج ابنة هرقل إيدوسيا أملا في اعتناق عمرو للمسيحية، بيد أن هرقل أصر على موقفه واتهم قيرس بالخيانة والإهمال والجبن والكفر وعزله من منصبه وعهد به إلى عدوه اللدود حاكم القسطنطينية الذي أنزل به المهانة ونفاه من البلاد. وصدرت الأوامر إلى القوات البيزنطية بالتجمع لمحاربة العرب تلك الفئة القليلة، وألا يرضوا كالقبط أو المصريين بالذلة ودفع الجزية للعرب(٢٠٠)، وبالفعل تجمعت حاميات الروم بالإسكندرية لمحاربة العرب

٢٤- البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٢١٣ - ٢١٥؛ المقريزى، الخطط، جـ ١، ص ٢٩٠؛ إبراهيم أحمد العدوى، مصر الإسلامية درع العروبة رباط الإسلام، القاهرة ١٩٩٧، ص ٤٣.

٢٥- سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ١٧٠.

٢٦ - سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الولاة، ص١٥٠.

٢٧- إبراهيم أحمد العدوى، مصر الإسلامية، ص ٤٣.

٢٨ - المقريزي، الخطط، جدا، ص ٢٩٣.

٢٩ - ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٦٤ - ٦٥؛ المقريزي، الخطط جـ١، ص ٢٩٢.

٣٠- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٦٤ - ٦٥.

المسلمين. وكان على عمرو بن العاص أن يتجه شطر الإسكندرية واستولى في طريقه إليها على بعض المدن والمواقع الحصينة (٢١) حتى بلغها في النهاية، وكان كل من العرب والروم يدركون مدى أهمية الإسكندرية، فالروم يعلمون علم اليقين أنه إذا ضاعت الإسكندرية، ضاعت مصر معها إلى الأبد، والعرب يعرفون بدورهم أنه إذ لم يتم الاستيلاء عليها، فلا فائدة من استيلائهم على مصر، لأن الإسكندرية ستظل شوكة في جانبهم ينفذ منها البيزنطيون إلى البلاد في أي وقت لما تمتاز به من موقع حصين، وخاصة أن الروم كانوا يسيطرون على البحر بأساطيلهم وكان المدد يأتى إلى الإسكندرية في أي وقت دون مدافع، كما كانت أسوار الاسكندرية ضخمة حصينة يحيط بها من ناحية البحر البحيرات وترعة الإسكندرية. لذلك رأى عمرو بثاقب بصره أنه من العبث مهاجمة المدينة عنوة وخاصة أن حاميتها كانت تربو على الخمسين ألف مقاتل، كما أيقن أن حصارها قد يطول، فعمد إلى ترك جزء من جيشه ليقوم بمهمة الحصار، وتوجه بالجزء الباقي لإخضاع ما بقي من مدن مصر السفلى والوسطى (٢٢)، وشاءت الأقدار أن يموت هرقل إمبراطور الدولة البيزنطية في ربيع الأول سنة ٢٠هـ/ فبراير ١٤١م بعد أن عزم على الخروج لمباشرة حرب الإسكندرية بنفسه، مما كان له أكبر الأثر في إضعاف شوكة الروم، كما أن الأمور في الإسكندرية نفسها كانت أسوأ بسبب تنازع القواد ولانقسام الرأى السكندرى أثناء حصار العرب للمدينة، بل كان حرصهم على القتال فيما بينهم أعظم من حرصهم على قتال العرب(٣٣). لذلك كله اضطرت الإمبراطورة مارتين الوصية على العرش بصفتها أم هرقلوناس إلى العمل على إنهاء الحرب وأمرت بإطلاق سراح قيرس وكلفته بالعودة إلى مصر وعقد الصلح مع العرب المسلمين (٢٤)، فعاد قيرس إلى الإسكندرية وتلقاه أهلها بالحفاوة والسرور، في الوقت الذي عاد فيه إلى سياسة اضطهاد الأقباط الأرثوذكس كمحاولة منه لإخفاء الهدف الرئيسى من عودته وهو مفاوضة العرب على الصلح حيث ذهب بالفعل إلى بابليون والتقى

٣١ اشتبك عمرو مع الروم في نقيوس الواقعة على الشاطئ الشرقى لفرع النيل الغربى بالقرب من منوف الحالية، ثم في سلطيس وصحتها سنطيس جنوبي دمنهور، وفي حصن الكريون أمام الإسكندرية، انظر السيد عبد العزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب، تاريخ الدولة العربية، الإسكندرية (بدون تاريخ)، ص ٢١٩.

٣٢ - محمد حمدى المناوى، مصر في ظل الإسلام، ص ١٣ - ١٤.

٣٣- الفرد بتار، فتح العرب لمسر، ص ٢٢٨.

٣٤ سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ١٣.

بعمرو بن العاص عارضا عليه الصلح، ولم يكن أمام عمرو سوى الترحيب بهذا العرض السخى، وعقدت معاهدة بابليون الثانية تمييزا لها عن معاهدة بابليون الأولى، التى اصطلح أيضا على تسميتها بمعاهدة الإسكندرية لأنها كانت خاصة بأهل الإسكندرية وذلك في سنة ٢٠هـ/ ٢٤١م وقد أمدنا حنا النقيوسي(٢٥) بشروط هذا الصلح الثمانية:-

۱- أن تعقد هدنة بين الطرفين مدتها أحد عشر شهرا تنتهى فى ۲۷ شوال سنة
 ۲۱هـ/ ۲۸ سبتمبر ۲۶۲م.

٢- أن يدفع الجزية كل من دخل في هذا العقد.

٣- أن يبقى العرب فى مواضعهم ولا يسعوا لقتال الإسكندرية وأن يكف الروم عن القتال.

٤- أن يتم جلاء حامية الروم عن الإسكندرية بأموالهم ومتاعهم عن طريق البحر، أما الذى يرحل عن طريق البر فعليه أن يدفع كل شهر جزءا معلوما ما بقى فى أرض مصر.

٥- ألا يسعى الروم إلى العودة إلى مصر أو محاولة استردادها.

٦- ألا يستولى المسلمون على كنائس المسيحيين أو يتدخلوا في أمورهم الدينية.

٧- أن يباح لليهود الإقامة في الإسكندرية.

٨- أن يقدم الروم للعرب ١٥٠ جنديا و ٥٠ مدنيا كرهائن لتنفيذ شروط هذا الصلح.

وعقب سقوط الإسكندرية امتد نفوذ العرب تدريجيا إلى سائر الأقاليم في مصر، إذ سار عمرو بن العاص إلى برقة لتأمين مركز العرب في مصر وتم له فتحها وفرض عليها الجزية (٢٦)، كما غزا في سنة ٢٢هـ/ ٦٤٣م أو السنة التالية لها طرابلس (٣٧) وفكر بعد استيلائه عليها أن يسير إلى بلاد المغرب ليستولى عليها إلا أن الخليفة عمر بن الخطاب

Chronique de Jean eveque, p. 575; - To

L. Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1936, p.11.

٣٦- ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار المغرب، تحقيق ليفي بروفنسال وكولان، جـ١، ص ٨؛ البلاذرى، فتوح البلدان، جـ١، ص ٢٦٤.

٣٧- البكرى، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، الجزائر ١٩١١، ص ٣٣١، ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، طبعة تورى، نيوهافن ١٩٢٢، ص١٩٧١.

نهاه عن ذلك (٢٨) لتخوفه من تفرق المسلمين في بلاد كثيرة لم تثبت أقدامهم فيها بعد. لذلك يمكن القول بأن فتح عمرو لبرقة كان بمثابة خاتمة المطاف للعمليات الحربية التي قام بها عمرو بن العاص في مصر باستثناء تأمين الحدود الجنوبية لوادي النيل، إذ يقال أنه بعث عبد الله بن سعد بن أبي السرح على رأس حملة إلى بلاد النوبة في غضون سنة ٢٠هـ/ ١٦٤م وقيل أيضا في السنة التالية لها، بيد أن هذه الحملة منيت بالفشل ولم تستطع شبيئا إزاء مملكة النوية لذلك اضبطر عمرو إلى استدعاء عبد الله بن سبعد، ليعود إلى غزو النوبة من جديد في سنة ٣١هـ/ ١٥١م، أثناء ولايته على مصر (٢٩) من قبل الخليفة الثالث عثمان ابن عفان، وقد وصلت حملته إلى دنقلة حيث قاتل هناك قتالا عنيفا انتهى بعقد هدنة بين مصر ومملكة النوبة عرفت في المصطلح التاريخي بالبقط وهي في الواقع لفظة لاتينية من كلمة Pactum بمعنى العقد أو الاتفاق (٤١)، وقيل أيضا أنها مصرية قديمة بمعنى العهد(٤٢)، ولا يبعد كذلك أن تكون عربية بمعنى نبذة أو قطعة أو فرقة(٤٢). مجمل القول أن معاهدة البقط هذه كانت في الواقع أشبه بمعاهدة تجارية سياسية بين مصر ومملكة النوبة المسيحية، إذ كان من أهم شروطها ألا يعتدى أحد على الآخر وأن يسمح النوبيون المسلمين بالمرور داخل أراضيهم، وأن تؤدى النوبة إلى مصر عددا معينا من الرقيق في كل سنة في مقابل أن ترسل مصر إلى النوبة قدار معينا من القمح والعدس والشعير والملابس والخيل والخمور وغيرها من منتجات مصر سنويا(٤٣)، وجدير بالذكر أنه تم تجديد هذه المعاهدة في سنة ٢١٦هـ/ ٨٣١م في أيام الخليفة المأمون العباسي بعد أن استبعد منها نص إرسال الخمور إلى النوبة لتنافيه مع الشريعة الإسلامية كما جاء في بعض المصادر القديمة (٤٤) التي يفهم منها أيضا أن فريقا من الأقباط ساعدوا الجيش العربي في أغلب العمليات الحربية ضد البيزنطيين (٤٥)، على حين وقف فريق آخر موقف الحياد لأنهم كانوا يعلمون أن مساعدتهم للعرب معناها انتقالهم من تبعية إلى تبعية أخرى، ولم يكن

⁻ ابن عبد الحكم، فتوح مصر، طبعة تورى، ص ١٧٢ - ١٧٣؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ١٤.

٣٩- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٢٠٠.

G.Wiet, L'Egypte musulmane, p.113. - £.

C.H. Becker, Islamstudien, Leipzig, 1924, I, p.150. - ٤\

Encyclopédie de L'Islam, art. Bakt, p.621. - & T

٤٣- مصطفى محمد سعد، الإسلام والنوية في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٠، ص ١١٣.

G.Wiet, L'Egypte musulmane, p.113. - ££

ه ٤- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٨ه؛ Chronique de Jean, p.650

هذا الفريق فى موقف يستطيع معه طرد الروم والعرب فى أن واحد (٤٦). وهناك كذلك أقلية من الشعب المصرى حاربت فى صفوف البيزنطيين ظنا منها بأن النصر سيكون حتما للروم وليس للعرب (٤٧).

والحق أن فتح مصر النهائي واستخلاصها من أيدى البيزنطيين لم يتم إلا في سنة ٥٢ه/ ٥٤٥م، إذ حاول الروم استردادها على عهد الإمبراطور قنسطانز الثاني (٢٤١ - ٨٦٨م) حفيد هرقل(٨٤)، الذي أرسل إلى الإسكندرية أسطولا كبيرا يتألف من ٣٠٠ سفينة تحمل العدة والعتاد(٤١) بقيادة مانويل(٥٠) الذي سبق له أن دافع عن الإسكندرية أثناء حصارها الأول، واستطاع الاستيلاء على الإسكندرية بل وتوغلت جيوشه حتى كادت أن تقترب من حصن بابليون، وكان الوالي إذ ذاك عبد الله بن سعد بن أبي السرح، لذلك بعث أهل مصر إلى الخليفة عثمان بن عفان يسألونه أن يرسل عمرا لمحاربة الروم لما له من خبرة ومعرفة بحروبهم(٥١)، عندئذ اضطر الخليفة عثمان تحت إلحاح أهل مصر، الذين قاد بعضم مظاهرة شعبية جابت أنحاء الإسكندرية معلنة الإذعان والخضوع لحكم المسلمين، بعضم مظاهرة شعبية جابت أنحاء الإسكندرية على الإسكندرية عنوة وهدم أسوارها(٥٠) المملة وإجلائهم عن مصر واستولي مرة ثانية على الإسكندرية عنوة وهدم أسوارها(٥٠) وبذا انتهى فتح العرب لمصر حيث دخلت بعدها تحت لواء الإسلام بعد حرب دامت زمنا طويلا لتصبح درة الدولة البيزنطية أثمن جوهرة في الدولة العربية الإسلامية الناشئة.

٢١ محمد حمدى المناوى، مصر في ظل الإسلام، ص٠٢.

٤٧- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٦٦.

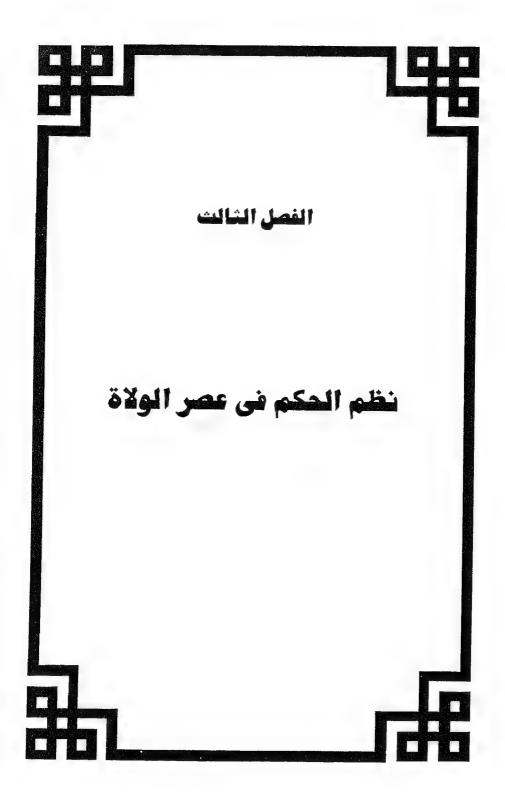
٨٤- إبراهيم أحمد العدوى، الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، القاهرة ١٩٥٨، ص١٦٠.

٤٩ - البلاذري، فتوح البلدان، ج١، ص ٢٦٠.

٥٠ - السيوطى، حسن المحاضرة، جدا، ص٧٨؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، الإسكندرية ١٩٨٢، ص٨٨.

٥١ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص ١٦٧؛ السيوطي، حسن المحاضرة، جـ١، ص٧٨.

۲۵- البلاذرى، فتوح البلدان، جا، ص ٢٦٠؛ المقريزى، الخطط، جا، ص ١٦٨؛ السيوطى، حسن المحاضرة، جا ص ١٦٨، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ليدن، ١٨٦٦ - ١٨٧٤، جـ٦، ص ٦٢.



اقتضت حكمة العرب الإدارية الإبقاء على نظم الحكم فى البلاد التى فتحوها وخاصة أنه لم يكن لديهم ما يمكن إحلاله محل هذه النظم السائدة (۱) لذلك اضطروا إلى اتباع النظم الإدارية والمالية التى كانت متبعة سابقا إلا فيما يتعارض مع الإسلام، بل ظلت لغة الدواوين هى لغة البلاد المفتوحة إلى أن عربت على يد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان وابنه الوليد، بيد أنهم حرصوا على الإبقاء على الزعامة الدينية والسياسية والمالية في أيديهم وذلك بهدف تنفيذ متطلبات الفتح العربي الجديد.

لذلك كان الخليفة يعين في مصر واليا يقال له الوالي أو الأمير، كما عرف أيضا في أوراق البردى اليونانية باسم سيمبولس^(۲) وكان مقره في مصر هو دار الإمارة التي شيدها عمرو بن العاص إلى الشمال الشرقي من جامعه باعتباره الرئيس السياسي لمصر، والم يكن مسئولا عن عمله إلا أمام الخليفة. وكانت إمامة الصلاة تعد من أهم اختصاصات هذا الوالي إذ كان عليه أن يؤم المسلمين في الجامع في صلاة الجمع والأعياد، ولذا كان يطلق عليه أمير الصلاة^(۲)، ويقال عن ولايته كذلك ولاية الصلاة. وكان بيد الوالي أيضا قيادة الجند أي رئاسة الجيش في الولاية؛ ولذلك كان يقال أحيانا ولي فلان الحرب كناية عن ولايته لمصر⁽¹⁾ باعتبار أنه كان يشرف أيضا على شئون الحامية بمصر، كما كان يقود بنفسه الحملات، التأمينية لمصر أو لصد الأعداء عنها، كما كان ينيب عنه أحد الأعوان القيادة هذه الحملات كما حدث عندما أرسل عمرو بن العاص عقبة بن نافع لفتح بلاد النوية (۱)، أطلق المؤرخون على أفرادها اسم رماة الحدق (۱).

وكان الوالى يشرف أحيانا على إدارة المالية المعبر عنها فى المصطلح التاريخى باسم الخراج مما يجعله مطلق التصرف فى الولاية. بيد أن الخليفة كان كثيرا ما يسند عمل الخراج إلى شخص آخر يكون مسئولا عن عمله أمامه مباشرة (٧) وليس أمام الوالى،

١- سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص١٩؛ محمد حمدي المناوي، مصر في ظل الإسلام، ص١٩٠

Wiet, L'Egypte musulmane, p.123; A.Grohmann, Arabie Papyri in the Egyptian -Y Library, Cairo, 1934, 1937, III, p.62

٣- حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص٤٦٨؛ محمد حمدى المناوى، مصر في ظل الإسلام، ص١٤.

٤- أبن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٧٨.

٥ - مصطفى محمد مسعد، الإسلام والثوبة، ص ١١١.

٦- البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٣٦.

G.Wiet, L'Egypte musulmane, p.124. -V

وكان هذا يحد دائما من سلطة الوالى ويجعله عاجزا عن التصرف فى الأمور المالية كما يشاء. لذلك صار لعامل الخراج دائما أهمية كبيرة، بل كثيرا ما كان منافسا للوالى نفسه، مع أن الوالى هو الرئيس الأعلى للولاية نائبا عن الخليقة، وحسبنا دليلا على ذلك أنه عندما هزم عمرو بن العاص الروم وطردهم من الإسكندرية للمرة الثانية فى عام ٢٥هـ/ ٥٤٢م عرض عليه الخليقة عثمان بن عفان أن يكون على حربها أو كما قيل على صلاتها، وعبد الله بن سعد على خراجها، فأبى عمرو قائلا «أنا إذا كماسك البقرة بقرنيها وأخر يحلبها أن وفض تنفيذ رغبة عثمان وترك ولاية مصر وعاد (١٠٠).

والمتأمل لعدد الولاة العرب منذ الفتح حتى قيام الدولة الطولونية سنة ١٥٢هـ/ ٨٨٨م سوف يلاحظ بوضوح أن عدد هؤلاء قد وصل منذ الفتح حتى نهاية عصر الدولة الأموية إلى ما يقرب من اثنين وثلاثين واليا في مقابل ثمانية وسبعين واليا للفترة الممتدة من العصر العباسي حتى استقلال أحمد بن طولون بحكم مصر (١١) وهي تكاد توازى الفترة الأولى تقريبا أي في حدود المائة عام. الأمر الذي يشير بوضوح إلى أن الولاة في عهد الراشدين والأمويين كانوا أكثر استقرارا، إذ منحهم الخلفاء قسطا كبيرا من الحرية مما أفضى إلى ظهور شخصيات بارزة مثل عمرو بن العاص، وزياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفي، وخالد بن عبد الله القسيري، وعبد العزيز بن مروان، وموسى بن نصير وغيرهم (١٦)، وذلك باستثناء بعض الفترات القصيرة مثل فترة الصراع بين على بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، وأيضا خلافة هشام بن عبد الملك إذ استطاع عبيد الله بن الحبحاب عامل الخراج أن يتحكم في تعيين الولاة حتى قيل أنه عزل خمسة منهم (١٢) خلال ولايته الطويلة على خراج مصر التي امتدت من سنة ١٠٥ – ١١٧هـ/ ٢٧٢ – ٢٢٤م.

أما تحت الحكم العباسى فقد تبدلت الأحوال تماما بسبب قيام الدولة العباسية على أكتاف الفرس مما جعلها تستعين ببعض الولاة من عناصر فارسية، ولعل أصدق دليل على

 $^{-\}Lambda$ ابن عبد الحكم، فتوح مصر، طبعة تورى، ص $-\Lambda$

٩- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، طبعة تورى، ص ١٧٨.

١٠- أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٩٠، ص ٧٧.

١١ - محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص ٤٣ مع مراعاة الخطأ الذى وقعت فيه كل من ديفونشير وڤيت فقد رصدت الأولى (٩٨) واليا منذ الفتح العربي حتى وصول أحمد بن طواون على حين سجل جاستون ڤيت (٢١) واليا للفترة الأموية، (٦٤) الفترة العباسية التى تسبق قدوم أحمد بن طولون Devonshire, L'Egypte musulmane p.22, Wiet, L'Egypte musulmane, pp.141-142.

١٧ - سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ٣٠ - ٣١.

١٣- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٧٧ - ٧٦.

ذلك أن آخر وال عربي حصل على ولاية مصر إبان هذه الفترة هو عنبسة بن إسحق في الفترة الممتدة بين سنتي ٢٣٨ – ٢٤٣هـ/ ٨٥٢ – ٢٥٨م(١٤). كذلك ترتب على استعانة الخليفة العباسي المعتصم بعنصر الأتراك^(١٥) وتغلغلهم في جميع شئون الدولة الحربية والمدنية أن تأثرت مصر بهذه السياسة وأصبح يليها ولاة من العنصر التركى وكان أولهم يزيد بن عبد الله التركي الذي وليها في الفترة المتدة بين سنتي ٢٤٢ - ٢٥٣هـ/ ٨٥٦ -٨٦٧م(١٦). وقد تميزت فترة العصر العباسي بكثرة تغيير الولاة وخصوصا في فترة الاضطرابات التي صاحبت الفتنة التي جرت بين الأمين والمأمون حيث كثر تغيير الولاة، بل كثيرا ما تولى الواحد منهم أكثر من مرة. كذلك لم يكن الخلفاء يتركون ولاة مصر في الحكم طوبلا لئلا يطمعوا في الاستقلال بالبلاد، وذلك مرجعه من غير شك إلى ضعف هؤلاء الخلفاء وبعد مقر الخلافة العباسية بغداد أو سامراء عن مصر. على أن ما كانت تخشاه الدولة العباسية من استقلال الولاة قد تحقق كما سوف نرى على يد أحمد بن طولون نتيجة لسياسة الإقطاع التي اتبعتها هذه الدولة منذ أيام الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ/ ٧٨٦ - ٨٠٨م)(١٧٠). ويجب علينا هنا أن نلفت الأنظار إلى الاختلاف السن سن نظام الإقطاع في الشرق الإسلامي ونظيره في الغرب الأوربي إذ كان الأخير بتوارث في أسرة صاحب الإقطاع وفق تقاليد وراثية معروفة وذلك على العكس من نظام الإقطاع في الشرق الإسلامي الذي لم يكن من حق صاحب الإقطاع أن يورث إقطاعه في معظم الأحيان(١٨).

وكان لوالى مصر الإشراف أيضا على شئون الشرطة (١٩) إذ كان ينفرد في أغلب الاحيان بتعيين صاحبها الذي اتفق على أنه كان بمثابة نائب الوالى، وخاصة أنه كان ينوب عنه أثناء غيابه في حج أو حرب أو غير ذلك، كما كان ينوب عنه أيضا في إمامة

١٤ الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٠٢؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٩٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٣٠ – ١٩٧٧، جـ٢، ص ٣٠٠.

١٥ - عبد المنعم ماجد، العصر العباسي الأول، القاهرة ١٩٧٣، جـ١، ص ٣٨٩.

١٦-الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٠٢، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٢، ص ٢٠٨.

١٧ - سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ٣٢.

١٨ عن نظام الإقطاع في العصور الوسطى انظر إبراهيم على طرخان، النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٨.

۱۹ سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ٢٣؛ مصر في عصر الولاة، ص ٢٢؛ Wict عصر الولاة، ص ٢٢؛ L'Egypte musulmane, p124.

الصلاة (٢٠٠). لذلك لا عجب إذا تدخل الخليفة في بعض الأحيان في تعيين صاحب الشرطة كما حدث في سنة ٢١٧هـ/ ٢٨٣م عندما قام الخليفة المأمون بتعيين صاحب الشرطة بمصر عقب قضائه على ثورة البشمور أو البشرود(٢١). بل كثيرا ما لجأ بعض الخلفاء إلى تعيين ولاة الشرطة في ولاية مصر في حالة عزل الوالي أو تنحيته أو في حالة موته ولعل نلك مرجعه إلى تمرسهم في شئون الولاية. ومع هذا فمن الثابت تاريخيا أن والى مصر كان ينفرد غالبا بتعيين صاحب الشرطة من دون الخليفة وأنه كان يختاره عادة من بين أقاربه(٢٢). وفي هذا ما يفسر لنا ذلك العدد الضخم من أصحاب الشرطة الذين تعاقبوا على هذا المنصب في الفترة الممتدة من الفتح العربي إلى مجئ أحمد بن طولون إلى مصر، والذي بلغ حسب إحصاء الكندي مائة وخمسين شخصا (٢٢) مما يعني أن الوالي الجديد على مصر كان حريصا على عدم الاحتفاظ بصاحب الشرطة الذي خلع عليه الوالي السابق إلا في بعض الحالات القليلة النادرة(٤٢) لأنه كان دائما في حاجة إلى من يوليه ثقته ويطمئن إليه في تصريف أمور الولاية أثناء غيابه(٢٠٠). ولذا اعتبرت الشرطة في أول الأمر من الوظائف السياسية. وكان على صاحب الشرطة أيضا أن يقوم بالمحافظة على الأمن الداخلي بمنع وقوع الجرائم والقبض على الجناة وعمل التحريات اللازمة وتنفيذ العقوبات اللاظة بالمنع وقوع الجرائم والقبض على الجناة وعمل التحريات اللازمة وتنفيذ العقوبات اللازمة وتنفيذ العقوبات

٢٠ حسبنا دليلا على ذلك مقتل خارجة بن حذافة صاحب شرطة عمرو على يد عمرو بن بكر الخارجي الذي أخذه بدلا من عمرو بن العاص. انظر الكندى، الولاة والقضاة، ص٢٣؛ ابن طباطبا، الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية بيروت ١٩٦٠، ص ١٤٢؛ ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٠٥ – ١٠٥ ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، القاهرة ١٨٩٣، جـ٤، ص٣.

٢١- الكندى، الولاة والقضاة، ص ١٩٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٢، ص ٢١٦.

۲۲ - الكندى ، الولاة والقسضاة ، ص ۲۱ ، ۲۷ ، ۲۷ ، ۱۲ ، ۱۳۲ ، ۱۳۲ ، ۱۳۲ ، ۱۳۲ ، ۱۳۲ ، ۱۳۲ ، ۱۲۰ ، ۲۷ ، ۱۲۰ ، ۱۲۰ ، ۱۹۲ ، ۱۹۲ ، ۱۹۲ ، ۱۹۲ ، ۱۹۲ ، ۱۹۲ ، ۱۹۲ ، ۱۹۲ ، ۱۹۲ ، ۱۹۲ ، ۱۹۲ ، ۱۹۲ ، ۱۹۲ ، ۱۹۲ ، ۱۹۲۰ ، ۱۹۲ ، ۱۹

Lane- Poole, A History of أخطأ لينبول في ذكر الرقم فقد أشار إلى أنهم بلغوا (٨٨) فقط انظر Egypt, pp. 45-58.

٣٤ ومع هذا فإن بالإمكان إحصاء ما يقرب من عشرين حالة استمر فيها صاحب الشرطة شاغلا منصبه في ظل الوالى الجديد، انظر أحمد عبد الرازق أحمد، شرطة القاهرة زمن سلاطين المماليك، القاهرة (١٩٨٧، ص ١٩٨٣، هامش رقم (٧).

٢٥ - الكندى، الولاة والقضاة، ص ١٠ ، ٣١ ، ٧٤ ، ٨٣ ؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ؛ جـ١ ، ص ٣٣٧.

التى يحكم بها القضاة وإقامة الحدود. وعلى هذا يمكننا القول بأن الشرطة كانت تعد أيضا من الوظائف الدينية (٢٦)، وحسبنا دليلا على ذلك ما يذكره ابن عبد الحكم من أن عابس بن سعيد المرادى ولى الشرطة ثم جمع له القضاء معها في غضون سنة ٢٦هـ/ ٢٨٦م (٢٢). كذلك كان من واجب صاحب الشرطة نشر الفضيلة والمحافظة على الأخلاق الفاضلة وقمع أهل الفساد (٢٨). وربما أسند إليه أيضا القيام ببعض الأعمال الأخرى مثل المساهمة في إطفاء الحرائق والمعاونة في تحصيل الجزية وإصدار الدنانير وغيرها من الأعمال التي صارت تدخل فيما بعد ضمن نطاق وظيفة الحسبة، التي كانت موزعة في عصر الولاة بين القاضي وصاحب الشرطة (٢٩).

وفى هذا العصر كان صاحب الشرطة يقيم فى الفسطاط مع الوالى (٢٠) ولكن بعد تأسيس مدينة العسكر فى سنة ١٣٣ه/ ٥٧٥م على يد صالح بن على أنشئت شرطة جديدة إلى الجنوب من الموقع الذى يشغله حاليا جامع أحمد بن طولون (٢١) عرفت بالشرطة العليا، وهذا لا يعنى أنها صارت أعظم شأنا من شرطة الفسطاط التى اشتهرت بالشرطة السفلى كما قد يتبادر إلى الذهن وإنما يرجع إلى تقسيم الفسطاط إداريا إلى عمل فوق، وعمل أسفل، خاصة وقد احتفظ صاحب شرطة الفسطاط السفلى باليد الطولى على زميله صاحب شرطة العسكر بوصفه حاكم القسم الرئيسى الأصيل فى الحاضرة (٢٢).

٢٧- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، طبعة ليدن ١٩٢٠، ص ٢٣٣؛ الكندي، الولاة والقضاة، ص ٣٩، ٥٨.

٢٨- أحمد عبد الرازق، شرطة القاهرة، ص١٣٠.

٢٩ الباز العريني، المسبة والمحتسب، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد الثالث، العدد الثاني، ١٩٥٠، ص ١٩٥١ - ١٦٠؛ عبد الرحمن فهمي، صنح السكة في فجر الإسلام، القاهرة ١٩٥٧، ص ١٩٥٠.

٣٠ الكندى، الولاة والقضاة، ص٤٩؛ المقريزي، الخطط، طبعة المعهد الفرنسي، جـ٤، ص١٨؛ المقريزي، الخطط، طبعة المعهد الفرنسي، جـ٤، ص٨٥؛ Corpus, Egypte I, p.54.

٣١- ابن الداية، المكافأة، القاهرة ١٩١٤؛ ص١٧؛ سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طولون، القاهرة
 ١٩٦٥، ص ١٦٦٧؛ حسن الباشا، الفنون والوظائف، جـ٢؛ ص ١٨٠.

Wiet, Corpus, Egypte, I, p.53 - ٣٢ ؛ أحمد عبد الرازق، شرطة القاهرة، ص ١٤.

ومن النظم التي استحدثها العرب أيضا بمصر بعد الفتح، نظام القضاء الذي يقوم على أساس الشريعة الإسلامية، أما أهل الذمة فكان لهم قضاؤهم(٢٣)، إلا إذا احتكموا إلى القاضي المسلم. ومن المعروف أن القضاء أصلا كان من الأمور الخاصة بالخلافة، وكان الخلفاء في صدر الإسلام يباشرونه بأنفسهم حتى اضطر عمر بن الخطاب إلى استنابة من يقوم عنه بالقضاء في الولايات المفتوحة، ومن ذلك تعيينه عثمان بن قيس بن أبي العاص السبهمي كأول قاض على مصر في سنة ٢٣هـ/ ١٤٤م (٣٤). وقد استمر هذا الحق لجميع من جاء بعده من الخلفاء الأمويين والعباسيين، وذلك على النقيض مما يذكره الكندي من أن مرجع تعيين القضاة بمصر كان دائما لولاتها حتى جاء الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور فولى قضاء مصر لعبد الله بن لهيعة في سنة ٥٥١هـ/ ٧٧٧م، ومن بعدها صار تقليدا أن ينفرد الخلفاء بتعيين القضاة في مصر (٢٥)، ولعله يقصد هنا أن بعض القضاة كان يتم تعيينهم من قبل الولاة ولكن بتفويض من الخليفة، إذ تروى المصادر أن والى مصر عبد العزيز بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ/ ٦٨٤ - ٥٠٧م) ولى القاضى عبد الرحمن بن حجيرة الأكبر في سنة ٦٩هـ/ ٦٨٨م من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان (٢٦). وذلك باستثناء بعض الفترات التي انفرد فيها الولاة بالفعل بهذا الحق كما حدث أثناء فترة الاضطرابات التي حدثت أثناء النزاع بين الأمين والمأمون، حتى تمكن المأمون من القضاء على أسباب الفتنة في سنة ٢١٧هـ/ ٨٣٢م وعاد الخلفاء بعدها إلى تعيين القضاة على مصر (٢٧)، ولذلك لم يكن القاضى ليرضى أن يتدخل في أحكامه أحد، إذ كانت وظيفة القضاء من الوظائف السامية التي تحاط بالهبية والإجلال، كما كان لصاحبها نفوذ كبير (٢٨)، ولا نعلم من خلال المصادر التي تحت أيدينا الآن أن واليا من ولاة مصر جمع إلى سلطته ولاية القضاء، كذلك لم نسمع عن حدوث تصادم بين أحد الولاة وأحد القضاة اللهم إلا في بعض الحالات القلبلة النادرة (٢٩). ومن المعروف أن مجالس القضاء كانت تعقد عادة في جامع عمرو بن العاص ٣٣- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة ١٩١٤ - ١٩٢٨، جـ١١، ص ٤٠٢، جـ١١، . £ Y £ , w

٣٦- الكندي، الولاة والقضاة، ص ٣١٤ - ٣٢٠,

٣٧- محمد حمدي المناوي، مصر في ظل الإسلام، ص ٥٥.

٣٨ - سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ٩٢.

٣٩ - الكندى، الولاة والقضاة، ص ٣٦٧ ، ٤٢٧.

بمدينة الفسطاط^(٤٠)، وإن بعض القضاة كانوا يجعلون للقضاء بين النصارى يوما فى منازلهم إلى أن جاء القاضى محمد بن مسروق فى القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى فأذن لهم بالدخول فى المسجد^(٤١).

وجدير بالذكر أن نظام القضاء في مصر في عهد الولاة نشأ بسيطا ثم أخذ يتطور بمرور الزمن، إذ لم تكن أحكام القضاة تدون في أول الأمر حتى أصدر القاضى سليم بن عنز التجيبي أول سجل قضائي في مصر وذلك في خلافة معاوية بن أبي سفيان، ومن وقتها صار تقليدا لمن جاء بعده من القضاة (٢٤). وكان القاضي يستمد أحكامه القضائية من مصادر الشريعة الإسلامية ونعني بها القرآن والسنة والإجماع والاجتهاد أو القياس (٢٤).

بقى أن نشير إلى أن أعمال القضاة كانت تمتد أيضا فى هذا الوقت إلى الإشراف على ديوان الأحباس والمقصود بها الأوقاف الذى عرف منذ سنة ١٨هـ/ ٢٣٦م، ويعد القاضى توبة بن نمر الحضرمى أول قاض بمصر وضع يده على الأحباس بعد أن كانت تظل بأيدى أهلها وبأيدى أوصيائهم (33)، كذلك اعتاد القضاة إبان هذه الفترة المبكرة من تاريخ مصر الإسلامية إلى الخروج فى نفر من أهل التقوى والصلاح لرؤية هلال رمضان حيث استن هذا التقليد للمرة الأولى عبد الله بن لهيعة الحضرمى، وكانوا يذهبون عادة لرؤيته فى الجيزة (63).

ولقد عرف هذا العصر أيضا وظيفة أخرى هي صاحب البريد. حقيقة أنها لم تكن قائمة في عهد الخلفاء الراشدين، وإنما نشأت في زمن الدولة الأموية، إذ تجمع المصادر على أن معاوية بن أبي سفيان هو الذي أوجد هذا النظام لضمان وصول الأخبار بسرعة (٢٦) وتبعه في ذلك الأمويون إذ وصلتنا كتابات أثرية معاصرة للخليفة عبد الملك بن

٤٠ - القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٨٧.

٤١ – الكندى؛ الولاة والقضاة، ص ٣٩٠؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ٩٣.

٤٢ - الكندى، الولاة والقضاة، ص ٣١، أنور الرفاعي، النظم الإسلامية، دمشق ١٩٧٣، ص ١١٢.

²⁷ أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية، ص ١٠٣.

٤٤ - الكندى، الولاة والقضاة، ص ٣٤٦.

ه٤- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٣٧٠؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ٩٧.

J.Sauvaget, La : ۱۰۲ من طباطباء الفخرى، ص ۱۰۱؛ القلقشندى، مبيح الاعشى، جـ١٤، ص ١٤٩؛ poste aux chevaux dans l'empire des Mamlouks, Paris, 1951, p. 13, Eny. de l'Islam, art. Barid, I, p.675.

مروان (٦٥ - ٨٦هـ/ ٦٨٤ - ٧٠٥م) كشف عنها بالقرب من بيت المقدس تسجل لنا قيامه بصنعة الأميال أي مسح الأراضي ووضع حدود على كل مسافة قدرها ميل، وكذا عمارته لأربعة طرق تخرج من إيلياء أي بيت المقدس، ومن دمشق (٤٧). كذلك اهتمت الدولة العباسية اهتماما كبيرا بالطرق وتعبيدها، وإقامة المنازل في مراحل الطرق لراحة ناقلي البريد وتغيير خيولهم، حتى صارت جميع الطرق تؤدى إلى بغداد عاصمة الخلافة تماما كما كانت جميع الطرق تؤدي إلى روما (٤٨). وجدير بالذكر أن نظام البريد إبان عصر الولاة ومن بعدهم لم يكن نظاما يستعمله الشعب، بل كان نظاماً رسميا حكوميا (٤٩)، حيث عمد بعض الخلفاء إلى استغلال صاحب البريد في نقل أخبار الولاة وكبار الموظفين إليهم والتجسس على أعمالهم وخصوصا في العصر العباسي (٠٠). فقد أثر عن الخليفة العباسي أنه قال: «ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر، لا يكون على بابي أعف منهم، فقيل له: ياأمير المؤمنين من هم، قال: هم أركان الملك، ولا يصلح الملك إلا بهم، كما أن البريد لا يصلح إلا بأربعة قوائم إن نقصت واحدة تداعى، أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر مناحب شرطة ينصف الضعيف من القوى، والثالث صناحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فإنى عن ظلمها غنى، والرابع، ثم عض على أصبعه السبابة ثلاثا يقول في كل مرة: أه.. أه.. قبل له: ومن هو باأمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب إلى بخبر هؤلاء على الصحة»(٥١). لذلك كان طبيعيا أن يتدخل أصحاب البريد في شئون غيرهم من كبار رجال الحكم، وحسينا دليلا على ذلك ما ذكره الكندي من أن صاحب البريد في مصر كتب إلى الخليفة المتوكل العباسي بأمر بتعلق بأحد الجنود (٢٥١)، كما أشار أيضا إلى أن صاحب البريد في مصدر زمن ولاية داود بن يزيد بن حاتم (١٧٤ - ١٧٥هـ/ ٧٩٠ - ٧٩١م) أراد أن يتدخل في عمل قاضي مصر أبي الطاهر عبد الملك بن محمد الخدمي فلم يكن من الأخير إلا أن استعفى عن القضاء (٥٣).

٧٤ - سهيلة الجبورى، أصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الأموى، بغداد ١٩٧٧، ص ١٢٢؛
 صفوان التل، تطور الحروف العربية على آثار القرن الهجري الأول، الأردن ١٩٨٨، ص ٤٤.

٨٤ حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٧٥، ص٥٦؛ أحمد عبد الرازق أحمد،
 الحضارة الإسلامية، ص ٨٦.

٤٩ -- عبد المنعم ماجد، العصير العباسي الأول، جـ١، ص ١١٦.

٥٠ - المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ١٤.

٥١ - الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص ٧٧.

٥٢ - الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٠٣.

٥٣- الكندى، الولاة والقضاه، ص ٣٨٤؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ٢٦.

خلاصة القول أنه كما كان للخليفة صاحب بريد ينقل إليه أخبار ولاة الأقاليم، كان للوالى أيضا عامل بريد ينقل له أخبار عمال الأقاليم بمصر كما يفهم من الوثائق البردية التى كشف عنها فى سنة 1.90م بكوم إشقا وإحدى قرى صعيد مصر، وهى تختص بولاية قرة بن شريك (-9-79 - 4.00 - 3.00 - 4.00 - 3.00). كذلك كان للوالى بمصر كتبة كثيرون يستعين بهم فى تدوين رسائله إلى الخليفة وإلى عمال أقاليمه، كانوا يسجلون أسماءهم فى نهاية هذه الرسائل(30) مما يدفع إلى القول أنه كان بمصر فى ذلك العهد ديوان رسائل أو بمعنى آخر ديوان للانشاء وخاصة أن القلقشندى يدلل على وجوده منذ الفتح وحتى بداية الدولة الطولونية وإن أشار فى الوقت نفسه إلى قلة أهميته (30).

هذه هي أهم الوظائف الرئيسية التي استحدثها العرب بعد فتح مصر، أما فيما عدا ذلك فقد بقي على ما هو عليه لاسيما ونحن نعلم أن العرب تركوا الوظائف والأعمال الأخرى في يد أهل البلاد^(١٥). ومن المعروف أيضا أن مصر بعد الفتح مباشرة كانت مقسمة إداريا إلى قسمين رئيسيين: هما مصر العليا، ومصر السفلي، كما كان هذان القسمان مقسمين بدورهما إلى أقسام أو كور بلغ عددها ثمانين كورة^(٧٥). ويلاحظ أن الاسم كورة مشتق من اللفظ اليوناني الذي كان يعني الإقليم في العصر البيزنطي المعروف باسم بجارشي، وهذا يدل دلالة واضحة على أن العرب احتفظوا بالنظم الإدارية البيزنطية، بل إنهم أبقوا على الأسماء والألفاظ اليونانية التي كانت سائدة قبلهم مثل بجاركوس أي صاحب الكورة، وجسطال التي تقابل الكلمة البيزنطية جستاليوس وهي تعني حينذاك الموظف المشرف على مالية الكورة، أي مندوب ديوان الخراج والأموال، وهناك أيضا الموزيت جمع مازوت التي تقابل الكلمة البيزنطية ميزوتروس وهي تعني رئيس أو شيخ الموزية.

ورغم أن مصر كانت مقسمة إلى هذه الأقسام، إلا أنها كانت جميعا تحت سلطة الوالى العليا مباشرة، بمعنى أن ولاة مصر لم يعطوا الفرصة لعمال الأقاليم للتمكين لأنفسهم أو للاستقلال محليا بأمور أقاليمهم، فقد كان الحكم فى مصر مركزيا إلى أبعد الحدود. وهو بذلك يعكس لنا سياسة الخلافة نفسها، فكما كان الوالى يخضع لسلطة

A.Grohmann, Arabic Papyri, pp.5,8,13,20. - 0 &

٥٥ – القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١١، ص ٢٨.

٥٦ - حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص ٣٥٠.

٥٧- ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص ٢ ؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص٢٦.

Wiet, L'Egypte musulmane, p.124. -oA

الخليفة مباشرة، لذلك نراه يضع رؤساء الأقاليم المختلفة تحت نفوذه مباشرة أى أن اللامركزية لم يكن لها وجود إبان عصر الولاة بمصر (٥٩).

بقى أن نشير فى نهاية هذا الفصل إلى أن والى مصر بعد الفتح العربى مباشرة كان يشرف أحيانا على بلاد برقة وما يليها من شمال أفريقية، على أن هذا الإشراف لم يمنع من أن يكون لبرقة والمغرب عمالها وولاتها فى كثير من الأحيان، ففى سنة ٨٦هـ/ ٥٠٧م أرسل الخليفة الوليد بن عبد الملك إلى أفريقية موسى بن نصير واليا على البلاد يحكمها من القيروان ويتبع الخليفة مباشرة، ومنذ ذلك الحين أصبحت أفريقية ولاية مستقلة فى حكمها عن مصر (١٠٠) بعد أن كانت تتبعها فى الإدارة وتتلقى منها الجيوش الفاتحة.

ويفهم أيضا من الوثائق البردية المعاصرة أنه كان يدعى للخليفة وللوالى معا في خطبة الجمعة (١٦٠).

٩٥ - سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ٢٨.

٠١- ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار المغرب، بيروت ١٩٥٠، ج١، ص ٣٥؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، الإسكندرية (بدون تاريخ)، ص ١٧٧.

٦١- سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ٣٤.

الفصل الرابع انتشار الإملام واللغة العربية

من المعروف أن الإسلام دخل مصر لأول مرة بدخول العرب فاتحين، إذ يروى حنا النقيوسي أنه منذ دخول العرب مصر وقبل ان يتم فتحها نهائيا أسلم عدد كبير من المصريين، وكانوا نعم العون للعرب مثل يوحنا أحد رهبان دير سيناء(١). ومن المعروف أيضًا أن العرب كانوا يخيرون أهالي البلاد المفتوحة بين أمور ثلاثة هي: الإسلام، أو الجزية، أو الحرب^(٢). والذي يمكن قبوله منطقيا هو أن الذين أسلموا من أهل مصر زمن الفتح فعلوا ذلك عن إيمان واعتقاد، ولعل الذي دفعهم إلى ذلك رغبتهم في الانتماء إلى دين الطبقة الحاكمة، ثم أخذ الدين الإسلامي بعدها ينتشر تدريجيا في مصر كلها كلما تقادم العهد بالعرب فيها. ومع هذا فإن الشواهد التاريخية تشير إلى وجود فترات ذات ظروف خاصة كان التحول فيها إلى الدين الإسلامي كبيرا، وهذا يمكن تفسيره من خلال الموقف الذي وقفه العرب من أقباط مصر، ومن موقف المصريين من العرب، إذ المؤكد أن العرب في فتحهم لهذا البلد كانوا يحاربون البيزنطيين لا المصريين الذين كانوا يئنون كما سبق أن نوهنا من قبل تحت وطأة الأعياء المالية والاضطهادات الدينية حتى وجد من بين المؤرخين المصريين المسيحيين في العصور الأولى مثل ساويرس بن المقفع، من يقول: «إن انتصار العرب هو غضب من الله على الروم بسبب عقيدتهم الخلقدونية الفاسدة (٢)»، كما ذكر حنا النقيوسى أن ذلك كان بسبب الاضطهادات التي أنزلها هرقل بالأرثوذكس على يد قيرس^(٤). لهذا لم يكن غريبا أن نرى الأقباط يساعدون العرب في أثناء فتحهم لمصر، وخصوصا أن وجود عناصر مصرية في الجيش البيزنطي المدافع عن مصر كان من أحد أسباب فشله في حمايتها من العرب لأنهم لم يخلصوا في الدفاع عنها،

وتدلنا الشواهد التاريخية على أن العرب قد أخذوا بعد فتحهم لمصر يتحببون إلى الأقباط أملا في ضمان ولائهم وإخلاصهم ريثما يتسنى لهم تثبيت أقدامهم في مصر (٥) ولم يكن هذا هو السبب الوحيد فقد أثر عن الرسول على الله أوصى بقبط مصر في عدة أحاديث نذكر منها قوله: «إن الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فإن لهم منكم صهرا وذمة» مشيرا بذلك إلى هاجر زوج إبراهيم الخليل عليه السلام وأم ولده إسماعيل التي كانت منهم، كما كانت مارية القبطية زوج الرسول عليه الصلاة

Chronique de jean évêque, p.585. -1

Devonshire, L'Egypte musulmane, p.14. -Y

٣- ساويرس بن المقفع، سير الآباء البطاركة، باريس ١٩٠٧، ج١، ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

Chronique de jean, P.584. -£

H De Castries, L'Islam, Paris, 1896, p.35. - o

والسلام منهم أيضا^(۱). ورغم عدم تأكدنا من صحة هذا الحديث، إلا أن فيه ما يفسر لنا بعض الشئ الموقف المتسامح الذي وقفه العرب إزاء المصريين في فجر الإسلام وقت أن جمعت الأحاديث النبوية (۷).

كذلك نرى عمرو بن العاص بعد استيلائه على الإسكندرية يعيد إليها البطرك اليعقوبي بنيامين الذي سبق أن أشرنا إلى اضطراره إلى الاختفاء هربا من اضطهادات قيرس، بعد غيبة دامت ثلاثة عشر عاما أمضى منها عشر سنين أثناء حكم هرقل وثلاث سنوات أثناء الفتح العربي^(A). ولا يخفى علينا مدى ما أثاره عودة بنيامين من موجة سرور وفرح بين أهل مصر جميعا، لذلك لا يستبعد أن يكون بنيامين قد نصح الأقباط بتأييد العرب ضد قيرس الذي قدم إليهم وهو يلبس في إحدى قدميه الحذاء الإمبراطوري الاحمر وفي الأخرى صندل رجل الدين إشارة إلى أنه كان يجمع بين السلطتين الزمنية والدينية.

ويتضح تعاطف العرب مع أقباط مصر حينما أيدوهم على أعدائهم فى الذهب الدينى فاسترد بفضلهم الأرثوذكس عددا من الكنائس والأديرة التى كانت فى يد أعدائهم الملكانيين، كما حاولوا استمالة كثيرين من الملكانيين إلى مذهبهم اليعقوبى، مستعينين فى ذلك بحسن علاقتهم مع العرب المسلمين، بل فرض فى أثناء ولاية قرة بن شريك على مصر (٩٠ - ٩٦هـ/ ٧٠٩ - ٤٧٤م) جرية مضاعفة على الملكانيين بهدف إخراجهم عن مذهبهم أولى الملاحظ أن الملكانيين لم يتمتعوا ببعض الحرية إلا فى فترات معينة كما حدث فى أثناء خلافة يزيد بن معاوية إذ استطاع تاوضوروس أحد أتباع المذهب الملكانى فى مصر أن يتسلط على الإسكندرية ومريوط وكل ما يليها بفضل ما قدمه من أموال طائلة إلى الخليفة (١٠٠). كذلك أرسل الخليفة هشام بن عبد الملك إلى عبيد الله بن الحبحاب عامل خراجه على مصر يأمره بأن يسلم للملكانيين كنائسهم التى كانت فى يد اليعاقبة على أثر ظلوا بغير بطركا للملكانيين بعد أن ظلوا بغير بطرك منذ الفتح العربي لمصر (١٢).

٦- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٢٤ - ٢٥؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١، ص ٣٣.

٧- سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ١٦٨؛ مصر في عصر الولاة، ص ١٠٩.

٨- الفرد بتار، فتح العرب لمصر، ص ٣٢٣ - ٣٢٤؛ ساويرس بن المقفع، سير الآباء، جـ١، ص ٣٣٢.

٩- سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الولاة، ص ١١٠.

١٠- ساويرس بن المقفع، سير الآباء، جه، باريس ١٩١٠، ص ٥ - ٦.

G.Wiet, L'Egypte arabe, Histoire de la nation egyptienne, Le Caire, 1948, IV, p.58. - \\

۱۲- سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع ، ص ٤٥ - ٤٦ ؛ ابن العميد، تاريخ المسلمين ، ليدن ١٨٢٥ ، ص ١٨٠ . ص ٨٣٠ - ٨٤.

ويعتبر بناء الكنائس وتجديدها مظهرا آخر من مظاهر الحريات التي تمتع بها أقباط مصر في ظل الحكم العربي، فقد أشارت المصادر التاريخية إلى بناء البطرك أغاتون لكنيسة القديس مرقص بالإسكندرية في أثناء ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر (١٠)، كما شيدت أول كنيسة في فسطاط مصر في أيام ولاية مسلمة بن مخلد (١٤)، وهناك أيضا كنيستا مارجرجس وأبو قير اللتان تم تشييدهما داخل قصر الشمع أثناء ولاية عبد العزيز ابن مروان (١٠)، ونعلم أيضا أن البطرك إسحق بني كنيسة بحلوان (١١)، كما جدد كنيسة القديس مرقص في أيام الوالي نفسه (١١). وأشارت المصادر كذلك إلى بناء كنيسة أخرى العصر الأموى بناء كنائس أخرى عديدة في خلافة هشام بن عبد الملك بوجه خاص، كما تجديد كنيسة الروم بالقرب من قبة الهواء في زمن الوالي الوليد بن رفاعة (١١)، كذلك ان موسى بن عيسى للنصارى أثناء ولايته الأولى على مصر (١٧١ – ١٧٢هـ/ ٧٨٧ – ١٨٧م) بإعادة بناء الكنائس التي هدمها على بن سليمان الوالي السابق، وذلك استنادا إلى فتوى من الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة بأن عامة الكنائس التي بمصر لم تشيد إلا في فتوى من الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة بأن عامة الكنائس التي بمصر لم تشيد إلا في الإسلام وفي زمن الصحابة والتابعين بوجه خاص (٢٠١).

وجدير بالذكر أيضا أن أقباط مصر ظلوا يحتفلون بأعيادهم الدينية في ظل الحكم العربي، حقيقة أن ولاة مصر في تلك الفترة لم يشتركوا في هذه الاحتفالات الدينية كما سوف يحدث في زمن الإخشيديين والفاطميين (٢١) الذين حاولوا أن يتقربوا إلى الشعب ضد الخلافة العباسية في بغداد، بيد أن المصريين المسلمين لم يجدوا غضاضة في مشاركة

١٣- ابن العميد، تاريخ المسلمين، ص ٥٠؛ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٤٩٢.

¹⁴⁻ ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٣٢ السيوطى، حسن المحاضرة، جـ١، ص ٢٨؛ جـ٢، ص ٢٧٠ المقريزي، الخطط، جـ١، م ٢١٠ جـ٢، ص ٤٩٢.

٥١ - سعيد بن بطريق، التاريخ المجموع، جـ٢، ص ٤١.

١٦- ساويرس بن المقفع، سبير الآباء، جه، ص ٢٤.

الإسلام، مصر في فجر الإباء، جده، ص ٤٤؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام،
 مر١٧٧.

١٨ – الكندي، الولاة والقضاة، ص ٧٧.

G.Wiet, Histoire de la nation, IV, p.65. - \9

٢٠- الكندي، الولاة والقضاة، ص ١٣٢.

۲۱- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ، القاهرة ۱۳٤۱هـ، جـ١، ص ۲۱۲ - ۲۱۳؛ المسعودي، الخطط، جـ١، ص ۲۱۲ - ۲۱۳؛ G.Wict, L'Egypte musulmane, p.143

إخوانهم المسيحيين في جميع أعيادهم ولا عجب في هذا فقد كان أغلبهم من أصل قبطي، في الوقت الذي اكتفى فيه ولاة مصر بمشاركة الأقباط في الاحتفال بوفاء النيل فقط. وهذا يذكرنا بالأسطورة التي رواها المؤرخ ابن عبد الحكم في هذا الصدد إذ يقول: «أنه لما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إليه في شهر بؤونة وقالوا له: أيها الأمير أن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها وهي أنه إذا كان لاثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في هذا النيل. فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون في الإسلام. فأقاموا بؤونة وأبيب ومسرى والنيل لا يجرى قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء عن مصر، فلما رأى ذلك عمرو أسرع بالكتابة إلى يجرى قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء عن مصر، فلما رأى ذلك عمرو أسرع بالكتابة إلى عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر، وأن كان الله الواحد القهار أن يجريك». فألقى عمرو بالبطاقة في النيل قبل يوم الصليب بيوم، فلما أصبحوا يوم الصليب كان النيل قد زاد إلى ستة عشر ذراعا في ليلة، وقطع في تلك السنة السوء عن أهل مصر (٢٢).

والحق أن مثل هذه الأسطورة التى انفرد المؤرخ ابن عبد الحكم بذكرها وأخذها عنه بقية المؤرخين، بعيدة كل البعد عن عادات الديانة المسيحية، بل لم تتبع أيضا فى أيام الفراعنة الذين ينسب اليهم خطأ فكرة أو عادة إلقاء فتاة مزينة على قيد الحياة فى النيل تعرف بعروس النيل. بل إن المسألة لا تعدو أن تكون مجرد أشياء رمزية اعتبرها بعض مؤرخى الإسلام حقيقة لا مجازا بسبب إقبال الفراعنة على تزويج تماثيل النيل بتماثيل عروسة رمزية كنوع من التكريم لهذا النهر الذى يجلب لبلاده الخير الوفير (٢٣).

ومن المعروف أيضا أن أقباط مصر كانوا يحتلفون في اليوم الثامن من شهر بشنس بعيد يعرف بعيد الشهيد ويزعمون أن النيل لا يزيد في كل سنة حتى يلقوا فيه تابوتا من خشب به أصبع من أصابع أسلافهم الموتى، وقد ظل هذا العيد قائما حتى أبطله السلطان الناصر محمد بن قلاوون في العصر المملوكي، كما تم إلغاؤه نهائيا في سنة ٥٥٥هـ/ ٤٥٥م في زمن السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون (٢٤).

۲۲ ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ۱۵۰ - ۱۵۱؛ وقد نقل عنه كل من المقريزي، الخطط، جـ۱، ص ۵۸؛
 القلقشندی، صبح الأعشی، جـ۳، ص ۲۹۰، وابن تغری بردی، النجوم، جـ۱، ص ۳۵ - ۳۱.

G.Wiet, L'Egypte musulmane, p.144 - YY

۲۲- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٦٨ - ٧٠.

ومن الاحتفالات التى ساهم فيها ولاة مصر واشترك فيها كل من المسلمين والأقبال على حد سواء صلاة الاستسقاء (٢٥) وذلك عندما يكون النيل ناقصا في موعد فيضانه، إذ تشير المصادر التاريخية إلى أن حفص بن الوليد استسقى بالناس أثناء ولايته الثانية على مصر من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك عندما أصابها القحط (٢٦) كذلك فعل أبو العون عبد الملك أثناء ولايته على مصر عندما صلى بالمسلمين والأقباط من أجل النيل (٢٧).

وهناك مظهر آخر من مظاهر الحريات العديدة التى تمتع بها الأقباط فى ظل الحكم العربى وهى أن الفتح العربى نفسه ساعد فى بداية الأمر على إحياء اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانية التى كانت تعد بمثابة اللغة الرسمية للبلاد منذ عهد البطالة. فالدروس الدينية التى كانت تقرأ فى الكنيسة باليونانية ثم تشرح بعد ذلك باللغة القبطية، صارت لا تقرأ إلا باللغة القبطية (٢٨). كذلك نجد أن البلاد والأقاليم التى سميت بأسماء يونانية فى أيام اليونان والرومان، عادت إلى أسمائها القبطية المستمدة من الأسماء المصرية القديمة. وبذلك أصبحنا نجد اسم أخميم بدلا من بانوبوليس Panopolis، والأشمونين بدلا من هرموبوليس وأهناسيا بدلا من هراقليوبوليس Héracléopolis، والأشمونين بدلا من هرموبوليس

ومن الملاحظ أيضا أن العرب تركوا مقاليد الأمور في يد أهل مصر من الأقباط محتفظين لأنفسهم بالسيادة العليا وتنفيذ أحكام الدين، فمثلا كان في الحكومة المركزية بالفسطاط أو حلوان، التي اتخذها الوالي عبد العزيز بن مروان حاضرة له في عام ٧٠هـ/ ١٨٨م، كاتبان قبطيان لإدارة مصر العليا والسفلي هما أثناسيوس، وإسحق وهما من الأقباط الارثوذكس حسب رواية ساويرس بن المقفع أسقف المنيا والأشمونيين (٢٠٠). ومن الواضح أيضا أن رؤساء المالية كانوا يختارون طوال العصر الأموى من بين الأقباط، بدليل أن المؤرخ نفسه يشير إلى ظهور رئيسين للمالية لأول مرة من المسلمين في أوائل العصر العباسي (٢٠١). وحسبنا دليلا على هذا التسامح الذي سلكه العرب إزاء أقباط مصر أن والي

ه ٢- انظر ماكتبه ثيت عن هذا الموضوع Hautecoeur et G.Wiet, Les mosquées du Caire, Paris ه٢- انظر ماكتبه ثيت عن هذا الموضوع 1932, p.192.

٢٦- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١، ص ٢٩١.

٢٧ - ساويرس بن المقفع، سير الآباء، جـ٥، ص ١٩٤ - ١٩٦.

٢٨ - سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ١٧٠ .

G.Wiet, L'Egypte musulmane, p.138. - Y4

٣٠- ساويرس بن المقفع، سير الآباء، جـ٥، ص ١٢.

٣١ - ساويرس المقفع، سبير الآباء، جـه، ص ١٨٨.

الصعيد كان قبطيا يدعى بطرس، وذلك فى نهاية ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر، كما كان حاكم مريوط قبطيا يدعى تاوفانس (٣٦). بل وصل الأمر بالخليفة المأمون العباسى حين قدم إلى مصر فى سنة ٢١٧هـ/ ٨٣٢م اثر ثورة البشمور أن ولى مدينة بورة وما حولها لأحد أهلها من الأقباط فبنى بها كنائس كثيرة على حد رواية سعيد بن بطريق (٢٦).

ويفهم أيضا من تاريخ ساويرس بن المقفع أن والى مصر كان له حق الإشراف على انتخاب البطاركة بوصفه رئيس الدولة وممثل الخليفة فيها، كما أن الأساقفة كانوا يستشيرون الوالى قبل انتخاب البطرك. كما أن البطرك والأساقفة كانوا يذهبون من الإسكندرية مقر البطاركة إلى العاصمة لمقابلة والى مصر بعد الانتخاب (٢٤٠). حقيقة أنها كانت مسئلة شكلية لأننا لم نعرف أن أحدا من الولاة عارض في انتخاب أحد البطاركة مادام الأساقفة كانوا يتبعون القواذين الكنسية بدليل أن الوالى عبد العزيز بن مروان أبطل انتخاب أحد البطاركة بعد أن نمى إلى علمه أن البطرك المتوفى كان قد أوصى بشخص غير الذي انتخى(٢٥٠).

بيد أن سياسة العرب نحو الأقباط بدأت تتغير عما كانت عليه في السنين الأولى وبدأ يظهر في الأفق بعض المضايقات التي حملت بعض الأقباط على ترك دينهم هربا منها وحتى يصبحوا على قدم المساواة مع المسلمين. خاصة بعد أن شعر العرب باستقرار أقدامهم في البلاد التي فتحوها وبتفوقهم وتفوق لغتهم ودينهم على سائر اللغات والأديان. وحسبنا دليلا على ذلك ما ذكره المقريزي عن معاوية بن أبي سنفيان أنه قال: «وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف، فتلث ناس، وثلث يشبه الناس، وثلث لا ناس. فأما الثلث الذين هم الناس فالعرب، والثلث الذين يشبهون الناس فالموالي، والثلث الذين لاناس المسالمة يعنى القبط» (٢٦).

والحق أن المضايقات التى تعرض لها الأقباط داخل مصر لم تكن دائمة، ولم تكن ذات بال إذا ما قورنت باضطهاد المسيحيين في أيام الإمبراطور الوثني دقلديانوس (٢٨٤ – ٣٠٠٥) أو باضطهادهم أيام الإمبراطور المسيحي هرقل. كذلك لم تكن تلك المضايقات

٣٢- ساويرس بن المقفع، سير الآباء، جه، ص ٥٢.

٣٣- سعيد بن بطريق، التاريخ المجموع، جـ٢، ص ٥٨ - ٥٩؛ أدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة ١٩٤٠، جـ١، ص ٨٧.

٣٤- ساويرس بن المقفع، سير الأباء، جـ٥، ص ٢٢ - ٢٣؛ جـ١٠، ص ٤٨١ - ٢٨٤.

٣٥- سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ١٧١.

٣٦- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٥٠؛ أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية، ص ٢٤٢.

أيام العرب لتقارن باضطهاد المسيحيين لإخوانهم المسيحيين المخالفين لهم في المذهب، فقد قام الباب يوحنا العاشر في سنة ٤٩٤هـ/ ٥٠٥م بحملة ضد مسيحيي جنوب إيطاليا، كذلك ما حدث أثناء انقسام الكنيستين الشرقية والغربية في سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م، ويجب ألا نغفل أيضا الحملة الصليبية التي شنها الباب أنوسنت الثالث في سنة ٢٠٦هـ/ ١٠٠٩م ضد سكان جبال الألب، بل مازال اضطهاد كاثوليك أسبانيا للبروتستنت والمسلمين واليهود، وذكرى محاكم التفتيش في أسبانيا باقيا ما بقى التاريخ لتصور قمة ما تعرض له المسيحيون وغيرهم على يد إخوانهم في الدين (٢٧).

أما فيما يختص بالمضايقات التي تعرض لها أقباط مصر فتروى المصادر التاريخية أن الخليفة عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص بألا يتشبه أهل الذمة في الدولة الإسلامية بالمسلمين في مظهرهم وفي لباسهم ولا يبقى من الكتائس الا ما كان قبل الإسلام وهي الشروط التي شاعت في الكتب التاريخية باسم الشروط العمرية (٢٨). وكانت تنقسم إلى مستحق ومستحب حسبما جاء في الكتب الفقهية. أما المستحق فستة شروط أحدها عدم ذكر الإسلام بذم أو قدح فيه. والثاني عدم ذكر كتاب الله بطعن له أو تحريف فيه، والثالث عدم ذكر رسول الله بطعن له أو تحريف باسم نكاح، والخامس ألا يفتنوا مسلما عن دينه ولا يتعرضوا لماله ولا دينه، والسادس ألا يعينوا أهل الحرب ولا يودوا أغنياءهم.

وأما المستحب فهو أيضا ستة شروط أحدها لبس الغيار وهى الملابس ذات اللون المخالف للون ملابس المسلمين، والثانى ألا تعلو أبنيتهم فوق أبنية المسلمين، والثالث ألا تعلو أصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم، والرابع ألا يتجاهروا بشرب الخمر وإظهار صلبانهم، والخامس أن يخفوا دفن موتاهم ولا يجاهروا بندب عليهم ولا نياحة، والسادس أن يمنعوا من ركوب الخيل ولا يمنعوا من ركوب البغال والحمير (٢٩).

ولكن هل اتبعت هذه الشروط مع أهل الذمة فى مصر؟ الواقع أن مؤرخى مصر الإسلامية لم يوضحوا لنا المدى الذى بلغته هذه الشروط والتعليمات من ناحية التطبيق الفعلى، بمعنى كيف نفذت وما هو مدى مواصلة تنفيذها على مدى العصور، إلا أنه من

٣٧- سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الولاة، ص ١١٥.

٣٨ - قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٧٧، ص ٢٧.

٣٩- الماوردى، الأحكام السلطانية، القاهرة ١٢٩٨هـ، ص ١٣٨ - ١٣٩؛ النويرى، نهاية الأرب فى فنون الآدب، جـ١، ص ٢٣٨ - ٢٣٩؛ ابن الإخوة، معالم القرية فى أحكام الحسبة، نشره رو بن ليڤى، كمبردج، ١٩٨٧، ص ٢١ - ٢٤٨.

الثابت تاريخيا أن مثل هذه التعليمات كانت تحترم فقط حين صدورها ثم سرعان ما تتبدد تلك الحمية التى يظهرها الولاة عند تنفيذ أية تعليمات جديدة، وحسبنا دليلا على ذلك كثرة المراسيم والفتاوى التى كان يصدرها الخلفاء وولاة مصر الإسلامية. ففى ولاية أيوب بن شراحبيل (٩٩ – ١٠١هـ/ ٧١٧ – <math>٩١٧م) عطلت حانات الخمر وكسرت بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى أمر أيضا بعزل الأقباط عن مناصبهم وتمييزهم عن المسلمين فى ملبسهم وركوبهم مما جعل ساويرس بن المقفع يصفه بأنه كان يصنع خيرا عظيما أمام الناس ويفعل السوء أمام الله(٠٤).

ونعلم أيضا أن الخليفة يزيد بن عبد الملك أصدر في سنة ١٠٤هـ/ ٢٧٧م قرارا بكسر الصلبان في كل مكان ومحو الصور والتماثيل التي هي رمز الكنائس (١٤)، الأمر الذي أغضب المصريين كثيرا لأن هذا القرار لا يتفق ومذهبهم الديني بدليل أن ساويرس وصفه أيضا بأنه سلك طريق الشيطان (٢٤). والحق أن قرار الخليفة يزيد يذكرنا بما قام به مسيحيو أوربا من حركة تسمى بالحركة اللا أيقونية في القرن الثامن الميلادي، كذلك ما قام به الإمبراطور البيزنطي ليوالايسوري في سنة ١٠٨هـ/ ٢٧٦م من أتخاذ قرار مماثل بحظر الصور والتماثيل (٢٤)، والحله كان متأثرا بما حدث في الدولة الإسلامية المجاورة الهارادي).

وتتحدث المصادر التاريخية أيضا عن منع الملاهي والخمور وهدم الكنائس المحدثة في مصر أثناء ولاية على بن سليمان العباسي (١٦٩ - ١٧٨هـ/ ٧٨٥ - ٢٨٨م) من قبل الخليفة الهادي ثم الرشيد (١٤٠).

وفى سنة ٣٢٥هـ/ ٨٤٩م أمر الخليفة المتوكل العباسى بأن يتميز أهل الذمة بلبس الطيالسة العسلية والزنانير وركوب السروج بركوب الخشب، ويكون السرج كهيئة الأكف

٤٠ ساويرس بن المقفع، سير الآباء، جـ٥، ص ٢٤ - ٢٥، ٧١ - ٧٠.

١٤- الكندي، الولاة والقضاة، ص١٦؛ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٤٩٣.

٤٢ - ساويرس بن المقفع، سير الآباء، جـ٥، ص ٧٢.

٣٤ - سعيد عبد الفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، القاهرة ١٩٧٢، ج١، ص ١٢٩؛ قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص ٣٤.

³³⁻ أحمد تيمور، التصوير عند العرب، أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات زكى محمد حسن، القاهرة ١٩٤٢، ص ١٧٠،

ه٤ - سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ١٨٧.

(البرادع)، وعلى رؤوسهم القلانس المضتلفة الألوان، وأن تخيط الرقاع على ظهورهم وصدورهم، وأن تكون أزر نسائهم عسلية اللون أيضا وملبس مماليكهم مثلهم، ويمنعوا من لبس المناطق وهدم كنائسهم المحدثة، وأخذ العشر من منازلهم فإن كان الموضع واسعا صير مسجدا وإن كان لا يصلح، صير فضاء، وأمر أن يجعل على باب دورهم أساطين من خشب مسمورة وذلك تمييز بين منازلهم ومنازل المسلمين. ونهى أن يستعان بهم فى الدواوين وأعمال الدولة التى تخالف أحكامهم فيها أحكام المسلمين، كما نهى أن يتعلم أولادهم فى كتاتيب المسلمين، وأن يعلمهم مسلم. ونهى كذلك أن يظهروا فى أعيادهم وشعانينهم صليبا، وأمر أيضا أن تسوى قبورهم بالأرض لئلا تشبه قبور المسلمين، وأن يعلمهم مسلم. ونهى كذلك أن يظهروا فى أعيادهم يقتصروا فى ركوبهم على البغال والحمير من دون الخيل. كما أمر بعزل النصارى عن قياس زيادة نهر النيل وكانوا يقومون بهذا العمل دون غيرهم، وأمر ألا يليه إلا مسلم فتولاه أبو الرداد عبد الله بن عبد السلام المؤدب وقد ظل فى يد أولاده من بعده حتى عصر سلاطين الماليك(٢٤).

خلاصة القول أن هذه الأوامر كانت تنفذ حين صدورها بمنتهى الدقة، بيد أن التمسك بها كان يقل تدريجيا بمرور الوقت، ليعود المسلمون بعدها إلى التسامح إزاء أهل الذمة من الأقباط واليهود وحسبنا دليلا على ذلك ما رواه أحد بطاركة بيت المقدس في عام ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م من «أن المسلمين يظهرون كثيرا من العطف نصوبا بالسماح لنا ببناء كنائسنا»(١٤).

وإلى جانب المضايقات الاجتماعية والمعنوية التى تعرض لها أقباط مصر فى ظل الحكم العربى، والتى كانت أحد العوامل التى دفعت ببعض الأقباط إلى اعتناق الدين الإسلامى، وجدت أيضا بعض المضايقات المادية إذ لا يخفى على الدارس لهذه الحقبة من تاريخ مصر الإسلامية مدى اهتمام العرب بجمع الجزية حتى قيل أن الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٦ – ٩٩هـ/ ٧١٤ – ٧١٧م) كتب إلى أسامة بن زيد التنوخى متولى خراج مصر بما نصه «أحلب الدر حتى ينقطع وأحلب الدم حتى ينصرم (٢٨)»، وقيل أيضا أن

٤٦- ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص ٧٥ - ٧٧ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٢٩٩.

G.Wiet, Histoire de la nation, IV, p.25. - £V

٨٤ - الجهشيارى، كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق السقا والأبيارى، القاهرة ١٩٣٨، ص ٥٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج١، ص ٣٣١.

الخليفة عمر بن عبد العزيز أمر حيان بن سريج عامل خراج مصر بأن يجعل جزية موتى الأقباط على أحيائهم (٤٩) مما كان سببا في إسلام كثير من أقباط مصر الذين أرادوا التخلص من الجزية وأفضى في النهاية إلى نقص موارد الدولة. كذلك لجا بعض الأقباط إلى اتخاذ الرهبنة سبيلا لكي يتهربوا من دفع الجزية (٥٠)، وخاصة أن العرب قاموا في أول الأمر بإعفاء الرهبان من دفع جزية الرؤوس فوجد فيها بعض الاقباط سبيلا لعدم أداء الجزية وعدم اعتناق الإسلام، بيد أن الحكومة قد فطنت إلى ذلك وبادرت بإحصاء الرهبان وعمل سبجلات للاهالي، إذ تروى المصادر التاريخية أن عبد العزيز بن مروان يعتبر أول من قام بإحصاء الرهبان في كل الكور وفي وادي النطرون وفي سائر الأماكن كما فرض دينارا جزية على كل راهب، وأمر بألا يترهب أحد بعد من أحصاه (٥١). ونقرأ أبضا أنه في أثناء ولاية قرة بن شريك اشتدت حركة الهروب من إقليم إلى إقليم بل كانت أسرات بأسرها تنتقل من مكان إلى مكان فرارا من دفع الضرائب الأمر الذي اضطره إلى عمل سجلات بأسماء القرى والأقاليم المختلفة وإحصاء الرجال والجزية الواجبة عليهم ، كما تشهد بذلك أوراق البردى التي عثر عليها في كوم إشقاو(٢٥). وتتحدث المصادر عن سجلات أخرى تمت على يد أسامة بن زيد التنوخي أشبه بالبطاقات الشخصية حيث ألزم كل شخص يريد الانتقال من جهة إلى أخرى أن يحمل سجله معه وإلا تعرض للقبض عليه ونهب مائه، كذلك قام أسامة بإحصاء الرهبان للمرة الثانية وأمر الرهبان في الأديرة ألا يقبلوا من يأتي إليهم، وضعانا لذلك لجأ إلى وشمهم عن طريق حلقة من الصديد توضع حول يد الراهب اليسرى، كما وشم كل واحد منهم باسم بيعته وديره والتاريخ الهجرى(٢٥).

ترتب على كل هذه الإجراءات اعتناق فئات أخرى من أقباط مصر للدين الإسلامى، يبدو أن عددهم قد تزايد بصورة كبيرة على زمن الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز بدليل تلك الرسالة التى بعث بها إليه حيان بن سريج عامل خراج مصر يقول فيها «أما بعد فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار وتممت عطاء

٤٩ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٧٧.

G.Wiet, L'Egypte musulmane, p.132. - o ·

٥- ابن الراهب، تاريخ ابن الراهب، نشره لويس شيخو، بيروت ١٩٠٣، ص ١٢٣، ١٢٤؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٤٩٢.

٥٢ - سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ٢٠٣.

٥٣- ساويرس بن المقفع، سير الآباء، جـ٥، ص ٦٨، ٧٠؛ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٤٩٦ - ٤٩٣.

ومع هذا فيبدو أن سياسة إعفاء الذين يعتنقون الإسلام من الجزية لم تستمر بصفة دائمة بعد عهد عمر بن عبد العزيز بدليل أننا نرى بعد ذلك أن قرار أى خليفة برفع الجزية عمن أسلم كان يشجع الكثيرين على اعتناق الدين الإسلامي (٥٥). حقيقة أنه لا يمكننا التأكيد بأن إسلام هؤلاء الذين يريدون التخلص من تلك المضايقات كان صحيحا، ولكن ذريتهم كانت تنشأ من غير شك في وسط الإسلام وتندمج في الجماعة الإسلامية تماما.

ولكن هل وقف أقباط مصر دائما هذا الموقف السلبى من الإجراءات المالية والإدارية للخلفاء والولاة، الذى تمثل فى الهرب من إقليم إلى إقليم، أو عن طريق الانخراط فى سلك الرهبنة أو حتى عن طريق اعتناقهم الإسلام. بالطبع لا إذ تحدثنا الوثائق التاريخية عن قيامهم بالثورة المعلنة فى بعض الأحيان، ومن ذلك ما حدث فى ولاية الحر بن يوسف (١٠٥ حـ١٠٨م / ٢٧٧ – ٢٧٧م) إذ اضطر الأقباط تحت ضغط الأعباء المالية الثقيلة إلى الثورة فى عام ١٠٠هم م٢٧م فى الوجه البحرى فبعث إليهم الحر جيشا لمحاريتهم فقتل منهم نفرا كثيرا(٢٥٠)، كما حصل على إذن من الخليفة هشام بن عبد الملك باستقدام أناس من العرب الشماليين وبالذات من قبيلة قيس كى يستقروا فى أرض مصر وبالذات فى ريفها مصر (١٠٥).

ولم تتوقف ثورات الأقباط بل نجد منها سلسلة طويلة إذ حدث أن ثار أقباط الصعيد في عام ١٢١هـ/ ٧٣٩م وحاربوا عمال حنظلة بن صفوان والى مصر الذى بعث إليهم بجيش انتصر عليهم وقتل منهم عددا كبيرا(٥٨).

كذلك ثار القبط بسمنود عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م وخرج من بينهم شخص يدعى يحنس مما اضطر عبد الملك بن مروان أن يبعث إليه بموسى بن نصير والى مصر إذ ذاك على رأس جيش لمحاربته، فنجح في قتله مع العديد من أصحابه (٥٩).

³⁰⁻ أبو يوسف، كتاب الخبراج، بولاق ١٣٠١هـ، ص ١٣١؛ المقبريزي، الخطط، جـ١، ص ٧٨؛ أحـمد عبدالرازق، الحضارة الإسلامية، ص ١٤٧.

٥٥ - سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الولاة، ص ١٢٩.

٢٥- الكندي، الولاة والقضاة، ص ٧٣- ٧٤؛ القريزي، الخطط، جـ١، ص ٧٩.

٥٧ - المقريزي، الخطط، جـ٧، ص ٢٦١.

٨٥- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٧٩.

٥٩ - الكندى، الولاة والقضاة، ص ٩٤، المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٧٩.

وفى نفس السنة ثار أيضا القبط برشيد فبعث إليهم الخليفة الأموى مروان بن محمد بجيش لمحاربتهم وذلك عند دخوله مصر فارا من بنى العباس فهزمهم وقضى على ثورتهم (٦٠).

وفى سنة ١٣٥هـ/ ٢٥٢م عاد أقباط سيمنود إلى الثورة من جديد فى ولاية أبى العون الأولى على مصر فبعث إليهم بجيش لمحاربتهم ونجح فى القضاء عليهم وقتل زعيمهم أبو منا (١١).

ونقرأ أيضا عن ثورة أقباط سخا في سنة ١٥٠هـ/ ٢٧٧م في ولاية يزيد بن حاتم ابن قبيصة حيث انضم إليهم أهل البشرود وبعض جهات الوجه البحرى ونجحوا في إنزال الهزيمة بالعرب(٢٢).

كذلك ثار أقباط مصر في سنة ١٥٦هـ/ ٧٧٣م في ولاية موسى بن على بن رباح مما اضطره إلى أن يبعث إليهم بجيش نجح في إيقاع الهزيمة بهم (١٣).

وتعد ثورة البشمور أو البشرود وهي المنطقة الرملية بين فرعي رشيد ودمياط (عدم عند بحيرة المنزلة آخر هذه الثورات فقد حدث أن ثار أهلها في أثناء ولاية عيسىي بن منصور سنة ٢١٦هـ/ ٢٨٨م، الذي لم يستطع إخماد الثورة فبعث إليه الخليفة المأمون بقائده الأفشين فامتنعوا عليه كذلك مما اضطر الخليفة إلى القدوم بنفسه إلى مصر وذلك في المحرم من سنة ٢١٧هـ/ فبراير ٢٨٨م وقد أعلن سخطه على واليه عيسى بن منصور وقال له «لم يكن هذا الحدث العظيم إلا من فعلك وفعل عمالك، حملتم الناس مالا يطيقون وكتمتوني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلد (٥٠)». وقد حاول المأمون معالجة الأمر باللين حيث أرسل إليهم بعض البطاركة ووعدهم ألا يعاقبهم إن هم رجعوا عن ثورتهم ولكن أهل البشمور رفضوا الاستجابة مما اضطر الخليفة إلى أن يعمل فيهم السيف وأحرق مساكنهم وهدم كنائسهم، وبالفعل لم تقم بعد ذلك للقبط قائمة، وأصبح المسلمون أغلبية في مصر وفي الوجه البحري بصفة خاصة. وتتميز ثورة البشرود هذه باشتراك العرب

٦٠- ساويرس بن المقفع، سير الآباء، جه، ص ١٨٨.

٦١- الكندى، الولاة والقضاة، ص ١٠٦، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١، ص ٣٢٥ - ٣٢٦.

٦٢- الكندى، الولاة والقضاة، ص ١١٦؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٧٩.

٦٢- الكندى، الولاة والقضاة، ص ١١٩، المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٧٩.

G.W1ct, Histoire de la nation, IV, p.43. - \{

٥٠- المقريزي، الخطط، ج١، ص ٨١؛ الكندي، الولاة والقضاة، ص ١٩٢.

المسلمين مع الأقباط المسيحيين في الثورة ضد الحكومة ذلك أن زيادة عدد العرب بمصر وامتلاكهم الأراضى جعلهم أيضا يتعرضون لتعسف الحكومة في جباية الخراج والأموال، وعلى هذا فإن اشتراكهم في ثورات الأقباط لم يكن تعبيرا دينيا ولكنه كان في الواقع تعبيرا وطنيا أي موقف شعب ولو أنه مختلف في العقيدة إلا أنهم وقفوا موقفا موحدا ضد سلطة تتعسف في جباية الأموال، ولا غرابة في ذلك فقد ساعد وجود العرب في القرى واشتغالهم بالزراعة على الاختلاط بالأهالي، وكان بالطبع لهذا الاختلاط أثره في انتشار الإسلام واللغة العربية كنتيجة طبيعية للتزاوج المختلط بينهم وبين أهالي البلاد مما أفضي في النهاية إلى ميلاد شعب جديد هو الشعب المصرى الإسلامي (٢٦٦)، إذ تكشف لنا شواهد القبور التي وصلتنا من عصر الولاة أن العرب كانوا ينتسبون في القرنين الأولين للهجرة إلى القبيلة، على حين أصبحنا نجدهم ابتداء من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ينتسبون تدريجيا إلى الجهة التي ينتمي إليها المتوفي فيقال مثلا المصرى، الإدفوي، الكوفي وهكذا (٢٠٠).

أما فيما يتعلق بانتشار اللغة العربية فنحن نعلم أن العرب كانوا قد بدأوا بعد فتح مصر بأقل من نصف قرن يتجهون إلى تعريب البلاد وإلى جعل اللغة العربية لغة رسمية وذلك لسبب بسيط هو عدم معرفتهم باللغة القبطية $(^{\Lambda })$ فنجد أن الأصبغ بن عبد العزيز يأمر بترجمة الإنجيل وعدة كتب دينية بغرض الإحاطة بدين هؤلاء القوم، غير أن الأهم من ذلك كله هو ما يعرف في التاريخ الإسلامي بحركة التعريب التي بدأها الخليفة الأموى عبد الملك ابن مروان، إذ عمد إلى تعريب دواوين الشام والعراق $(^{(\Lambda)})$. أما فيما يتعلق بمصر فنحن نعلم أنه بدئ في تعريب دواوينها في خلافة الوليد بن عبد الملك عام $(^{(\Lambda)})$. والواقع أن تعريب الدواوين يعد عملية ترجمة جبارة ومنظمة أدت إلى نقل كثير من المصطلحات الفارسية واليونانية والقبطية إلى العربية. وقد ساعد التعريب على شيوع اللغة العربية وانتشارها بين الأقباط بعد أن أصبحت لغة الإدارة فضلا عن كونها لغة الدين

٢٦- قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص 33.

G.Wiet, L'Egypte musulmane, pp.136-137. - 7V

G.Wiet, l'Egypte musulmane, p.125; Histoire de la nation, IV, p.43. - ٦٨

⁷⁹⁻ الماوردى، الأحكام السلطانية، ص ١٧٨ - ١٧٩؛ الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص ٣٨ - ٤٠؛ ابن خلاون، المقدمة، ص ٢٤٤.

٧٠ الكندى، الولاة والقضاة، ص ٨٠؛ الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص ٦٧؛ المقريزى، الخطط، جـ١،
 م٠٥٠١.

والسياسة والثقافة، وذلك حتى يمكنهم الاحتفاظ بالوظائف التي اضطروا إلى التخلى عنها بعد تعريب الدواوين ثم سرعان ما عادوا إليها بعد تعلم اللغة العربية (٧١).

ومع هذا فيمكن القول أن انتشار اللغة العربية بمصر كان أبطأ من انتشار الدين الإسلامي إذ تشير الوثائق البردية إلى أن الحكومة كانت تستخدم اللغتين العربية واليونانية حتى القرن الثاني من الهجرة/ الثامن الميلادي، في الوقت الذي كانت فيه السلطات المحلية في الريف تكتب كثيرا باللغة القبطية (٢٠٠)، بل وصلنا وثيقة من البردي عبارة عن إيصال لدفع الضرائب من سنة ٢٤٦هـ/ ١٨٨م، عليها كتابة قبطية (٢٠٠).

ويبدو أيضا أن اللغة العربية لم تكن قد ذاعت وانتشرت بين شعب مصر في النصف الأول من القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، وحسبنا دليلا على ذلك ما رواه المقريزى بصدد زيارة الخليفة المأمون لمصر سنة ٢١٧هـ/ ٢٣٨م، إذ يقول «وكان لا يمشى أبدا إلا والتراجمة بين يديه من كل جنس (٤٠)». وعلى هذا يمكن القول أن أقباط مصر لم يتركوا لغتهم تماما إلا ابتداء من القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، إذ نرى أن البطرك الملكانى سعيد بن بطريق يدون كتابه في التاريخ باللغة العربية إبان هذه الفترة. كذلك ساويرس بن المقفع أسقف المنيا والأشمونين يكتب عن تاريخ بطاركة الإسكندرية باللغة العربية في أواخر القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، وذلك عن طريق جمع الوثائق اليونانية والقبطية (٢٠) وترجمتها مما يشير إلى أن اللغة العربية أصبحت لغة التضاطب بين المصريين عامة وأن اللغة القبطية لم تعد سائدة بين عامة الشعب، والحق أن التخاطب بين المصريين عامة وأن اللغة القبطية لم تعد سائدة بين عامة الشعب، والحق أن انتشار اللغة العربية بمصر يميز العرب على غيرهم من الفاتحين، ذلك أن الشعوب التي توالت على فتح مصر والاستيلاء عليها قبل العرب لم تستطع القضاء على لغة المصريين، وهذه ظاهرة تستحق إعمال الذهن، لأن تنازل شعب عريق في المدنية كشعبنا المصرى عن

٧١ سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ١٧٩.

٧٧- ومع هذا فقد أشار Renaudot إلى أنه بعد فتح العرب لمصر بنحو قرن تلاشت اللغة القبطية نهائيا في معظم القطر المصرى ولم تعد تعرف إلا بين العلماء الذين كانوا يدرسون تلك اللغة دراسة خاصة. Quatremère, Recherches citiques et historiques sur la langue et la littérature de أنظر 1'Egypte, Paris, 1808, p.39.

٧٢ - سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الولاة، ص ١٣٩.

٧٤- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٨١.

G.Wiet, L'Egypte musulmane, p.199. -Vo

لغته واتخاذه لغة أخرى يتحدث بها شعب لا يوازيه من ناحية الحضارة، يعتبر تاريخيا أمرا غير عادى(٢٦).

مجمل القول أنه كان على الذين يعتنقون الإسلام أن يتعلموا لغة القرآن الكريم كى يتفهموا تعاليم الدين الذى اعتنقوه، وعلاوة على ذلك نجد أن أقباط مصر الذين كانوا يعملون في الدواوين رأوا أنه كى يحتفظوا بمناصبهم بعد حركة التعريب لابد لهم من تعلم اللغة العربية، تلك اللغة التي أصبحت لغة رسمية للإدارة في الدواوين وذلك اعتبارا من سنة اللغة العربية، تلك اللغة التي أصبحت لغة رسمية للإدارة في الدواوين وذلك اعتبارا من سنة استقروا فيه كان لكل ذلك أثر لا ينكر في انتشار لغة العرب الفاتحين، وكان أهم عامل من هذه العوامل جميعا هو نزول القبائل العربية في الريف المصرى بعد أن استقدمهم عامل الخراج عبيد الله بن الحبحاب في سنة ١٠هـ/ ٧٢٧م وكانت غالبيتهم من عرب الشمال وبالذات من قبيلة قيس، وقد جاءوا واستقروا بوادي النيل وفي الدلتا واختلطوا بالأقباط اختلاطا كبيرا مما ساعد على انتشار اللغة العربية انتشارا كبيرا، إذ بدون هذا التفاعل والاختلاط لا يمكن أبدا تفسير كيفية ترك الفلاح المصرى لغته رغم تمسكه بالقديم وحرصه الكامل عله.

على أن العامل الأساسى لانتشار الإسلام واللغة العربية بين قبط مصر، يرجع إلى الدين الإسلامى نفسه، وذلك إلى جانب العوامل الأخرى من مالية واجتماعية كما أوضحنا من قبل، وذلك بسبب أن الدين الإسلامى يعد فى الواقع مجموعة من القوانين تنظم المجتمع وقطاعاته فهو يحدد العلاقة بين الفرد وربه، وبين الفرد وأسرته، وبين الأسرة والمجتمع، وبين المجتمعات بعضها ببعض، بل إنه ينظم علاقة دولة بدولة أخرى، وينظم علاقة الغالب بالمغلوب، أى أنه يعد نظاما دينيا، اجتماعيا، اقتصاديا، عسكريا، سياسيا(٨٨).

ووجد القبطى أن إله الدين الجديد إله واحد، ليس فيه مشاكل المناقشة حول طبيعة السيد المسيح، كما أنه وجد هذا الدين ينظر إلى جميع الناس نظرة واحدة «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير (٧٩)». إذن كان الإسلام ينظر إلى الناس على أساس من العدل والمساواة

٧٦ سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ٢٣٢.

٧٧- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٧٦؛ المقريزى، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، القاهرة ... ١٣٥٦هـ، ص ٥٠.

٧٨- أحمد عبد الرازق أحمد، المضارة الإسلامية، ص ٢٢.

٧٩- قرآن كريم، سورة الحجرات، آية ١٣.

فهم جميعا على اختلاف دينهم وجنسياتهم من خلق الرحمن والفرق الوحيد بينهم حدده القرآن بالتقوى، كما حدده الحديث الشريف «اسمعوا وأطيعوا ولو لعبد حبشى كأن رأسه زبيبة».

وأشيرا نجد أن العامل المالى والاجتماعى كان من العوامل الهامة فى انتشار الإسلام واللغة العربية، فإن كانت هناك بعض المضايقات التى أدت فى بعض الأحيان إلى زيادة انتشار الإسلام واللغة العربية فقد كانت هذه المضايقات قليلة كما يشهد بذلك ساويرس بن المقفع نفسه، رجل الدين القبطى، والذى كان يشغل منصب أسقف المنيا والأشمونين، وهو الذى لا يشك فى كتابته فى هذا الصدد، والذى لم يكن ليغفل تفصيل الكلام عن أية اضطهادات أصابت المسيحيين.

وهكذا يمكن القول في النهاية أن دعائم وأسس التعريب ونشر الدين الإسلامي بمصر قد غرست في القرنين الأولين من الهجرة، ثم عممت وانتشرت في غضون القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، حيث ذابت الشخصية المصرية في الشخصية العربية، كما ذابت الشخصية العربية في الشخصية العربية قي الشخصية العربية الإسلامية العالمية.

الفصل الخامس منشأت عصر الولاة المعمارية

الفسطاط

استطاع العرب بعد فتحهم مصر الامتزاج في الشعب المصرى مما كان له أكبر الأثر في تغلب الثقافة الإسلامية والدين الإسلامي كما سبق أن ذكرنا من قبل، كما شجع الخلفاء وفود القبائل العربية إلى مصر مما أفضى بدوره إلى زيادة عدد المسلمين بها، إذ يمكننا أن نقدر جيش الفتح الذي استقر بمصر بنحو ستة عشر ألفا من الرجال(۱)، ولاندري في الواقع كم كان عدد سكان مصر حينذاك وإن كان ابن عبد الحكم قد أشار أنه كان بها أكثر من ستة ملايين رجل ممن تجب عليهم الجزية (۲) وهذا طبعا باستثناء الشيوخ والنساء والأطفال، وبفرض أن الذين وجبت عليهم الجزية كانوا يمثلون فقط ثلث سكان مصر، فإن هذا يعنى بمنتهي البساطة أي عدد سكان مصر وقت الفتح العربي لها كان يقدر بثمانية عشر مليون نسمة وهذا عدد مبالغ فيه خاصة ونحن نعلم أن عدد سكانها تحت الحكم البيزنطي أي قبل الفتح كان لايتجاوز السبعة ملايين نسمة باستثناء الإسكندرية التي بلغ عدد سكانها حوالي تثثمائة ألف نسمة(۱).

خلاصة القول أن الفاتحين كانوا يمثلون أقلية ضعيلة بالنسبة لأهل البلاد وفضلا عن ذلك فإنهم لم يختلطوا بهم وإنما اختطوا لهم مدينة عربية إسلامية في وسط المحيط المصرى المسيحى، والحق أن ظاهرة تخطيط المدن كانت تعد من أهم الظواهر التي سار عليها العرب جنبا إلى جنب مع الفتوحات الإسلامية، وذلك رغبة منهم في إنشاء مراكز إدارية وحربية ودينية في البلاد المفتوحة (٤).

ولقد دخل عمرو بن العاص في بادئ الأمر مدينة الإسكندرية عاصمة مصر قبل الفتح فراها مدينة عامرة وقصورها فخمة فهم أن يسكنها وقال مساكن قد كفيناها (٥) وأسرع بالكتابة إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك. فسأل الخليفة رسول عمرو: هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل. فكتب عمر إلى عمرو: إنى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولاصيف. كما روى المؤرخ ابن عبد الحكم أيضا أن عمر كتب إلى سعد بن أبى وقاص وهو نازل بمدائن كسرى والى عامله بالبصرة والى عمرو بن العاص وهو نازل بالإسكندرية "أن لاتجعلوا بيني

١- سبيدة إسماعيل كاشف، مصبر في فجر الإسلام، ص ١٢٤.

٢- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص٥٥.

H.Munier, L'Egypte byzantine, Le Caire, 1932, p.84.-T

٤- سبيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الولاة، ص٥١٠.

٥- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ليدن، ص٥٢١.

وبينكم ماء، متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت. ولهذا السبب تحول سبعد بن أبى وقاص من مدائن كسرى إلى الكوفة، وتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط (٦)".

فالخليفة عمر رأى بثاقب بصره أن يكون الطريق بين عواصم الولايات الجديدة وبين مركز الخلافة فى المدينة المنورة آمنا سهلا ميسورا لاتقطعه موانع طبيعية حتى يسهل عليه إذا لزم الأمر إرسال المدد لها فى أى وقت (٧). والإسكندرية كانت بالنسبة له متطرفة وبعيدة عن أن تكون قاعدة متوسطة صالحة لمركز الحكم العربى بمصر، وليس الغرض كما يفهم من عبارته هو خوفه من ركوب البحر أو تأمين طريقه شخصيا عند قدومه إليها. وعلى ذلك تحول عمرو بن العاص عن الإسكندرية إلى الفسطاط (٨) وكان هذا الموقع فضاء ومزارع يحده شرقا جبل المقطم، وغربا نهر النيل، وجنوبا بركة الحبش، وشمالا جبل شكر (٩).

وكما جرت العادة لدى العرب اختط عمرو أول ما اختلط المسجد الجامع الذى عرف بتاج الجوامع، وبالجامع العتيق (١٠)، وبجامع عمرو بن العاص. وكان المسلمون يقيمون فيه الصلوات الخمس ويجمعون الجمع، كما كانت بمثابة مدرسة دينية يتعلم فيه الناس الدين الإسلامي، ومركزا للقضاء. وقد ظل مسجد عمرو المسجد الجامع الوحيد بمصر في عهد الولاة إلى أن شيد الفضل بن صالح بن على العباسي في أثناء ولايته على مصر من قبل الخليفة المهدى جامع العسكر في سنة ١٦٩هـ/ ١٨٥٥م. وبعد ذلك اختط عمرو داره بجوار المسجد حيث عرفت أيضا بالدار الكبرى(١١) وجعل بينهما طريقا، كما اختط حول داره والمسجد أحياء العرب وقبائلهم من قريش والأنصار وأسلم وغفار وجهينة وأهل الراية وغيرهم من أقوام الفرس والروم الذين سبق لهم الدخول في الإسلام وشهدوا مع عمرو بن العاص فتحمصر (١٢).

٣- المقريزي، الخطط، جـ ١ ٢ص ٢٩٦؛ السيوطي، حسن المحاضره، جـ ١، ص ٥٧.

٧- محمد حمدي المناوي، مصر في ظل الإسلام، ص ٨١.

٨-جمال الدين الشيال، الفسطاط، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، المجلد ١٢، سنة ١٩٥٨،
 من ١٣٤٠.

٩- فريد شافعي العمارة العربية في مصر الاسلامية، عصر الولاة، القاهرة ١٩٧٠، ص ٣٤٧.

١٠- ابن دقماق، الانتصار، جـ٤ ص ٥٥؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية التي صلى فيها فريضة الجمعة حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول، القاهرة ١٩٤٦، جـ٢١ ص ٢٣.

١١ عبد الرحمن زكى، الفسطاط وضاحتياها العسكر والقطائع، القاهرة ١٩٦٦، ص١٢؛ فريد شافعى، العمارة العربية، ص ٣٥٣.

١٢- المقريزي، الخطط، جـ١، ص٢٩٦.

ولقد بدئ في بناء مدينة الفسطاط سنة ٢١هـ/١٤٢م. أما عن سبب تسميتها بالفسطاط فقد اختلفت الآراء وتنوعت القصص والروايات ومن أشهرها أنها سميت كذلك نسبة إلى فسطاط عمرو أي خيمته، الذي تركه في ذلك المكان عندما أراد التوجه إلى الإسكندرية بعد فتح حصن نابليون، إذ وجد يماما قد فرخ فقال عمرو: «لقد تحرم منا بحرم» وأقر فسطاطه كما هو وأوصى به صاحب القصر، ولما عاد المسلمون من الإسكندرية، قالوا أين ننزل؟ قال: الفسطاط، أي لفسطاطه الذي كان خلفه (١٢).

على حين ذهب بعض الباحثين إلى أن كلمة فسطاط هذه مأخوذة من اللفظ اليونانى فسلطن ذلك اللفظ الذي اشتق من اللفظ اللاتيني Fossatum أي العسكر أو الحصن أو الخندق الذي كان عند بابليون ثم حرفه العرب إلى فسطاط بعد ذلك (١٤). بيد أن هذا الزعم لايستند على أي دليل تاريخي، ولا يتفق أيضا مع منطق الأحداث، ولاسيما أن لفظة فسطاط لفظة عربية كانت تطلق أيضا على المدينة ومجتمعها، فقد جاء في الحديث الشريف أن رسول الله على الله على المدينة التي بها مجتمع الناس. ولذا فمن المرجح أن العرب قد أطلقوا على المدينة التي شيدوها في مصر اسم الفسطاط بمعنى المدينة أو الخيمة (١٦) كما أطلق على البصرة كذلك الاسم نفسه.

وكانت الفسطاط فى أول أمرها مدينة متواضعة مشيدة باللبن لايعلو بنيانها عن الطابق الواحد بدليل أن خارجة بن حذافة عندما بنى بها غرفة أى دارا مرتفعة وبلغ ذلك عمر بن الخطاب، كتب إلى عمرو بما نصه أما بعد فإنه بلغنى أن خارجة بن حذافة بنى غرفة ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه فإن أتاك كتابى هذا فاهدمها إن شاء الله والسلام (١٧)". وكان هذا يتفق فى الواقع مع حياة البساطة التى كان عليها المسلمون حينذاك.

١٣- القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٣، ص٣٢٦.

L.Caetani, Annali dall'Islam, ۱۲۰ الفـــرید بتار، فــتح العـــرب لصــر، ص١٥٠ Milano,1911,1912, IV,pp.544-545.

٥١- حسن الباشا، القاهرة تاريخها، فنونها، أثارها، القاهرة ١٩٧٠، ص١٤.

١٦- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، طبعة تورى، ص٩١؛ ياقوت، معجم البلدان، القاهرة ١٩٠٦، جـ٦، ص
 ٢٧٩؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٢٩؛ جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية من
 الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمى، القاهرة ١٩٦٧، جـ١، ص٤١.

١٧- ابن عبد الحكم، طبعة تورى، ص١٠؛ فريد شافعى، العمارة العربية، جـ١، ص٥٣٣؛ وانظر أيضا ابن
 دقماق الذى أشار إلى هذا الحدث بعبارة أخرى، الانتصار، جـ٤، ص٩٠.

على أن العرب سرعان ماتخطوا البساطة وتوسعوا في البناء، إذ شيد عبد الله بن سعد بن أبى السرح والى مصر من قبل عثمان بن عفان قصرا كبيرا عرف في المصادر التاريخية باسم قصر الجن (١٨)، كما ابتنى مروان بن الحكم لنفسه بعد أن ولى الخلافة دارا عظيمة عند قدومه إلى مصر سنة ٢٥هـ/١٨٤م. كذلك شيد بها عبد العزيز بن مروان دارا ضخمة أطلق عليها دار الذهب وجعل لها قبة ذهبية كانت إذا طلعت الشمس عليها لا يستطيع الناظر التأمل فيها خوفا على بصره، ويقال إن هذه الدار كانت من الضخامة لدرجة أنها سميت بالمدينة لعظم سعتها (١١).

كذلك اشتملت الفسطاط على الميادين والأسواق كما أسس بها المصانع المختلفة والحمامات وغير ذلك مما يصعب علينا حصره في هذا المجال(٢٠).

ورغم ماتعرضت له الفسطاط أولى عواصم مصر الإسلامية من تدمير خلال الاضطرابات التي تعرضت لها بعد ذلك، فإن المدينة اخذت تنمو حتى أصبحت تثير دهشة الرحالة القادمين من كل مكان فقد وصفها الإصطخرى المتوفى سنة ٤٢٠هـ/١٥٩م بأنها مدينة كبيرة غاية من العمارة والخصب، كما أشار إلى أن مبانيها بالطوب طبقات، وربما بلغت طبقات الدار الواحدة ثمان طبقات (٢١). على حين ذهب المقدسي المتوفى سنة ٨٣هـ/٩٩٠م إلى أن دورها تتألف من أربع طبقات وخمس كالمنائر، يدخل إليها الضياء من الوسط، وأنه يسكن الدار الواحدة نحو مائتي نفس (٢٢).

أما الرحالة الفارسى ناصر خسرو الذى زارها فى غضون القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، فقد روى أنها تبدو من بعيد كالجبل لارتفاع منازلها التى تتراوح بين سبع طبقات وأربع عشرة طبقة، كما أشار إلى أن شوارعها كانت تضاء نهارا بالقناديل لأن ضوء الشمس كان لايصل إلى أرضها (٢٣).

كذلك حدثنا القضاعي أنه كان بالفسطاط إبان القرن الخامس الهجري/ الحادي

۱۸- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ۱۱۰؛ أحمد عبد الرازق أحمد، بيوت الفسطاط الأثرية، المتحف العربي، السنة الرابعة، العدد الأول يوليو-سبتمير ۱۹۸۸، ص٦.

١٩ - محمد حمدي المناوي، مصر في ظل الإسلام، ص١٠٨.

٢٠- أحمد عبد الرازق أحمد، بيوت الفسطاط، ص٦٠.

٢١- الاصطخرى، مسالك الممالك، ليدن ١٩٢٧، ص ٤٨-٤٩.

٢٢ – المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٧، ص ١٩٧ – ١٩٩٠.

٢٣ - ناصر خسرو، سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٨٥.

عشر الميلادى أيضا سنة وثلاثون ألف مسجد، وثمانية آلاف شارع مسلوك، وألف ومائة وسبعون حماما (٢٤).

ومن الملاحظ أنه رغم بناء عواصم أخرى لتصبح مقرا للحكم بمصر فقد ظل للفسطاط مكان الصدارة والأهمية، وظلت تزدحم بالسكان، وكان ساحلها عامرا بالمراكب الصاعدة والنازلة والراسية كما كان بها داران للصناعة، ونعنى بهما صناعة السفن، هما صناعة الروضة وصناعة الفسطاط، وقد دهش المقدسي أثناء وجوده بها من كثرة المراكب التي رآها راسية وسائرة بها (٢٥).

والحق أن المتتبع لتاريخ هذه المدينة سوف يلاحظ أنها تعرضت لكثير من التخريب والتدمير إذ منيت بأول محنة عندما فر مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية أمام جيوش العباسيين إلى مصر سنة ١٣٢هـ/ ٥٥٠م وعندما اضطر إلى الانسحاب من الفسطاط أمر بإحراقها (٢٦).

كذلك تعرضت المدينة للنهب عندما قدم محمد بن سليمان على رأس الجيوش العباسية سينة ٢٩٢هـ/٥٠٥م بهدف القضاء على الدولة الطواونية، إذ نهب أصحابه الفسطاط(٢٧).

ويفهم أيضا من المصادر التاريخية أن المدينة تعرضت مرارا النهب على يد جنود الفاطميين وخصوصا في زمن الخليفة الحاكم بأمر الله، والخليفة الظاهر (٢٨) ومع هذا فإن أخطر ما تعرضت له الفسطاط من محن كان في أيام الشدة العظمي زمن الخليفة المستنصر بسبب الأزمة الاقتصادية العنيفة التي استمرت سبع سنين من سنة ٢٥١ – ٢٤٤هـ/ ١٠٥٠ مر١٠٠ محيث تخربت الفسطاط كثيرا. كذلك في أثناء الفتنة التي نشبت بين شاور وضرغام وزيري العاضد آخر خلفاء الفاطميين عندما أمر شاور بإخلائها في سنة ١٢٥هـ/ ١١٨٨ وبعث إليها بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار، وفرق ذلك فيها لمنع الجيش الصليبي بقيادة عموري ملك بيت المقدس من الاستيلاء على مصر، حيث استمرت النيران مشتعلة فيها لتمام أربعة وخمسين يوما (٢٩).

٢٤ - المقريزي، الخطط، جـ١٢ ص ٣٣١؛ أحمد عبد الرازق أحمد، بيوت الفسطاط، ص٣٠.

٢٥ - المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٩٨.

٢٦ – الكندي، الولاة والقضاة، ص٩٥.

٧٧ - محمد حمدي المناوي، مصر في ظل الإسلام، ص١١٢.

٢٨- أحمد عبد الرازق، بيوت الفسطاط، ص ٢٨.

٢٩ - المقريزي، الخطط، ج، ص ٣٣٥، ٣٣٩.

ومن وقتها أفل نجم المدينة رغم أن صلاح الدين الأيوبى حاول أن يجمع بين القاهرة ومابقى من الفسطاط بسور واحد^(٣) إذ تحولت الفسطاط إلى الاطلال المعروفة الان بكيمان مصر وحسبنا دليلا على ما أصباب المدينة من تدهور ذلك الوصف الذي خلفه لنا الرحالة المغربي على بن سعيد الذي زار مصر في سنة ٤٤٢هـ/٢٤٢م، إذ يقول ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرة وتأملت أسوارا مثلمة سوداء، وأفاقا مغبرة، ودخلت من بابها وهو دون غلق يفضى إلى خراب مغمور بمبان مشتتة الوضع، غير مستقيمة الشوارع، قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف، ويغض طرف الظريف...(٢١)"

وهكذا ساءت أحوال أولى عواصم مصر الإسلامية وتحولت إلى اكوام من التراب وتلال من الأنقاض حتى أتاح الله لها العالم الأثرى على بهجت والمهندس الفرنسى ألبير جبرييل فكشفا فيها بين عامى ١٩١٢، ١٩٢٠ عن أجزاء ليست بقليلة من مخلفات تلك المدينة البائدة (٢٢) التى لم يتخلف عن بقاياها سوى جامع عمرو.

جامع عمرو بن العاص

هو أول جامع أنشئ في مصر الاسلامية، شيده عمرو بن العاص بعد فراغه من فتح الاسكندرية في سنة ٢١ هـ/ ٦٤٢ (٢٢) على شاطئ النيل في منطقة بها أشجار وكروم (٢٤) وكان غاية في البساطة يشغل مساحة طولها ٥٠×٣٠ ذراعا أي ما يقرب من ٢٩×١٧م (٣٥).

[•] ٣- عن بقايا هذا السور انظر أسامة طلعت عبد النعيم خليل، أسوار صلاح الدين وأثرها في امتداد القاهرة حتى عصر المماليك، رسالة ماجستير قدمت إلى كلية الآثار - جامعة القاهرة عام ١٩٩٢، ص٧٧ وما بعدها.

٣١- ابن سعيد، المغرب، ورقة ٧٥ أ؛ المقريزي، الخطط، جـ، ص٤١؛ جيلان محمد عباس، أثار مصر الإسلامية في كتابات الرحالة العرب والأجانب، رسالة ماجستير قدمت إلى كلية السياحة والفنادق- جامعة حلوان، عام ١٩٨٨، ص١٩٨؛ أحمد عبد الرازق، بيوت الفسطاط، ص٧٠.

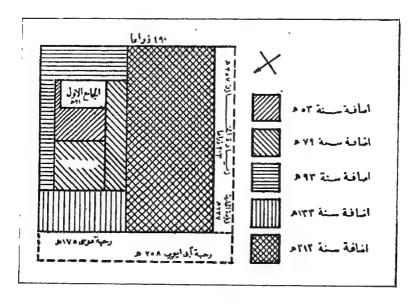
٣٢- عن هذه الحفائر انظر على بهجت وألبير جبرييل، كتاب حفريات الفسطاط، نقله الى العربية على بهجت ومحمود عكوش، القاهرة ١٩٢٧.

K.A.C Creswell, A Brief chronology of the القريزي، الفطط، جـ، ص٢٤١، ص٣٠ muhammadan monuments of Egypt to A.D.1517, Bulletin de IFAO, le Caire,1919, IV,p41.

٣٤- المقريزي، الخطط، جـ٧، ص٢٤٧.

Doris B.Abouseif, Islamic Architecture in Cairo, An Introduction, Cairo, 1989,-70 p.47.

ويطيف به الطريق من كل جهة وجعل له بابان يقابلان دار عمرو $(^{77})$ في الجهة الشمالية التي كان يفصلها عنه طريق عرضه سبعة أذرع $(^{77})$ أي حوالي أربعة أمتار، وبابان في غربه، وبابان في جنوبه، وكان سقفه مطأطأ جدا ولاصحن له ولامئذنة. أما محرابه فلم يكن مجوفا وقد وقف على تحديده ثمانون صحابيا، ومع ذلك فقد جاء مائلا في اتجاه الشرق $(^{77})$. وقيل انه بعد أن فرغ عمرو من بنائه اتخذ له منبرا من عمل بقطر النجار من أهل دندره $(^{79})$ يخطب عليه فكتب إليه الخليفة عمر بن الخطاب يأمره بكسره قائلا: "أما يكفيك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت عقبيك" فكسرة $(^{13})$ وقيل أيضا أنه أعاده بعد وفاة عمر $(^{13})$.



شكل (١) جامع عمرو بن العاص، الإضافات المتعاقبة التي طرأت عليه. عن كمال الدين سامح.

٣٦ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٢١، ص٦٧.

٣٧ - المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٧٤٧، القلقشندي، صبح الأعشى، حـ٣، ص٣٣٧؛ ابن دقماق، الانتصار، حـ٤، ص٧٣.

۳۸ – المقریزی، الخطط، حـ۲، ص۲٤۷، القلقشندی، صبح الاعشی حـ۳، ص۳۷۷، ابن دقماق، الانتصار، حـ٤، ص۲۲.

D.B. Abouseif, Ialamic Architecture, P.49. ابن دقماق، الانتصار

[.] ٤- المقريزي، الخطط، جـ ٢، ص ٢٤٧، ابن بقماق، الانتصار جـ ٤، ص ٢٣.

١٤ - القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٣، ص٣٢٧.

ومازال الولاة والحكام يتناولون مسجد عمرو على تعاقب السنين بالزيادة والتعمير والتجديد حتى بلغت سعته أضعاف الجامع العتيق الذى لم يبق منه سوى قطعة الأرض التى شيد عليها. وأول من زاد فيه هو مسلمة بن مخلد الأنصارى والى مصر من قبل معاوية بن ابى سفيان في سنة ٥٣هـ/ ١٧٣م وذلك عندما ضاق المسجد بأهله، فزاد فيه من الجهة الشمالية ممايلى دار عمرو بن العاص ومن الجهة الغربية (٢٤) وجعل له رحبة في تلك الجهة كان الناس يصيفون فيها، ولاطه بالنورة وزخرف جدرانه وسقفه، وجعل له أربع صوامع في أركانه الأربعة، نقش عليها اسمه وأمر مؤذني الجامع أن يؤذنوا الفجر إذا مضى نصف الليل وألا يضرب بناقوس عند أذان الفجر، كما فرشه بالحصر بعد أن كان مفروشا بالحصراء (٢٤).

وفى سنة ٧٩هـ/ ٢٩٨م أزال والى مصر عبد العزيز بن مروان جدرانه ووسعه من ناحية الجنوب وأدخل فيه الرحبة التى كانت فى غربه (٤٤)، كذلك أمر عبد الله بن مروان والى مصر من قبل أخيه الوليد برفع سقف الجامع وكان مطأطأ وذلك فى غضون سنة ٨٩هـ/ ٧٠٧م (٥٤).

وبعد ذلك بثلاث سنوات أمر قرة بن شريك العبسى بهدم الجامع وإعادة بنائه من جديد، استجابة لأوامر الخليفة الوليد بن عبد الملك وفرغ من ذلك فى سنة ٩٣هـ/ ٢١٧م، بعد أن زاد فيه من ناحية الشرق وناحية الشمال بعد أن أدخل فيه دار عمرو وبعضا من دار ابنه عبد الله ويقايا الطريق الذى بين المسجد وبينهما، ونصب فيه منبرا جديدا من الخشب فى العام التالى بدلا من منبر عبد الله بن سعد بن أبى السرح، كما أمر بعمل المحراب المجوف على غرار المحراب الذى عمره عمر بن عبد العزيز فى المسجد النبوى بالمدينة، وذهب تيجان الأعمدة الأربعة التى تتقدمه، وفتح فيه أحد عشر بابا، أربعة فى شماله ومثلها فى جنوبه وثلاثة فى غربه (٢٤)، وأضاف اليه مقصورة على غرار مقصورة معاوية لمسجد دمشق (٢٤).

٢٤ ـ يلاحظ هنا اختلاف الجهات الأصلية عما ورد في كتابات بعض المؤرخين فقد أثرناء ان نجعل القبلة في جهة الشرق بدلا من الجنوب الشرقي منعا للوقوع في الخطأ واللبس.

M.Ahmad, La ، ١٢٥، ١٤٠ القريزي، الخطط، جـ٢، ص١٤٧، ٢٤٨؛ ابن دقعاق، الانتصار جـ٤، ص١٦٥، ٢٤٨ - ٤٣ mosquee de, Amr Ibn al- As, Le Caire, 1939, p.4.

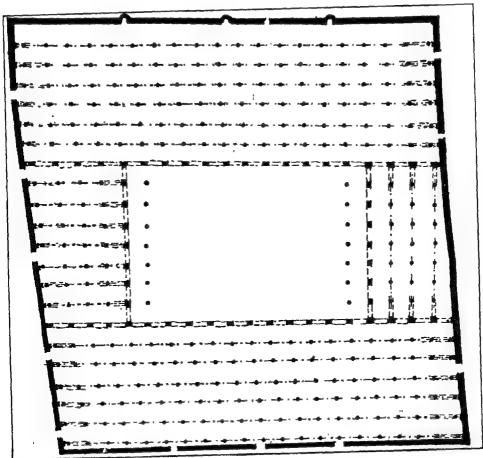
٤٤ - ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص٦٣، المقريزي، الخطط، ج٢، ص٢٤٨.

ه٤ – المقريزي، الخطط، جـ ٢، ص ٢٤٨، ابن دقماق، الانتصار، جـ ٤، ص ٦٣.

٤٦ - ابن دقماق الانتصار، جـ٤، ص١٤، المقريزي، الفطط، جـ٢، ص١٤٨ - ٢٤٩.

M.Ahmed, La mosquée de, Amr,p.6 ، ٣٣٨، ص٣٦٠ القلقشندي، صبح الأعشى، حـ٣، ص٣٨٠ القلقشندي، صبح الأعشى،

وفى خلافة سليمان بن عبد الملك بنى أسامة بن زيد التنوخى، متولى الخراج بمصر، فى سنة ٩٧هـ/ ٥٧٥م بيت المال الذى يعلو الفوارة (٤٨) التى أضيفت إلى الجامع فى أيام العزيز بالله الفاطمى فى سنة ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م (٤١) ويعتقد أن هذا النوع من المبانى كان مخصصا لإيداع أموال اليتامى (٥٠).



شكل (٢) جامع عمرو بن العاص بعد إضافة عبد الله بن طاهر، مسقط أفقى عن فريد شافعى.

۱-۱۸ القریزی، الخطط، جـ۲، ص۲٤)؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص۲۵؛ ابن تغری بردی، النجرم، جـ۱، هـ۸۰ النجرم، جـ۱، ص۸۰؛ السـیـوطی، حـسن المحاضرة، جـ۲، ص۲۳۱؛ Muslim المحاضرة Architecture, Oxford,1932-1940,p.100

٤٩- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٢٥٠.

٥٠ - فريد شافعي، العمارة العربية، ص١٥٦-٢٥٢.

وفى سنة ١٣٣هـ/ ٥٧٥م أدخل فيه صالح بن على دار الزبير بن العوام التى كانت تشغل الركن الشمالى الغربى من الجامع، وأضاف بابا خامسا فى الجدار الشمالى عرف بباب الكحل (٢٥) لأنه كان يقع فى مواجهة زقاق الكحل (٢٥). وقد ظل الجامع على هذا النحو حتى أضاف إليه موسى بن عيسى الهاشمى والى مصر من قبل الرشيد فى سنة ١٧٥هـ/ ١٧٥م نصف الرحبة المعروفة بأبى أيوب التى كانت تقع فى مؤخرة المسجد بالجهة الغربية (٢٥).

وفى سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م قام عبد الله بن طاهر بإضافة مساحة جديدة إلى المسجد من ناحية الجنوب تعادل مساحته التي كان عليها (١٥) وهي خاتمة الزيادات بالجامع الذي أصبحت مساحته الحالية ٥ , ١٢٠ × ٥ , ١١٢م (٥٥).

وإلى جانب تك الإضافات شهد جامع عمرو بن العاص العديد من أعمال التجديد والتعمير لعل أهمها تك الأعمال التى قام بها خمارويه بن أحمد بن طولون فى سنة ٥٧٧هـ/٨٨٨م وأنفق عليه ستة الاف وأربعمائة دينار^(٥٦) كما أضاف إليه الوزير يعقوب بن كلس بأمر من الخليفة الفاطمى العزيز بالله الفوارة التى تحت قبة المال فى سنة ٨٨٨هـ كما سبق أن نوهنا من قبل ونصب فيها حباب للماء من الرخام (٥٥).

وفى سنة ٤٠٣هـ /١٠١٢م أهداه الخليفة الحاكم بأمر الله تنور من الفضة زنته مائة ألف درهم فضة $(^{(\Lambda)})$. وفى رواية أخرى خمسة وعشرون قنطارا، لم يتسع له باب من أبواب المسجد لكبره فخلعوا واحدا وأدخلوه فبه ثم ربوا الباب مكانه $(^{(\Lambda)})$.

وفي عام ١٥٤هـ/١٦٨م تصدعت جدران جامع عمرو نتيجة للحريق الذي أشعله

١٥- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٢٤٩؛ ابن بقماق، الانتصار، جـ٤، ص٥٦.

M. Ahmad, La mosquée de, Amr, p.8.-6Y

٥٣ - المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٤٤٩؛ ابن بقماق، الانتصار، جـ٤، ص٥٦.

٤٥- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٤٤؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص٥٦.

٥٥ - حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ ٢١ ص ٢٥؛ سعاد ماهر محمد، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، القاهرة ١٩٧١، جـ ١، ص٦٦.

٥٦ - المقريزي، الخطط، جـ٢٢ ص٠٥٢؛ ابن دقماق، الانتصار جـ٤، ص٥٦.

٥٧- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٥٥، ابن دقماق، الانتصار جـ٤؛ ص٦٨.

۸ه – المقريزي، الخطط، جـ۲، ص٠٥٠.

٩٥ - ناصر حسرو، سفر نامة، ص ٩٥؛ فريد شافعي، العمارة العربية، ص٣٧٧.

الوزير شاور في مدينة الفسطاط فأصلحه صلاح الدين الأيوبي في سنة ١٨٥هه/١٧٧٨م وجدد بياضة وجلاعمده وأصلح رخامه (٦٠).

وشهد الجامع أيضا العديد من الإصلاحات والإضافات في أيام دولة سلاطين المماليك لعل أهمها ما قام به السلطان عز الدين أيبك والسلطان الظاهر بيبرس الذي أبطل جريان الماء إلى فوارة السلطان المنصور قلاوون من البئر التي بزقاق الأقفال في سنة ١٨٧٨هـ/ ١٨٨٨م (١٦)، كما قام الامير سلار بعمارة الجامع عقب زلزال سنة ٢٠٧هـ/ ١٠٣٠م وهي العمارة التي تخلف عنها الشبابيك الجصية الموجودة بالواجهة الغربية والمحراب الجصي الخارجي (١٢) الذي عمل برسم المالكية وكان يشتمل على شريط من الكتابات العربية بخط النسخ المملوكي (١٢)، وقد أزيل في الإصطلاحات الأخيرة بالجامع.

ويمدنا بعض مؤرخي عصر سلاطين الماليك بوصف مفصل لجامع عمرو في سنة الاهـ/١٣١٣م يفهم من أنه كان يشتمل على أربع وعشرين بلاطة، سبع في ناحية الشرق ومثلها في الغرب وخمس في شماله ومثلها في جنوبه، وكان فيه ثلثمائة وثمانية وسبعون (١٤٠) عمودا وبصدره أي في رواق القبلة ثلاثة محاريب، وذكروا أيضا أنه كان يشتمل على ثلاثة عشر بابا لكل منها اسم يخصه، واحد في جانبه الشرقي يعرف بباب الزنزلخته نسبة إلى شجرة ضخمة كانت بجواره، وثلاثة في جداره الغربي، وخمسة في جداره الشمالي وأربعة في جداره الجنوبي، كما كان فيه خمس مآذن، اثنتان في الشرق: عرفه في الجنوب الشرقي والكبير في الشمال الشرقي، وثلاث في الغرب المستجدة في الجنوب الغربي والسعيدية في الوسطوالجديدة في الشمال الغربي.

ويحدثنا الجبرتى بدوره عن بعض الاصطلاحات التى شهدها جامع عمرو فى أيام مراد بك الذى قام فى سنة ١٢١٢هـ ١٧٩٨ (٦٦) بتعديل رواق القبلة فهدم بائكاته وأعاد بناءها مع تغيير اتجاهها الذى كان يوازى جدار القبلة فى الأصل وجعله يتعامد عليه دون مراعاة

⁻٦- ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص٢٩؛ سعاد ماهر محمد، مساجد مصر، جـ١، ص ٨٨.

٢١ - المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٥٢؛ فريد شافعي، العمارة العربية، ص٢٥٢.

٦٢ – المقريزي، الخطط، حـ٢، ص٢٥٢؛ ابن بقماق، الانتصار، حـ٤، ص٧١.

M.Ahmad, La mosquée de Amr, p.23 - ٦٣ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٢٦.

³⁷⁻ ذكر القلقشندي ان عدد الأعمدة كان ثلثمائة وثمانية وستين عمودا فقط انظر، صبح الأعشى، جـ٣، صبح المعشى، جـ٣،

٥١- ابن دقعاق، الانتصار، جـ٤، ص ٦٠، ١١؛ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٢٥٢ القلقشندي، صبح الأعشى، حـ٣، ٢٣٨، ٢٣٨.

٦٦- الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بولاق ٢٩٨ هـ، جـ٣، ص ١٧٠.

لوضع الشبابيك بهذا الجدار مما إفضى إلى تقابل عقود بعض البائكات الجديدة بفتحات النوافذ في جدار القبلة، وتطلب الأمر سد جميع النوافذ وحرمان هذا القسم من الضوء (٢٧). كما شيد به مئذنتين هما الباقيتان إلى الآن، وأثبت تاريخ هذه العمارة في ألواح تاريخية فوق الأبواب الغربية والمحرابين الكبير والصغير برواق القبلة (٢٨).

وهكذا توالت أعمال الإصلاح والتجديد في جامع عمرو حتى وقتنا الحالى، إذ يشهد الجامع أكبر عملية تعمير تقوم بها هيئة الآثار المصرية، نرجو أن تنتهى في القريب العاجل حتى يعود لهذا الجامع رونقه وعظمته ولاسيما أنه لم يتبق منه سوى بعض العناصر المعمارية التي ترجع إلى أصوله الاولى مثل العقود المدببة التي أصبحت من مميزات العمارة الإسلامية ونجدها في الشبابيك الصغيرة برواق القبلة، كما استخدمت الطواقي الزخرفية الفاصة بالحنيات التي نقشت بين الشبابيك في أعلى الجدار الجنوبي (٢٩١)، كذلك الضريح المنسوب إلى عبد الله بن عمرو في الركن الشمالي الشرقي من المسجد (٢٠٠) الذي قيل انه قبر في داره بعد وفاته (٢١٠) بيد أننا لانستطيع أن نسلم بصحة هذا الرأي لعدة أسباب منها أن دار عبد الله بن عمرو لم تكن تشغل مكان الضريح بل كانت إلى الغرب منه، كما أن هذا الركن كان يشغله المنارة المعروفة بالكبيرة، هذا فضلا عن أن الرحالة عبد الغني النابلسي الذي زار الجامع وتجول فيه إبان سنة ٥٠١١هـ/١٩٣٩م لم يشر إلى هذا الضريح من قريب أو بعد، ولاننسي أنضا طراز القبة المتأخر (٢٠٠).

بقى أن نشير فى النهاية إلى أن جامع عمرو لم يقتصر على أداء الفرائض الدينية فحسب بل كانت تعقد فيه حلقات العلم التى بلغت فى منتصف القرن الرابع الهجرى/ العاشر للميلاد، مائة وعشر حلقات (٧٢)، خصص بعضها للسيدات التى تصدرتها فى سنة ٥٤ هـ /١٠ ٢٤ م واعظة زمانها أم الخير الحجازية (٤٤)، كما كان يعقد فيه مجالس القضاء أو

M. Ahmad, La mosquée de Amr, p.26. - V

٨٨ - حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٢٦.

٦٩ - فريد شافعي، العمارة العربية، جـ١، ص ٣٦٠، ٣٦٠ - ٣٦٩.

٧٠ على مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة، بولاق ١٣٠٥هـ، جـ٤، ص٩.

۷۱ - ابن تغری بردی، النجوم، جـ۱، ص ۱۵۱ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ۱، ص ۷۵.

M.Ahmad, La mosquée de Amr, pp34-38. -VY

٧٣- المقدسى، احسن النقاسيم، جـ١، ص ٢٠٥؛ أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، العلوم العقلية، القاهرة ١٩٩١، ص ٢١.

٧٤- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٣٠.

مجالس القصص (٧٥)، الأمر الذي جعل منه أقدم جامعة علمية في مصر الإسلامية بمعنى أنه يسبق الأزهر في هذا المجال بنحو ستمائة عام (٢٦).

العسبكر

والحديث عن منشآت عصر الولاة يحتم علينا الإشارة إلى مدينة العسكر ثانى مدن مصر الإسلامية، إذ من المعروف أن مدينة الفسطاط ظلت عاصمة لمصر حتى دخلت جيوش العباسيين تطارد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية كما سبق أن أشرنا من قبل، حيث نزلت هذه الجيوش بقيادة صالح بن على في شمال شرقى الفسطاط، أي في المنطقة المعروفة بالحمراء القصوى التي كان يسكنها الروم الذين قدموا مع عمرو بن العاص والتي صارت صحراء جرداء (٧٧).

وبعد هزيمة مروان بن محمد وقتله في بوصير أصبحت الخلافة خالصة لبنى العباس، عندئذ أمر صالح بن على بالبناء في هذا المكان فبنوا وكان ذلك في عام ١٣٣هـ/٥٥٧م. وكان حد هذه المدينة من الجنوب عند كوم الجارح حيث تمتد الآن قناطر مجرى العيون، ومن الشمال شارع مراسينا إلى ميدان السيدة زينب حيث قناطر السباع أمام المشهد الزينبي، ومن الغرب شارعي السد والديورة، ومن الشرق خط تصوري يمتد من جوار خانقاة سلار وسنجر الجاولي بشارع مراسينا إلى باب السيدة نفيسة (٨٧).

وقد شيد في العسكر دار للإمارة ظل ينزلها الولاة العباسيون، كما أذن السرى بن الحكم بعد ولايته سنة ٢٠٠هـ/٨١٦م، للناس في البناء فابتنوا حيث اتصل بناء العسكر ببناء الفسطاط. كذلك شيد بها الفضل بن صالح بن على مسجدا جامعا في سنة ١٦٩هـ/٥٨٧م، لم يكتب له بكل أسف البقاء طويلا وأصبحنا نجهل موقعه من المدينة وكذا معالمه.

ومن المعروف أيضا أن العسكر ثانى عواصم مصر الإسلامية أصبحت مقرا لشرطة خاصة غير شرطة الفسطاط، عرفت بالشرطة العليا، وبذا صارت مدينة ذات محال وأسواق ودور عظيمة لم يبق (٢٩) من أطلالها الشئ الكثير.

٥٧- القريزي، الخطط، جـ٧، ص ٢٥٣.

٧٦ - فريد شافعي، العمارة العربية، جـ١، ص ٣٨٣ - ٣٨٤.

٧٧- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٦٤.

۷۸ - ابن تغری بردی، النجوم، جا، ص ۳۲۱، هامش رقم(۱).

٧٩ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٠٥.

والحق أن مدينة العسكر ظلت مقرا لولاة العباسيين حتى قدم أحمد بن طولون إلى مصر فسكنها مدة ثم تحول عنها إلى مدينة القطائع التى شيدها إلى الشمال الشرقى منها، فلما زالت الدولة الطولونية وخربت القطائع، عاد ولاة مصر للنزول بالعسكر من جديد حتى دخل جوهر الصقلى مصر وبنى مدينة القاهرة سنة ٥٣٨هـ/ ٩٦٩م فتحول مركز الحكم إليها (٨٠).

ويفهم من رواية أحد المؤرخين أن السبب في بناء العسكر يرجع إما لكره العباسيين أن ينزلوا في العاصمة القديمة الفسطاط وأنهم فضلوا إقامة عاصمة جديدة لهم. أو ربما لأن الحريق الذي أشعله مروان بن محمد خرب دار الإمارة بالفسطاط، وهو رأى له وجاهته في الواقع، وإن كنا نميل إلى الترجيح بأن السبب الرئيسي في بناء هذه العاصمة مرجعه إلى الرغبة في إيواء جند العباسيين القادمين لفتح مصر، لأن الفسطاط وخططها كانت آهلة بمن فيها، فاختاروا موضعا خاليا لإقامة خططهم فيه خارج الفسطاط، مع ملاحظة أن منطقة العسكر كانت في الواقع جزءا من الفسطاط الألمال درس كما سبق أن أشرنا من قبل السبب نجهله تماما. وعلى هذا فإن ضيق الفسطاط عن استيعاب هذا العدد الكبير من الجند كان هو الدافع إلى إقامة العسكر كثكنة الجند أولا كما هو واضح من اسمها، ثم شيد بها دار الإمارة فيما بعد (٢٨)، ولم يبن المسجد الجامع فيها إلا في سنة ١٩٦٩هـ / ٥٨٥م أثناء ولاية الفضل بن صالح بن على (٢٨)، أي بعد بناء العسكر بست وثلاثين سنة، ومن هذا الوقت فقط يمكننا القول بأن العسكر صارت مدينة مستقلة عن الفسطاط لأنه حسب رواية المقدسي فقط يمكننا القول بأن العسكر صارت مدينة مستقلة عن الفسطاط لأنه حسب رواية المقدسي «لامدينة الا بمنبر» (١٨) أي بعسجد جامع.

ويعد هذا الجامع ثانى مسجد جامع أقيم فى مصر الإسلامية بعد جامع عمرو بن العاص وقد بقى على حاله حتى ولى مصر عبد الله بن طاهر فى ربيع الأول سنة ٢١٢هـ/ يونيو ٢٢٦م، فجدده وزاد فيه وصار الناس يصلون فيه الجمعة حتى قام أحمد بن طولون بتشييد مسجده فى مدينة القطائع فانصرفوا عنه ومع هذا فقد ظل باقيا حتى سنة براهه ١١٢٣م ثم أصبح بعدها أثرا بعد عين وكان يعرف بجامع ساحل الغلة (٨٥).

٨٠ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٦٥.

٨١- محمد حمدى المناوى، مصر في ظل الإسلام، ص ١٦.

٨٢ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٠٤.

٨٢ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٦٤.

٨٤ - المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٩٣.

٥٨- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٦٤.

مقياس النيل بالروضة

ومن منشآت عصر الولاة نشير أيضا إلى مقياس النيل بجزيرة الروضة فقد عرف المصريون منذ أقدم العصور تشييد المقاييس في شتى أنحاء البلاد ليتعرفوا على ارتفاع النيل نظرا لعلاقته الوثيقة برى الأرض وتحصيل الخراج (٨٦). هذا وتفيض المصادر العربية بالعديد من الروايات عن إنشاء المقاييس في مصر قبل الإسلام، لعل أطرفها ماروى بصدد خصيلم السابع أحدد ملوك مصر بعد الطوفان، الذي روى انه صنع بركة لطيفة وركب عليها صورتى عقاب من نحاس ذكر وأنثى يجتمع عندها كهنتهم وعلماؤهم في يوم مخصوص من السنة ويتكلمون بكلام فيصفر أحد العقابين، فإن صفر الذكر استبشروا بزيادة النيل، وإن صفرت الأنثى استشعروا عدم زيادته وهيئوا ما يحتاجون إليه من الطعام لتلك السنة $(^{(\Lambda N)})$ ، على حين ذهب ابن عبد الحكم إلى أن يوسف عليه السلام هو أول من وضع مقياسا بمنف (٨٨) ثم أنشأت العجوز دلوكة مقياسين أحدهما في (أنصنا) أسنا والآخر بأخميم (٨٩). وتشير المصادر العربية أيضا إلى العديد من المقاييس التي أنشئت بمصر بعد الفتح العربي لها بعضها من إنشاء عمرو بن العاص مثل مقياس أسوان ومقياس دندره(٩٠) وبعضها من إنشاء معاوية بن أبي سفيان مثل مقياس (أنصنا) آسنا الذي بقى مستخدما حتى شيد عبد العزيز بن مروان مقياسا غيره بحلوان في سنة ٨٠هـ / ٢٩٩م (٩١). كما بني أسامه بن زيد التنوخي عامل الخراج مقياسا كبيرا في جزيرة الروضة في خلافة الوليد عام ٩٢هـ/ ٧١١م، أبطل الخليفة سليمان بن عبد الملك العمل به فأقام أسامة بن زيد مقياسا آخر في سنة ۹۷هـ/ ه۱۷^(۹۲).

٨٦- محمد حمدي المناوي، نهر النبل في المكتبة العربية، القاهرة ١٩٦٦، ص ١٤٧.

٨٧- القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٢٩٣؛ قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المسرى في عصر سلاطين الماليك، القاهرة ١٩٧٨، ص ٤٠.

۸۸ – أشار أمين سامى فى كتابه تقويم النيل، القاهرة ١٩١٦، ص ٩٢ – ٩٣ إلى أن مقياس منف ظل مستعملا حتى القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر للميلاد رغم ما جاء على لسان ابن تغرى بردى فى النجوم، جـ٢، ص ٣١١ من أنه بعد بناء المقياس الهاشمى أبطل استعمال جميع المقاييس الموجودة فى مصر.

٨٩- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، طبعة تورى، ص٢١؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٥٧.

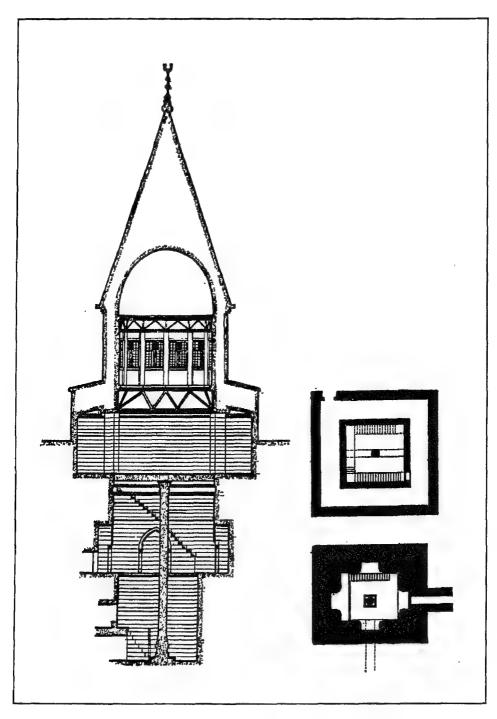
٩٠ المقريزي الخطط، جـ١، ص ٥٧.

۹۱ - ابن مماتى، قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة ۱۹٤۳، ص ۷۵ - ۷۱؛ ياقوت، معجم البلدان، جـ ۲۲ ص ۱۹۲؛ القلقشندى، جـ ۳، ص ۲۹٤؛ المقريزى، الخطط، جـ ۱، ص ۵۷.

۹۲- یاقوت، معجم البلدان، جـ۲۶ ص ۲۱۱؛ القلقشندی، صبح، جـ۳، ص ۲۹۶ المقریزی، الخطط، جـ۱، ص ۵۷؛ ابن تغری بردی، النجوم، جـ۲؛ ص ۲۱۰، ابن مماتی، قوانین الدواوین، ص ۷۲.

وفى سنة ١٤٧هـ / ٨٦٨م (١٠) أمر الخليفة المتوكل الله بإنشاء المقياس الحالى الذي عرف بالهاشمى، أو بالمقياس الجديد، أو بالمقياس الكبير، أو بمقياس الروضة (١٠) إذ يذكر المؤرخ ابن خلكان أن اسم الخليفة المتوكل كان منقوشا فى شريط من الحجر يحيط بأعلى فوهة البئر ويحمل تاريخ رجب سنة ١٤٧هـ / سبتمبر ١٨٨م، وأنه شيد على يد أحمد ابن محمد الحاسب (١٩٠). ومع هذا فقد ذكر البعض أن الذى بنى المقياس هو مهندس عراقى استقدم خصيصا لهذا الغرض اسمه محمد بن كثير الفرغاني (١٩٠) وذلك فى ولاية يزيد بن عبد الله التركى (١٩٠)، وقيل أيضا ان اسمه ابن كاتب الفرغاني وأنه كان قبطيا (١٠٠٠). بيد أن كريزويل عارض هذا الرأى على أساس أن الرجل ينتسب إلى فرغانة التى كانت جزءا من أعمال فارس، تركستان الروسية فى الوقت الحالى، ومن ثم فلا يمكن أن يكون قبطيا، كما زعم أن أحمد بن محمد الحاسب وأحمد بن كثير الفرغاني ماهما إلا شخص واحد (١٠٠١) فى الوقت الذى زعم فيه بوبر أن أحمد بن محمد الحاسب ماهو إلا أحمد بن المدبر (١٠٠١) الذى حل خراج مصر (١٠٠١) مما جعل الشك والغموض يحيطان بشخصية هذا المهندس ولاسيما أن حلاء عصر ١١٠٠ مما جعل الشك والغموض يحيطان بشخصية هذا المهندس ولاسيما أن حله على مداليس ماهو إلا أحمد بن المدبر الانتصار،

- ٩٤ نسب بعض المؤرخين بناء هذا المقياس إلى الخليفة المأمون، انظر ابن تغرى بردى، النجوم، جـ ٢، ص ٢٦٠ السيوطى، حسن المحاضرة، جـ ٢، ص ١٩٧٠؛ كلوت بك، لمحة عامة إلى مصر، تعريب محمد مسعد، القاهرة (بدون تاريخ)، جـ ١، ص ٢٠١٠.
- M.Ahamad, Guide des principaux monuments arabes du Caire, Le Caire, 1939, 10 p.25.
 - ٩٦- ابن خلكان، وفيات الأعيان، بولاق ١٢٩٩هـ، جـ١، ص ٢٢٩ ، ٣٤١.
- ۹۷- ابن أيبك، درر التيجان وغرر تواريخ الزمان، مخطوط مصور، بدار الكتب المصرية تحت رقم ه ٢٦٠ تاريخ، ورقة ٩٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٢، ص ٣١؛ ابن الداية، كتاب المكافأة، صححه وضبطه وشرحه أحمد أمين، على الجارم، بولاق ١٩٤١، ص ١١٠؛ ابن أبى أصيبعة، كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء، القاهرة ١٨٨٢، جـ١، ص ٢٠٧.
 - ٩٩ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٥٧.
 - ١٠٠ فريد شافعي، العمارة العربية، جـ١، ص ٣٨٩.
 - K.A.C. Creswell, Early Muslim, II, pp. 303-304 1.1
- W.Popper, The Cairo Nilometer, Studies in Ibn Taghribirdi's Chronicles of 1. Y Egypt, part I. Berkeley, 1951, pp.22.24.
- ۱۰۳- يذكر بوبر أن أحمد بن المدبر بدأ عمله في مصر سنة ٢٤٧هـ، على حين يذكر المقريزي أنه ولى خراج مصر بعد سنة ٢٥٠هـ انظر الخطط، جـ١، ص ١٠٣، في الوقت الذي اشار فيه ابن إياس إلى ولايته في سنة ٢٥٤هـ انظر بدائم الزهور، طبعة بولاة، حـ١، ص ٣٦٠.



شكل (٣) مقياس النيل بالروضة، مسقط أفقى وقطاع، عن برندنبرج

النص الذى أشار إليه المؤرخ ابن خلكان قد فقد أثناء إصلاحات أحمد بن طولون بالمقياس، كما أنه لم يذكر صراحة أن أحمد بن محمد الحاسب كان مهندسا الآمر الذى يدفع إلى الترجيح بأنه كان أيضا مشرفا إداريا أو ماليا (١٠٤) خاصة ونحن نعلم أن أحمد هذا كان أحد مشاهير علم الحساب وخلف لنا كتاب الجمع والتفريق (١٠٥).

خلاصة القول أن هذا المقياس الذي يشغل الطرف الجنوبي الشرقي من جزيرة الروضة، يعد من أهم آثار عصر الولاة التي احتفظت حتى الآن بكثير من معالمها الأثرية وهو عبارة عن عمود رخامي مدرج ومثمن القطاع، يتوسط بئرا مربعة مشيدة بأحجار مهذبة، روعي في بنائها أن يزيد سمكها كلما زاد العمق فقد شيدت البئر من ثلاث طبقات السفلي على هيئة دائرة، يعلوها طبقة مربعة ضلعها أكبر من قطر الدائرة، والمربع العلوى والأخير ضلعه أكبر من ضلع المربع الأوسط. وهذا التدرج في سمك الجدران يدل على معرفة المسلمين بالنظرية الهندسية الخاصة بازدياد الضغط الأفقى للاتربة كلما زاد العمق إلى أسفل (١٠١).

ويجرى حول جدران البئر من الداخل درج يصل إلى القاع (١٠٠٠) ويتصل المقياس بالنيل بواسطة ثلاثه أنفاق يصب ماؤها في البئر من خلال ثلاث فتحات في الجانب الشرقي بعضها فوق بعض حتى يظل الماء ساكنا في البئر، صممت واجهاتها على هيئة دخلات غائرة في الجدران يعلوها عقود مدببة ترتكز على أعمدة مندمجة في الجدران ذات تيجان وقواعد ناقوسية أورومانية مقلوبة (١٠٠٠).

ويقوم فى وسط البئر عمود من الرخام يعلوه تاج رومانى مركب يبلغ طوله تسعة عشر ذراعا (١٠٠١) حفر عليه علامات القياس بالأذرع والقراريط، يقوم فوق قاعدة من الخشب من جذوع النخيل (١١٠). ومثبت من أعلى بواسطة كمرة أو رباط من الخشب المجوف المحشو

١٠٤ - فريد شافعي، العمارة العربية، جـ١، ص ٣٨٩.

٥٠١- أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، العلوم العقلية، ص٥٥.

١٠١- فريد شافعي، العمارة العربية، جـ١، ص ٣٩١.

K.A.C. Creswell, A Short Account of Early Muslim Architecture. Revised and -\.V supplemented by James W.Allan, Cairo, 1944, p.383, D.B. Abouseif, Islamic Architecture, p.51.

١٠٨ - كمال سامح، العمارة الإسلامية في مصر، القاهرة ١٩٧٠ ، ص١٧

D.B. Abouseif, Islamic Architecture, P.51. - 1.9

K.A.C. Creswell, A Short Account, p.383. - 11.

بالرصاص (۱۱۱)، عليه كتابات كوفية يرتكز على جدران البئر من الداخل المزينة في أعلاها بكتابات كوفية أيضا تشتمل على آية قرانية (۱۱۲)، تعد أقدم أمثلة الكتابات الأثرية في عمائر مصر الإسلامية، خاصة في الجانب الشمالي والجانب الشرقي، أما الكتابات المنقوشة في الجانبين الجنوبي والغربي فهي ترجع إلى أيام أحمد بن طولون الذي قام باصلاح المقياس في سنة ٩٥٧هـ / ١٨٧٣م، وأنفق عليه ألف دينار (۱۱۳). ومن وقتها تناولت مقياس الروضة يد الاصلاح والتجديد فقد عهد الخليفة المستنصر إلى وزيره بدر الجمالي بتجديد المقياس فأتم ذلك في سنة ٨٥هـ / ١٩٧٩م وبني مسجدا في جانبه الغربي عرف بمسجد المقياس (۱۱۶).

وتتحدث المصادر أيضا عن قيام السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى بإضافة قبة فوق بئر المقياس في القرن السابع الهجرى / الثالث عشر للميلاد، كما تشير إلى بعض الإصلاحات التي تمت في عهد السلطان الأشرف قايتباى. كذلك شهد المقياس العديد من الإصلاحات في العصر العثماني على يد كل من السلطان سليم الأول والسلطان سليمان الأول والسلطان سليمان الأول والسلطان سليم الثاني وإن كانت المصادر قد ضنت علينا بطبيعة تلك الأعمال وتاريخها، في الوقت الذي أشارت فيه إلى قيام على بك الكبير ببعض الإصلاحات عام ١٧٢١هـ / ١٧٢١م وإلى قيام حمزة باشا والى مصر بتجديد الرباط الخشبي الذي يثبت عمود المقياس من أعلى في سنة ١٧٠٠هـ / ١٧٥٠م.

وحظى المقياس أيضا بنصيب وافر من جهود الحملة الفرنسية التى قامت فى سنة الادهـ / ١٧٩٩م بتنظيف بئر المقياس من الطمى المتراكم فى قاعه، كما قامت بإضافة قطعة من الرخام مقدارها ذراع إلى عمود المقياس وتاج جديد، ونقشت تاريخ سنة ١٨٠٠هـ / ١٨٠٠م على واجهته الشرقية.

وفى سنة ٥ - ١٣٠هـ / ١٨٨٧م قامت وزارة الأشغال العمومية بتنظيف بئر المقياس مرة ثانية من الطمى المتراكم بداخله، حيث عثر بقاعه على أجزاء من أعمدة القبة التى كانت تعلو البئر وعلى قطعة الرخام التى أضافتها الحملة الفرنسية إلى بدن العمود. وقامت أيضا بإصلاح جوانب البئر واستبدلت تاج العمود بآخر يشبهه وسجلت تلك الأعمال على لوحة رخامية تحمل تاريخ سنة ١٣١١هـ / ١٨٩٣م، وضعت بأعلى الجانب الغربي للبئر. وبعد هذه

١١١- ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص ١١٤.

١١٢ – قرآن كريم، سورة إبراهيم، آية رقم ٣٧.

١١٢- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٥٥؛ ياقوت، معجم البلدان، جـ٤، ص ١١٦.

١١٤ - ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص ١١٥.

الإصلاحات هبط عمود المقياس بمقدار ثلاثه سنتيمترات ثم سنة سنتيمترات فقامت مصلحة المبانى وتفتيش رى الجيزة بالاشتراك مع لجنة حفظ الآثار العربية باتخاذ الاحتياطات اللازمة لإيقاف الهبوط في سنة ١٣٤٣ه / ١٩٢٥م (١١٥) كما أقيم في السنوات الأخيرة فوق المقياس قبة خشبية مخروطية الشكل يزينها زخارف ملونه (١١٦).

وقد ظل النصارى يتولون قياس النيل حتى بناء الخليفة المتوكل لمقياس الروضة فأمر بعزلهم وتعيين مسلم للقيام بهذا العمل فاختير عبد السلام بن الرداد المؤذن وأجرى عليه صاحب الخراج سبعة دنانير (۱۱۷) وبقى هذا العمل فى ذريته من بعده (۱۱۸).

وكان بلوغ النيل ستة عشر ذراعا يعد بشيرا بوفاء النهر وإيذانا ببدء الاحتفالات التى اختلفت من عصر لآخر فقد جرت العادة أن ينادى على زيادة النيل كل يوم منذ أواخر شهر بؤنة (۱۱۹) حتى أمر الخليفة المعز لدين الله الفاطمى بإبطال النداء في شوال سنة مهر بؤنة (۱۹۵ حتى يصل الزيادة إلى ستة عشر ذراعا منعا لاحتكار الأقوات وتخزينها في حالة عدم الوفاء (۱۹۰). بيد أن هذا المنع لم يستمر طويلا فقد روى الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي أقام في مصر في الفترة من ۲۹۹–۲۶۱هـ / ۲۰۱۷ - ۱۰۰۰م انه منذ أول يوم للفيضان يطوف منادون في المدينة بأن الله تعالى قد زاد النيل إصبعا ويذكرون مقدار زيادته كل يوم، وحين تبلغ الزيادة ذراعا كاملا تضرب البشائر ويفرح الناس (۱۲۰)". كما ذكر أبن مماتي ان النيل "يقاس في الخامس والعشريان من باؤنة وبنادي به (۱۲۰)".

M.Ahmad, انظر على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٨١، ص٥١ وما بعدها؛ M.Ahmad, عن هذه الإصلاحات انظر على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٨١، ص٥١ وما بعدها؛ Guide, pp.26-27; K.O. Ghalelb, Le Miqyas où Nilometre de l'île de Rodah, Le Caire, 1951.

D.B. Abouseif, Islamic Architecture, p.51. - \\7

١١٧-أشار ناصر خسرو أن عامل المقياس كان يتقاضي ألف دينار، انظر سفر نامة، ص ٤٢.

۱۱۸ - الكندى، الولاة والقضاة، ص ۲۰۳؛ ابن مماتى، قوانين الدواوين، ص٥٦٥؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٥٧٥.

١١٩- ابن رستة، الأعلاق النفيسة، المجلد السابع، ليدن ١٨٩١، ص ١١٦.

١٢٠ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٢٠.

١٢١- ناصر خسرو، سفر نامة، ص ٤٢.

١٢٢- ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص ٥٥.

وبعد الزيادة يعلق على الشباك الكبير في الجهة الشرقية من دار المقناس ستر أصفر فيعلم الناس بالوفاء. وفي ليلة الوفاء يجتمع قراء القرآن الكريم بدار المقياس وبتناوبون القراءة طوال الليل، كما يحضر المغنون الذين يغنون لمن يكون موجودا في دار المقياس طوال الليل(١٢٢). وفي صباح اليوم التالي يبدأ الاحتفال بوفاء النيل بحضور الحاكم أو من يقوم مقامه، وفي خدمته كبار رجال الدولة وأعيان الملكة في الحراريق المزينة بالأعلام والسناجق وسائر أنواع الزينات حتى يصل الموكب إلى دار المقياس وهناك يعمل سماط حافل بالشواء والطوى والفاكهة يحضره الحاكم وكبار رجال الدولة، ويتخاطف العامة السماط ولايمنع أحد عن ذلك. وبعد الفراغ من الطعام يتم تخليق المقياس، ذلك التعديل الذي أدخل على احتفالات وفاء النيل في العصر الفاطمي(١٧٤)، حيث يذاب الزعفران والمسك في إناء من الفضة ويعطى لابن أبي الرداد الذي يلقى بنفسه في فسقية المقياس وعليه غلالة وعمامة، فيتعلق بعامود المقياس برجله وبده اليسرى ويخلقه بيده اليمني، والقراء من الجانب الآخر يقرون القرآن نوبة نوبة (١٢٥). وكان يعقب تخليق المقياس إحتفال آخر هو كسر الخليج الذي كان يتم في أول الأمر ثالث يوم التخليق أو أربعه (١٢٦)، ثم أصبح تخليق المقياس وكسر السيد يتم في يوم واحد(١٢٧) حيث يمسك الحاكم بمعول من الذهب الخالص ويضرب السيد(١٢٨). ثلاث ضربات، ثم يأتى جمع غفير من الناس بفئوسهم فيحفرون هذا السد حتى يجرى الماء في الخليج (١٢٩). وقد ظلت مظاهر الفخامة والأبهة تحيط باحتفالات وفاء النيل وكسر الخليج حتى أوا خر عصر سلاطين المماليك^(١٣٠).

۱۲۰ - ابن دقماق، الانتصار، حـ٤، ص ۱۱٤ ، ۱۱٥.

١٢٤ لا نعلم تاريخا محددا لبداية احتفالات التخليق قبل عام ١٦٥هـ/ ١١٢٢م. انظر المقريزي، الخطط،
 ١٦٤ م. ٤٧٠.

١٢٥- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٤٧٦، ابن إياس، بدائع الزهور، طبعة بولاق، جـ١، ص ١٢١.

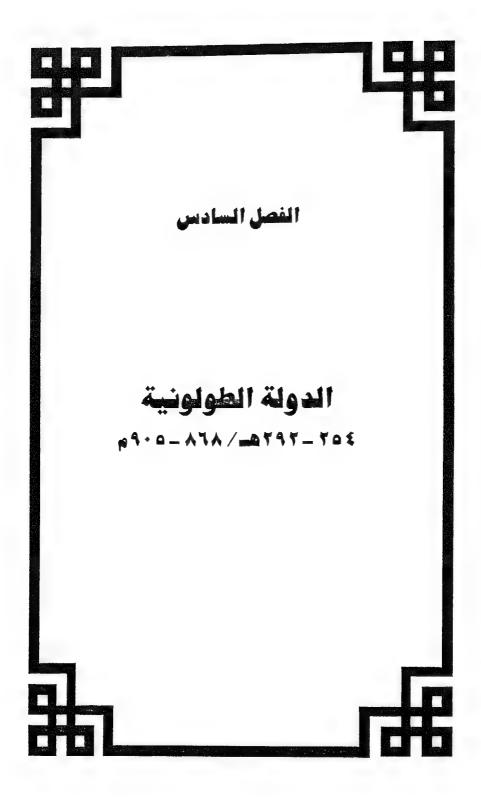
١٢٦- المقريزي، الخطط، ج١، ص ٤٧٧ القلقشندي، صبح الأعشى ج٣، ص ١٤ه.

١٦٧ - ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص ١١٥؛ محمد حمدى المناوى، ثهر النيل، ص ١٦٤.

١٢٨ – ذكر المقدسي أن مكان السد في عين شمس، انظر أحسن التقاسيم، ص ٢٠٦ لكننا نرجح أن موقعه كان عند القنطرة التي شيدها عبد العزيز بن مروان على فم الخليج عند خروجه من النيل.

١٢٩ - قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى، ص ٥٥.

١٣٠ - ابن إياس، بدائع الزهور، طبعة بولاق، جـ٢، ص ٣٧٤.



تميزت الفترة التى سبقت قيام الدولة الطولونية بالتأخر فى جميع نواحى الحياة بسبب سياسة العباسيين التى قامت على كثرة تغيير الولاة لئلا يطمعوا فى الاستقلال بالبلاد، كما أصبح الولاة منذ سنة ٢٤٢هـ/ ٢٥٨م من الأتراك وذلك بعد صرف عنبسة بن إسحق، آخر وال عربى على مصر^(۱). ولقد أساء هؤلاء الأتراك لأهل البلاد ولم يصبح لديهم من هدف سوى الإثراء السريع عن طريق استحداث الضرائب التى أثقلت كاهل المصريين، وأفضت إلى خراب البلاد.

ولما زاد نفوذ الاتراك في دار الخلافة، أخذ الخلفاء يقطعون بعض الأقاليم لأمراء الجند، وكان هؤلاء الأمراء يفضلون البقاء في بغداد حتى يأمنوا قيام الدسائس ضدهم إذا ابتعدوا عن بلاط الخليفة، الذي كان يفضل بدوره بقاءهم إلى جانبه حتى لا يفكروا بالانسلاخ عن الخلافة في حركات استقلالية بأقاليمهم. لذلك كان هؤلاء الأمراء يرسلون عمالا من قبلهم لحكم تلك الأقاليم باسمهم ويدينون لهم بالولاء(٢).

فى هذه الظروف جاء أحمد بن طولون إلى مصر بعد عزل أرجوز بن أولوغ طرخان $^{(7)}$ ، وهو من أصل تركى، إذ كان أبوه طولون الذى يعنى اسمه البدر الكامل فى اللغة التركية $^{(3)}$ ، من الرقيق الذين أرسلهم نوح بن أسد السامانى عامل بخارى وخراسان إلى الخليفة المأمون العباسى فى سنة $^{(7)}$ هـ $^{(7)}$ م، فصار من مماليكه وارتقى حتى صار من جملة الأمراء، وولد له ابنه أحمد هذا من جارية تسمى هاشم أو قاسم فى سنة $^{(7)}$ هـ $^{(7)}$ م بمدينة بغداد على أرجح الآراء، وليس بمدينة سامراء كما يزعم المؤرخ ابن خلكان $^{(7)}$ ، لسبب بسيط هو أن هذه المدينة لم تشيد إلا فى العام التالى لمولده $^{(7)}$.

وقبل بلوغ أحمد سن العشرين توفى والده طولون في سنة ٢٤٠هـ/ ١٥٨م، فتزوجت

١- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣١٢؛ محمود رزق محمود، المجتمع المصرى في العصر الطواوني، رسالة
 دكتوراه قدمت إلى كلية الأداب – جامعة عين شمس ١٩٨٥، ص ٤.

٢- محمد حمدي المناوي، مصر في ظل الإسلام، جـ ١ ، ص ٥٢ .

Lane- Poole, History of Egypt in the Middle Ages, London, 1925, p.57, Z.M.Hassan, -\tilde{\tau} Les Tulunides, Paris, 1933, p.35.

٤ - سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طواون، ص ١٧.

٥- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، حققها وعلق عليها محمد كرد على، دمشق ١٣٥٨هـ، ص ٣٣؛ المقريزي الخطط، جـ١ ، ص ٣١٣.

٦- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٦٩.

٧- حسن أحمد محمود، حضارة مصر الإسلامية في العصر الطولوني، القاهرة (بدون تاريخ)، ص ٢٣.

أمه قاسم بن بغا الأصغر، أحد زعماء الجند الأتراك، كما تزوجت للمرة الثالثة من بكباك الذي خلف بغا في وظيفة الأمين بالبلاط العباسي $^{(\Lambda)}$. وفي هذه الأثناء لقى أحمد الكثير من عناية الجند الأتراك، كما حصل على التربية العسكرية التي تؤهله للعمل في حرس الخليفة، وحظى كذلك بدراسة اللغة العربية وآدابها، وحفظ القرآن والحديث، وتفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة $^{(\Lambda)}$ ، وفاق بذلك أقرائه من الأتراك وحل منهم محلا حسنا $^{(\Lambda)}$.

ثم تزوج أحمد بن طولون من خاتون ابنة يارجوخ، فولدت له ابنه البكر العباس (۱۱) في سنة ٢٤٢هـ/ ٨٥٦م، ويبدو أن حياة الجند الأتراك لم تلق من أحمد سبوى الازدراء، لما كانوا يرتكبونه في حق الخلفاء، وكان يقول دائما: «إن حرمة الدين عندهم مهتوكة». ولذلك طلب من الوزير عبيد الله بن خاقان أن يعين له رزقا في طرسوس (١٢)، ليكون في جهاد متواصل وثواب دائم عن طريق اتصاله بمن فيها من العلماء والفقهاء، وإن كنا لا ندرى كم من الوقت قضاه هناك، وكل الذي نعلمه أن مقتل الخليفة المتوكل وأخذ البيعة للمستعين من بعده قد عجلت بعودته في سنة ٨٤٢هـ/ ٢٠٨م إلى سامراء ليكون على مقربة من الأحداث (١٣).

ويفهم من المصادر التاريخية أنه كان على علاقة طيبة بالخليفة المستعين (11) لإنقاذه قافلة راجعة من بلاد الروم محملة بالهدايا للخليفة، الذي بعث إلى أحمد بألف دينار سرا، تقديرا لشجاعته، وأخبره أنه لولا خوفه عليه من حسد أقرانه لقربه إلى جواره. ومع هذا فقد توالت على أحمد صلات المستعين وعطاياه التي كان من بينها جارية تدعى مياس رزق منها بابنه خمارويه (١٥).

ويبدو أن علاقة أحمد بن طواون بالخليفة المستعين العباسى قد استمرت على هذا النحو بدليل أن الأخير قد اختاره ليصحبه إلى واسط بعد عزله عن الخلافة في سنة

Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.28. -A

٩- سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طولون، ص ١٨؛ ابن تغرى بردى النجوم، جـ٣، ص ٤.

١٠- البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص ٣٥.

Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.29. - \\

١٧ – البلوي، سبيرة أحمد بن طواون، ص ٣٦؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣١٣.

١٣ - حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص٢٦؛ سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طولون، ص ٢٠ - ٢١.

١٤- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص٥.

٥١- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٢١٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣. ص٥؛ البلوي، سيرة أحمد بن طواون، ص ٢٩.

وكتب إليهم بأنه لا يقتل خليفة له في رقبته بيعة على حد تعبير البلوى والمقريزي(١٦) فبعثوا وكتب إليهم بأنه لا يقتل خليفة له في رقبته بيعة على حد تعبير البلوى والمقريزي(١٦) فبعثوا إليه بسعيد الحاجب الذي تسلم المستعين وقتله، فقام أحمد بن طولون بدفن جثته وعاد بعدها إلى سامراء(١٠٠) ليجد أن النفوذ والسلطان قد صار إلى أيدى الجند من الأتراك، الذين نصبوا المعتز على عرش الخلافة(١٨). وكان باكباك زوج أمه أقوى هؤلاء الجند وأعظمهم شأثا، قد حصل من الخليفة في سنة ٤٥٤ه/ ٨٦٨م على أقطاع مصر، بيد أن حرصه على عدم مغادرة سامراء عاصمة الخلافة، ليكون على مقربة من مجريات الأحداث، وفي مأمن دائم من دسائس خصومه، وقريبا من أنصاره وأشياعه مصدر قوته وعصبيته، دفعه إلى اختيار ابن زوجته أحمد بن طولون ليكون نائبا عنه في مصر، فسار إليها في رمضان سنة ٤٥٢ه/ سبتمبر ٨٦٨م متقلدا للقصبة أي الفسطاط وأسيوط وأسوان دون غيرها من الأعمال الخارجة عنها مثل الإسكندرية وغيرها، واستقدم معه بعض المواطنين من غيرها عنه ضد أي ثورة يقوم بها الشعب، ولإحباط ما قد يقوم به بعض المواطنين من دسائس، كما حضر معه أحمد بن محمد الواسطي(١١) الذي كان قد عهد إليه بخدمة الخليفة المستعين حين كانت حراسته موكولة إليه، والذي صار بمثابة ساعده الأيمن في الدارة شئون الملاد.

وبدأت مصر منذ ذلك التاريخ عهدا جديدا هو عهد الاستقلال الذاتي، إذ عمل أحمد ابن طولون على تأسيس دولة يحكمها وأولاده من بعده واستقل بأمور البلاد^(۲۰). والحق أن ابن طولون كان سياسيا قديرا خبيرا باختيار الرجال، كما كان بارعا في انتهاز الفرص والاستفادة منها، لذلك أمكنه أن يتغلب على المصاعب الداخلية والخارجية التي واجهته، وأولى هذه العقبات التي تغلب عليها هو التخلص من أحمد بن المدبر عامل الخراج الذي ولى هذه الوظيفة منذ سنة ٧٤٧هـ/ ١٨٨م حسبما ورد في بعض الوثائق البردية^(٢١) وليس

١٦- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٤٠؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣١٤.

Ibn said, La Biographie d'Ibn Tulun d'après Ibn al-Daya, éditée par vollers, weimar, -\V 1895, p.7.

Z.M. Hassan, Lcs Tulunides, p.33. -\A

١٩- البلوي، سيرة أحمد طولون، ص ٤٤؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٢١٤.

٢٠- محمد حمدي المناوي، مصر في ظل الإسلام، ص ٥٢.

فى سنة ٢٥٠هـ/ ٢٨٥م كما يزعم المقريزى (٢٢). وكان ابن المدبر هذا قد لجأ إلى إدخال ضرائب جديدة فى مصر وإلى اغتصاب ثروات الأغنياء ومن ذلك أنه أحاط بالنطرون أى كربونات الصوديوم وحجر عليه بعد أن كان مباحا لجميع الناس، وفرض ضريبة على الكلأ عرفت باسم المراعى، وأخرى على ما يستخرج من البحر عرفت باسم المصائد (٢٢) مما زاد فى بؤس الشعب فى مصر الذى أصبح منذ تولى ابن المدبر ينوء تحت عبء ثقيل من الضرائب. ليس هذا فحسب بل عمد ابن المدبر أيضا إلى العيش فى أبهة وفخامة ومظهر جليل يفوق ما كان للولاة أنفسهم الأمر الذى لفت نظر ابن طولون، لاستخدامه حرسا خاصا مكونا من مائة غلام امتازوا بجمالهم وقوة أبدانهم وحسن هندامهم، كانوا يصحبونه فى غدواته وروحاته (٢٤).

وقد هرع ابن المدبر إلى استقبال أحمد بن طولون حاملا معه هدية تتألف من عشرة ألاف دينار، ردها ابن طولون (٢٥) على نحو لم يعهده ابن المدبر من الولاة الذين سبقوه، ومن ثم فقد سارع بالكتابة إلى بلاط الخليفة محذرا من أحمد بن طولون لاعتقاده بأن من يرفض هدية كمثل التى قدمها إليه ليس من الحكمة أن يوكل إليه أمر إقليم ناء عن الحكومة المركزية (٢٦) مثل مصر. غير أنه فوجئ بأن ابن طولون لا يمانع في قبول الحرس المحيط به لأنهم ألزم إليه من المال الذي عرضه عليه، فلم يسع ابن المدبر سوى المتنازل عن هذا الحرس، وبذا نقصت هيبته بمفارقتهم مجلسه، وزال جمالهم لهم بين يديه (٢٢). مجمل القول أنه منذ تلك الساعة بدأ النضال بين ابن طولون وابن المدبر، يشتد ويقوى عن طريق عمالهما وجواسيسهما في سامراء حتى انتهى بفوز أحمد بن طولون عندما كتب إليه الخليفة المعتمد يستحثه في جمع الأموال فكتب إليه ابن طولون: «لست أطيق ذلك والخراج مصر.

٢٢ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص ١٠٣؛ سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طولون، ص ٤٧.

٢٣- المقريزي، الخطط، جا، ص١٠٢، ١٠٦.

٢٤- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٤٤؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٢١٤.

٢٥- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٤٤، ٤٤؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٢١٤.

Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.39 :هندة إسماعيل كاشف، ص٥٠؛ حالات

۲۷ البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص ه٤؛ Biographie d'Ibn Tulun, p.9

۲۸ – ذکرته سیدة کاشف تحت اسم نسیم، انظر أحمد بن طولون، ص ۲۹ وذلك نقلا عن زكی محمد حسن ۲۸ – Les Tulunides, P.51

۲۹- الكندى، الولاة والقضاة، ص ۲۱۷؛ البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ۷۳؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣١٩.

كما نجح أيضا في أن يمد نفوذه على مصر كلها بما في ذلك الإسكندرية وبرقة عندما وانته الفرصة بعد مقتل باكباك، إذ منحت مصر إلى يارجوخ، الذى تطلق عليه بعض المصادر خطأ اسم ماجور، وكان قد أعطى أحمد بن طولون احدى بناته زوجة له كما سبق ان أشرنا من قبل. وعمل يارجوخ هذا على تثبيت صهره ابن طولون في مصر نيابة عنه، بل وأطلق يده فيها، وخاصة مما لم يكن واقعا تحت سلطانه إذ أرسل إليه قائلا: «تسلم من نفسك لنفسك»(٢٠).

كذلك حانت لابن طولون فرصة إنشاء جيش خاص عندما ثار عيسى بن الشيخ، والى فلسطين والأردن وشق عصا الطاعة على الخليفة المعتمد ورفض الاعتراف بسلطانه، وأراد الاستقلال بولاية فلسطين والأردن بالإضافة إلى أطماعة في ضم مصر أيضا، واستولى على سبعمائة وخمسين ألف دينار كانت مرسلة من مال مصر إلى العراق. ورغم أن الخليفة المعتمد قد عرض عليه أن يوليه أرمينية مقابل خضوعه وانسحابه من الشام، إلا أنه رفض لأنه كان يصبو في الواقع إلى الجمع بين الولايتين وأن يضيف إليهما مصر إذا استطاع إلى ذلك سبيلا. فأرسل المعتمد إلى ابن طواون طالبا منه التأهب لحرب ابن الشيخ، فسارع إلى تكوين جيش قوى من الأتراك والروم والسودان بلغ مائة ألف وقيل أيضا مائتى ألف، وسارع بالخروج الخضاعه بعد أن استخلف على مصر أخاه موسى (٢١)، إلا أنه تلقى أمرا من الخليفة بالعودة إلى مصر، بعد أن عهد إلى أماجور بالقضاء على ابن الشيخ، الأمر الذي يدفع إلى الترجيح بأن الخليفة المعتمد قد أدرك في اللحظة الأخيرة أن من الحكمة منع ابن طواون من التوغل في بلاد الشام لئلا يسعى إلى مصر والاستقلال بها، ولعل الخليفة رغب أيضا في التخلص من أماجور وإبعاده عن بلاط الخلافة عن طريق إقطاعه الشام والقضاء على ثورة ابن الشيخ(٣٢). خلاصة القول أن ابن طواون قد غنم من هذا الوضع إذ عاد بجيشه كاملا، وصار هذا الجيش في يده أداة قام عليها سلطانه إذ تمكن أن يقضى به على كل منافسيه والثائرين عليه في برقة والإسكندرية والصعيد فيما بعد، إذ استطاع بعد خمس سنوات من حضوره إلى مصر أن يضم لنفسه الخراج في البلاد وأن يكون أميرا على مصر كلها بما في ذلك الإسكندرية وبرقة وأن يكون جيشا وأن يبنى عاصمة جديدة له(٢٢).

٣٠- البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص ٤٩، المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣١٥.

٣١- البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص ٥٠ - ٥٥؛ للقريزي، الخطط، ج١، ص ٥١.

٣٢ - سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طواون، ص ٦٥.

٣٣ - البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص ٥٣؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣١٥.

بيد أن سلطانه سرعان ما تعرض للخطر عندما تغلب الأمير الموفق طلحة على أخيه المعتمد واضطر الخليفة إلى إقطاعه مصر علاوة على الولايات الشرقية، وقد أرسل الموفق يطالب ابن طولون بالأموال والمنسوجات والعبيد والخيل والشمع وما إلى ذلك من الجزية التى اعتادت مصر إرسالها إلى الخلافة في كل عام، فلم يرسل له سوى ألف ألف ومائتى ألف دينار استصغرها الموفق⁽³⁷⁾ وأعد جيشا لإخراجه من مصر إلا أن ابن طولون انتهز فرصة موت أماجور والى الشام في سنة 377هـ/ ٨٧٨م⁽⁶⁷⁾ وقاد جيشه إليها، ودخل الرملة ودمشق وحمص وحماة وحلب وأنطاكية، وصار ملكه يشمل مصر والشام وبرقة^(٢٦).

والواقع أن امتداد سلطان أحمد بن طولون إلى حدود دولة الروم بعد دخوله طرسوس، ذلك الثغر الذى أمضى فيه زمنا من شبابه بين العلماء والمجاهدين جعله يفكر في غزو الدولة البيزنطية لولا ما بلغه من ثورة ابنه العباس فأسرع بالعودة إلى القطائع فى سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٨م ليقضى على هذه الثورة (٢٧) التى انتهت بهزيمة العباس وأعوانه بعد فرارهم إلى برقة، حيث تم إحضارهم إلى الفسطاط في سنة ٨٢٨هـ/ ٨٨٨م (٨٢٨)، وأمر ابن طولون بضرب ابنه ومن أغروه على الخروج والعصيان بالسياط حتى مات بعضهم من الضرب وزج بابنه في السجن (٢٩).

ومن أجرأ المحاولات التى قام بها أحمد بن طواون، وإن لم يكتب لها النجاح، محاولته نقل مقر الخلافة العباسية إلى مصر، منتهزا فرصة الخلاف بين الخليفة المعتمد وأخيه الموفق، لاستبداد الأخير بالأمور، إذ أرسل إلى الخليفة في سنة ٢٦٨هـ/ ١٨٨٨ يغريه بترك بغداد والالتجاء إلى أملاكه بمصر ('')، فرحب المعتمد بالفكرة ضجرا من أخيه، ونكرج بالفعل من بغداد ومعه بعض خواصه بزعم أنه ذاهب للصيد ('')، ولكن

٣٤ - البلوي، سيرة أحمد بن طواون، ص ٨٠ ، ٨١.

Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.64 - To

٣٦- محمد حمدي المناوي مصير في ظل الإسلام، ص ٥٤.

٣٧ - سبيدة إسماعيل كاشف، سبيرة أحمد بن طواون، ص ٦٤.

٣٨- الكندي، الولاة والقضاة، ص ٢٢٤؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢٠.

٣٩ - البلوي، سبيرة أحمد بن طواون، ص ٢٦١، ٢٧١.

[.] ٤ - ابن سعيد، المغرب ص ١٣٦ - ١٢٧؛ البلوي، سيرة أحمد بن طواون، ص ٢٨١.

١٤ الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٢٥؛ البلوى، سيرة أحمد بن طواون، ص ٢٨٦؛ المقريزى، الخطط، جـ١،
 ص ٣٢٠؛ الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، القاهرة ١٩٢٩، ج٨، ص ١٠٨.

الموفق بلغه الخبر فأرسل إلى عامله بالموصل إسحق بن كنداج يطلب منه رد المعتمد ويمنيه بالإقطاعات الواسعة والمال الجزيل(٤٢)، وقد استطاع إسحق أن يقبض على الخليفة وحاشيته وأعاده إلى أخيه الموفق، الذي خلع على إسحق ولقبه بذي السيفين وعقد له على مصر بدلا من أحمد بن طواون^(٤٣)، فما كان من أحمد، وكان حينئذ بدمشق، إلا أن أحضر قضاة أعماله واستفتاهم في خلع الموفق، وأمر بقطع اسمه من الخطبة، ومحو اسمه من الطراز، وأشهد الجميع على ذلك فيما عدا القاضي بكار بن قتيبة الذي تعلل بقوله «لم يصح عندى ما فعله أبو أحمد ولم أعلمه (٤٤)». ولم يكتف ابن طواون بذلك بل جرد حملته المشهورة على الحجاز ليمنع من أن يدعى للموفق على منابر مكة، ولكن أهل مكة ساعدوا العراقيين فكانت الهزيمة على المصريين، وحين بلغ الموفق ما فعله ابن طولون كتب بدوره إلى عماله يأمرهم بلعن ابن طواون على المنابر فلعن في سائر الأمصار (٤٥). وظل العداء بين الرجلين حتى رأى الموفق أن التمادي فيه لن يؤدي إلى خير فراسل ابن طولون معاتبا على المبادرة بخلعه وإسقاط اسمه، ويعتذر له على ما كان من لعنه على منابر بغداد، ولم يكن من أحمد بن طواون بعد أن تأكد من صدق رغبة الموفق، إلا أن جنح إلى المسالمة واعتذر إليه (٤٦)، وظلت المفاوضات تسير إلى غايتها حتى قاربت على التمام، وخرج رسول الموفق حاملا كتاب الصلح وإسقاط اللعن عن أحمد بن طولون فلما بلغ الرقة بلغه موت ابن طولون فقفل راجعا الى عاصمة الخلافة(4).

وهكذا نرى أحمد بن طولون استمات فى الدفاع عن حقوق اكتسبها حتى آخر رمق فى حياته فقد لقى ربه يوم الأحد لعشر خلون من ذى القعدة سنة 70هـ/ مايو 80 ممر 80 وقد الخمسين 80 بعد أن حكم مصر زهاء ستة عشر عاما 80 وقد دولة موطدة الأركان، إذ عنى عناية كبيرة بالإصلاحات الداخلية، وأحسن استغلال موارد

٤٢ - البلوي، سيرة أحمد بن طواون، ص ٢٩٠.

²³⁻ البلوي، سيرة أحمد بن طواون، ص ٢٩٣؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢٠.

٤٤ - البلوى، سيرة أحمد بن طواون، ص ٢٩٤ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢٠ - ٣٢١.

٥٥ – البلوي، سيرة أحمد بن طواون، ص ٢٩٨ – ٢٩٩ محمد حمدى المناوى، مصر في ظل الإسلام، ص ٥٥ البلوي، سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طواون، ص ١١٠.

٤٦ - سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طولون، ص١١١.

Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.95 - £V

٤٨- البلوى، سيرة أحمد بن طواون، ص ٣٤٣؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢٠.

Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.96 - ٤٩

٥٠ - سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طولون، ص ١١٢.

البلاد^(۱۰)، وأمر باسقاط الكثير من الضرائب التى أثقلت كاهل الناس خصوصا ما فرضه ابن المدبر^(۲۰)، واهتم بعمارة البلاد وحفر الترع وإقامة الجسور^(۲۰)، فعم الرخاء في عهده حتى بيع القمح كل عشرة أرادب بدينار^(۱۰). كما اهتم بأحوال الشعب فحظر الرشوة على عماله^(۱۰)، وشدد قبضته عليهم وعاقب من يعتدى منهم على الأهالي^(۲۰).

وكان يشرف بنفسه على أعمال الدولة، ويستطلع أحوال الرعية، حتى أنه كان يعرف من أمورهم الكثير. فكان يعرف عن أهل الفسطاط التقوى والصلاح $(^{(V)})$. أما أهل العسكر فكانوا على ما يظهر يميلون إلى اللهو $(^{(V)})$. ولعل ذلك راجع إلى أن أهل الفسطاط كان أغلبهم من العرب، على حين كان أغلب أهل العسكر من الترك وغيرهم من الأجناس الذين استولوا على زمام الأمور في الدولة العباسية.

كذلك أكثر ابن طواون من الاستعانة بالمصريين في إدارة شئون البلاد، إذ استعان بكاتب مصرى هو جعفر بن عبد الغفار بعد خروج أحمد بن محمد الواسطى كاتبه وأكبر أعوانه إلى بغداد (٥٩)، لأنه استطاع ان يعرف بثاقب بصره أن المصريين أقدر على تدبير أمورهم خصوصا المالية، حتى أصبحت الإدارة المالية كلها في أيديهم.

وعلى هذا يمكن القول أنه إذا كان عمرو بن العاص صاحب الخطوة الأولى فى بناء مصر الإسلامية، فإن أحمد بن طولون هو صاحب أول تجربة لإنشاء كيان مصرى خاص داخل الكيان الإسلامي العام، وفضله من هذه الناحية عظيم، لأنه يعتبر بمثابة النموذج الذي سار على منواله محمد بن طغج الإخشيد، ثم الفاطميون والأيوبيون، فإن كانت تجربة

١٥- محمد حمدي المناوي، مصير في ظل الإسلام، ص ٥٦.

٢٥- المقريزي، الخطط، جـ١، ص١٨٤؛ محمود رزق محمود، المجتمع المصري، ص ١٠٦٠.

٥٣ - جروهمان، أوراق البردى العربية، ترجمة حسن إبراهيم حسن، مراجعة عبد الحميد حسن، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٧٤، جـ٤، ص٩٢ ، ٩٧.

٤٥- ابن الداية، المكافأة، ص ١٣٣، المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٣١.

٥٥ - محمود رزق محمود، المجتمع المصرى، ص ٣٧٩ الذي يؤكد مع ذلك انتشار الرشوة في أيامه نقلا عن البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص ١٠١؛ ابن سعيد، المغرب، ص ١٠١.

٥٦ محمد حمدي المناوي، مصير في ظل الإسلام، ص ٥٦.

٥٧ – البلوي، سيرة ابن طولون، ص ٢٠٥ ، ٢٠٩.

۸ه– البلوی، سیرهٔ این طولون ، ص ۲۰۵ ، ۲۰۳.

٥٩ محمود رزق محمود، المجتمع المصرى، ص ١٣.

ابن طولون قد انتهت بالفشل فإن عبرتها ظلت باقية لتصبح محورا لتاريخ مصر الإسلامية (٦٠).

ولقد أقام أحمد بن طولون في أول الأمر في مدينة العسكر وبزل دار إمارتها (١١)، وأسس فيها سنة ٩٥٨هـ/ ٩٨٣م بيمارستانا اشتهر بدقة أنظمته (٢٦)، كما شرع في غضون سنة ٢٥٢هـ/ ١٨٠٠م في تأسيس مدينة جديدة عرفت بالقطائع (٢٦) لتكون مركزا لحكمه وقصرا لجنده وحاشيته الذين اقتسموها، فسميت لذلك بالقطائع، وربما كان تأسيس ابن طولون لهذه المدينة مرتبطا بضرورة إبعاد جيشه غير المتجانس عن الأحياء العربية المصرية وتجنب ما كان ممكنا حدوثه من الشغب بسبب اختلاط جنده بالتجار وغيرهم من سواد الشعب على نحو ما حدث لجند الخليفة المعتصم في بغداد، وكان سببا في إنشاء مدينة سامراء (١٤٠). ولعل تأسيس القطائع كان مرتبطا أيضا بأطماع ابن طولون في الاستقلال بحكم مصر. وقد اختط ابن طولون القطائع في الطرف الشمالي الشرقي من العسكر، وكانت هذه المدينة تقع من جهة بين جبل يشكر وهو الحد الشمالي للفسطاط وبين سفح جبل المقطم عند مكان القلعة الحالية، الذي كان يعرف سابقا باسم قبة الهواء، ومن جهة أخرى بين الرميلة تحت قلعة الجبل إلى مشهد الرأس، الذي عرف فيما بعد باسم مشهد زين العابدين، وكانت مساحتها ميلا مربعا (١٥).

وشيد بها مسجده المعروف الذي انتهى من بنائه في سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٩م كما يتضبح من بقايا اللوحة التأسيسية التي بداخله المنقوشة بالخط الكوفي (٦٦).

١٠- محمد حمدي المناوي، مصر في ظل الإسلام، ص ٥٨.

١١- محمود رزق محمود، المجتمع المصرى، ص ٢٢١.

۲۲- ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص٩٩، المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٤٠٥ - ٤٠١؛ القلقشندى، صبح، جـ٣، ص ٢٢٠؛ من ٢٣٠؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١٠، ١٢٢؛ محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، القاهرة ١٩٨٠، ص ١٥٥ - ١٥٠.

٦٣- المقريزى؛ الخطط، ج١، ص ٣١٣؛ حسن الباشا، مدينة القطائع، القاهرة تاريخها، فنونها، واثارها، ص ١٦٠.

Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.292, -18

٥٠- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣١٣؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص ١٤١.

Van Berchem, Materiaux Pour un Corpus inscriptionum arabicarum, MIFAO, t.19, -\\
Le Caire, 1894-1903, Egypte, I, P.29, Répertoire chrologique d'épigraphie arabe, Le
Caire, 1431-1982, III, p. 199, K.A.C. Creswell, A Short Account, p.393.

وعلى الرغم من الأموال الطائلة التى أنفقها ابن طولون على هذه الأعمال الا أنه ترك في خزائنه عند وفاته سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٤م، عشرة الاف ألف دينار من الذهب، ومن المماليك سبعة الاف مملوك، ومن الغلمان أربعة وعشرين ألف غلام، ومن الخيل الميدانية سبعة الاف رأس، ومن البغال والحمير ستة الاف رأس، ومن الدواب لخاصته ثلثمائة، ومن مراكبه الجياد مائة. وكان يدخل إلى خزائنه في كل سنة بعد مصاريفه ألف ألف دينار (٢٥).

ورغم هذا فقد اختلفت فيه الآراء بين مادح وقادح، فالبعض لا يرون فيه إلا الرحمة والتقوى والبر، وآخرون لا يستشعرون فيه إلا القسوة والعنف والتجسس، وكلا الرأيين فيه شئ من الصحة وكثير من المغالاة، لأن ابن طولون لم يكن بدعا بين بناة الأمم، أو نسيجا وحده دونهم، بل شئنه شئن غيره ممن تصدى لإنشاء دولة أو عمل للوصول إلى السلطان فهم يستعملون كل سلاح للوصول إلى أهدافهم، والعبرة في وصولهم إلى النجاح من عدمه رهن بحسن استغلال هذه الأسلحة، فلا يوضع السيف إلا حيث يجب أن يوضع، ولا يرسل الخير إلا حيث يجب أن يكون. فقلوبهم لا تعرف الرحمة إذا تعرض الأمر لسطانهم حتى ولو كان مع أقرب الناس إليهم، والكرم والتسامح فيما عدا ذلك (١٨).

خلف ابن طولون ابنه الثانى أبو الجيش خمارويه، الذى ملك مصر والشام والثغور بمبايعة الجند له (٢٩) بعد وفاة أبيه وهو لا يزال فى العشرين من عمره تنفيذا لوصية ابن طولون، ومن ثم فقد كان عليه أن يعمل أولا على توحيد الأسرة الطولونية حيث تسنى له ذلك بعد مقتل العباس الابن الأكبر لأحمد بن طولون، والذى كان من المفروض طبقا لوصية أبيه أن يتولى بلاد الشام ومنطقة الثغور (٢٠٠). كما عمل على الاهتمام بالجيش بصفته عدة الدولة فى نضالها من أجل البقاء ومن أجل القوة والنفوذ. وقد تجلت هذه العناية فى الستقدام مجندين جدر من آسيا الوسطى، كما ضم إليه طائفة من المصريين (٢١١)، وعنى أيضا بتجنيد العرب وانتقى منهم من عرف بالشجاعة والشدة والبأس وضخامة الأجسام، واهتم بتدريبهم وتنظيمهم وتسليحهم، وكون منهم فرقة خاصة عرفت فى كتب التاريخ باسم والمختارة (٢٢). ولم يبخل على أفراد هذا الجيش بالمال، فكان يمنحهم أعطيات منتظمة (٢٢).

٧٧ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٢١.

٨٨- محمد حمدى المناوى، مصر في ظل الإسلام، ص ٥٨.

٦٩- المقريزي، الفطط، جـ١، ص ٣٢١؛ ابن تغري بردي، النجوم، جـ٣، ص ٤٩.

Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.108. - V.

٧١ حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص ٩٩.

٧٢- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣١٨، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٥٩.

٧٢- حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص ١٠٠٠.

وعمل فى الوقت نفسه على استرضاء أهل البلاد متبعا نفس السياسة التى سار عليها أبوه من قبل، فشمل النصارى بتسامحه وظفروا فى عهده بحريات لم يفوزوا بها من قبل، كما استمال قلوب المسلمين^(٧٤) من المصريين وأشركهم فى الجيش كما ذكرنا، ولم يعدم الشعب أن يفيد من الرخاء الذى خيم على البلاد بصورة لم تشهدها مصر الإسلامية من قبل^(٧٥).

وعمل خمارويه أيضا على الحفاظ على أملاك الدولة الطولونية في بلاد الشام، لأنه وضع في اعتباره أنه إذا فقد السيادة على بلاد الشام انتهى أمره في مصر. وقد صبح ما توقعه، فما كادت تصل إلى سامراء مركز الخلافة العباسية أنباء وفاة أحمد بن طولون وتوليه السلطة حتى انبعثت الفتنة من مراقدها وضاعت عروض السلام هباء، إذ عمد الموفق إلى استغلال اسحق بن كنداج، الذي سبق أن عقد له على مصر أثناء الأزمة التي ثارت بينه وبين ابن طولون، وما دام هذا الخليفة لم يعترف بخمارويه أميرا، فإن إسحق كان لايزال في نظره صاحب الحق الشرعي، وأن عليه إذا أراد أن يجعل من ولايته حقيقة واقعة ان يسير إلى مصر لانتزاعها بالقوة من خمارويه، بل وضم إليه خصم الطولونيين العنيد محمد بن أبي الساج (٢٧)، وبعث إليهما بابنه أبي العباس أحمد على رأس القوات العراقية (١٠٠٠) التي استطاعت أن تستولى بالفعل على الرقة وقنسرين والعواصم، وهزم بعض أنصار الطولونيين عند شيرز (٢٠٠)، ثم ما لبثت القوات العراقية أن دخلت دمشق، ومضت إلى الرملة تريد أن تشق طريقها إلى مصر، فأسرع خمارويه وعقد لأبي عبد الله أحمد بن محمد الواسطى على جيش إلى الشام في ذي الحجة سنة ٢٠٢٠م/ مايو ١٨٨٥م، ولسعد بن الأيسر على جيش آخر (٨٠٠)، كما سير مراكب كثيرة في البحر رابطت بسواحل الشام استعداداً الطواري (١٨٠).

بيد أن خيانة الواسطى، الذي يقال أنه بعث بكتاب إلى الموفق يصغر فيه أمر

Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.218. - V£

٥٧ - حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص ١٠١.

٧٦- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٣٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٥٠.

٧٧- الكندي، الولاة والقضاة، ص ٢٥.

٧٨- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ١، ص ١٤٧.

Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.111. - V9

٨٠ الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٣٥؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص ٣٢١.

٨١- حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص ٥٠٥،

خمارويه ويحضه على المسير إلى مصر (٢٨)، كانت سببا في الهزيمة التي لحقت بالطولونيين عند شيرز وسلهت للقوات العراقية الدخول إلى دمشق، إلا أن خمارويه أسرع بالخروج إليهم في جيش يتألف من سبعين ألف مقاتل (٣٨) غير مبال بالخطر، رغم علمه بسوء الحال وبخيانة الواسطي، والتقى بالقوات المعادية عند الطواحين على نهر أبى فطرس بين الرملة ودمشق في شوال سنة ٢٧١هـ/ أبريل ٥٨٨م (٨٤).

ويبدو أن قلة خبرة خمارويه بأمور الحرب جعلته يصاب بالذعر في أول تجربة له، فأسرع بالفرار بأكثر جيشه إلى مصر^(٥٨)، إلا أن فرقة مصرية بقيادة سعد بن الأيسر استطاعت لحسن الحظ أن ترد الأعداء المشغولين في جمع الغنائم على أعقابهم، وأن تقلب هزيمة خمارويه إلى نصر، مما اضطر الجيوش العباسية المتحالفة إلى التراجع صوب دمشق حيث أغلقت المدينة أبوابها في وجوههم فأنزل بهم سعد بن الأيسر هزيمة منكرة (٢٨)، وتمكن بعدها من استعادة أغلب مدن الشام إلى الطولونيين (٢٨). ويغلب على الظن أن سعدا هذا قد استخف بخمارويه بعد هذا النصر وأراد الانفراد ببلاد الشام (٨٨) مما اضطر خمارويه إلى الخروج إليه في سنة ٢٧٢هـ/ ٢٨٨م وتغلب عليه وقتله، بل وبخل دمشق وملكها في المحرم سنة ٣٢٧هـ/ يونيو ٢٨٨م (٢٨) بعد أن استطاع التخلص من أحد قواده الذين أحرزوا له نصرا عظيما في بلاد الشام، ربما بسبب ما أشيع عن خيانته، وربما أيضا بدافع من الغيرة نتيجة الشعبية التي حظي بها سعد في بلاد الشام (٢٠٠).

ومن المرجح أن هذه الحادثة كانت سببا في حرص خمارويه على تتبع بقية العناصر المناوئة له، حدث بدأ باسحق بن كنداج الذي أنزل به هزيمة فادحة بأرض الرافقة، وظل

٨٦- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢١؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٥١.

٨٢ - الكندي، الولاة والقضاة، ص ٢٣٥.

Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.111. - A£

٥٨- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢١.

٨٦- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٨، ص ١٤٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٥٠.

۸۷ -- حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص ۱۰۸.

٨٨ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٥١.

۸۹ - الكندى، الولاة والقضاة، من ٢٣٦؛ المقريزي، الخطط، جـ١، من ٣٢١؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، من ٥١.

Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.114 -4.

يتعقبه حتى مشارف مدينة سامراء (١١) مما اضطره في النهاية إلى مصالحة خمارويه، وأن يكون عاملا من عماله يدعو له على المنابر بعد أن كان يدعى الإمارة على مصر (١٢).

ونجح خمارویه أیضا فی القضاء علی محمد بن أبی الساج فی سنة ۲۷۶هـ/ ۸۸۸م فی ثنیة العقاب من أرض دمشق^(۹۳)، وبذا ارتفع قدره فی أعین المعاصرین وامتد نفوذه من برقة حتی الفرات، ومن آسیا الصغری حتی بلاد النوبة، بل شمل أیضا أرمینیة بصورة لم تتوفر له من قبل^(۹٤).

ويفهم من المصادر المعاصرة أنه رغم هذه الانتصارات التى أحرزها خمارويه فقد كان البادئ بطلب الصلح والتفاهم مع الخليفه، إذ كتب إلى الموفق فى طلب الصلح وهو ببلاد الشام على مال يدفعه (٥٠)، فرضى وبعث إليه بكتاب مع فائق الخادم فى رجب سنة ٢٧٣هـ/ ٨٨٨م، أعطى له الحق فى أن يحكم الدولة وأن ينفرد بها ثلاثين سنة هو وولده على حد تعبير الكندى، ولا يهدد بعزل أو تدخل فى شئونه (٢٠١). والحق أن هذا الكتاب جاء تسجيلا لحقيقة قائمة، واعترافا بنفوذ حصل عليه خمارويه فعلا، كما جاء إقرارا للسلام فى هذه المنطقة الهامة من الشرق الأدنى. وكان طبيعيا بعدها أن يسترد الموفق مكانه الطبيعى فى خطبة الجمعة باعتباره ولى العهد، فبدئ بذكر اسمه، وامتنع الطولونيون عن لعنه على المنابر والدعاء عليه (١٤٠٠).

ولا شك في أن هذا النجاح الذي أحرزه خمارويه كان سببا في ذلك التقارب الذي تم بينه وبين يازمان الخادم صاحب طرسوس الذي دعا لخمارويه على منابر الثغور في سنة ٧٧٧هـ/ ٨٩٠م(٩٩)، بعد أن أصبح خمارويه أميرا شرعيا يعترف به الموفق والخلافة العباسية، كما بعث إليه بخمسين ألف دينار، لعلها ما يستحق على بلاده من خراج (٩٩)،

Lane- Poole, History of '٣٢١ ص ٢٦١؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢١؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢١؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٤٣٦. Egypt, p. 73, Becker, Beiträge, II, p. 182; Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.114.

٩٢- الكندي، الولاة والقضاة، ص ٢٣٧.

٩٣ - الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ ٨، ص ١٥٤؛ الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

٩٤ حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص ١٠٨.

Z.M. Hassan, Les Tulunides, P.115 - 40

٩٦- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٣٨؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢١؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١٥١؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٥، الذي أغفل شرط التوريث.

٩٧- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢١؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٥٧.

۹۸ - ابن تغری بردی، النجهم، جـ۳، ص ۱۷۳.

٩٩- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٣٩؛ حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص ١١١.

وكان هذا الاعتراف بداية لتعاون وثيق بين الرجلين لدفع الخطر البيزنطى والدفاع عن حدود الشام.

ثم توفى الموفق فى سنة ١٩٧٨هـ/ ١٩٨٩ (١٠٠)، ولحق به الخليفة المعتمد فى السنة التالية، وبويع المعتضد بالخلافة فى رجب سنة ١٧٩هـ/ اكتوبر ١٩٨٩، فبعث إليه خمارويه بالهدايا (١٠٠١) مع الحسين بن عبد الله المعروف بالجصاص، فكان ذلك إغراء بما قد تصيبه الخلافة من طرف وهدايا، إذا ساد السلام واستقامت الأمور، فصدرت معاهدة جديدة لاتختلف كثيرا عن المعاهدة الأولى اعترف فيها الخليفة المعتضد بولاية خمارويه هو وولده ثلاثين سنة من الفرات إلى برقة، وجعلت إليه الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال، على أن يحمل فى كل عام من المال مائتى ألف دينار عما مضى وثلاثمائة ألف عن كل عام المستقبل (٢٠٠١)، وهذا يعنى أن تدفع مصر للخليفة خمسمائة ألف دينار سنويا وهو عبء ثقيل على خزانتها بيد أن خمارويه لم يجد فكاكا من دفعه (٢٠٠١)، كما رد الخليفة على هدايا خمارويه ونواياه الطيبة بهدايا مماثلة من بينها اثنتا عشرة خلعة وسيف وتاج ووشاح مع خادم يسمى سنيف (١٠٤).

كذلك عرض خمارويه أن يزوج ابنته قطر الندى لابن الخليفة المعتضد، واكن الأخير فضل أن يتزوجها هو ودخل بها في سنة 747هـ/ 740هـ وقد بالغ خمارويه في جهاز ابنته وتكلف في ذلك ما يقصر دونه الوصف من بناء القصور في كل مرحلة على طول الطريق بين مصر وبغداد لنزول العروس، كما أكثر من الجواهر والتحف(7,7) حتى قيل أنه انفق في ذلك مليون دينار(7,7) في الوقت الذي بلغ فيه صداقها مليون درهم فقط(1,7).

وتتحدث المصادر التاريخية أنه كان من بين جهازها دكة أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جوهر لا يعرف لها

- Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.114 \...
 - ۱۰۱- ابن تغری بردی، النجوم، جـ۳، ص ۵۲.
- ١٠٢- المقريزي، الضطط، جـ١، ص ٣٢١؛ ابن تغرى بردي، النجوم، جـ٣، ص ٥٣.
 - ١٠٣- حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص ١١٨،
- ١٠٤ الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٤٠؛ المقريزى، الضطط، جـ١، ص ٣٢١؛ ابن تغرى بردى، النجوم،
 حـ٣، ص ٥٣.
 - ٥٠١- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٨، ص ١٧٠؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣١٩.
 - ٢٠١- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣١٩؛ ابن تفرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٢٢.
 - Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.120 \ V
 - ۱۰۸ ابن تغری بردی، النجهم، جـ۳، مس ۵۳،

قيمة، بالإضافة إلى ألف هاون من الذهب لسحق العطور (١٠٩)، ولعل خمارويه قد أراد بهذا الجهاز أن يبهر الناس بمدى تفوق مصر على حاضرة الخلافة من حيث الثراء العريض والذوق الجميل والصنعة البديعة، ولم يكن يهمه حينئذ ما أنفق من أموال طالما أنه كان يسعى إلى توثيق صلته بالخلافة بعد أن أعطى دولته الصفة الشرعية وضمن لبنيه حقا طبيعيا في الوراثة بعد أن صاهر الخليفة، الذي قيل عنه أيضا أنه أراد بزواجه من قطر الندي «أن يفقر أباها في جهازها» (١١٠).

والحق أنه من الصعب علينا أن نتعرف على حقيقة الأمال التى كانت تدور فى رأس خمارويه يوم خرج إلى دمشق فى ذى الحجة سنة ٢٨٢هـ/ يناير ٨٩٦م بعد إتمام هذا الزواج بقليل، وطبيعة الدور الذى كان يستعد لأن يقوم به، إذ قتل على يد بعض جواريه الحاقدات، بعد أن أغرين به من قتله، ولم يحقق ما أراد تحقيقه من أهداف(١١١).

ومع هذا فقد ترك خمارويه بصمات واضحة في مختلف النواحي السياسية والاقتصادية والحضارية، إذ قدر لمدينة القطائع أن تنطلق في عهده بعد أن أضاف إليها إضافات تنم على يد فنان ذواقة، سوف نشير إليها بالتفصيل في الفصل الخاص بآثار العصر الطولوني، بمعنى أنه لم يبخل على نفسه بنعيم الحياة ولم يبخل على الناس بعطاياه (۱۱۲) لذا اعتبره البعض متلافا (۱۱۲) فقد بلغت نفقته على جنده تسعمائة ألف دينار في السنة (۱۱۲)، واستكثر من الجواري والغلمان حتى شاع أمره، وكثرت نفقته على طعامه لدرجة أن الباقي في مطبخه من أصناف المأكول كان يزيد عن حاجة الخدم فيبيعونه، «وكان الناس يأتونهم لذلك من البعد، ويشترون منهم ما يتفكهون به من الأنواع الغريبة من المأكل. وكان هذا دواما في كل وقت، بحيث إن الرجل إذا طرقه ضيف خرج من فوره إلى دار الحرم، فيجد ما يشتريه ليتجمل به لضيفه مما لا يقدر على عمل مثله». لذلك بلغت نفقة المطبخ في أيام خمارويه ثلاثة وعشرين ألف دينار شهريا (۱۱۰)، وبذا أنفق في أموره هذه ما

ا ۱۰۹ المقریزی، الخطط، جـ۱، ص ۳۱۹؛ ابن تغری بردی، النجـهم، جـ۳، ص ۴۱؛ Poole, ۱۰۹ المقریزی، الخطط، جـ۱، ص ۴۱؛ History of Egypt, p.74.

Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.119 - \\.

١١١ - حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص ١٢٢.

١١٢ - الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٣٦.

١١٣ - محمد حمدي المناوي، مصر في ظل الإسلام، ص ٢١.

١١٤- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣١٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٥٩.

١١٥ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣١٨؛ ابن تغري بردي، النجوم، جـ٣، ص ٥٩، ٥٩.

كان أبوه قد ادخره وكذا ما كان يأتيه من الخراج بعد أن عكف على كل ألوان المتعة والمسرة (١١٦).

وخلف خمارويه ابنه الأكبر أبو العساكر جيش وكان شابا صغيرا في الرابعة عشرة من عمره لا يحسن من الأمر شيئًا، والتف حوله طائفة من أمثاله الغلمان والملهين أمثال بندكوش، وخضر وابن البواش فأفسدوا أمره وزينوا له قتل عمه أبي العشائر وهو نصر بن أحمد بن طولون، فدس له من قتله(١١٧)، فنفر منه الجند(١١٨) وعولوا على خلعه، وخاصة أن الجيش الذي كونه جده أحمد بن طولون كان قد أصبح القوة الفعلية في البلاد، ولم يكن من المكن أن يملأ مثل هذا الغلام أعين القواد، فتخلى عنه أكبرهم مثل خاقان المفلحي، ومحمد بن إسحق بن كنداج، ووصيف بن سوارتكين وغيرهم وبسطوا ألسنتهم فيه وشكوا إلى بعضهم البعض من تصرفاته (١١٩)، وكان كبير الدولة والمقدم في هؤلاء الجند أبي جعفر بن أبي فتحدث إليه القواد في شأنه، ولاموه لأنه قصر في تأديبه وتسديده^(١٢٠)، وانتهى الأمر بأن ضرج عليه كل من طغج بن جف صاحب دمشق، وابن طوغان أمير الثغور وأسقطا اسمه من الخطبة على المنابر(١٢١١)، ومع هذا فلم ينزعج مما حدث واستمر في لهوه مع الأوياش حتى اجتمع عليه رجال أبيه وقرروا ضرورة خلعه وعمل محضرا بذلك شهد عليه عدول البلد ووجوه من حضر الاجتماع من غلمان أبيه، وتم عزله والقبض عليه (١٢٢)، وقيل أيضًا أن الجند وثبوا عليه وقالوا له لا نرضى بك أبدا فتنح عنا حتى نولى عمك أبا العشائر، نصر بن أحمد بن طواون بدلا منك، فخرج إليهم كاتبه على بن أحمد المادرائي وطلب منهم الانصراف فانصرفوا، عندئذ أسرع جيش بقتل عمه في محبسه ورمى إلى الجند برأسه قائلا: خذوا أميركم(١٢٣)، فما كان من الجند إلا أن وثيوا عليه وقتلوه مع أمه وكاتبه وأصحابه ونهبوا داره، ووقع في أيديهم من نهبها ما يملأ قلوبهم

١١٦ - محمد حمدى المتاوى، مصر في ظل الإسلام، ص ٦١.

۱۱۷- الكندى، الولاة والقضاة، ص ۲٤۱؛ ابن سعيد، المغرب، ص ۱٤٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٨٨.

١١٨ – المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢٢.

۱۱۹ - ابن تفری بردی، النجوم، جـ۳، ص ۸۹ - ۹۰.

١٢٠ - الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٤٢ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٩١.

١٢١ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٩١.

۱۲۲ - ابن تغری بردی، النجوم، جـ۳، ص ۹۱.

Lane - Poole, History of Egypt, p.75. - \ YY

وعيونهم حتى قيل ان بعضهم من كثرة ما حصل له ترك الجندية وسكن الريف وصار من مزارعيه وتجاره $(^{171})$. وكان مقتل أبى العساكر فى العاشر من جمادى الآخرة سنة 176 سبتمبر 179 , معد أن استمرت ولايته تسعة أشهر واثنى عشر يوما $^{(170)}$.

وخلف أبا العساكر أخوه أبو موسى هارون(١٢٦)، وكانت بيعته بغير عطاء للجند، ومع ذلك فقد بايعوه جميعا ولم يمتنع عليه أحد، وجعلوا مدير دولته أبو جعفر بن آبي (١٢٧) فثبت ملكه بعد أن تم التخلص من جميع حاشية أخيه جيش(١٢٨). بيد أن أحوال البلاد كانت مضطربة، ولم يكن يرجى الدولة صلاح على يديه، وخاصة أن هذه الدول كانت لا تقوم على أساس من سياسة أو هدف أو سند من أهل البلاد، وإنما كان بنشئها طموح رجل فرد، فإذا انقضى أمره زالت الدولة، وكان جند الدولة الطولونية قد فسد أمره وتفرقت وحدته، لأنه كان يتكون من فرق من الترك وأخرى من السود، وجماعات شتى هم أخلاط من المرتزقة أهمهم الروم الذي كان أسرهم قد عالا بفضل ثلاثة من قوادهم هم بدر الحمامي، وفائق، وصافى، وكانوا حسب الروايات التاريخية من خيرة القواد عقلا وقدرة (١٢٩)، فحقد عليهم الباقون، وخاصة السود. يضاف إلى هذا أن ربيعة بن أحمد بن طواون، وهو عم هارون، قد أنكر ولاية هذا الغلام وحدثته نفسه بطلب الولاية لنفسه، إلا أن هارون استطاع بفضل اعتماده على طوائف الجند من السود القضاء على عمه ربيعة وقتله (۱۳۰)، وفي ذلك الحين ورد على هارون خبر وفاة الخليفة المعتضد زوج أخته قطر الندى وذلك في ربيع الآخر سنة ٢٨٩هـ/ مارس ٩٠٢م، وتولى ابنه محمد الملقب بالمكتفى الخلافة مكانه(١٣١) كما بدأت في الوقت نفسه حركة القرامطة تجتاح الشام، فتصدى لها هارون وتمكن جنده من الثبات في وجهها، الأمر الذي استنفد فيه جانبا كبيرا مما كان قد بقى لجيشه من قوة (١٣٢)، وزاد الطينة بلة تلك الوحشة التي وقعت بينه وبين الخليفة المكتفى (١٣٣)، الذي طمع في استعادة سلطانه على مصر، لذلك أسرع بندب القائد محمد بن سليمان

١٢٤ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٩٣.

١٢٥ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٩٤.

١٢٦- المقريزي، الخطط، جـ٣، ص ٣٢٢.

١٢٧- ابن الداية، المكافئة، ص ١٥٦.

۱۲۸ - ابن تغری بردی، النجوم، جـ۳، ص ۹۹.

١٢٩ - الكندي، الولاة والقضاة، ص ٢٤١.

۱۳۰ ابن تغری بردی، النجوم، جـ۳، ص ۱۰۰.

١٣١ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١١٠ ، ١٢٧.

Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.144 - \YY

۱۳۳ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١١٠.

للقيام بهذه المهمة، وكان محمد هذا من خدم أحمد بن طولون، إذ استخدمه لؤلؤ الطولونى كاتبا له، فلما انحرف لؤلؤ عن بنى طولون وانضم إلى رجال الخلافة العباسية انحرف معه محمد بن سليمان، ومازال أمره يرقى حتى أصبح فى جملة القواد حتى ندبه المكتفى للقضاء على آخر الطولونيين(١٣٤).

وبينما كان جند العباسيين يستولي على أملاك الطولونيين في الشام(١٣٥) وثب عدى وشيبان ابنا أحمد بن طواون على ابن أخيهما هارون وذبحاه وهو ثمل في ١١ صفر سنة ٢٩٢هـ/ ٢٣ ديسمبر ٩٠٤م وهو لا يزال في الثانية والعشرين من عمره بعد أن دامت ولايته على مصر ثماني سنوات وثمانية أشهر وبضعة أيام(١٣٦)، وانفرد شيبان بالولاية ولقب بأبى المواقيت (١٣٧)، وكان أهوج جسيما، جلدا، شديد البدن في عنفوان شبابه، فصار يسرع في أموره، ويجزل العطاء للجند بعد استيلائه على ودائع أم هارون التي كانت قد خبأتها في دور بعض تجار الفسطاط (١٣٨) ومع ذلك فقد انضم جنده جماعة بعد جماعة إلى جند الخليفة المكتفى. ووصل محمد بن سليمان إلى العباسة بمديرية الشرقية بعد أن تخلى الناس عن الطولونيين فأسرع دميانة قائد الأسطول المصرى فأحرق جسر مصر الشرقي وبعض الغربي(١٣٩) حتى تعزل الفسطاط عن الصعيد، وأقبل القائد محمد بن سليمان بمن معه ووقف دون الفسطاط، في الوقت الذي نهض فيه شبيان بمن بقى معه من الجند السود في محاولة يائسة لإنقاذ ملكه (١٤٠) حتى كاتبه محمد بن سليمان يؤمنه وأهله جميعا، فسار إليه بأهله تاركا جنده وهم لا يعلمون بتخليه عنهم، فلما علموا بالأمر تفرق أمرهم (١٤١) وانهال عليهم الناس حتى صاروا يذبحون جماعة بين يدى القائد العباسي، الذي أمر بإحراق القطائع ونهب الفسطاط (١٤٢). وبذا انتهت ولاية شيبان التي لم تستمر سوى تسعة أيام، بل انتهت دولة بني طولون بأكملها، واجتهد محمد بن سليمان في إزالة آثارها حملة

١٣٤- ابن سعيد المغرب، ص ١٤٥؛ حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص ١٦١.

١٣٥ - الكندى، الولاة والقضاة، ص ٧٤٧.

١٣٦- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢٢؛ ابن تغرى بردي، النجوم، جـ٣، ص ١١١.

١٣٧ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢٢.

۱۳۸ - ابن تغری بردی، النجوم، جـ۳، ص ۱۳۵ - ۱۳۳.

١٣٩ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١٣٦؛ الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٨، ص ٢٣٤.

١٤٠ حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص ١٦٤.

١٤١ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١٣٧.

١٤٢ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢٢.

حتى لم يبق منها شئ واستصفى أموالهم ونهبها (١٤٢) وحمل إلى بغداد جزء وسرق الياقي، ويقال أن الخليفة المكتفى قد حاسبه على ذلك أعسر الحساب، ولم يطل مقام محمد بن سليمان بمصر، إذ استبدله الخليفة المكتفى بعيسى النوشرى(١٤٤) وعادت مصر من جديد ولاية عباسية كما كانت من قبل بعد أن حكمها بنو طولون ثمانية وثلاثين عاما (١٤٥). ومع هذا فإن من يسمع بصيتهم في تاريخ مصر يحسب أنهم حكموا أضعاف هذه المدة إذ تنفس الناس الصعداء معهم وانكف عنهم نهب ولاة العباسيين وبدأ ينمو في مصر وعي بالشخصية المصرية، وإن كان وعيا ضعيفا خافتا يحتاج إلى سنوات طوال ليتجلى ويأخذ صورة واضحة. ولو تنبه آل طواون لكان لاواتهم شأن آخر، واكنهم مضوا في أعقاب غيرهم من الاعتماد على العسكر الأجنبي، فحيل بينهم وبين اقتطاف ثمر ماغرسوه(١٤٦). ورغم هذا فقد أسف المصريون عليهم وقالوا في رثائهم شعرا كثيرا(١٤٧)، ولا عجب في هذا فقد كان أحمد بن طواون من أبطال التاريخ المصرى يمتاز عن غيره بفكرته عن مفهوم الدولة وما ينبغى لها، كما كان منشئا وبانيا ومنظما ماليا ممتازا وقد كان ذلك كله من حسين حظ مصير ، ومن حسن حظ الخلافة العباسية فرغم كل شئ كان بنو طولون أبر الناس بها وأنفعهم لها، فهم لم يخرجوا على الطاعة، ولم يمنعوا مالا حتى السنوات التي قطع فيها ابن طواون مال مصر عن الخلافة، عوضه ابنه خمارويه الذي كان يرسل إلى الخلافة مائتي ألف دينار عما مضى وثلاثمائة ألف عن كل عام جديد (١٤٨). ويكفى أن نتذكر هنا أنه في أثناء السنوات المظلمة التي عبث فيها الزنج بمصائر الخلافة العباسية وهبت عليها ريح القرامطة لم يكن للخلافة من عماد حقيقي إلا ما يرد من مصر من دنانير الذهب، ثم إن الطولونيين حملوا عنهم عبء الحرب مع البيزنطيين، الأمر الذي يدفعنا إلى التساؤل عن السر الذي جعل محمد بن سليمان الكاتب وجنده يفعلون ببقايا بني طولون، إذ حملوهم إلى بغداد مصفدين في الحديد كأنهم أسرى حرب ثم عاثوا في بلاد مصر وأحرقوا ونهبوا كأنهم يقتحمون بلدا معاديا (١٤٩).

١٤٣ - ابن الداية، المكافأة، ص ١٣٨.

١٤٤ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١٤٧.

ه ١٤٥ محمد حمدي المناوي، مصر في ظل الإسلام، ص ٢٢.

١٤٦ - حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص ٤٠٢ ، ٤٠٣.

١٤٧ - المقريزي، الفطط، جـ١، ص ٣٢٢ - ٣٢٦.

Z.M. Hassan, Les Tulunides, p. 118 - 18A

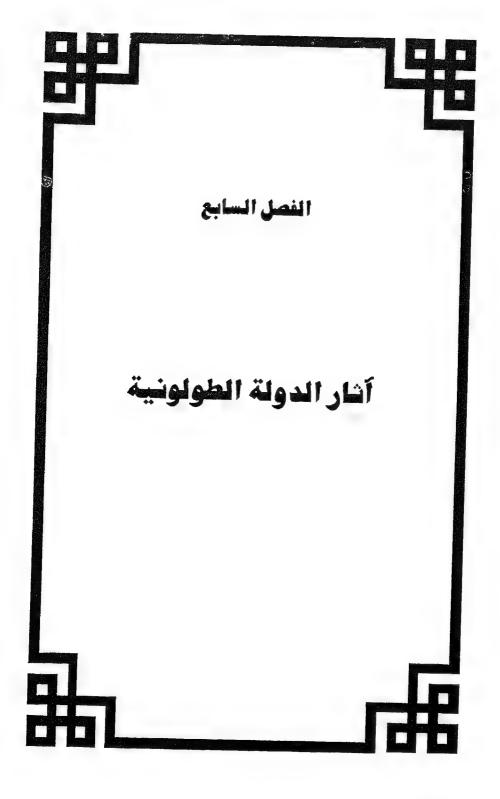
١٤٩ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢٢.

الواقع أننا لا نجد تفسيرا لكل ما حدث سوى الانحطاط الخلقى العام لرجال الدولة العباسية، فقد كانوا شرائم من الشذاذ والعتاة شقيت بهم بغداد ودمشق كما شقيت بهم الفسطاط، وقاسى الخلفاء منهم قدر ما قاسى بنو طولون، فقد كانت بلاد الخلافة العباسية بأجمعها فريسة لأولئك الطغاة. ولو تأمل الإنسان أفعالهم لأدرك للوهلة الأولى أن حمدان قرمط لم يكن أسوأ من هؤلاء الرجال بحال، الذين كانت فوضاهم قد قضت على كل مفهوم للدولة والحق والنظام (١٥٠٠).

ثبت بأسماء حكام الدولة الطولونية

307A_\ X7Aa	أحمد بن طواون	١
۸۷۲هـ/ ۳۸۸م	أحمد بن طولون خمارويه بن أحمد بن طولون	۲
۲۸۲هـ/ ۵۹۸م	أبو العساكر جيش بن خمارويه	٣
٣٨٧هـ/ ٢٩٨م	أبو موسى هارون بن خمارويه	٤
٩٠٤/ ١٩٢٩م	شيبان بن أحمد بن طولون	٥
		<u>l</u>

١٥٠ حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص ٥٠٥.



القطسائع

أكدنا فيما سبق أنه بعد وصول أحمد بن طواون إلى مصر نزل في دار الإمارة بمدينة العسكر العياسية، ومكث فيها على مدى عامين حتى ضاقت به وبأتباعه بعد أن استكثر من العبيد والرجال(١)، لذلك شرع في غضون سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م في تأسيس مدينة حديدة لتكون مقرا جديدا لحكومته ورجال بواته، أراد بها أن يشبع طموحه نحق الترف والأبهة الذي عابشه شطرا من شبابه الباكر في مدينة سامراء حاضرة الخليفة المتصم التي بقيت صورتها ماثلة في ذهنه، وأراد أن تكون عاصمته الجديدة أشبه شي بالبيئة التي نشأ وترعرع فيها(٢). فركب إلى جبل القطم ونظر إلى ما حوله، فرأى إلى الشمال الشرقي من العسكر بقعة من الأرض مساحتها ميل مربع، لا شيّ فيها من العمارة سوى بضعة قبور لليهود والنصاري فأمر بحرثها، واختط في موضعها مدينته الجديدة، وبني القصر والمبدان وأذن لأصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لأنفسهم حوله فاختطوا وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة العسكر والفسطاط (٢) وأقطع كل جماعة منهم قطيعة سميت باسم من سكنها، فكانت للنوبة قطيعة، وللروم قطيعة، وللفراشين قطيعة(٤) لذلك سميت بالقطائع^(ه) وكان يخترق المدينة شارع كبير يصل بين قصره وجامعه الذي شيده فوق جبل يشكر سمى الشارع الأعظم تشبيها له بالشارع الأعظم الذي كان يخترق سامراء ويمتد عدة كيلو مترات إلى قصر بلكورا وجامع أبى دلف في شمال سامراء(٢) وتفرقت فيها السكك والأزقة (٧) وبنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران (^{A)} وسميت أسواقها، فقيل سوق العيارين، وكان يجمع العطارين والبزازين، وسوق الفاميين وكان يجمم الجزارين والبقالين والشوائين وسوق الطباخين ويجمع الصيارف والخبازين

١- البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص ٥٣، المقريزي، الخطط، جـ٢ ص٥١٠.

٢- فريد شافعي، العمارة العربية، ص ٢٤٣، زكى من حسن، الفن الإسلامي في مصر، القاهرة ١٩٣٥،
 ص ٨٥،

٣- المقريزي، الخطط، جـ١، ص٥٧، عبد الرحمن زكي، القاهرة، تاريخها وإثارها، القاهرة ١٩٦٦، ص٦٠.

٤- ابن دقماق، الانتصار، حـ٤ ٢ص ١٦١، المقريزي، الفطط، حـ١، ص ١٦٥، البلوي، سيرة أحمد بن طواون، ص٤٥، البلوي، سيرة أحمد بن

G. Wiet, L'Egypte musulmane, p154, Z.M. Hassan, Les Tulunides, p293. - o

٧- فريد شافعي، العمارة العربية، من٤٢٣.

٧- المقريزي، الخطط، جـ١، ص٣١٣.

 $[\]Lambda$ - المقريزي، الخطط، جـ، ص Λ

والحلوانيين، كما أفرد لكل صنف من جميع الصنائع سوقا حسنا(^) حتى نافست القطائع ما كان في الفسطاط من عمران(١٠) وصارت أعمر وأحسن من الشام على حد تعبير البلوي(١١) ومتأثرة إلى حد كبير بتخطيط مدينة سامراء التي شيدت في العراق سنة ٢٢١هـ/ ٨٣٦م(١٢) بما في ذلك عمائرها، فقد ألحق أحمد بن طواون بقصره ميدانا فسيحا يضرب فيه بالصوالجة (١٣) فسمى القصر كله بالميدان، وكان كل من أراد الخروج من صغير أو كبير إذا سئل عن ذهابه يقول: إلى الميدان، وعمل للميدان تسعة أبواب لكل باب اسم خاص به مثل باب الميدان الذي خصص لدخول وخروج معظم الجيش، وباب الصوالجة، وباب الخاصة الذي خصص لخاصة أحمد بن طواون، وباب الجبل لأنه كان يلي جبل المقطم، وباب الحرم الذي خصص للخصيان والحريم، وباب الدرمون نسبة إلى حاجب أسود عظيم الخلقة كان يجلس عنده، وباب دعناج نسبة إلى حاجب آخر كان يجلس عنده، وباب الساج، لأنه عمل من خشب الساج، وباب الصلاة لأنه كان يفتح على الشارع الأعظم، وهو الأرجح شارع الصليبة الحالي^(١٤) ومنه يتوصل إلى جامع ابن طولون، وقد عرف هذا الباب أيضًا باسم باب السباع لأنه كان عليه صورة سبعين من الجص، كما كان يعلوه مجلس يشرف منه ابن طواون في ليلة العيد على القطائع، ليرى أفراد جيشه وتأهيهم وتصرفهم في حوائجهم، وكان يشرف منه أيضا على النيل(١٥)، ولم تكن هذه الأبواب تفتح كلها إلا في يوم العيد أو في يوم عرض الجيش أو يوم الصدقة^(١٦).

٩- البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص ٥٤، المقريزي؛ الخطط، حـ١ ص ٣١٥.

١٠ - فريد شافعي، العمارة العربية، ص٤٢٤.

١١- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص٥٥؛ المقريزى، الخطط، ج١، ص٥١٥.

Z.M. Hassan, Les Tulunides, p293, G.wiet, Histoire de la nation, IV, p.109,-17

زكى محمد حسن، الفن الاسلامي في مصر، القاهرة ١٩٣٥، ص٥٥؛ عبد الرحمن زكي، القاهرة، ص٧؛ حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص١٧٤. على حين يرى فريد شافعي ان تفطيط القطائع لم يتأثر بالنظم الهندسة لمدينة سامراء، انظر العمارة العربية، ص٢٢٥، استنادا إلى عبارة المقريزي" وتفرقت فيها السكك والأزقة"

Ahmad Abd- ar - Raziq, Deux jeux sportits en Egypte au temps des عن هذه اللعبة أنظر –۱۳ mamluks, Annales Islamologiques, XII,1974,pp.107-130.

١٤- فريد شافعي، العمارة العربية، ص٤٢٥.

٥١ - البلوي، سيرة أحمد بن طواون، ص٤٥ - ٥١؛ المقريزي الخطط جا، ص٥١٥

[.]۱۲ - ابن تغری بردی، النجوم، جـ۳، ص۱۱.

وقد زاد خمارويه في هذا القصر الذي بناه أبوه ووسع فيه إلى أبعد الحدود (١٧)، وأضاف إليه قصرا جديدا خصصه لزوجات أبيه، وأفرد لكل واحدة منهن جناحا خاصا، بلغت نفقات بنائه سبعمائة ألف دينار(١٨). ويني فيه أيضا قبة سماها الدكة وجعل لها الستور التي تقى الحروالبرد، وكان كثيرا ما يجلس في هذه القبة ليشرف منها على جميع ما في قصيره من البساتين والصحراء والنيل والجبل والمدينة (١٩)، كما أقام أمام القصير بركة طولها خمسون ذراعا في خمسين ذراعا ملئت بالزئبق، ليخلص مما أصابه من الأرق، وجعل عليها سريرا من أدم يحشى بالريح لينام عليه، شد بخيوط من حرير إلى عمد من فضة، كان يرى لها في الليالي المقمرة منظر عجيب إذا تألف نور القمر بنور الزئبق (٢٠٠). وحول ميدان الصوالجة إلى بستان كبير غرس فيه أنواعا فريدة من الزهور وكسا أجسام النخيل نحاسا مذهبا، وجعل بين النحاس وأجساد النخيل أنابيب من الرصاص، ينحدر منها الماء إلى أحواض كبيرة، ثم ينحدر الماء من هذه الأحواض ليسقى أرض البستان، وشيد في هنا البستان برجا من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ لبقوم مقام الأقفاص وزوقه بشتى أصناف الأصباغ، ويلط أرضه، وجعل فيه مجاري الماء وأطلق فيه شتى أنواع الطيور (٢١). كما شيد في داره مجلسا سماه بيت الذهب، طلى جدرانه بالذهب واللازورد وجعل فيه على مقدار قامة ونصف، نقوشا بارزة من الخشب تمثل حظاياه والمغنيات، نقشت ثيابها بالأصبابع العجيبة، وجعل على رؤوسهم الأكاليل من الذهب الخالص، والكوادن المرصعة بأصناف الجوهر، وفي آذانهن الأجراس الثقال الوزن المحكمة الصنعة، فكان هذا البيت من أعجب مباني الدنيا^(٢٢). ولم يقف إسراف خمارويه وترفه عند هذا الحد بل اتخذ في داره بيوتا للسباع عمل فيها بيتا لكل سبع ولبؤته وزود تلك البيوت بأبواب

۱۷ - ابن تغری بردی، النجوم، جـ۳، ص۳۵.

۱۸ - المقريزى، الخطط، جا، ص٢١٦؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج٣ ص٥٥؛ آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج١، ص٢٠٩؛ لينول سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن، على إبراهيم حسن، إدوار حليم، القاهرة ١٩٥٠، ص٥٧.

۱۹- المقريزي، الخطط، جـ ۱، ص ۲۱۷؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ ۳، ص٥٥؛ محمود رزق محمود، المجتمع المصرى، ص ٢٢٧.

٢٠ ابن دقماق، الانتصار، جـ٤ ص١٣١؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص١٣٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم،
 جـ٣، ص٥٥: ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص١٧٠.

٢١ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص١٧٠؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص٥٥.

۲۷ لقریزی، الفطط، ج۱، ص۳۱٦ ۲۷؛ ابن تغری بردی، النجهم، ج۳، ص۶۵؛ أحمد عبد الرازق، دراسات تاریخیة، القاهرة ۱۹۸۶؛ ص۸ه، Corbett, The Life and Works, p550

تفتح فى أعلاها بحركات، كما جعل لكل بيت طاق صغير يدخل منه الرجل الموكل بخدمة البيت وفرشه، وجعل فى جانب كل بيت حوض من الرخام له ميزاب من نحاس يصب فيه الماء، كما جعل بين يدى هذه البيوت قاعة فسيحة متسعة مفروشة بالرمل يوجد فى جانبها حوض كبير من الرخام يملأ بالماء بواسطة ميزاب كبير، فإذا أراد سائس سبع تنظيف بيته أو وضع اللحم لغذائه رفع الباب بحيلة من أعلى البيت وصاح بالسبع فيخرج إلى القاعة المذكورة ويرد الباب، ثم ينزل إلى البيت من الطاق، فيقوم بتنظيفه ويبدل الرمل بغيره، ويضع اللحم فى المكان المعد لذلك، ثم يغسل الحوض ويملؤه بالماء، ويخرج ويرفع الباب من أعلاه فيعود السبع إلى مكانه. وكانت هذه البيوت مملوءة بالسباع من جملتها سبع أزرق العينين يقال له زريق، قد أنس بخمارويه، وصار مطلقا فى الدار لايؤذى أحدا، وكان إذا العينين يقال له زريق ليحرسه ولايغفل عنه لحظة واحدة (٢٢) كل ذلك أصبح مجرد ذكرى على يد محمد بن سليمان الكاتب الذى أحال القصر والميدان إلى خرائب طمرها الزمان.

البيمارستان العتبق

ومن الآثار الطواونية التى أصبحت أثرا بعد عين تحدثنا المصادر عن البيمارستان العتيق أو الأعلى الذى شيده أحمد بن طولون بمدينة العسكر فى سنة 807هـ /707م فى منطقة الكيمان والصحراء التى فيما بين جامع ابن طولون وكوم الجارح، وفيما بين قنطرة السد التى على الخليج ظاهر مدينة مصر، وبين السور الذى كان يفصل بين القرافة ومصر (77)، وأنفق على بنائه ستين ألف دينار، أخذ الجزء الأكبر منه من الكنز الذى عثر عليه فى تنور فرعون (77)، وأوقف عليه عدة أماكن لضمان استمراره (77)، وشرط أن لايعالج

⁷⁷⁻ المقريزي، الخطط، جـ١، ص٧٧؟؛ ابن تغرى بردى، النجـهم، جـ٣، ص٥٥؛ أدم مـتـز، الصفـارة الاسلامية، جـ١، ص١٩٧.

البلوی، سیرة أحمد بن طواون، ص ۱۸۰ ابن دهماق، الانتصار، جـ٤ ص ۱۹۹ المقریزی، الخطط،
 البلوی، سیرة أحمد بن طواون، ص ۱۸۰ ابن دهماق، الانتصار، جـ٤ مــ Corbett, The Life and Works, p.531،۱۵۲ مــمد أمين، الأوقاف ص ۱۹۵۲ K.A.C Creswell, Muslim Architecture, II,p.329.

٢٥ - المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٤٠٥؛ أحمد عيسي، تاريخ البيمارستان في الإسلام، دمشق ١٩٣٩، ص ١٩٣٨ - ٢٩.

[·] ٢٦- ابن سعيد، المغرب، ص١٣٢؛ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٥٠٤؛ السيوطي حسن المحاضرة، جـ٢، ص٢٥٠٤؛ السيوطي حسن المحاضرة، جـ٢، ص٢٤٢، ٧٤٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص١٦٤٠.

۲۷ - البلوی، سیرة أحمد بن طواون، ص۱۸۰؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص۹۹؛ محمد أمین،
 الأوقاف، ص۱۵۰؛ أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، العلوم العقلية، ص۱۷۰.

فيه جندى مملوك، كما شرط أنه إذا جئ بالعليل تنزع ثيابه، ويودع مامعه من المال عند أمين البيمارستان ويقدم له ثياب خاصة من البيمارستان، ويخصص له مكان تتوفر له فيه الراحة ويباشره الأطباء بالعلاج، ويصرف له الدواء مجانا حتى يتم شفاؤه.

وكانت علامة الشفاء أن يقدم له فروج ورغيف فإذا استطاع أكلهما عد علاجه منتهيا وأذن له بمغادرة البيمارستان بعد ان ترد إليه ثيابه ونقوده (٢٨)، وفي حالة وفاة المريض فإنه يجهز ويكفن على نفقة البيمارستان (٢٩).

ويفهم من المصادر التاريخية أن البيمارستان كان يشتمل على قسمين، أحدهما خاص بالذكور والآخر خاص بالإناث^(٢٠) وأن كل قسم كان مجهزا بما يحتاجه من آلات وعدد وخدم وفراشين من الرجال والنساء، كما كان كل قسم يشتمل على عدة قاعات للأمراض الباطنية وللجراحة والكمالة والتجبير^(٢١) بالإضافة إلى قسم خاص بالامراض العقلية^(٢٢). وكان ملحق به أيضا حمامان أحدهما للرجال والآخر للنساء^(٢٢).

وكان أحمد بن طواون حريصا على تفقد البيمارستان وزيارته يوم الجمعة من كل أسبوع، حيث يطوف على خزائن الأدوية ويتفقد أعمال الأطباء ويشرف على سائر المرضى من المجانين حتى غافله في يوم أحدهم ورماه برمانة عريشية كبيرة كادت تقضى عليه، فلم يعاود النظر في البيمارستان بعد ذلك (٢٤).

حصن الجزيرة

ومن أثار الدولة الطولونية الدارسة تتحدث المصادر عن الحصن الذي شيده أحمد ابن طولون في جزيرة الروضة سنة ٢٦٣هـ / ٨٧٦م ليكون معقلا لحرمه وذخائره وماله (٣٥)،

۲۸ المقريزي، الخطط، جـ۲، ص٥٠٤.

٢٩- أحمد عيد الرازق، الحضارة الإسلامية، العليم العقلية، ص١٧٠.

٣٠ - ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، القاهرة ١٨٨٣، جـ١ ص٣١٠.

٣١- البلرى، سيرة أحمد بن طولون، ص ١٨٠؛ ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، جـ٢، ص٢٤٢.

٣٢- ابن أبى أصيبعة، طبقات الأطباء، جـ٢، ص٢٦٠ المقريري، الخطط، جـ٢، ص٥٠٥.

٣٣ - البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص١٨٠؛ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٥٠٤.

٣٤- القلقشندى، صبح الأعشى، حـ٣، ص٣٣٧؛ المقريزي الخطط، حـ٢،ص٥٠٠؛ ابن تغـري بردي، النجوم، جـ٣، ص١٠٠، ١٢٢.

٥٥- البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص٨٦ - ٨٧؛ الكندى، الولاة والقضاة، ص٨١٨؛ المقريزي، الخطط، Corbett, The Life and Works, p.533

بعد أن وقع الخلاف بينه وبين الموفق طلحة ولى عهد الخليفة المعتمد العباسى وماتبع ذلك من محاولة لإخراج ابن طولون من مصر، لذلك لم يجد أمامه من بد سوى المحاربة ليدافع عن نفسه، وتأمل مدينة الفسطاط فوجدها لا تؤخذ إلا من جهة النيل، فأمر ببناء حصن على الجزيرة (۲۲)، في نفس مكان الحصن القديم الذي قيل أنه كان قائما وقت فتح عمرو بن العاص لمصر، ولجأ إليه المقوقس وأصحابه عندما اشتد المسلمون في حصار حصن بالميون (۲۷). وأخذ ابن طولون يجد في البناء وألزم قواده وثقاته أن يقوم كل منهم بالإشراف على جزء، منه وكان يتعاهدهم بنفسه في كل يوم (۲۸) ويبذل لهم المال الكثير (۲۸) مما جعل العمال يغادرون منازلهم في الأسحار بكرة كل يوم من تلقاء أنفسهم من غير استحثاث، لكثرة ما سخا به عليهم من أموال حتى قيل أن كل طوبة في الحصن وقفت عليه بدرهم صحيح (۲۰۰). وقد استمر العمل في بناء الحصن مايقرب عن عشرة أشهر أنفق ابن طولون خلالها مايقرب ثمانين ألف دينار ذهبا (۲۱)، ومع هذا فمجرد أن بلغته الأنباء بوفاة موسى بغا، قائد الجيش العباسي المكلف بالهجوم على مصر، أمر بابطال العمل فيه (۲۵) ولم يعد يرى أحدا من العمال التي كانت فيه مع كثرتهم، الأمر الذي أثار دهشة البلوى فكتب يقول "كنار صب عليه ماء فخمد من وقته (۲۱)".

ولم تصلنا آثار من ذلك الصصن كما لم تزودنا المصادر التاريخية بأى وصف له واكتفت بالقول أنه ظل عامرا بالجزيرة في أيام بني طولون حتى أخذه النيل شيئا بعد شيئ (13)، وأقام السلطان الصالح نجم الدين أيوب في موضعه قلعة الروضة في طرف الجزيرة الجنوبي بجوار المقياس التي اندثرت بدورها (63)،

٣٦- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص٨٦؛ المقريزى، الخطط، ج٢٢ ص١٨٠؛ السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢٠ ص٢٨٠؛

٣٧- فريد شافعي، العمارة العربية، ص٥٢٠.

٣٨- القريزي، الخطط، جـ٢، ص١٨٠.

٣٩ - البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص٨٨.

[.]٤- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص٨٧؛ المقريزي، الخطط ج٢، ص١٨٠؛ محمود رزق، المجتمع المصري، ص١٨٠؛

٤١- ذكر البلوى أنه أنفق عليه مائتى ألف دينار انظر سيرة أحمد بن طواون، ص١٥٥.

²³⁻ المقريزي، الخطط، جـ ٢، ص ١٨٠؛ فريد شافعي، العمارة العربية، ص ٢٥٠.

²³⁻ البلوي، سيرة أحمد بن طواون، ص٨٧ - ٨٨٠ المقريزي، الخطط ج٢، ص١٨٠.

٤٤ - المقريزي، الخطط، جـ٢، ص١٧٨، ١٨٠؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص١٠٧.

ه٤ - فريد شافعي، العمارة العربية، ص٢٠٥٠.

مستجد التنور

ومن الآثار الطولونية التى اندثرت ولم يعدلها وجود نشير أيضا إلى مسجد التنور الذى بناه أحمد بن طولون بأعلى جبل المقطم من وراء قلعة الجبل إلى الشرق منها فى شهر صفر سنة ٢٥٩هـ / ديسمبر ٢٧٨م، فى موضع تنور فرعون وجعل له منارة وصهريجا فيه ماء(٤٦)، وذلك بعد أن ضاق جامع العسكر بالمصليين من جند الأمير وعامة الشعب(٤١) وكان ينفق عليه من وقف البيمارستان العتيق والعين بالمعافر.

والواقع أننا نجهل تماما شكل هذا المسجد وأسلوب تخطيطه بسبب صمت المصادر وإن كنا نعلم أنه ظل عامرا حتى عهد المقريزي في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلاد لقوله" وأدركته عامرا، وفيه من يقيم به (١٤٨)".

قناطر المياه

مع أن أغلب آثار الدولة الطولونية قد اندثرت وأصبحت أثرا بعد عين إلا أنه قد وصلنا بعض عمائر هذه الدولة التي استطاعت أن تقاوم عوادي الزمن مثل قناطر المياه أو العين التي أقامها أحمد بن طولون في سنة ٢٥٩ هـ / ٢٧٨ م (٤٩) بمنطقة المعافر، جنوب شرق الفسطاط (٥٠). وقد أرجعت المصادر سبب بنائها إلى قصة مؤداها أن أحمد بن طولون خرج يوما إلى تلك المنطقة وسبق من كان معه من الجند فمر بمسجد الأقدام وقد نال منه العطش، فوجد خياطا فطلب منه ماء فأخرج له كوزا فيه ماء وطلب منه أن يقتصد في الشرب ولكن ابن طولون شرب أكثره، ثم علم من الخياط أن طلبه الاقتصاد في الشرب مرجعه إلى أن الموضع منقطع والماء عزيز المنال، وبعد عودة ابن طولون إلى قصره أرسل في طلب الخياط وبعث معه بالمهندسين فحفروا بئرا عرفت بالعفصة الكبرى وبنوا فوقها القناطر، وأجرى الماء إلى الفسقية التي بقرب درب سالم (٥٠) وأشارت المصادر أيضا إلى

٢١- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٥٥٤، الكندي، الولاة والقضاة، ص٥٥٨.

٤٧ - زكى محمد زكى، الفن الإسلامي في مصر، ص٣٥.

٨٤- المقريزي، الخطط، جـ٧، ص٥٥٥.

٤٩- عبد الرحمن فهمي، العمارة قبل عصر المماثيك، كتاب القاهرة، ص٢٢٢.

Z.M.Hassan, Les Tulunides, p.295, Hautecoeur et Wiet, Les mosquées du Cair, p.122. - o ·

۱۵- البلوی، سیرة أحمد بن طولون، ص۱۸۰، ۱۸۲؛ ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص٥٥؛ القریزی، Carbett, آhe Life (۱۵۰، ۱۵۰ مصر، ص١٤، ه١٠) الفطط، جـ٢، ص١٤؛ زكى محمد حسن، الفن الاسلامي في مصر، ص١٤، ه١٠ and Works, p.532, K.A.C. Creswell, A Brief Chronology,p.43.

أن المهندس الذي شيدها كان رجلا نصرانيا كما أشارت إلى تكاليف البناء الذي قدره اللبوي بمائة ألف وأربعين ألف دينار (٢٠) على حين ذكر المقريزي أنه كان أربعين ألف دينار (٢٠)، الأمر الذي يصعب معه تصديق هذه الرواية، لأنه ليس من المعقول أن ينفق ابن طولون هذا المال الوفير لمجرد نقل المياه إلى هذه المنطقة المقفرة من القرافة التي لايسكنها إلا النزر اليسير من الناس (٤٥)، لذلك يرى بعض الباحثين أن السبب الرئيسي وراء بناء هذه القناطر هو حمل الماء إلى كل من قصره المترامي الأطراف وإلى البساتين الملحقة به بالإضافة إلى منطقة المعافر، ولاسيما أن بداية هذه القناطر كانت تقع على حدود بركة الحبش التي كانت تقع الى الجنوب من مدينة الفسطاط (٥٠) وتمتد إلى شمال بساتين الوزير (٢٠) وكانت تستمد ماءها من النيل مباشرة. ويفهم من المصادر أيضا أن هذه القناطر كانت غاية في البناء ولم يكن لها نظير لدرجة أن المادرائيين اجتهدوا ليحاكوها وأنفقوا الأموال الكثيرة، ومع ذلك فقد عجزوا عن ذلك بسبب موضعها الذي جعل جميع الجيران محتاجين إليها (٢٠)، لذلك أمر ابن طولون بأن تظل مفتوحة طول النهار لمن كشف وجهه للأخذ منها، ولمن كان له غلام أو جارية، أما الليل فقد خصصه الفقراء والمساكين والمستورين (٨٠).

وتعرف بقايا هذه القناطر حاليا بمجرى الإمام^(٥٩) وهي عبارة عن برج للمأخذ مشيد من الأجر بداخله بئر مفرغ مفتوح إلى السماء، وعلى جانبيه غرفتان يغطيهما قبوان. وينقسم البئر إلى قسمين، ويسحب الماء منها بواسطة ساقيتين ترفعانه إلى المجرى فوق

٥٢ - البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٥٦؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٤٥٧؛ محمود رزق، المجتمع المصدي، ص ٢٥٤؛ محمود رزق، المجتمع

٥٣ - المقريزي، الخطط، جـ٧، ص٥٥١.

٤٥ – فريد شافعي، العمارة العربية، ص٥٣٥.

٥٥ - عن هذه البركة انظر المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٥٢، ومابعدها.

٥٦ المقصود بها البساتين المنسوبة إلى الوزير الفاطمى يعقوب بن كلس ويقال أيضا أنها منسوبة إلى الوزير محمد بن على المادرائي أو إلى الوزير أبى الفضل جعفر بن الفرات وزير كافور الإخشيد وهي سبعة بساتين كانت عند مقابر النصاري إلى النيل انظر ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص٧٥.

٥٧- البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص٢١؛ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٥٧.

۸ه- البلوی، سیرة أحمد بن طولون، ص۱۸۱؛ المقریزی، الخطط، جـ۲، ص۱۵۷؛ محمود رزق، المجتمع المصری، ص۲۵۰

Hautecoeur et Wiet Les mosquées du Caire, p.209, K.A.C. Creswell, Early Muslim-on Architecture, II, pp.329-332.

ظهر البرج، ثم يسير منه فى مجرى وضع فوق القناطر التى تخرج من البرج فى انحراف يبلغ ١٤٠ درجة على جانب البرج الشمالى، وبعد نحو سبعة عشر مترا ينحرف اتجاه القناطر من الشمال الغربى إلى الشمال بميل قليل نحو الغرب، ثم ينحرف مرة أخرى بعد ٢٢ مترا نحو الشمال بميل إلى الشرق، ويمتد بعد ذلك فى خط مستقيم نحو مئذنة شاهين أغا الخلوانى، وعقود هذه القناطر التى تهدم أغلبها من النوع المدبب وتشبه عقود الجامع الطواونى(٦٥) أى عقود مدببة ذات مركزين.

الجامع الطولوني

يعتبر جامع أحمد بن طواون (١٠) ثالث المساجد الجامعة التي شيدت بمصر الإسلامية بعد جامع عمرو بن العاص، الذي شيده هذا القائد العربي بمدينة الفسطاط، غداة فتحه لمصر في عام 17a / 18a / 18a والذي توالت عليه أعمال الترميم والإصلاح، بحيث لم يصلنا من الجامع الأصلي سوى بقعة الأرض التي شيد عليها (١١) وجامع العسكر الذي شيده في العصر العباسي سنة 18a / 18a / 18a ملان على في مدينة العسكر، ثانية عواصم مصر الإسلامية، والذي ظل باقيا إلى سنة 18a 18a / 18a من حام ابن طواون الذي لا يزال يحتفظ مار بعدها أثرا بعد عين (18a وذلك على العكس من جامع ابن طواون الذي لا يزال يحتفظ بأغلب عناصره المعمارية، منذ أن شيده أحمد بن طواون مؤسس الدولة الطواونية، في الطرف الجنوبي لمدينة القطائع التي شيدها إلى الشمال الشرقي من مدينة العسكر لتكون عاصمة لدولته، فوق الربوة الصخرية العروفة بجبل يشكر (18a وهي على حد تعبير بعض عاصمة لدولته، فوق الربوة الصخرية العروفة بجبل يشكر (18a

السجد انظر ما كتبه كل من حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جدا، ص ٣٧ وما بعدها؛ -7. K.A.C. Creswell, Early Muslim محمود عكوش، الجامع الطولوني، ص ٣٧ وما بعدها Architecture, II, pp.348 ff; Hautecoeur et Wiet, Les mosquées du Caire, I, pp.208 ff; D.B. Abouseif, Islamic Architecture, pp.51 ff; Corbett, The Life and Works of Ahmed ibn Tulun; Z.M. Hassan, Les Tulunides, pp. 298-308.

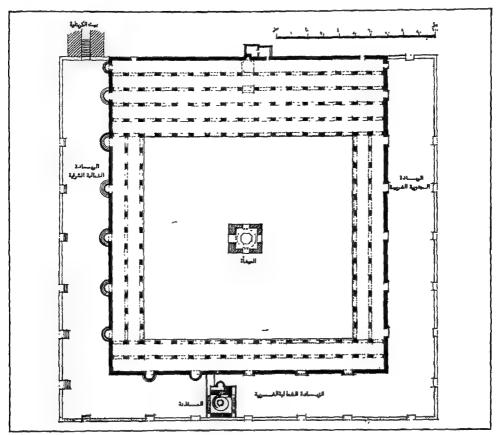
٦١- المقريزي، الخطط جـ٢، ص٢٦٤؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية جـ١ ،ص٢٢.

⁷⁷⁻ عرف بهذا الاسم نسبة إلى يشكر بن جزيلة من قبيلة لخم، وكانوا قد اتخذوا هذه الرقعة خطة لهم أقاموا فيها منازلهم عند تأسيس مدينة الفسطاط في أيام عمرو بن العاص، وقيل أيضا نسبة إلى رجل صالح كان يسمى يشكر، انظر المقريزي، الخطط جـ٢، ص٢٦٦ ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص٢١٠. ١٢٣.

⁷⁷⁻ ابن دقماق، الانتصار جـه، ص١٢٣؛ المقريزي، الخطط جـ٢ ص٢٦؛ القلقشندي صبح الأعشى، جـ، ص ٢٤٤.

المؤرخين بقعة مباركة، إذ ناجى موسى عليه السلام ربه من عليها، كما أنها كانت مشهورة بإجابة الدعوات (٦٤).

بيد أنه من الواضح أن السبب الرئيسى وراء اختيار أحمد بن طولون لهذه البقعة، هو أن يصير المسجد مشيدا فوق أساس متين من الصخر وحتى يكون بمنأى عن فيضان النيل، فضلا عن كون هذه البقعة كانت تشرف على الميدان الذى أنشأه أمام قصره، كما أنها تقع فى الجزء الفاصل بين مدينة العسكر ومدينة القطائع العاصمة الجديدة المصرية (١٥).



شكل (٤) جامع أحمد بن طواون مسقط أفقى، عن فريد شافعي

³٢- فريد شافعى، العمارة العربية، ص٤٦٤؛ حسن الباشا، جامع ابن طولون، القاهرة تاريخها فنونها أثارها، ص٤٣٧.

Van Berchem, Corpus, p.29; Répertoire, 1964, VII, p.199; K.A.C.Creswell, A short - 70 Account, p.304.

ويجمع المؤرخون على أن أحمد بن طولون بدأ فى بناء هذا المسجد فى ٢٦٣هـ/ ٨٧٨ م وانتهى منه فى شهر رمضان سنة ٢٦٥ هـ/ مايو ٨٧٩م، حسبما جاء فى اللوحة التأسيسية المثبتة فوق إحدى دعامات رواق القبلة (٢٦) وهذا يعنى أن عملية التشييد استغرقت حوالى ثلاث سنوات.

ويعد جامع ابن طواون من أكبر جوامع مصر الإسلامية مساحة إذ يغطى مع الزيادات التى تحيط به من الشمال والجنوب والغرب ما يقرب من ستة أفدنة ونصف، تأخذ شكلا مربعا يبلغ طول ضلعه حوالى 17م، يشغل المسجد منها شكلا مستطيلا تبلغ أطواله حوالى 17 × 17 م، على حين ترتفع الجدران من منسوب أرضية الأروقة الداخلية إلى قمة شرافاته العليا إلى ما يقرب من ثلاثة عشر مترا(17) وهو مصمم على النظام التقليدى (17)، أى صحن أوسط مكشوف مربع الشكل تبلغ أبعاده 17 × 17 × 17 × 17 بعيط به أربعة أروقة مسقوفة بالخشب أكبرها رواق القبلة الشرقى الذى يشتمل على خمسة صفوف من الدعامات يعلوها عقود تمتد بموازاة جدار القبلة وتضم خمس بلاطات، جددت المطلة منها على الصحن في عام 19 كالى يد لجنة حفظ الآثار العربية.

أما باقى الأورقة ونعنى بها الرواق الغربى المقابل لرواق القبلة والرواقين الجانبيين الشمالى والجنوبي فيشتمل كل منهم على صفين من الدعامات تسير في موازاة جدار الرواق (١٩).

ويلاحظ أن الدعامات تحل هنا محل الأعمدة في أغلب المساجد الإسلامية حيث يصل عددها إلى مائة وستين دعامة ذات قاعدة مستطيلة شيدت من الآجر، ذات أركان

٦٦- فريد شافعي، العمارة العربية في مصر، ص٤٦٧.

٧٧ ساد هذا المتخطيط العالم العربى الإسلامى فى المشرق والمغرب منذ أن شيد الرسول على مسجده بالمدينة المنورة، ويقى مستعملا للمساجد حتى بعد ظهور المسقط ذى الإيوانات فى حوالى القرن ٦٨ / ٢١م. انظر فريد شافعى، العمارة العربية الإسلامية، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، الرياض ١٩٨٢، ص٣؛ العمارة العربية فى مصر، ص ٧٦٤ – ٣٦٨.

۱۰۸ احمد فكرى، مساجد القاهرة ومدارسها، المدخل، القاهرة ۱۰۹ عسن الباشا، جامع المدخل، التاهرة ۱۰۹ عسن الباشا، جامع البن طواسون، كتاب القاهرة، ص/۱۵ Beyrouth, 1960, P.15..

٣٩- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد جـ١، ص٣٥؛ أحمد فكرى مساجد القاهرة، المدخل ص١١٣ فريد شافعي، العمارة العربية، ص٤٦٩ .

مخلقة بأعمدة مشيدة أيضا من الآجر، لها تيجان ناقوسية الشكل مكسية بالجص (١٠) يعلوها عقود من النوع المدب ذى المركزين يرتكز عليها سبقف الجامع، فتح بينها فتحات صبغيرة معقودة، مخلق فى نواصيها عمد صغيرة مشيدة من الآجر تشاهد من الداخل والخارج، قصد منها تخفيف ثقل البناء فوق الدعامات بالإضافة إلى زيادة الإضاءة والتهوية (١٠).

ورغم أن استخدام الدعامات هنا بدلا من الأعمدة قد أفضى إلى توفير مايقرب من مائتى عمود (٢٢)، وأنه يعكس هنا أحد تأثيرات مدينة سعاصراء التى شيدها الظيفة العباسى المعستصم إلى الشمال من بغداد فى سنة ٢٢١هـ / ٣٨٦م (٢٢) إلا أنه ارتبط ببعض الأساطير التى كانت تدس على المؤرخين والكتاب العرب فى العصور الإسلامية الوسيطة فيرددونها بغير تحقيق أو تمحيص إذ يذكر المقريزى نقلا عن جامع السيرة الطولونية (٤٧) أن أحمد بن طولون لما أراد بناء الجامع قدر له تأثماتة عمود، فقيل له ماتجدها أو تنفذ إلى الكنائس فى الأرياف والضياع والخراب فتحمل ذلك، فأنكر ذلك ولم يختره، وتعذب قلبه بالفكر فى أمره، وبلغ النصراني، الذي تولى بناء العين (وكان قد غضب عليه وضربه ورماه في المطبق)، الخبر فكتب إليه يقول أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عمد إلا عمودى القبلة، فأمر بأن تحضر له فأحضره وقد طال شعره حتى يزاه عيانا بلا عمد إلا عمودى القبلة، فأمر بأن تحضر له فأحضرت وصوره له فأعجبه واستحسنه، وأطلق له النفقة عليه مائة ألف دينار فقال له: أنفق وما احتجت إليه بعد ذلك أطلقناه لك، فوضع النصراني يده فى البناء فى الموضع الذي هو فيه وهو جبل يشكر فكان ينشر منه ويعمل الجير ويبنى إلى أن فرغ من جميعه وبيضه ... (٥٠).

والمتأمل لهذه الرواية وغيرها سوف يلاحظ بوضعوح أنها تريد النيل من الإسلام ومن المسلمين عن طريق تصوير أن النصارى كانوا دائما مضطهدين تحت الحكم الإسلامي،،

[·] ٧- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد جا ص١٢٥؛ احمد قكرى مساجد القاهرة المدخل، ص١١٥؛ فريد شافعي، العمارة العربية ص٤٤٠؛ حسن الباشا، جامع ابن طولون، ص٤٤٨.

٧١- قريد شافعي العمارة العربية في مصر، ص٤٤٧.

K.A.C. Creswell, Early Muslim Architecture II,pp.228-231-VY ؛ فريد شافعي، العمارة العربية ص٥٦.

٧٣- هو أبو محمد عبد الله البلري صاحب كتاب سيرة أحمد بن طولون، دمشق ١٩٣٩.

٥٧- المقريزي، الخطط جـ٢ ص٥٢٠

وأنهم كانوا يعانون من تخريب كنائسهم للاستيلاء على عمدها واستخدامها في عمائر المسلمين، الذين صوروا على أنهم كانوا دائما في حاجة إلى خبرة النصارى في مجال العمارة والفنون مع أن فكرة بناء الدعامات ظهرت من قبل في جامعي سامراء وأبي دلف، أي أنها ابتكار عراقي لابد أنه جاء إلى مصر مع بعض التأثيرات العراقية الأخرى مع أحمد بن طولون (٢٦).

والواقع أن هذه الأسطورة تذكرنا برواية أخرى توضح لنا كيف كان بعض مؤرخى الفترة الإسلامية يفسرون بعض الظواهر المعمارية الهامة، من ذلك ما يرويه المقريزى أيضا بصدد استخدام مهندس الجامع لمادة الآجر في البناء إذ يقول نقلا عن القضاعي"إن أحمد ابن طواون قال أريد أن أبني بناء إن احترقت مصر بقى، وإن غرقت بقى، فقيل له يبنى بالجير والرماد والآجر الأحمر القوى للنار إلى السقف، ولا يجعل فيه أساطين رخام فإنه لاصبر لها على النار، فبناه هذا البناء"(٧٧).

وذلك على الرغم من أن استخدام الآجر في البناء قد شياع في عمارة مصير الإسلامية، حيث تلاحظه في بعض أجزاء من جدران جامع عمرو بن العاص التي شيدت على يد قرة بن شيريك في سنة 90 - 100 واستمر بعد ذلك إلى العصر الفاطمي الذي عرف استخدام الحجر لأول مرة في الواجهة الغربية لمسجد الحاكم بأمر الله وفي منارتيه (80).

ويزين جميع البائكات من الداخل والخارج، باستثناء الواجهات المطلة على الصحن شريط من زخارف جصية تلتف حول إطارات العقود، يعقبها إلى أعلى تحت السقف مباشرة إزار من الخشب، نقش عليه بالحفر البارز آيات قرآنية بالخط الكوفى البسيط من سورتى البقرة وآل عمران (٨٠٠). وقد حاول البعض أن يربط بين هذا الإزار وبين رواية ثالثة للمقريزى أشار فيها إلى أنه رأى من يقول "أنه عمل له منطقة دائرة بجميعه من عنبر" كما ذكر أنه شخصيا لم ير مصنفا بذلك رغم "أنه مستفاض من الأفواه والنقلة (٨١)"، وذلك على

٧٦- فريد شافعي، العمارة العربية، ص٢٦٨.

٧٧ - ابن دقماق، الانتصار، جـ٤ ص١٢٣؛ المقريزي، الخطط ، جـ٢، ص٢٦٦.

⁻ VA - فريد شافعي، العمارة العربية في مصر، صV = VV

G. Wiet, L'Egypte musulmane, pp.184-186; K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, -۷۹ زكى محمد حسن، الفن المصرى الإسلامي، ص٤٤;

٨٠ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٣٦.

٨١- المقريزي، الخطط جـ٢، ص٢٦٧.

الرغم من أن المؤرخ ابن دقماق قد أشار إلى هذه الرواية إذ قال فى هذا الصدد أن ابن طواون لما أكمل بناء جامعه أراد أن يعمل بدائره منطقة عنبر معجون ليفوح ريحها على المصلين (٨٢).

وقد فتح في النصف العلوى لجدران المسجد الأربعة صف من الشبابيك ذات عقود مدببة، لم يفتح مثلها في جدران الزيادات الشمالية والجنوبية والغربية، خلقت نواصيها بأعمدة قصيرة ملتصقة تشبه تلك التي تطالعنا في جامع عمرو بن العاص، يبلغ عددها مائة وتسعة وعشرين شباكا^(٨٢) ملئت بالجص المفرغ بزخارف هندسية نفذت حسب أسس مدروسة، يرجع أربعة منها إلى عصر بناء الجامع حيث نشاهدها جميعا في رواق القبلة^(٤٨) وهي تعد ثالثة الأمثلة الباقية من العصر الإسلامي المبكر، إذ وجدت لأول مرة في الجامع الأموى بدمشق، ثم في قصر هشام بخربة المفجر^(٥٨). ولاشك أن هذه النوافذ كانت تقوم بحجب الرياح والغبار عن المسجد مع السماح بإدخال النور المناسب بالإضافة إلى إسهامها في الخطة الزخرفية بالجامع^(٢٨)، يفصل بين هذه النوافذ حنيات غائرة زودت بطواقي مروحية ذات أضلاع وقنوات تبدو أكثر تطورا عن نظائرها في جامع عمرو بن العاص^(٢٨).

ويلاحظ أن المسجد زود باثنين وأربعين بابا، وزعت توزيعا متناسبا على طول امتداد واجهات المسجد وعلى جدران الزيادات التى تحف به من ثلاث جهات، إذ يخترق حائط الزيادة الغربية سبعة أبواب يقابلها سبعة أبواب تفضى إلى الرواق الجنوبي بالمسجد، وبحائط الزيادة الشمالية ستة أبواب يقابلها سبعة أبواب تفضى إلى الرواق الشمالي بالمسجد، بالإضافة إلى باب آخر في نهاية هذه الزيادة من جهة، الشرق يؤدي إلى متحف جاير أندرسون الذي يقع خلف جدار القبلة الذي يشتمل بدوره على ثلاثة أبواب، الأوسط منها كان يؤدي إلى دار الإمارة التي شيدها أحمد بن طولون ملاصقة لجدار القبلة وأثثها

٨٢- ابن يقماق، الانتصار، ح٤، ص١٢٣.

٨٣- انظر حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد جـ١، ص٣٦؛ على حين أشار أحمد فكرى أن عددها ١٢٨ نافذة فقط انظر مساجد القاهرة، المدخل ص١١١.

K.A.C. Creswell, Early Muslim II,pp.245-247. Fig258; A.Fattal, La mosquée d'Ibn-A£ Toulon, pI.65.

K.A.C. Creswell, Early Muslim , Figs. 610, 626 Pls. 103c, 109a. - Ao

٨٦- حسن الباشا، جامع ابن طواون، ص ٥٥٠.

٨٧ فريد شافعي، العمارة العربية في مصر، ص٤٧١.

بالفرش والستور لينزل بها عند ذهابه إلى صلاة الجمعة فيجلس فيها ويجدد وضوءه، ثم يدخل منها إلى مقصورة المسجد $^{(\Lambda\Lambda)}$ بيد أن هذه الدار قد اندثرت ولم يبق منها سوى مدخلها وبقايا كوابيل للسقف شكل كل منها على هيئة رأس فيل بنابيه $^{(\Lambda\Lambda)}$.

ولعل السبب في كثرة هذه الأبواب يرجع إلى الرغبة في تسهيل عملية الدخول والخروج من المسجد نظرا لاتساع رقعته (١٠٠) أو لكثرة المساكن والأسواق التي كانت مشيدة حول ساحته الخارجية، إذ يروى المؤرخ ابن تغرى بردى أنه كان يوجد خلف الجامع مصطبة مساحتها ذراع بلغت أجرتها كل يوم اثنى عشرة درهما، يستغلها ثلاثة أفراد، أحدهم في بكرة النهارة لبيع الغزل، والثاني لضباز بعد الظهر إلى العصر، والثاث من العصر إلى المغرب لبيع الحمص والفول (١٠١)، مما جعل بعض الباحثين يعتقد بأن السبب الرئيسي وراء قيام أحمد بن طواون بعمل زيادات حول الجامع من الشمال والجنوب والغرب، يرجع بصفة أساسية للفصل بين الجامع وبين ضوضاء الحياة خارجية حتى يتوفر المصلين الهدوء والسكينة داخل الجامع (٢٠١) وذلك في الوقت الذي يشير فيه ابن دقماق إلى أل السبب الرئيسي وراء تشييد ابن طواون لهذه الزيادات يرجع إلى ضيق الجامع بالمصلين المصلين.

ومن المرجح أيضا أن السبب في بناء هذه الزيادات يعود إلى بناء الجامع فوق ربوة مرتفعة حيث كان من الصعب توفير رقعة كبيرة مسطحة من الأرض على مستوى واحد، لذا لجأ مهندس الجامع إلى فكرة الزيادات حتى يتمكن من بنائه على مستويين. وحسبنا دليلا على ذلك أن زيادات الجامع تبدو أقل انخفاضا من أرضية الجامع الداخلية (١٤٠) وذلك على الرغم من أن فكرة الزيادات قد وجدت في كل من جامع سوسة في تونس وفي المسجد الجامع وفي مسجد أبي دلف بسامراء بالعراق (١٥٠).

٨٨ – القريزي، الخطط جـ٢، ص٢٦٦.

٨٩ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١ ص٣٩.

٩٠ أحمد فكرى مساجد القاهرة، المدخل، ص١١١، حاشية رقم (١).

٩١- المقريزي، الخطط جـ٢، ص٢٦٧؛ ابن تغرى بردى النجوم، جـ٣، ص١١.

٩٢- محمود عكوش، تاريخ ووصف الجامع الطواوني، القاهرة ١٩٢٧، ص٣٦؛ حسن الباشا، جامع ابن طواون.ص٤٤٤/ K.A.C. Creswell, A Short Account, p.306

٩٣- ابن دقماق، الانتصار حـ٤، ص١٢٣.

٩٤ – المقريزى الخطط جـ٢، ص٢٦٦؛ زكى محمد حسن، الفن المصرى الإسلامي، ص٣٩؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد جـ١، ص٣٤٤؛

ه ٩- المقريزى الخطط جـ٢، ص٢٦٦؛ زكى محمد حسن، الفن المصرى الإسلامي، ص٣٩، حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد جـ١، ص٢٤٤.

وجدير بالذكر أن النهايات العليا لجدران الزيادات ولجدران المسجد زودت بشرافات فريدة في شكلها شيدت من الآجر، لانجد مثيلا لها في العالم الإسلامي، شبهها البعض بشكل عرف الديك^(٩٦) وأطلق عليها البعض اسم العرائس^(٩٧) لأنها تشبه أشكالا آدمية تجريدية صفت متجاورة متشابكة الأذرع تقوم أرجلها على صف من المربعات، بداخل كل منها دائرة مفتوحة.

وتعد ظاهرة تعدد المحاريب في الجامع الطولوني من الخصائص المميزة الهذا المسجد، إذ يلاحظ أن رواق القبلة يشتمل على ستة محاريب أقدمها المحراب الرئيسي في منتصف جدار القبلة وهو مجوف، يكتنفه على الجانبين أربعة أعمدة قديمة من الرخام، يمتاز تاجا الأماميين منها بأنهما من نوع شوكة اليهود (الأكانثاس) على حين نجد تاجا العمودين الأخرين من النوع المعروف بالسلسلة المشبكة، وذلك في الوقت الذي كسي تجويفه بألواح من الرخام والفسيفساء الرخامية، يتوجها شريط من الفسيفساء الزجاجية الملونة والمذهبة بها كتابات نسخية تشتمل على الشهادة بقسميها «لا إله إلا الله محمد رسول الله» (١٨)، على حين كسيت طاقية المحراب ووجه العقد من الخارج بالخشب الملون المنقوش، أثناء تجديد السلطان المملوكي لاجين للجامع في سنة ٢٩٦هـ / ٢٩٦م، الذي شملت عمارته أيضا عمل قبة فوق هذا المحراب تقوم فوق مقرنصات مكسوة بالخشب الملون، وضع بينها شمسيات جصية معشقة بقطع من الزجاج الملون على الطراز المملوكي.

ويفهم من المقريزى أن هذا المحراب منصرف إلى الجنوب عن سمت محراب الصحابة بجامع عمرو بن العاص، لأن أحمد بن طواون لما عزم على بناء هذا المسجد بعث

٩٦ - أحمد فكري مساجد القاهرة، المدخل، ص١١٦.

٩٧ - فريد شافعي، العمارة العربية في مصر، ص٤٧١.

^{^^-} تعد النماذج التي وصلتنا من هذا النوع من الفسيفاء الزجاجية الملونة في مصر قليلة للغاية، أقدمها في طاقية محراب قبة في طاقية محراب قبة في طاقية محراب قبة الصالح نجم الدين أيوب من سنة ٦٤٧هـ/١٢٥٩م، ثم في طاقية محراب مدرسة المنصور قالاوون من سنة شجر الدر من سنة ١٢٥٨م، يليها عصابة محراب الجامع الطولوني من سنة ١٣٩٦هـ/١٢٩٦. فتواشيح المدرسة الطيبرسية بالجامع الأزهر من سنة ١٠٨٩م/١٠٩٩م، فالزخارف التي عثر عليها حديثا في بقايا القصر الأبلق بقلعة الجبل من سنة ١٣١٤م/١٠٩٩م بالإضافة إلى طاقية محرابي المدرسة الاقبغاوية بالجامع الأزهر من سنة ١٣٠٤م/١٢٩٠م، وأخيرا طاقية محراب مسجد الست حدق مسكة من نفس بالجامع الأزهر من سنة ١٣٠٤م/١٢٩٠م، وأخيرا طاقية محراب مسجد الست حدق مسكة من نفس السنة انظر , Abd Ar-Rāziq, Trois Fondations féminines dans L'Egypte mamlouke, السنة انظر , REI.XLI/I, Paris,1973,pp.105-107.

إلى محراب مدينة رسول الله على من أخذ سمته، فإذا هو مائل عن خط سمت القبلة المستخرج بالصناعة نحو العشر درج إلى جهة الجنوب، فوضع حينئذ محراب مسجده هذا مائلا عن خط سمت القبلة إلى جهة الجنوب بنحو ذلك اقتداء منه بمحراب مسجد الرسول كما اشار المؤرخ نفسه إلى أن أحمد بن طولون رأى الرسول على في منامه وقد خط له المحراب، فلما أصبح وجد النمل قد أطاف بالمكان الذي خطه له رسول الله في المنام (١٩٩).

وينسب إلى عصر السلطان المملوكي لاجين محراب آخر، وهو مسطح من الجص، حافل بالزخارف النباتية والكتابات العربية بالخطين الكوفي والنسخ يعرف بمحراب السيدة نفيسة، يقع على يسار المحراب الرئيسي المجوف بنحو سبعة وعشرين مترا، كما نجد بنفس الرواق الشرقي للمسجد محرابا ثالثا من النوع الجصى المسطح ينسب أيضا إلى السلطان لاجين ثبت على واجهة إحدى دعامات البائكة الثانية من جهة الصحن، يعد في الواقع تقليدا لمحراب رابع من عمل وزير الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، الأفضل شاهنشاه في سنة ١٨٧هه / ١٩٠٤م (١٠٠٠).

أما المحرابان الخامس والسادس فنجدهما على واجهتى الدعامتين اللتين تكتنفان دكة المبلغ وهما أيضا من النوع الجصى المسطح أرجعهما فلورى إلى القرن ٤هـ/ ١٨٥(١٠١). وإن كنا نفضل نسبة الأيمن منهما إلى العصر الطواوني.

ولقد حاول بعض الباحثين (۱۰۲) أن يربط بين تعدد المحاريب وبين تعدد المذاهب استنادا إلى ما جاء على لسان المؤرخ ابن كثير من أن الصاحب تقى الدين بن مراحل ناظر الجامع الأموى بدمشق عمل فيه محرابين للحنفية، والحنابلة في سنة ٢٤هه / ١٣٦٢م (١٠٢) بيد أننا نرى في تعدد المحاريب بالمسجد نوعا من تجليد وإحياء الذكرى والتقرب إلى الله.

٩٩ المقريزي، الخطط، ج٢، ص٢٥٢. ٢٦٧.

١٠٠ حسن عبد الهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٣٨؛ فريد شافعى العمارة العربية في مصر، ص٥٩٤؛
 حسن الباشا، جامع ابن طواون، ص٤٥٢٠.

S. Flury, Samarra Und die Ornamentik der Moschee des Ibn Tulun, Der Islam, -\.\
IV,1913, pp.421-432; F.Shafii, An Early Fatimid Mihrab in the Mosque of Ibn Tulun,
Bulletin of the Faculty of Arts, Univ. of Cairo, XV/1.1953, pp.67-81.

١٠٢ - حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٣٩.

١٠٣- ابن كثير البداية والنهاية في التاريخ، القاهرة ١٩٣٩، جـ١٤، ص ٣٠٤.

ويشتمل رواق القبلة الشرقى أيضا على منبر خشبى يجاور المحراب الرئيسى المجوف، يتبع في تصميمه النظام المألوف في تشييد المنابر الخشبية من حيث الباب المثبت داخل إطار يعلوه صفوف من المقرنصات، يتوجها صف من الشرافات على هيئة أوراق نباتية صغيرة، يفضى هذا الباب إلى سلالم تنتهى في أعلاها بالمقعد المخصص لجلوس الإمام وهو مغطى بجوسق بصلى الشكل، والمنبر ريشتان مسدودتان، يزين كلا منهما حشوات من خشب الساج الهندى والأبنوس، نقشت بزخارف نباتية دقيقة الحفر، تؤلف في مجموعها أطباقا نجمية الشكل، تعد من خصائص الفن الإسلامي، حيث بدأ ظهورها في العهد الأيوبي، واكتملت زمن سلاطين الماليك، وهذا يعني أن المنبر الحالى قد حل مكان المنبر الأصلى الذي نقله السلطان المملوكي لاجين إلى جامع الظاهر بالمنشاة على شاطئ النيل (١٠٤) ووضع مكانه هذا المنبر، الذي أمر بصنعه خصيصا برسم هذا المسجد في العاشر من صفر سنة ١٩٦٦هـ / ٨ ديسمبر ١٢٩٦م، حسبما جاء في اللوحة الخشبية التي تعلو بابه (١٠٠٠). وقد تم تجديده على يد لجنة حفظ الآثار العربية بعد أن تعرضت أغلب حشواته للنهبوالسلب (١٠٠١).

ويفهم من المصادر التاريخية أن أحمد بن طولون شيد بوسط صحن الجامع فوارة، ألزم الأولاد بصلاة الجمعة فيها، كان يعلوها قبة مذهبة مشبكة من جميع جوانبها، ترتكز على عشرة عمد رخامية يلتف حولها ستة عشر عمودا من الرخام أيضا، أقيمت في جوانبها، كما فرشت أرضيتها بالرخام، وكان يتوسطها قصعة رخامية قطرها أربعة أذرع، بوسطها فوارة تفور بالماء، يحيط بسطحها العلوى، الذي يشتمل على علامات الزوال، برابزين من خشب الساج ($^{(V)}$). وقد تعرضت هذه الفوارة للحريق في أوائل العصر الفاطمي في سنة $^{(V)}$ هـ $^{(V)}$ م، حيث أمر الخليفة العزيز بالله أو أمه السيدة تغريد ببناء واحدة أخرى، فتولى عمارتها ابن الرومية وابن البناء في سنة $^{(V)}$ هـ $^{(V)}$ بيد أنها احترقت بدورها وأقيم مكانها القبة الصالية على يد السلطان الملوكي لاجين ضسمن الإصلاحات التي قام بها في المسجد في سنة $^{(V)}$ مـ $^{(V)}$ وهي على هيئة بناء

١٠٤- ابن دقماق، جـ٤، ص١٢٠.

A. Fattal, La mosquee d'Ibn Touloun, p.28, pls.20-28 -1.0

١٠١- محمود عكوش؛ تاريخ ووصف الجامع الطواوني، ص٥٥، حسن عبد الوهاب؛ تاريخ المساجد جـ١، ص٧٧-٣٨، فريد شافعي، العمارة العربية في مصر، ص٤٩١.

١٠- ابن دقماق، الانتصار جـ٤، ص١٢٣؛ المقريزي، الخطط جـ٢، ص٢٦٧-٢٦٨.

١- ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص١٢٣.

⁻ المقريزي، الخطط جـ٢، ص٢٦٨.

مربع طول ضلعه أربعة عشر مترا، زود بأربعة مداخل محورية، يعلو كلا منها عقد مدبب ذو مركزين ويعلو المبنى قبة ذات قطاع مدبب، يبلغ ارتفاعها من أرضية الصحن إلى نهاية قمتها ما يقرب من ثلاثة وثلاثين مترا، ترتكز فوق أربعة صفوف من المقرنصات تحول المربع إلى مثمن، تستند عليه دائرة القبة، التى نقشت رقبتها الداخلية بآيات قرآنية بخط النسخ الملوكى تشير إلى الضوء مما أوضح الغرض من بنائها ولا سيما أنه يتوسط أسفلها من الداخل حوض رخامى مثمن الشكل كان يملأ بالماء الوضوء (١١٠).

ويفهم من المقريزى أن الجامع كان فى بداية أمره بلا ميضاة مما جعل الناس ينتقدون أحمد بن طواون على ذلك، فكان يقول: «وأما الميضاة فإنى نظرت فوجدت ما يكون بها من النجاسات فطهرته منها وها أنا أبنيها خلفه ثم أمر ببنائها(١١١)».

هذا وقد زود الجامع بمنارة شيدت من الحجر في الزيادة الغربية خارج المسجد تعتبر الوحيدة في مصر ذات السلم الخارجي (۱۱۲) وهي تتألف من قاعدة مربعة التخطيط، تعلوها منطقة أسطوانية، فوقها مثمن علوي يحمل مثمنا آخر أصغر منه، يتوجه قبة صغيرة مضلعة تعرف في المصطلح المعماري المحلي باسم المبخرة (۱۲۲). يبلغ ارتفاع قمتها عن أرضية الجامع نحو أربعين مترا (۱۲۱) ويصعد إليها عن طريق سلم خارجي يرتقي في عكس اتجاه عقارب الساعة، كما يربطها بسطح الجامع قنطرة حجرية ترتكز على عقدين على شكل حدوة الفرس، ويزين باطنها كوابيل حجرية مفصصة الشكل من النوع المألوف في المغرب الإسلامي وخاصة في شمال أفريقية والأنداس. وذلك بالإضافة إلى جملة تأثيرات من أساليب عربية إسلامية مختلفة بعضها محلى وبعضها وافد من الغرب وآخر من الشرق (۱۰۵).

والطريف أن هذه المنارة قد استرعت انتباه علماء الآثار الإسلامية الذين اختلفوا في تحديد العصر الذي تنسب إليه، إذ أرجعها البعض إلى عصر بناء الجامع في أيام أحمد بن طولون، بينما رأى البعض الآخر أنها من العصر الفاطمي، على حين ذهب فريق ثالث بأنها

١١٠ - حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١ ، ص٤٤؛ فريد شافعي العمارة العربية في مصر، ص٤٨٦.

١١١- المقريزي، الخطط جـ٢، ص٢٦٧.

١١٢ - حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٤٢.

١١٣ – فريد شافعي، العمارة العربية في مصر، ص٤٨١.

ه ۱۱- فريد شافعي مئذنة مسجد ابن طواون، رأى في تكوينها المعماري، مجلة كلية الأداب- جامعة فؤاد الأول، المجلد الرابع عشر، جـ١، مايوا ١٩٥٥، ص١٦٧-١٨٨.

من بناء السلطان المملوكي لاجين الذي عمر المسجد في سنة ١٩٩٦هـ/ ١٢٩٦م (١١٦١)، وهو الرأى الذي استقر عليه حاليا أغلب علماء الآثار الإسلامية (١١٧).

كذالك أثارت هذه المنارة بشكلها الغريب انتباه الكتاب العرب في العصور الوسطى، الذين اتخذوا من هذا الشكل مادة طيبة لمواصلة نسج الروايات والأساطير حول الجامع الطولوني فذكروا أن أحمد بن طولون، كان لا يعبث بشئ قط فاتفق أنه أخذ درجا أبيض بيده وأخرجه ومده واستيقظ لنفسه وعلم أنه قد فطن به وأخذ عليه لكونه لم تكن تلك عادته، فطلب المعمار على الجامع وقال: «تبنى المنارة التي للتأذين هكذا، فبنيت على تلك فطلب المعمار على الجامع وقال: «تبنى المنارة المسجد الجامع في سامراء المشهورة باسم الموية (۱۱۸)، كما ربطوا بينها وبين منارة المسجد الجامع في سامراء المشهورة باسم الملوية (۱۱۸) رغم أن الأخيرة تتميز بقاعدة أسطوانية وبدرج يدور ست مرات صاعدا بانحدار قليل إلى أعلى، على النقيض من المنارة الطولونية ذات السلم والقاعدة المربعة (۱۲۰).

والحق أن هذا التشابه الذي جذب أنظار بعض المؤرخين في العصور الوسطى قد دفع ببعض علماء الآثار الإسلامية إلى الربط بين منارات المسجد الجامع ومسجد أبى دلف في سامراء، والجامع الطولوني في مصر وبين المعابد العراقية القديمة المعروفة باسم الزيجورات أو الزيقورات (١٢١) من جهة ، وبين معابد النار الساسانية المعروفة باسم

۱۸۲-۷۱- انظر تفاصيل هذه الآراء في كل من محمود عكوش، تاريخ روصف الجامع الطولوني، ص۱۸۸-۱۸۲ Comité de conservation des monuments de l'art arabe,1915-1919,p.21; M.S.Briggs, Muhammadan Architecture in Egypt and Palestine, Oxford,1924, p.55; L.Hautecoeur et G.Wiet, les Mosquées du Caire, I,pp.215-216;K.A.C. Creswell, A Brief Chronology, p.21.

١١٧- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، المدخل ص١١٧؛ فريد شافعي، العمارة العربية في مصبر ص٤٤١.

۱۱۸ - ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص١٢٤؛ المقريزي، الخطط جـ٢، ص٢٦٧.

١١٩ - المقريزي، الخطط جـ٢، ص٢٦٧؛ ابن بقماق، الانتصار، جـ٤، ص٢٦٧.

Sarre und Herzfeld, Archaologische Reise im Euphrat und Tigris, Berlin,1911, - VY. I, pp.96-97; E.T. Richmond, Moslem Architecture, London,1926,p.52.

١٢١- الزاقورة كلمة بابلية تعنى العلو والسمو، نشأت فكرتها من إقامة المعابد العراقية القديمة منذ حضارة العبيد (٣٣٠٠ - ٢٠٠ ق.م) فوق مصاطب اصطناعية منحدرة، ثم تطورت حيث صارت تتآلف من سبع طبقات مربعة أو مستطيلة الشكل تعلو بعضها البعض وتنتهى في أعلاها بمعبد يعرف بالمعبد العلوى الذي يمثل استراحة الإله وهو في في طريقه من المعبد الأرضى إلى السماء وهذا يعنى أن درجات الزاقورة كانت ترمز إلى السلم الممتد من الارض إلى السماء. أنظر: طه باقر، فاضل عبد الواحد، عامر سليمان، تاريخ العراق القديم، بغداد ١٩٨٠، ج٢، ص٢٨.

اتش کاه $(^{177})$ من جهة أخسرى، که ربط بعضهم بين المنارة الطولونية وبين فنار الإسكندرية $(^{177})$ ، بل ذهب البعض الآخر أبعد من ذلك حين ربط بين هذه المنارة وبين الكثير من المبانى الصينية المنسوبة إلى أسرة تانج $(^{171})$.

ويفهم أيضا من كتابات بعض المؤرخين أنه كان بأعلى هذه المنارة عشارى (مركب صغير) عثر عليه أحمد بن طولون، ضمن الكنز الذى أصابه وشيد منه الجامع (١٢٥)، يزعمون انه كان يدور مع الشمس، بيد أن المقريزى يؤكد أنه كان يدور مع الريح (١٢٦).

ويفهم من الجبرتى أن هذا العشارى قد ظل باقيا فى مكانه حتى سقط فى غضون سنة ١١٠٥هـ / ١٦٩٣م (١٢٧) حيث استبدل بالهلال الحالى الذى يتوج قمة المنارة، رغم أننا نشاهده فى الرسوم التى أمدتنا بها الحملة الفرنسية عن هذه المنارة.

ومن طريف مايروى بصدد هذه المنارة أن أحفاء ابن طولون باعوا هذا المسجد إلى الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله بثلاثين ألف دينار مغربى، وبعد مدة شرعوا فى هدم المنارة بحجة أنها لها لم تكن ضمن الصفقة، فأرسل إليهم الحاكم بأمر الله قائلا: لقد بعتمونى هذا المسجد فكيف تهدمونه؟ فأجابوا: نحن لم نبع المئذنة. فأعطاهم خمسة آلاف دينار ثمنا لها (١٢٨).

والحق أن هذه المنارة لم تكن الوحيدة بجامع أحمد بن طولون، إذ أضاف إليه السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون منارتين (۱۲۹) أسطوانتي الشكل بطرفي جدار القبلة الشرقي، هدمت الجنوبية في القرن ۱۳۵ه / ۱۹ م والشمالية في عام ۱۳۵۲ه / ۱۹۳۸ لخلل أصابهما (۱۳۰) وهذا يعني أن جامع أحمد ابن طولون قد شهد العديد من الأحداث على مر الزمان، لعل أهمها تلك العمارة التي تمت على يد الوزير الفاطمي بدر

Van Berchem, Notes d'archeologie arabe, JA, XVII-XIX, 1891, p.435.-177

Van Berchem, Corpus, Egypte, I, p.481. - \ YY

E.Kühnel, Die Islamische Kunst, Springer Handbuch der Kunstgeschichte, IV, -\Y£
Leipzig,1929.p.390

١٢٥ - ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص١٢٨؛ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٢٢٦ - ٢٦٧.

١٢٦- المقريزي، الخطط جـ٢،ص٢٦٧.

١٢٧- الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بولاق ١٢٩٧هـ، ج١، ص٢٥٠.

۱۲۸ – ناصر خسرو، سفر نامة، ص۹ه.

١٢٩ - المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٩٦.

١٣٠ حسن عبد الوهاب، قاريخ المساجد، ج١، ص٥٤.

الجمالي في صفر سنة ٧٠٠هـ / أغسطس ١٠٧٧م كما جاء باللوح الرخامي الذي يعلو سبور الزيادة الشمالية فوق المدخل الحالي للمسجد (١٣١)، تعرض الجامع بعدها للخراب وصار مأوى للحجاج المغاربة وهم في طريقهم إلى الأراضي المقدسة (١٣٢) الذين صحاروا ينزلون فيه "بأباعرهم ومتاعهم" (١٣٢) كما اتخذ فيه السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري مخبزا في القرن ٧هـ / ١٩م، يعمل فيه مائة أردب خبز توزع يوميا على أرباب الزوايا (١٣٥)، مخبزا في القرن ٥هـ / ٢٦م، يعمل فيه مائة أردب خبز توزع يوميا على أرباب الزوايا (١٣٥)، قالاوون في سنة ١٩٦٩هـ / ١٩٩٧م فاختفي فيه الأمير حسام الدين لاجين خوفا من أن يقع في أيدي منافسيه من الأمراء المتصارعين على السلطان وبذر أن سلمه الله من هذه المحنة في أيدي منافسيه من الأمراء المتصارعين على السلطان وبذر أن سلمه الله من هذه المحنة على عمارته من خالص ماله عشرين ألف دينار، وابتاع له من بيت المال منية أندونة من أرض الجيزة ووقفها على المدرسين والمؤذنين والفراشين وغيرهم من المشتغلين في الجامع ورتب فيه دروسا للحديث والتفسير والفقه، ودرسا للطب، كما أنشأ به مكتبا لاقراء أيتام المسلمين (١٣٠) وسبيلا جدده السلطان الأشرف قايتباي فيما بعد (١٣١) يعد من أقدم الأسبلة في مصر الإسلامية، بعد سبيل المدرسة الظاهرية بشارع المعز لدين الله.

واستمر الجامع الطولوني في مسيرته التاريخية حتى تعرض للخراب فأنشئ فيه مصنع لعمل الأحزمة الصوفية إبان القرن ١٢هـ/ ١٨م، ثم تحول إلى ملجأ للعجزة والمتقدمين في السن تحت إشراف كلوت بك اعتبارا من سنة ١٢٦٣هـ/ ١٨٥٧م فلحق به خراب عظيم حتى أدركته أخيرا لجنة حفظ الآثار العربية فأعادته إلى سابق عهده من روعة وبهاء بعد جهود مضنية استمرت من سنة ١٨٥٠ – ١٨٩٨م (١٣٧) ومازال جامع أحمد بن

Repertoire, VII,p.199; A, Fattal, La Mosquee d'Ibn Touloun, pl.6 -\\

١٣٢- رحلة اين جبير، القاهرة ١٩٥٥، ص٢١.

١٣٢- المقريزي، الخطط جـ٢، ص٢٦٨.

١٣٤ – المقريزي، السلوك في معرفة دول الملوك، تصقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٤، جـ١، ص

ه ۱۳- ابن القرات، تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق، بيروت ۱۹۳۹، ج.۸، ص ۲۲۹؛ ابن الجيعان، التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، القاهرة ۱۸۹۸؛ المقريزي، الخطط، ج.۲، ص ۲۲۸.

١٣٦ حسنى نوصير، مجموعة سبل السلطان قايتباى بالقاهرة رسالة ماجستير لم تطبع كلية الأداب جامعة القاهرة ١٩٧٠، ص٥٢.

١٣٧ – حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٥٥ – ٤٦،

M. Herz, Index général des Bulletins du comité des annees1882 à1910, Le Caire,1914, pp.10-11.

طواون يحظى باهتمام ملحوظ من هيئة الآثار المصرية التى تشمله بعين الرعاية والصيانة نظرا لما يتمتع به من شخصية ذات طابع محلى وصريح، رغم ما يشتمل عليه من تأثيرات ليست بالقليلة وفدت إليه مع مهندسه، الذى لاشك فى أصله العراقى، إذ من المرجح أنه جاء من مدينة سامراء التى أمضى احمد بن طواون فيها فترة شبابه ونقل الكثير من معالمها المعارية والفنية إلى مدينة القطائع التى شيدها عاصمة لملكه فى مصر.

الدور الطولونية

يفهم من المصادر التاريخية أن مدينة الفسطاط كانت تضم أيضا العديد من الدور الطواونية التي جذبت أنظار المؤرخين، فقد حدثنا الكندي أن القاضي محمد بن عبده شيد دارا عظيمة بها أنفق على بنائها ألف دينار(١٣٨)، كما ذكر المقريزي أن فائقا غلام أحمد بن طولون ابتاع دارا فيها بعشرين ألف دينار وسلم الثمن لأصحابها وأمهلهم شهرين لمغادرتها فلما عز عليهم مغادرتها وهبها لهم وترك لهم الثمن (١٣٩). وروى أيضا أن بدر الخفيفي غلام أحمد بن طولون بنى دارا عظيمة بالقرب من المصلى القديم في الفسطاط انتزعها من أحمد بن طولون بعد أن غضب عليه، فسكنها طاهر بن خمارويه، ومن بعده الحمامي غلام ابن طولون (١٤٠) بيد أن هذه الدور تعرضت للخراب شائها شأن الدور السكنية لمدينة القطائع التي هلك سكانها أثناء الشدة المستنصرية وكانت تنيف على حد زعم المقريزي" على مائة ألف دار، نزهة الناظرين محدقة بالجنان والبساتين (١٤١)" وبذلك أصبح من الصعب علينا التعرف على مكونات تلك الدور وتخطيطها المعماري، وإن كانت الصفائر الأثرية قد كشفت لنا عن يقاما بعض الدور السكنية بمدينة الفسطاط أمكن نسبة ثلاثة منها إلى العصر الطواوني، عثر على أقدمها في حفائر متحف الفن الإسلامي عام١٩٣٧ في الفضاء بين كوم الجارح وجامع أحمد بن طواون أي في موقع مدينة العسكر(١٤٢). وهي عبارة عن بقايا دار تمثل القسيم الجنوبي منها وهو يتالف من إيوان أوسط مستطيل الشكل يكتنفه من يمين ويسار غرفتان صغيرتان، ويتقدم الوحدات الثلاث سقفية مستعرضة تفتح على فناء مكشوف يقع إلى الشمال منها بواسطة ثلاث فتحات (١٤٣) يفصلها دعامتان ضخمتان بقى منهما الدعامة

١٣٨ - الكندي، الولاة والقضاة، ص١٦ ه.

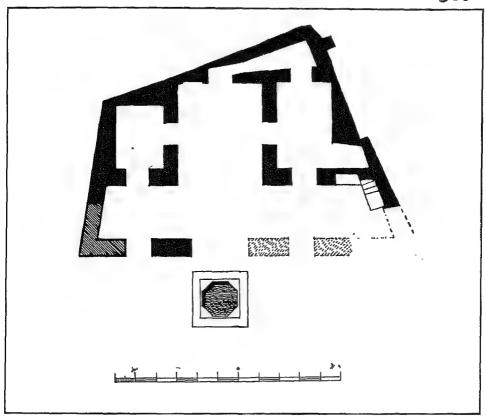
١٣٩ – المقريزي، الخطط، جـ١، ص٣٣٠.

[.] ١٤ - ابن دقماق الانتصار، جـ٤، ص١٠؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٣، ص٣٣٦.

١٤١ – المقريزي، الخطط، جـ١، ص٣٢٦.

H. al- Hawary, Une maison de L'époque toulounide, BIE, XV, p.49.-127 K.A.C. Creswell, Early Muslim Architecture, II, pp.365-366.-127

الشرقية، وقد عثر في منتصف الفناء على بقايا فوارة ذات تخطيط مربع، بداخلها تجويف مثمن الشكل، يتصل بها في الزاوية الجنوبية الشرقية أنبوب من الفخار كان يغذيها بالمياه (١٤٤) وقد أمكن نسبة تلك البقايا إلى حوالي سنة ١٨٥ه / ١٩٠٠م استنادا إلى الزخارف الجصية التي كانت تكسو الجدران لأنها تشبه إلى حد كبير الطراز الثالث من زخارف سامراء الجصية (١٤٥)، وقد عثر بينها على محراب جصى مسطح يزين أعلاه الشهادة بقسميها، نقشت بالخط الكوفي البسيط (١٤٥) وهو يشبه بدوره أحد محاريب الجامع الطولوني (١٤٥).



شكل (٥) البيت الطواوني الأول، مسقط أفقى، عن فريد شافعي.

H. al- Hawary, Une maison, p.80.-128

اه العمارة العربية، ص ١٤٧ H.Gluck Und Diez, Die Kunst des Islam, العمارة العربية، ص ١٤٧ p.147;Z.M.Hassan, Les Tulunides, p.293.

١٤٧- فريد شافعي، العمارة العربية، ص ٤٩٥، شكل ٣٢١.

ومع أن تلك البقايا لاتعطى صورة واضحة عن تخطيط الدور فى العصر الطواونى، إلا أنها ظلت زمنا طويلا بمثابة المثل الوحيد الذى وصلنا من هذه الفترة حتى استطاع أحد الباحثين فى عام ١٩٦٨، نسبة إحدى الدور التى سبق أن عثر عليها المرحوم على بهجت فى حفائر الفسطاط إلى العصر الطواونى استنادا إلى بعض الزخارف الجصية التى كانت تزين بعض جدرانها (١٤٨). وهذه الدار لاينقص تخطيطها سوى القليل وان كانت جدرانها لاترتفع أكثر مما ترتفع جدران الدار الأولى التى كشفت عنها حفائر متحف الإسلامى فى عام ١٩٣٢.

ويتألف تخطيط هذه الدار من فناء أوسط مكشوف يتعامد عليه من الشمال والجنوب جناحان، يشتمل كل منهما على إيوان أوسط مستطيل الشكل، يكتنفه من يمين ويسار غرفتان صغيرتان، ويتقدم الوحدات الثلاث سقفية مستعرضة تفتح على الفناء الأوسط من خلال فتحات ثلاث كما هو الحال في الجزء المكتشف من الدار الأولى. كما يوجد جناح ثالث أصغر حجما في الركن الجنوبي الشرقي يتصل بممر المدخل الرئيسي لهذه الدار وهو من النوع المنكسر الذي يعرف عند المؤرخين العرب باسم الباشورة (١٤١١)، الذي شاع استعماله في الدور السكنية التي كشف عنها على بهجت في حفائر الفسطاط. وكان هذا النوع من المداخل يهدف إلى حجب أنظار المارة في الطريق من كشف من بداخل الدار (١٠٥٠) إذا مافتح الباب الخارجي في وقت شاع فيه الحجاب بين أفراد المجتمع المصري (١٥٠١)، إذ كان الداخل من الباب ينحي يمينا أو يسارا نحو دهليز ومنه ينحرف إلى الفناء الداخلي كما كان يساعد أيضا على زيادة فرص الدفاع عن الدار إذا ما قامت قلاقل أو فتن داخلية أو خارجية (١٥٠١).

أما باقى الغرف والوحدات فقد تم توزيعها حول الفناء والأجنحة السابق الإشارة إليها، نجد بينها غرفة تشغل الزاوية الشمالية الشرقية يرجح أنها كانت المطبخ الرئيسي لهذه

٨٤٨ – عباس حلمي عمار، تطور المسكن المصرى الإسلامي من الفتح العربي حتى الفتح العثماني، رسالة دكتوراة، كلية الأداب – جامعة القاهرة ١٩٦٨، ص٧٤.

١٤٩ - وجد هذا النوع من المداخل لأول مرة في أبواب مدينة بغداد التي شيدها الخليفة العباسي أبو جعفر K.A.C. Creswell, Early Muslim Architec- المنصور التي اندثرت ولم يعد لها وجود انظر ture II, pp.12-14, figs3,4.

١٥٠ - على بهجت، البير جبرييل، كتاب حفريات الفسطاط، ص ٨٣. ٩٣.

١٥١- محمود رزق، المجتمع المصرى، ص١١٤.

١٥٢ - فريد شافعي، العمارة العربية، ص ٤٣٥؛ أحمد عبد الرازق احمد، بيرت الفسطاط الأثرية، ص ٩٠.

الدار، عثر بجوارها على بقايا سلم يفضى إلى الطوابق العليا المخصصة للحريم ولحجرات النوم التى لم يعد لها وجود في الوقت الحالى (١٥٣).

وقد ساعد اكتشاف هذه الدار ونسبتها إلى العصر الطولونى على نسبة دار ثالثة من بين مكتشفات المرحوم على بهجت بمدينة الفسطاط إلى نفس الفترة الزمنية وهى الدار التي أطلق عليها اسم الدار السادسة وذكر بصددها أنها تشذ من حيث التخطيط عن بقية الدور المكتشفة لاحتوائها على جناحين متماثلين، كما ذكر أنها تشبه نظائرها من الدور العراقية بمدينة سامراء (١٥٤).

والحق أن هذه الدار تشبه إلى حد كبير من حيث التخطيط الدار السابق الإشارة إليها، فهى تشتمل على فناء أوسط مكشوف يتعامد عليه من الشمال والجنوب جناحان يتألف كل منهما من إيوان أوسط يكتنفه غرفتان من شرق وغرب ويتقدم الجميع سقفية مستعرضة تفتح على الفناء من خلال فتحات ثلاث، على حين وزعت بقية وحدات الدار على جانبي الفناء الشرقي والغربي، أي أنها تشبه تخطيط الدور الطولونية (١٥٥٠).

ومن المعروف أن هذا النوع من التخطيط أى الإيوان الأوسط والغرف الجانبية والسقفية المستعرضة، وجد للمرة الأولى فى بعض بيوت قصر الاخيضر الذى عثر عليه فى بادية العراق، والذى ينسب إلى حوالى سنة ١٦٠هـ/ ٧٧٧م (٢٥٠١)، كما استخدم كذلك فى بيوت مدينة سامراء التى تنسب إلى القرن الثالث الهجرى / التاسع للميلاد (١٥٠٠)، ولعله منقول عن قصر شرين الذى ينسب إلى كسرى الفرس خسرو ابراويز الذى حكم فيما بين ٩٠٠ - ١٨٨م (١٥٠٨).

بقى أن نشير إلى أن هذه الدور كانت مزودة بشاذروان أى بلاطة مستطيلة من الرخام أو الحجر، يعلو سطحها زخارف متنوعة بالحفر البارز، كانت تثبت في صدر الإيوان في

١٥٢- فريد شافعي، العمارة العربية، ص٤٣٣.

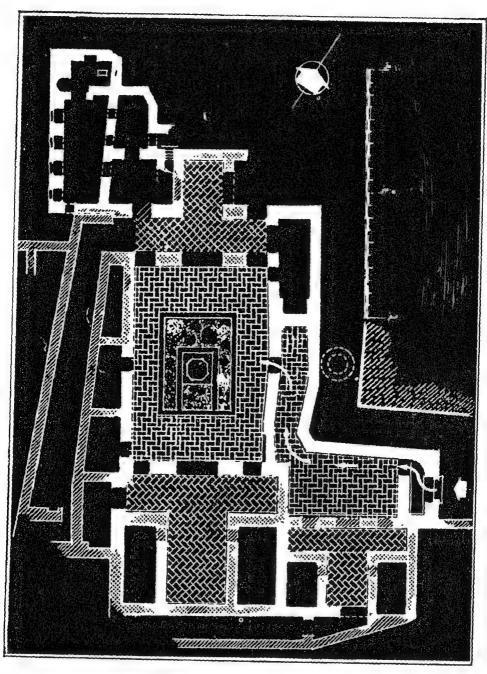
١٥٤ – على بهجت، ألبير جبرييل، كتاب حفريات الفسطاط، ص٧٧.

٥٥ ١ - قريد شافعي، العمارة العربية، ص٥٥٠.

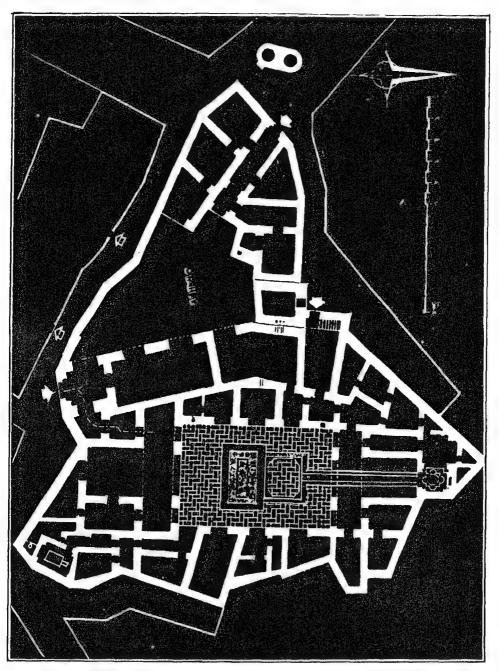
G. Bell, Palace and Mosque at Ukhaidir, Oxford,1914,p.168.-\o\

Hassan, Les Tulunides, p.194,A. Bahgat et A. Gabriel, Fouilles d'al-Faus--\oV tat. Le Caire,1921,p.80.

G. Bell, Palace, pp.44-, H.al- Hawary, Une maison, p.80.-\oA



شكل (٦) البيت الطواوني الثاني، مسقط أفقى، عن فريد شافعي.



شكل (٧) البيت الطواوني السادس، مسقط أفقى، عن فريد شافعي.

وضع مائل، يعلوها صنبور يسيل منه الماء متعرجا فوقها فيلطف جو المكان ويضفى عليه منظرا جميلا وهو يسيل منحدرا أسفل البلاطة، ومنها إلى قناة تمتد فوق أرضية الإيوان أو أسفلها حتى تصل الفوارة التي تتوسط فناء البيت (١٥٩).

كما كانت هذه الدور مزودة بآبار منقورة في الصخر لتزويدها بالمياه اللازمة التي كانت تجلب إليها من نهر النيل على ظهور الصمالين أو بواسطة الدواب (١٦٠٠)، فقد ذكر المقريزي أن الدار الواحدة كان يصب لمن فيها، إبان هذا العصر، أربعمائة راوية ماء في كل يوم، كما ذكر أن عدد الأسطال التي كانت بالطاقات المطلة على النيل، سنة عشر ألف سطل مؤيدة ببكر وأطناب بها ترخى وتملأ (١٦١).

كنيسة العذراء بدير السريان

ووصلنا أيضا من العصر الطواوني أثر معمارى أخير يوجد في بقعة من الصحراء في الشيمال الغربي من مدينة القاهرة في وادى النطرون، حيث شيدت أديرة لرهبان المسيحيين كدير البراموس، ودير الأنبا بشواى وديرابي مقار، ودير السريان (١٦٢).

إذ يوجد في دير السريان كنيسة صغيرة عبارة عن قاعة تعرف بكنيسة العذراء،
زينت الأجزاء العليا من جدرانها بأشرطة وحشوات مسطحة وغائرة، تنتشر داخلها وفيما
حولها زخارف جصية معظمها من النوع النباتي المتطور من طراز سامراء الثالث (١٦٣) تبدو
أوثق صلة بهذا الطراز من زخارف الجامع الطولوني نفسه لذا يرجح نسبتها إلى حوالي
سنة ٢٠٣هـ/ ٤٠٤م

٥٩ - على بهجت، ألبير جبرييل، كتاب حفريات الفسطاط، ص٧٣.

١٦٠- أحمد عبد الرازق أحمد، بيوت الفسطاط الأثرية، ص١٠.

١٦١ – المقريزي، الخطط، جـ١، ص٣٣١.

١٦٢ – فريد شافعي، العمارة العربية، ص١٦١.

H. al- Hawary, Une maison, p.85;Z.M. Hassan Les Tulunides, p.294.-\٦٢ - فريد شافعي، العمارة العربية، ص١١٥.



عادت مصر من جديد إلى بحر الدولة العباسية الحافل بالعواصف، ولم يكن من المأمول أن تستقر حالها أو تهدأ أمورها على يد ولاة الخلافة العباسية الذي كان الواحد منهم يعزل بعد ولايته ببضعة أشهر، إذ ما أن استقر بها محمد بن سليمان شهورا حتى عزله الخليفة المكتفى بعيسى بن محمد النوشري، وكان من جملة قواد محمد بن سليمان وذلك في شهر جمادي الآخرة سنة ٢٩٢هـ/ ابريل ٩٠٥م^(١) فبدأ يرتب أموره في مصر وجعل الحسين بن أحمد المادرائي المعروف بأبي زنبور على الخراج، وجمع بقايا رجال الدولة الطولونية وأخرجهم من البلاد موكلا بهم، أما بقية جند الطولونيين فقد ساروا مع محمد بن سليمان حتى بلغوا دمشق ثم تفرق أمرهم، فمنهم من ذهب إلى العراق، ومنهم من عباد ثانية إلى مصر. وكان من بين هؤلاء العائدين شباب يدعى مصمد بن على الخلنجي $\binom{(Y)}{2}$ أو الخليجي $\binom{(Y)}{2}$ ، أو ابن الخليج $\binom{(Y)}{2}$ ، ساءه ما حل ببني طولون وما فعله جند الخلافة العباسية بمصر فجمع حوله نفر من جند الطولونيين وأسرع بمن معه نحو الرملة في شهر شعبان سنة ٢٩٢هـ/ يونيو ٥٠٠م وقضى على الحامية العباسية بها واستولى عليها، وخطب على منابرها للخليفة ومن بعده لإبراهيم بن خمارويه بن طواون بوصفه أميرا للبلاد ومن بعدهما لنفسه بوصفه نائبا عن إبراهيم الذي كان حيئذ أسيرا في بغداد. ثم كر الخلنجي إلى مصر، وحاول واليها عيسي النوشري أن يتصدى له، فانهزم أمامه ولم يجد بدا من الجلاء عن الفسطاط ونزل بجيشه عند الجيزة، ودخل الخلنجي الفسطاط فأحسن الشعب استقباله ودعا له الإمام على المنبر بعد الخليفة المكتفى وإبراهيم بن خمارويه، عندئذ هرب النوشري إلى الاسكندرية فأرسل الخلنجي خلفه فرقة من جيشه بقيادة جندى نوبي يسمى خفيفا فانهزم هذا الأخير، مما أفضى إلى اضطراب أمر الخلنجي وأخذ يطالب الناس بالأموال ليؤدى لجنده أرزاقهم، فتكاثر عليه رجال الدولة، وتخلى عنه كثير من أتباعه مما اضطره إلى الاختفاء عند أحد الأصدقاء، الذي خانه في النهاية وكشف أمره، فقبض عليه في رجب سنة ٢٩٣هـ/ ابريل ٩٠٦م بعد أن دام سلطانه سبعة

۱- الكندى، الولاة والقضاة، ص ۲۵۸؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٢٢٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١٤٤١.

۲- ابن تغری بردی، النجوم، جـ۳، ص ۱٤٧.

٣- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ ١١، ص ٣٩٢؛ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، القاهرة ١٨٢٨٤هـ، حـ٤، ص ٣١٨.

٤- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٢٢٧.

أشهر وعشرين يوما^(ه). وأخذ إلى بغداد عاصمة الخلافة، حيث طيف به وبأصحابه على ظهور الجمال، ثم قتل جزاء فعلته هذه.

ومع هذا فإن الأمور لم تستقر بمصر بعد القضاء على ثروة الخلنجى فقد ألقت هذه الفتنة بالبلاد في هوة من الفوضى وعدم الاستقرار، كما ظهر خطر جديد في هذه الأثناء تمثل في قيام الدولة الفاطمية في المغرب سنة ٢٩٧هـ/ ٢٠٩م فانحصرت مصر بين خطرين، خطر هذه الدولة الناشئة في المغرب، وخطر القرامطة في المشرق^(٦)، وما أن استقرت الأمور الفاطميين حتى قامت المحاولات لفتح مصر حلمهم الأكبر، ويؤكد الكندي أن بعض المصريين كاتبوا الفاطميين في المغرب وطلبوا منهم غزو مصر مما يشير إلى أن المصريين وجدوا في هذه القوة الجديدة منفذا للخلاص من سيطرة الدولة العباسية، وأرسل المهدى بالفعل سنة ٢٠٦هـ/ ١٩٣٨م جيشا من أفريقية بقيادة ابنه أبي القاسم استطاع أن يستولى على برقة ثم الإسكندرية والفيوم، كما دان له جزء كبير من مصر، فاضطر والي مصر أبو منصور تكين إلى الاستنجاد بالخليفة المقتدر بالله العباسي، فبعث إليه جيشا على رأسه مؤنس الضادم تمكن من إنزال الهزيمة بالفاطميين وأرغمهم على الجلاء عن مصر (٧).

ولكن الفاطميين لم ييأسوا من فتح مصر نهائيا، فلما كان العام التالى أى سنة ٢٠٢هـ/ ٩٩٤م أرسل عبيد الله المهدى جيشا كبيرا بقيادة حباسة بلغ عدده حسب زعم الكندى مائة ألف أو زيادة (١٠)، نجح في الاستيلاء على الإسكندرية (١٠)، ولكن قدمت الجيوش من المشرق بقيادة مؤنس الخادم والتقت بالفاطميين على مقربة من الجيزة وكان النصر حليف المصريين وفر حباسة بجيشه إلى المغرب فقتله الخليفة المهدى (١٠). وقام القائد مؤنس الخادم بعزل تكين عن ولاية مصر وأمره بالرحيل عنها فخرج

٥- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٦٢؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٢٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١٥٢ - ١٥٤.

٦- محمد حمدى المناوى، مصر في ظل الإسلام، جا، ص ٦٤.

٧- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بولاق ١٢٩٠هـ، جـ١، ص ٣٠؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة
 الفاطميين الخلفاء، نشر جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٨، ص ٨٨.

٨- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٦٩؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، القاهرة
 ١٩٧٠، ص ٢٨٠.

٩- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١٧٣.

١٠ - سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص٢٨.

فى السابع من ذى الحجة سنة ٢٠٣ه/ يوليو ١٩٥ه(١١)، وأقام مؤنس فى مصر يدبر أمورها(٢١) إلى أن أرسل إليه الخليفة المقتدر واليا جديدا بدلا من تكين هو ذكاء الأعور(٢١) المعروف أيضا بذكاء الرومى، الذى وصل إلى مصر فى شهر صفر سنة ٣٠هه/ ١٩٥٩ وأوصاه بضرورة استئصال شافة أنصار الفاطميين فى مصر، على أن تلك الإجراءات لم تمنع من وصول جيش فاطمى جديد فى سنة ١٠٣هه/ ١٩٩٩ بقيادة أبى القاسم بن المهدى، نجح فى الاستيلاء على الإسكندرية(١٥) وسار إلى الجيزة، فجد ذكاء الرومى فى التأهب للحرب، وأمر ببناء حصن على الجسر الغربي بالجيزة، وحفر خندقا للرومى فى التأهب للحرب، وأمر ببناء حصن على الجسر الغربي بالجيزة، وحفر خدقا يحيط بعسكره حتى لا يفجأه العدو، ومازال ذكاء جادا فى أمر الحرب حتى مرض ومات فى شهر ربيع الآخر سنة ١٠٣هه/ سبتمبر ١٩٩ه(٢١)، فعهد الخليفة المقتدر بولاية مصر إلى تكين للمرة الثانية فقدم إليها فى شعبان سنة ١٠٣هه/ ديسمبر ١٩٩٩(١١)، بيد أنه لم يستطع أن يحرز أى انتصار على الفاطميين فاستنجد بالخليفة العباسي الذى أمده بجيش بقيادة مؤنس الخادم الذى وصل إلى مصر فى المحرم سنة ١٠٨هه/ مايو ٢٠٩ه(١١) بيدان خسر واستطاع أن يهزم أبا القاسم بن المهدى ويضطره إلى الفرار إلى المغرب بعد أن خسر كثيرا من جنده وسفنه، مما كان له أكبر الأثر فى بغداد فخلع عليه الخليفة ولقبه بالمظفر(١٩).

وهكذا لم يقدر النجاح لتلك المحاولات الأولى لغزو مصر من جانب الفاطميين، لأن الخلافة العباسية كانت على درجة من القوة مكنتها من مدافعة الفاطميين، وإن كانت الخلافة العباسية قد اهتزت أمام الخطر الفاطمي، لأن استيلاء الفاطميين على مصر كان من شأنه أن يمهد لامتداد نفوذهم إلى الشام مما يهدد الخلافة العباسية في عقر دارها.

ومما لا شك فيه أن وقوع الصدام بين الفاطميين والعباسيين أكثر من مرة على أرض مصر أنزل كثيرا من الأضرار بأهلها وعرضهم لمتاعب قاسية من جانب الجنود

۱۱- ابن تغری بردی، النجوم، جـ۳، ص ۱۷۳.

١٢- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢٨.

١٣- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١٧٤.

١٤- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢٨.

١٥ - عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٩٧.

١٦- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٧٥ - ٢٧٦؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢٨.

١٧- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢٨.

١٨ - سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ٣٤.

۱۹ - ابن تغری بردی، النجوم، جـ۳، ص ۳۰۳.

فساءت أحوال البلاد وتعرضت مرافقها للإهمال. وظل تكين في ولايته الثانية على مصر إلى أن عنزله منونس الضادم في ربيع الأول سنة ٣٠٩هـ/ يوليو ٩٢١م وخلفه هلال بن بدر (۲۰)، الذي لم يكن موفقا في ولايته فزاد الاضطراب على يده وثار عليه فريق كبير من الجند وقامت بينه وبين أولئك الثوار حروب طويلة وعم الفساد في البلاد وكثر القتل والنهب فعزله الخليفة المقتدر، وأقام بدلا منه أحمد بن كيغلغ^(٢١)، الذي حاول تنظيم عطاء الجند مما جعل بعضهم يثورون عليه فقر إلى مدينة فاقوس وظل في مخبئه والحكومة المركزية في بغداد عاجزة عن تأديب الثوار بسبب ضعفها وحاجتها إلى جميع الجند للدفاع عن مصر، ولم يعد أمامها سبوى عزل ابن كيغلغ، وأعاد الخليفة المقتدر تكين إلى مصر للمرة الثالثة (٢٢) في سنة ٣١٢هـ/ ٩٢٤م ، حيث نجح في إعادة الهدوء والنظام إليها فقد كان على حد تعبير المؤرخ ابن تغرى بردى «أميرا عاقلا شجاعا عارفا مدبرا... وكان عنده سياسة ودربة بالأمور ومعرفة بالحروب»(٢٣). بيد أن ولايته لم تطل، إذ مرض ومات في ربيع الأول سنة ٣٢١هـ/ مارس ٩٣٣م(٢٤)، بل كادت وفاته أن تقضى على الاستقرار الذي بلغته مصر في ولايته الأخيرة بسبب النزاع على حكم البلاد بعد وفاته (٢٥). وهنا ظهر على مسرح السياسة المصرية محمد بن طفج بن جف لأول مرة حيث نجح في تحقيق حلم قديم له وحصل من الخليفة القاهر على تقليد بولاية مصير في شعبان سنة ٣٢١هـ/ يوليو ٩٣٣م(٢٦)، ولكن اضطراب الأمور في مصر وفي مقر الضلافة نفسه لم يترك للاستقرار سبيلا، إذ لم يدع لمحمد بن طفج على منابر مصر إلا نحو اثنين وثلاثين يوما، ورد بعدها كتاب من الخليفة القاهر بولاية أحمد بن كيغلغ على البلاد المرة الثانية في شوال سنة ٣٢١هـ/ سبتمبر ٩٣٣م(٢٧). ولكن محمد بن طفج لم ييأس، وظل يسعى حتى حصل على ولاية مصر للمرة الثانية(٢٨) من الخليفة الراضي بفضل المصاهرة التي كانت بينه وبين

[.] ٢- المقريزي، الخطط، حـــ ، من ٣٢٨.

٢١ - الكندي، الولاة والقضاة، ص٢٧٩؛ القريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢٨.

۲۲ المقریزی، الخطط، جـ۱، ص ۳۲۸؛ انظر أیضا ابن تغری بردی، النجوم، جـ۳، ص ۲۰۱ – ۲۰۷ الذی
یذکر أن تکین ولی مصر ثلاث مرات قبل ذلك.

٢٣- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٢١١.

٢٤- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢٨.

٢٥- سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ٣٨.

۲۲- الكندى، الولاة والقضاة، ص ۲۸۲٬ المقريزى، الفطط، جـ١، ص ۲۲۸؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣،
 حر، ۲۳۲ - ۲۳۲.

٧٧ - سيدة إسماعيل كاشف، مصير في عصر الإخشيديين، ص ٧٦.

٢٨- الكندي، الولاة والقضاة، ص ٢٨٥؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص ٣٢٩.

الفضل بن جعفر $(^{77})$ ، وبخل مدينة الفسطاط في الأيام الأخيرة من شهر رمضان سنة 77 أغسطس 77 9 وأصل محمد هذا من ملوك فرغانة 77 أحد أقاليم ما وراء النهر، التي كان يسيطر عليها كبار الملاك والفرسان 77 وقيل أنه لقب بالإخشيد، وهو لقب ملوك فرغانة السابقين لأن أباه من نسلهم، وأن الخليفة الراضي بالله هو الذي منحه هذا اللقب في سنة 77 أو في السنة التي تليها 77 على أصبح الأراء. وقيل أيضا أن معناه بلغة إقليم فرغانة ملك الملوك 77 ، وهذا تفسير لا يمكن التسليم به، ومثله في ذلك مثل الرأى القائل بأن لفظة طغج تعنى عبد الرحمن 77 .

مجمل القول أن بيت محمد بن طغج اتصل بالعباسيين من أيام الخليفة المعتصم، فقد كان جده جف من بين فرسان فرغانة الذين جئ بهم إلى المعتصم فعنى بهم وأقطعهم قطائع في مدينة سامراء، وبعد وفاة المعتصم انتقل جف إلى خدمة ابنه الواثق وبعد وفاته سنة ٢٣٢هـ/ ٧٤٨م، صحب جف الخليفة المتوكل وظل في بطانته إلى أن مات في بغداد في نفس الليلة التي قتل فيها المتوكل سنة ٧٤٧هـ/ ٢٨٨م(٢٧).

وخلفه ابنه طغج بن جف وكان من كبار الجند وأصحاب الولايات، وقد دخل فى خدمة الطولونيين (٢٨)، وتولى الشام (٢٩) لهم وأخلص فى خدمتهم، ويروى أيضا أنه كان مع خمارويه فى القصر ليلة قتله، وأنه طارد الخدم الذين اشتركوا فى ذبحه، وقبض عليهم وأمر بذبحهم وصلبهم (٤٠)، مع أن خمارويه كان قد أزمع الفتك به، لامتناعه عن القبض على راغب والى طرسوس، ولكن مصرعه حال دون ذلك (٤١).

٢٩ - ابن سعيد، للغرب، ص ١١.

٣٠- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢٩.

٣١ - ابن سعيد، المغرب، ص ٥؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٥٣٥.

٣٢ - سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ٦٠.

٣٣- ابن سعيد، المغرب، ص ٢٣.

٣٤- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، ص٥٥،

ه٣- ابن تغري بردي، النجوم، جـ٣، ص ٢٣٧.

٣٦ حسين مؤنس، تاريخ مصر، ٤٠٨؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ٧١.

٣٧ - ابن سعيد، المغرب، ص ٥؛ خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، ص ٥٣ - ٥٤.

٣٨- ابن سعيد، المغرب، ص ٥،

٣٩ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، ص ٥٤.

٤٠ - ابن تغري بردي، النجوم، جـ٣، ص ٦٠.

۱۱- این سعید، المغرب، ص ۲.

وظل طغج واليا على دمشق وطبرية في أيام أبي العساكر جيش ابن خمارويه، وفي أيام هارون بن خمارويه نجده واليا على الشام مستبدا بالأمر فيه، ثم تمكن رجال الدولة الطولونية من استرضائه واستمالته فدخل في طاعتهم وأقروه على الشام (٢٤). وعندما قتل شيبان بن أحمد بن طولون ابن أخيه هارون، لم يعترف طغج بشيبان وانضم إلى محمد بن سليمان وشارك بهذا في القضاء على دولة الطولونيين، ثم انتقل طغج إلى بلاطالعباسيين وناله ما كان ينال رجال الدولة إذ ذاك من الأذي فحبسه الخليفة المكتفى بالله مع ابنيه محمد وعبيد الله (٢٤) بسعاية الوزير العباسي ابن الحسن، الذي كان يريد من طغج إذا لقيه في موكبه أن يترجل له، ولكن طغج لم يكن ليقبل ذلك. وبقى في السجن إلى أن توفى به في سنة ٢٩٤هـ/ ٢٠٩م، ثم أطلق ولداه (١٤٤).

وكان لطغج سبعة أبناء أكبرهم أبو بكر محمد مؤسس الدولة الإخشيدية، الذى لانعرف شيئا عن نشأته سوى أنه ولد فى بغداد فى منتصف رجب سنة ١٦٨هـ/ فبراير المهروف)، وأنه كان يستخلف فى الحكم على طبرية عندما كان أبوه واليا عليها وعلى دمشق، ثم تنقلت به الأحوال حتى ظهر أمره سنة ٢٠٣هـ/ ٩١٤م، وكان فى خدمة تكين والى مصر، فقد اشترك فى رد الغزوة الفاطمية على مصر بقيادة حباسة وأبلى بلاء حسنا فى القتال، فقربه تكين وتوثقت صلته به حتى أصبح منه بمنزلة الولد (٢١٠). لدرجة أنه عندما نحى عن ولاية مصر وخرج إلى الشام صحبه معه، ولما تولى تكين ولاية دمشق أناب عنه محمد بن طغج فى حماه وجبل السراة. فلما عاد تكين لولاية مصر من جديد ولاه الإسكندرية (٢٤) وهناك أتيحت له أيضا فرصة الاشتراك فى رد الفاطميين بقيادة أبى القاسم بن المهدى عن مصر فى سنة ١٠٣هـ/ ١٩٩٩م. وقد حرص محمد بن طغج فى أثناء ذلك على توثيق صلته بكبار رجال الدولة خاصة أسرة المادرائيين مثل أبى بكر محمد بن على المادرائي، والحسين بن أحمد المادرائي المعروف بأبى زنبور وعرف منهما شيئا كثيرا عن شئون مصر المالية. وعقب ذلك ولاه تكين أمر الحوفين الشرقى والغربى فأظهر أثناء عن شئون مصر المالية. وعقب ذلك ولاه تكين أمر الحوفين الشرقى والغربى فأظهر أثناء عن شئون مصر المالية. وعقب ذلك ولاه تكين أمر الحوفين الشرقى والغربى فأظهر أثناء عن شئون مصر المالية.

٤٢ - أبن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١٠١.

٤٣- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، ص ٤٥، الذي يذكر أن الذي كان محبوسا معه هو ابنه محمد فقط.

^{33 -} سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ٦٥.

ه ٤- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٥٥.

٤٦ - ابن سعيد، المغرب، ص ٧.

٤٧ - ابن سعيد، المغرب ، ص ٧.

ولايته شراهة إلى المال وأقبل على مصادرة المياسير والاستيلاء على التركات، وقد أنكر تكين منه ذلك وبدأت العلاقات تسوء بين الرجلين(٤٨).

وشعر محمد بن طغج بدقة موقفه فسعى لدى أحد معارفه ببغداد وهو محمد بن جعفر القرطى حتى دبر له ولاية الرملة بالشام وهرب إليها في سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م^(٤٩)، ثم حصل عن طريق نفس الصديق على تقليد من الخليفة المقتدر بولاية دمشق في سنة ٣١٩هـ/ ٩٣١م (٥٠)، وأخذ يمكن لنفسه فيها وذلك عن طريق تكوين قوة عسكرية يعتمد عليها في صراع السلطان الذي كان دائرا إذ ذاك، ثم استقدم إخوته وأخذ يستعد لانتهاز أول فرصة تسنح له، ولا شك أن عينيه كانتا مثبتتين على مصر فأخذ يجمع المال بالمسادرات وغصب التركات، ومن ذلك ما يروى أنه خرج يوما للصبيد في ظاهر دمشق فرأى حماما فأطلق إليه طائر الصبيد فأمسكه فإذا مع الحمام كتاب من الراشدي، وإلى دمشق السابق، إلى رجل من أهل دمشق يذكر فيه أن ما بقى عند هذا الدمشقى ثمانون ألف دينار، فما كان منه إلا أن عاد إلى داره واستدعى الرجل وطالبه بالمال وأخذه منه عنوة (۱۵).

واستطاع في النهاية أن يستصدر من الخليفة الراضي أمر بضم مصر إلى ولايته في الشيام ودخل الفسطاط كما أوضيحنا من قبل في شهر رمضان سنة ٣٢٣هـ/ أغسطس ٥٩٣م.

وتروى المصادر بصدد توليته هذه أنه كان يجلس يوما في دمشق فرأى طائرا يقال له السدلي ويزعم الناس أن من دار هذا الطائر على رأسه ثلاث مرات وتمنى على الله شيئا بلغه، فلما رأى محمد بن طغج هذا الطائر وقد دار على رأسه ثلاث مرات تمني إمارة مصر فبلغه الله مراده (۵۲). وقد ظل يحكم مصر إلى حين وفاته في ذي الحجة سنة ٣٣٤هـ/ یولیو ۲۶۹م^(۴۰).

٤٨ – ابن سعيد، المغرب، ص ٨.

٤٩ - سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ٦٨. ٥٠ - عريب بن سعد القرطبي، صلة تاريخ الطبري، جـ١٧ من تاريخ الأمم والملوك، للطبري، صـ٨٧ .

١٥- ابن سعيد، المغرب، ص ١٠؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ٧٠.

٥٢ - ابن سعيد، للغرب، ص ١٠.

٥٣- أشارت سيدة إسماعيل كاشف إلى وفاته في شهر ذي الحجة من السنة المذكورة انظر مصر في عصر الإخشيديين، ص١٠١، ثم عادت وذكرت في ص ١٣١ أن ذلك حدث في شهر ذي القعدة. أما حسين مؤنس فقد ذكر أنه توفي في سنة ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م انظر تاريخ مصر، ص ٤٠٩.

والحق أن الظروف التى تولى فيها محمد بن طغج مصر لم تكن مواتية، فقد كان طمع رجال الدولة فيها عظيما، أما من جهة الغرب فقد اشتد طمع الفاطميين ولم يعد يمر عام دون أن يوجهوا إلى مصر حملة. وقد عاش الإخشيد وخلفاؤه بين حجرى الرحى هذين طوال مدة حكمهم مصر، وانتهى أمرهم عندما غلبهم المعز الفاطمى على البلاد وفصل مصر عن الخلافة العباسية جملة (30).

ولم يكد محمد بن طغج الإخشيد يتولى أمور مصر حتى نهض محمد بن رائق، وكان هذا من فحول الرجال وعتاة ذلك الزمان، ولم يزل أمره يعلو حتى اضطر الخليفة الراضى إلى تقليده جميع أمور الدولة، كما أمر أن يخطب له على المنابر في أنحاء العالم الإسلامي «وبطلت الدواوين من ذلك الوقت، وبطلت الوزارة، فلم يكن الوزير ينظر في شئ من الأمور، إنما كان ابن رائق وكاتبه ينظران في الأمور جميعها (٥٥)». واتسع سلطان ابن رائق في الأقاليم المتاخمة لولاية الشام فبدأ في تهديد الإخشيد ومطالبته بالمال كأنه جزية على المتلكات الإخشيدية في الشام. وفزع الإخشيد من التفات محمد بن رائق إليه وسار لحربه (٢٥) والتقى الجانبان عند اللجون على مقربة من طبرية في فلسطين، وأفلح الإخشيد في مباغتة ابن رائق وانتصر عليه انتصارا كبيرا، ولكنه أحس رغم انتصاره أنه لن يستطيع الصمود لابن رائق فصالحه على أن يحمل إليه كل عام مائة وأربعين ألف يينار (٧٥) على أن تكون له الرملة ويترك باقي الشام لابن رائق وذلك في المصرم سنة محمد بن رائق فاطمة من مزاحم بن محمد بن رائق أن المن الفريقان فزوج الإخشيد ابنته فاطمة من مزاحم بن محمد بن رائق أن تكون اله الملة ويترك باقي الشام لابن رائق وذلك في المصرم سنة محمد بن رائق أن تكون الهاريقان فزوج الإخشيد ابنته فاطمة من مزاحم بن محمد بن رائق أن تكون الهاريقان فروج الإخشيد ابنته فاطمة من مزاحم بن

ثم توفى الخليفة الراضى فى ربيع الآخر سنة ٣٢٩هـ/ يناير ٩٤١م، وخلفه أخوه المتقى بالله، كما قتل ابن رائق فى العام التالى، فسار الإخشيد ودخل دمشق فى شوال

٤٥٠ حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص ٢٠٩.

٥٥- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٣٨١هـ، جـ٤، ص٢٤؛ حسن الباشا، الفنون والوظائف، جـ٣، ص ١٣٥٠؛ عبد العزيز الدورى، النظم الإسلامية، بغداد ١٩٥٠، ص ٢١٠ - ٢٧٠؛ أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية، ص ٥٥ ، ٣٠.

٥٦ - الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٨٩؛ ابن سعيد، المغرب، ص ٢٥؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٢٥٢.

۷۰- الكندى، الولاة والقضاة، ص ۲۸۹ - ۲۹۰؛ ابن سعيد، المغرب، ص ۲۸ - ۲۹، ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ١٨٨؛ للقريزى، الخطط، ج١، ص ٣٢٩ ابن خلدون، العبر، ج٣، ص ١٠٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج٣، ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

٥٨ - سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ٩١.

سنة ٣٣٠هـ/ يونيو ٩٤٢م وضم الشام إلى ولايته (٥٩) وقد أقره الخليفة المتقى على ذلك. والواقع أن محمد بن طغج قد عرف كيف يكسب ثقة الخليفة المتقى، بل دعاه إلى ترك بغداد والمجئ إلى مصر (٦٠)، مقلدا في ذلك ما فعله أحمد بن طولون مع الخليفة المعتمد، ولكن المتقى لم يقبل هذا الرأى. وهكذا أخفق كل من ابن طولون والإخشيد في جعل مصر مركز الخلافة العباسية، ولم يتم ذلك إلا على يد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس في سنة المحار ١٢٦١م (١٦).

وفى ذلك الحين كان أمر بنى حمدان فى حلب قد اشتد، وبدأ الصراع بينهم وبين الإخشيد، وهو صراع كتب النصر فيه للإخشيد (٦٢) فظلت ولايته على مصر والشام خلال بقية أيام المتقى، الذى قال له «قد وليتك أعمالك ثلاثين سنة فاستخلف لك أونوجور (٦٢)» ثم المستكفى (١٢) ثم المطيع (٥٦)، وفى خلافة الأخير توفى الإخشيد فى دمشق فى شهر ذى الحجة سنة ٣٣٤هـ/ ٢٤٩م (٢٦). وخلفه ابنه أبو القاسم أونوجور، بعد أن ظل واليا على مصر إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر ويومين كان فى معظمها واليا على الشام أيضا، وكانت سنه عندما مات ستة وستين عاما ودفن بالقدس (٧٠).

⁻۱- الكندى، الولاة والقضاة، ص ۲۹۲؛ ابن الأثير، الكامل، جلا، ص ۱٤٨ - ١٤٩ ابن تفرى بردى، النجىء، حس ١٤٨ - ١٤٩ ابن العميد، تاريخ الخلفاء، القاهرة ١٠٥٠هـ، ص ١٥٩؛ ابن العميد، تاريخ F.Wüstenfeld, Die Statthalter. Von Agypten zur Zeit der ۲۱۲، ص ١٨٢٥، ص ٢٠١٦ Chalifen, Gottingen, 1875, IV, p.33.

۱۱- المقریزی، السلوك فی معرفة دول الملوك، تحقیق محمد مصطفی زیادة وسعید عاشور، القاهرة ۱۹۳۶ - ۱۹۷۲ ، جا، ص ۵۵۶؛ ابن تغری بردی، النجوم، ج۷، ص ۱۰۹ ابن ایاس، بدائع الزهور، طبعة محمد مصطفی، ج۱، ص ۳۱۳ - ۳۱۵.

M.Canard, Sayf al- Daula, Alger, ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب في كتاب -٦٢ ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب في 1934, p.370.

٦٢ - ابن سعيد، المغرب، ص ٤٠.

٦٤- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٩٢.

٥٠- سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ٩٧.

٦٦- ابن سعيد، المغرب، ص ٤٢؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٢٩.

٧٧- ابن سعيد، المغرب، ص ٤٤؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٧، ص ٥٥؛ المقريزي، الخطط، جـ٧، ص ٢٥٠ ابن سعيد، المغرب، و ١٥٠ م ١٥٠.

ويداور وينحنى للعواصف وما كان أكثرها إذ ذاك، وقد سبق أن استعرضنا موقفه من ابن رائق. وكان الزمان عصيبا لا يسلك في متاهته إلا من كانت له هذه الخصال، فقد كانت غارات القرامطة لا تنكف عن الشام والحجاز، وليس هنا موضع تفصيل أعمالهم وإنما المهم أن نقول أن الله رحم المسلمين بموت أبي طاهر سليمان بن سعيد الجنابي القرمطي في سنة ٣٣٧هـ/ ٤٤٣م بعد أن فعل بالشام والحجاز والحجاج الأفاعيل، وسرق رجاله الحجر الأسود من الكعبة اثنين وعشرين عاما، ولم يردوه إلا بعد عناء، هذا والأتراك المستبدون بدولة بني العباس ينهزمون أمامه مرة بعد أخرى، وكلما انهزموا لم يجدوا أمامهم إلا الخلفاء المساكين يسومونهم العذاب ويسملون أعينهم ويقتلونهم. ولم يكن أولئك الخلفاء على شئ من المهابة واحترام النفس، وقد بلغ من أحدهم، وهو القاهر، وكان قد خلع وسملت عيناه، أنه لما بلغه خبر قبض توزون التركي الملقب بأمير الأمراء على المتقى خلع وسمله عينيه قال: «صربا اثنين، ونحتاج إلى ثالث» يعرض بالمستكفي الذي بويع بعده، كذلك لم يكن الوزراء بخير من الخلفاء وحسبنا أن نشير هنا إلى أن الوزير ابن شيرزاد، وزير المتقى كان قد أمن لصا فاتكا «وخلع عليه وشرط عليه أن يصله كل شهر بخمسة عشر ألف دينار، وكان يكبس بيوت الناس بالمشعل والشمع ويأخذ الأموال (١٨٠)».

وجدير بالذكر أن محمد بن طغج كان يحاول التشبه دائما بأحمد بن طواون، ولكن شتان بين الرجلين من كل ناحية، خاصة وقد عرفنا الكثير عن خصال ابن طواون، أما محمد بن طغج فبالرغم من أنه وصف بالشجاعة الزائدة وبعد النظر وحسن السياسة والقدرة على اصطناع اللين عند الضرورة، ومدارة أعدائه إذ لم يستطع التغلب عليهم، إلا أنه كان جشعا محبا للمال إلى أبعد الحدود. ومن ذلك ما ترويه المصادر التاريخية أنه لما عاد إلى مصر بعد فراغه من قتال ابن رائق ودعاه محمد بن على المادرائي مع حاشيته ورؤساء جنده إلى مأدبة حافلة، نصب فيها بين يدى الإخشيد التماثيل من الكافور والعنبر، بل زاد الحفلة بهاء عندما حمل إلى الإخشيد صينيتين كبيرتين إحداهما مملوءة بالدنانير والأخرى بالدراهم لينثر هذا المال بين الحاضرين، ولكن جشع الإخشيد دفعه إلى الاحتفاظ بصنية الدنانير والاكتفاء بنثر الدراهم أدراك.

ويروى المؤرخون أيضا بصدد جشعه إلى المال واستهانته بما في أيدى الناس وقلة تعففه وأنه كان يطمع في القليل، أنه دخل عليه مزاحم بن محمد بن رائق وكان يرتدى فروا ثمينا فأعجب الإخشيد به وقال أنه لم ير مثله قط، وكان مزاحم يحب هذا الفرو، فضلا عن

۸۱ - حسین مؤنس، تاریخ مصر، ص ۲۱۰ - ۲۱۱.

٦٩- ابن سعيد، المغرب، ص ٢٩.

أنه كان زوج ابنة الإخشيد فلم تسمح نفسه بأن ينزعه لتقديمه إلى الأمير، فلما أيس الإخشيد منه حرض بعض غلمانه عليه فغصبوا الفرو منه وهو خارج من عنده ثم أنكروه. وبعد ذلك أراد الإخشيد أن يتطرف فلبس الفرو، فلما دخل عليه مزاحم مرة أخرى ورأه عليه ضحك الإخشيد وقال: «كيف رأيت؟ ما أصفق وجهك، ولكنك ابن أبيك؟ وكم عرضت لك وأنت لا تستحى فلم تفعل حتى أخذناه بلا شكر ولامنة» (٧٠).

ورغم هذا فقد كان الإخشيد شديد التقى، ولكن تقاه لم يكن يظهر إلا بعد قيامه بالأذى. والحق أن حال الإخشيد من هذه الناحية لم يكن يختلف عن حال غيره من رجال الدولة والساسة في ذلك الزمان، فقد كانوا يظهرون الأسف والندم على ما يفعلونه بعد فوات الأوان، وكانت ضراعتهم إلى الله خوفا من العذاب، لا عن عاطفة دينية خالصة (٢٠١).

وهكذا كان الإخشيد حريصا من هذه الناحية على ألا تفوته فرصة بطلب الغفران والمغفرة، حتى قيل أنه أفطر ليلة تسع وعشرين من رمضان في سنة من السنين «ولحقه كسل عن حضور الختم فقالت له جاريته: تأخر وأنا أعتق عنك غدا عشر رقاب، فقال أعشرة رقاب، ويحك لعله يكون في هذه الليلة رجل صالح له عند الله منزلة فيقول في دعائه اللهم اغفر لجماعتنا، فعسى أن أدخل بهم (٢٧)»، ثم ركب إلى الجامع العتيق فحضر الصلاة والختم.

وحاول الإخشيد أن يتشبه بأحمد بن طولون في مظاهره فلم يوفق لسبب بسيط، هو أنه لم يكن في ثقافة أحمد بن طولون واتساع أفقه، وظل الناس لا يوقرونه توقير الملوك حتى أصبح يطلب منهم ذلك ويصر عليه (٢٦). وقد قرب إليه نفرا من الطولونيين وأتباعهم فكانوا يأكلون معه ويسامرونه (٤٤)، كما كان بلاطه مجمعا للعلماء والأدباء، الذين كان يصلهم بعطاياه ويشملهم برعايته ويستمع إلى أحاديثهم (٥٥) في بعض الأحيان، ولعل من مظاهر الثروة والترف في بلاد الإخشيد ما جمعه من الخيل الجميلة المدربة والجوارح المهيأة للصيد من مختلف الأنواع «مما لم يكن بين يدى خليفة قط» (٢٥).

٧٠- ابن سعيد، المغرب، ص ٣٤؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ١٢٢ - ١٢٣.

٧١ حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص ٤١١.

٧٧ - ابن سعيد، المغرب، ص ٣٩؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ١٢٣.

٧٣ - حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص ٢١١.

٧٤ - ابن سعيد، المغرب، ص ١٦ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٢٦١.

٥٧- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، ص ٥٧.

٧٦- ابن سعيد، المغرب، ص ٤٣.

مجمل القول أن الإخشيد عند وفاته ترك دولة مستقلة وراثية تمتد حتى دمشق $(^{VV})$, وولى بعده ابنه أبا القاسم أونوجور أو أنوجور أى محمود حسب رغم ابن خلكان $(^{VV})$. وكان أكبر أولاده، فقد ولد فى دمشق فى التاسع من ذى الحجة سنة P العدر P ديسيمبر كام، وهذا يعنى أنه لم يكن قد تجاوز الرابعة عشرة بعد P , ولذلك فقد خضع لوصاية كافور الذى لم يتح له أى فرصة ليظهر مزاياه أو عيوبه فى الحكم، بل أصبح يدعى له على المنابر كلها منذ سنة P P P P إلى جانب أبى القاسم أونوجور، وكان على أونوجور أن يكتفى بإنفاق المخصصات التى حددها له كافور وقدرها أربعمائة ألف دينار فى العام $^{(N)}$, واستمر الحال على ذلك حتى سنة P P P ومن على الرشد وأنه من حقه أن ينفرد بشئون الحكم، ولكن كيف السبيل وكافور متحكم فى كل شئ، فبدأ يظهر سخطه علانية وذلك بإيعاز من بعض أصحابه الذين قالوا له: «قد احتوى كافور على الأموال وانفرد بتدبير الجيوش وأخذ أملاك أبيك وأنت معه مقهور $^{(N)}$ ». وأخذ يرا الخروج إلى الرملة والاستعداد لمناوأة كافور، وانقسم الجند إلى طائفتين: كافورية يناصرون كافورا، وإخشيدية يناصرون أونوجور.

وكانت أم أونوجور لا تثق في قوة ابنها وتخشى عليه من بطش كافور لذلك أسرعت تكتب إلى ابنها تخوفه من سوء العاقبة، كما أعلمت كافورا بأن ابنها ينوى الرحيل عن مصر، فكتب كافور إلى أونوجور وصالحه (٨٣) وإن كان قد احتفظ بكل سلطانه، وقد نظم الشاعر المتنبى قصيدة بمناسبة هذا الصلح نذكر بعض أبياتها هنا لأنها تصور لنا طبيعة العلاقة بين أونوجور وكافور:

حسم الصلح ما اشتهته الأعادى وأرادته أنفس حال تدبيرك وأشارت بما أبيت رجال نلت ما لا ينال بالبيض والسمر

وأذاعته ألسن الحساد ما بينها وبين المسراد كنت أهدى منها إلى الإرشاد وصنت الأرواح في الأجساد

٧٧ - سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ١٣١.

٧٨ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٥٤٥.

٧٩ سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ١٣٤.

٨٠ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٧.

٨١- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٣٢٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٢٩١.

٨٢ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٢٩٢.

۸۳ المتنبي، ديوان المتنبي، بيروت ١٩٠٠ ، ص ٣٩٣ - ٣٩٦.

ففدى رأيك الذى لم تفده فبهذا ومنتله سدت ياكافور إنما أنت والد والأب القاطع لاعدا الشر من بغى لكما الشر أنتما ما اتفقتما الجسم والرو

كل رأى معله مستفاد واقتدت كل صعب القياد أحنى من واصل الأولاد وخص الفساد أهل الفساد ح فلا احتجتما إلى العواد (٨٢)

مجمل القول أن كافورا بقى يدبر أمور الدولة الإخشيدية إلى أن مات أونوجور فى شهر ذى القعدة سنة ٣٤٩هـ/ ديسمبر ٣٠٠م ونقل جثمانه إلى القدس حيث دفن إلى جوار أبيه (٤٨)، وقد ذهب بعض المؤرخين إلى الزعم بأنه لم يمت ميتة طبيعية، بل دس كافور له السم فمات (٨٥)، بعد أن ولى حكم مصر نحو أربع عشرة سنة.

وخلف أونوجور في حكم مصر أخوه على بن الإخشيد، فزاد معه نفوذ كافور، وظل على ينفق نفس المخصصات التي كانت لأخيه من قبل أي الأربعمائة ألف دينار في السنة، واستبعده كافور بدوره عن شئون الإدارة والحكم بالرغم أنه كان عند ولايته في الثالثة والعشرين من عمره (٢٨)، بل لم يتركه كافور يظهر للشعب أو يجتمع بغير ندمائه إلا وهو معه الأمر الذي جعل على بن الإخشيد ينصرف إلى اللهو والشراب، ثم تاب بعدها وأقبل على ملازمة الصلاة وقراءة القرآن (٧٨).

وقد حاول على بن الإخشيد القيام فى سنة ١٥٣هـ/ ٢٩٣م بنفس المحاولة التى سبق أن قام بها أبو القاسم أونوجور من قبل وهى تنحية كافور عن تدبير أمور الدولة، إلا أنه لم يفلح بدوره اضعف شخصيته وقلة أنصاره. وأفضت هذه المحاولة إلى الوحشة بينه وبين كافور الذى منع الناس من الاجتماع به إلى أن مات فى المحرم سنة ٥٥٣هـ/ ديسمبر ٥٦٩م، وقيل أيضا أن كافور دس له السم كما فعل مع أخيه أونوجور من قبل، وحمل جثمانه إلى القدس حيث دفن إلى جوار أبيه وأخيه (٨٨).

٨٤- سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ١٣٥.

ه٨- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٧.

٨٦- الكندى الولاة والقضاة، ص ٢٩٦؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص ٥٤٥؛ المقريزي، الخطط،
 جـ٢١، ص ٣٢٩؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ١٣٥٠.

Wüstenfeld, Statthalter, IV, p.85. -AV

۸۸ – الكندى، الولاة والقصاة، ص ٢٩٦؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٩ – ٣٣٠؛ جـ٢، ص ٢٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٣٢٩ – ٣٢٦.

وبعد وفاة على بن الإخشيد ظلت مصر أياما بغير أمير، فكان لا يدعى على المنابر إلا الخليفة المطيع، ذلك أن كافورا رفض أن ينصب أحمد بن على بن الإخشيد الذى كان في التاسعة من عمره، وانتهى الأمر باستيلائه على حكم البلاد، وقد أشار بعض المؤرخين إلى تقلده الحكم بمرسوم من الخليفة المطيع ومن ذلك ما ذكره المقريزى من أن كافور «أخرج كتابا من الخليفة المطيع بتقليده بعد على بن الإخشيد»، فدعى له على المنابر، واحتفظ لنفسه بلقب الأستاذ أبو المسك(٨١)، ربما لأنه لم يكن صاحب حق شرعى في ولاية مصر، إذ أنه ليس من أسرة الإخشيد، والغريب هنا أن الخلافة العباسية لم تحتج على اغتصابه الحكم، ربما أيضا لأنها اعتادت أن تراه يقوم بتدبير جميع أمور مصر منذ وفاة سيده الإخشيد في سنة ٣٤٤هـ/ ٤٤٦م.

وكان كافور يعرف أيضا باللابى نسبة إلى إقليم اللاب من بلاد النوية (٩٠٠). وعرف كذلك بالليثى والصورى حسب قول ياقوت الرومى في معجم بلدانه، وقد أجمع المؤرخون أنه كان عبدا أسود، بصاصا، أي براقا لامعا، خصيا، قبيح الشكل، بطينا، ثقيل البدن، قبيح القدمين، مثقوب الشفة (٩١٠).

ولسنا نعرف على وجه التحديد متى كان مولده بسبب تضارب المراجع التاريخية فيما بينها، فقد أشار البعض إلى أن مولده كان في سنة ٢٩٢هـ/ ٥٠٥م $^{(\Upsilon^)}$ ، على حين أرجعه الفريق الآخر إلى سنة $^{(\Upsilon^)}$ » أما الفريق الثالث فقد ذهب إلى الاعتقاد بأن مولده كان في سنة $^{(\Upsilon^)}$ » أما أنه جلب إلى مصد في سنة $^{(\Upsilon^)}$ » معرد في سنة $^{(\Upsilon^0)}$ ،

وكما اختلفت المصادر في تاريخ مولده، فقد اختلفت أيضًا في كيفية وصوله إلى بلاط محمد بن طفج الإخشيد، إذ أشارت بعض الروايات إلى أنه جلب إلى مصر مع عبيد

كأن الأسود اللابي فيهم غراب حوله رخم وبوم

٨٩ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٢٣٠؛ حـ٧، ص ٢٧.

٩٠ - لقول المتنبى في هجائه:

انظر ديوان المتنبي، ص ٤٢٩.

٩١- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٦.

٩٢- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٤٧ه.

٩٣ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٦؛ ابن الزيات، الكواكب السيارة، القاهرة ١٩٠٧، ص ١٩٩.

Wüstenfeld, Statthalter, IV, p.59. - 12

آخرين، فبيع لتاجر من تجار الزيت (٩٥)، وقيل أيضا أن الذى ابتاعه هو محمد بن هاشم، أحد أصحاب الضياع فى مصر، وقد باعه بدوره إلى محمود بن وهب بن عباس الكاتب ثم اشتراه منه محمد بن طغج الإخشيد بثمانية عشر دينارا. ويروى كذلك أن ابن عباس الكاتب أرسل كافورا يوما بهدية إلى محمد بن طغج، وكان وقتها أحد قواد تكين والى مصر، فتوسم الإخشيد فى كافور الذكاء وأخذه بدلا من الهدية (٩٧).

ورغم أننا نجهل مدى صحة هذه الروايات، كما أننا لا نستطيع قبول إحداها على حساب الأخرى، فإن الأمر الذى لاشك فيه أن ارتفاع مكانة كافور من العبودية إلى أرقى المناصب، كان الدافع الرئيسى وراء العديد من الأساطير والروايات التى نسجها حوله بعض المؤرخين، ومن ذلك ما روى من أنه بعد جلبه إلى مصر مر على السوق ومعه عبد أسود آخر، فقال هذا الأخير: كنت أتمنى أن أباع لطباخ حتى أكون طول عمرى شبعان من المطابخ. فقال كافور: وأنا أتمنى أن أملك هذه المدينة. وبعد أن بلغ كافور مراده مر يوما على نفس السوق فرأى زميله القديم في ثياب الطباخين وهو يحرك القدر فضحك يوما على نفس السوق فرأى زميله القديم في ثياب الطباخين وهو يحرك القدر فضحك

كما زعم البعض الآخر أن كافورا في بداية أمره لحقه جرب كثير حتى لم يستطع الظهور أو مقابلة أحد مما اضطر سيده إلى طرده فهام على وجهه في الشوارع إلى أن مر بأحد الأسواق وطلب من أحد الطباخين بعض الطعام، فضربه الطباخ بالمغرفة على يده وهي حارة فوقع مغشيا عليه، فأخذه رجل طيب القلب وداواه حتى شفى فسار به إلى سيده الذي أخذه وعرض على الرجل الطيب أجرا على إيوائه وعلاجه، إلا أن الرجل رفض قائلا: «أجرى على الله». وكان كافور حسب هذه الرواية يذكر هذا الحادث كلما عزت نفسه، وقيل أيضا أنه ربما سار إلى السوق وسبجد إلى الله شكرا قائلا لنفسه: «اذكر ضرب المغرفة (٩٩)».

٥٩ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص١.

٩٦- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٥٤٥ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٦.

٩٧- ابن سعيد، المغرب، ص ٤٦؛ ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ١، ص ٥٤٥؛ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٠٥٠؛ البن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١؛ سيده إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ١٧٧.

۹۸ - ابن سعید، المغرب، ص ٤٦.

[.]۲۰۰ ابن الزيات، الكواكب السيارة، ص ٢٠٠. Wüstenfeld, Statthalter, IV, pp. 59-60. -٩٩

ومع هذا فمن المؤكد أن ذكاء كافور كان سببا في احتواء محمد بن طفج له وعنايته بأمره، وحسبنا دليلا على ذلك أنه قربه إليه، بل وظلت منزلته عنده في ارتفاع تدريجي حتى أصبح موضع ثقته وأقرب المقربين إليه، ولهذا فقد اهتم بتربيته وتثقيفه، ثم أعتقه، وقد استطاع كافور بدوره أن يترقى في بلاط سيده، ويتمرس على مختلف شئون الحكم والإدارة بفضل فطنته وذكائه، بدليل أنه استطاع أن يصبح في النهاية من كبار قواد محمد بن طغج ومن ذوى الشأن في دولته، كما عهد إليه بتربية ابنيه أونوجور وعلى ووكل إليه كذلك قيادة جيشه أثناء قتال سيف الدولة الحمداني وغير ذلك من شئون الدولة الهامة (١٠٠٠).

ومن الثابت أيضا أن كافورا قد بادل سيده إخلاصا بإخلاص، بل وتبعه حتى النهاية، إذ كان إلى جانبه عندما توفى فى دمشق سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٦م، وعمل على القضاء على الفتنة التى ثارت فى هذه المدينة بقصد نهب خزائن الإخشيد، إذ حافظ على قسط كبير من هذه الأموال بعد أن وضعها فى أكياس من الأمتعة، وألقى بهذه الأكياس فى بركة ماء، وظلت هناك حتى سكنت الفتنة (١٠١).

وسارع كافور أيضا بالقضاء على الثورة التي قام بها والى الأشمونين المعروف باسم غلبون (۱۰۲)، وكان قد شق عصا الطاعة عقب وفاة الإخشيد، واستبد بالأمور فى منطقة نفوذه، بل ووصل به الحال إلى دخول مدينة الفسطاط على رأس جيش كبير واستولى على دار الإمارة، مما اضطر كافورا إلى مطاردته حتى الشرقية حيث أوقع به هزيمة فادحة انتهت بمقتله في أواخر سنة ٢٣٦هـ/ ٨٤٨م بعد أن شغل الناس بهذه الشورة، واضطربت الأمور في هذه السنة حتى أن أحدا من المصريين لم يستطع الذهاب إلى الحج فيها (١٠٢)،

مجمل القول أن كافورا استطاع أن يحفظ كيان الدولة ضد الطامعين فيها من الغرب والشرق، ولولاه لانتهت الدولة الإخشيدية بوفاة محمد بن طغج، وحسبنا أن نعرف أن مصر قد سقطت في أيدى الفاطميين بعد وفاته بعام واحد (١٠٤)، إذ توفى في جمادى

١٠٠- سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ١٤٠.

١٠١- ابن سعيد، المغرب، ص ٤٣.

١٠٢- الكندي، الولاة والقضياة، ص ٢٩٥.

١٠٣ - الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٩٥ - ٢٩٦؛ المقريزي، الفطط، جـ٢، ص ١٥٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٢٩١؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٢٩٢؛ جـ٤، ص ٢٤

٤٠٤ - حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص ٤١٤.

الأولى سنة $vomal_{-1}$ إبريل $vomal_{-1}$ م، بعد أن انفرد بحكم مصر زهاء سنتين وأربعة أشهر $vomal_{-1}$ وحمل إلى بيت المقدس حيث دفن هناك $vomal_{-1}$ ، وقيل أيضا أنه دفن بالقرافة الصغرى في مصر $vomal_{-1}$.

وكان كافور «خبيرا بالسياسة فطنا ذكيا، جيد العقل داهية، إذ كان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه. وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس، ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء (١٠٠٨)». وإن كان هذا لم يمنع الفاطميين من أن يسفروا في بعض الأحيان عن نواياهم تجاه مصر، فقد تضمنت المصادر أخبار جموع عسكرية بعث بها المعز من المغرب، وقامت بمهاجمة الواحات المصرية، مما اضطر كافورا إلى أن يبعث إليهم بجيش حاربهم وأجلاهم عنها (١٠٠١).

ولا عجب في هذا فقد أثر عن كافور الشجاعة، وقوة الساعد، لا يكاد أحد يمد قوسه، كما حاز شهرة واسعة في الرمي وفي فنون القتال، تجلت من خلال مديح الشعراء له. بيد أن غروره واعتزازه بنفسه يعد من مواطن الضعف فيه، إذ كان يرضى غالبا عمن يظهر العجز عن منافسته، في الوقت الذي كان يعبس فيه لمن يجرأ على الاستهانة بتفوقه أو يطمع حتى في مساجلته (۱۱۰). ورغم هذا فقد عرف بمداومة الجلوس صباحا ومساء لقضاء حوائج الناس، وكذا بكثرة التهجد وتمريغ وجهه ساجدا وهو يقول: «اللهم لا تسلط على مخلوقا» (۱۱۱). وكان يتظاهر أمام الناس بكل ما يحببه إلى قلوبهم. ذكروا أن خطيبا عرض به في إحدى مواعظه وذكره في معرض التدليل على هوان أمر الدنيا على الله تعالى عرض به في إحدى مواعظه وذكره في معرض التدليل على هوان أمر الدنيا على الله تعالى فإنه أعطاها لمقصوصين ضعيفين: ابن بويه ببغداد وهو أشل، وكافور بمصر وهو خصى، فانه أعطاها لمقصوصين ضعيفين: ابن بويه ببغداد وهو أشل، وكافور بمصر وهو خصى، فسمع كافور بذلك، فأرسل إليه خلعة ومائة دينار فصار الواعظ يقول بعد ذلك في قصصه: ما أنجب من ولد حام إلا ثلاثة، لقمان، وبلال المؤذن وكافور.(١٢١)

ه ١٠- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٦٠؛ جـ٢، ص ٢٧؛ Wüstenfeld, Statthalter, IV, p.59.

١٠١- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١٠.

١٠٧- ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ١، ص ٤٤٥.

۱۰۸ - ابن تغری بردی، النجوم، جـ٤، ص ٦.

١٠٩- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٧.

۱۱۰ - ابن تغری بردی، النجوم، جـ٤، ص ٦.

١١١- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٦؛ سيده إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، صداء ابن تغرى بردى،

١١٢ - السيوطي، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ١٢.

ومن سياسة كافور في كسب قلوب الشعب أنه كان يجل أهل البيت ويكرم العلويين أعظم الإكرام، كما عرف بالجود والكرم، حتى قيل أنه وقع يوما لأحد القواد الإخشيدية بعطاء قدره أربعة عشر ألف دينار، فمازال عبدا له حتى مات (١١٢). ولا غرابة في هذا فقد بلغ سماطه في اليوم الواحد، على حد زعم أحد المؤرخين، «مائتي خروف كبار، ومائة خروف رميس، ومائتين وخمسين أوزة، وخمسمائة دجاجة، وألف طير من الحمام، ومائة صحن حلوي، لكل صحن عشرة أرطال، ومائتين وخمسين قربة شراب يصنع من السكر المحلول بالماء والليمون يسمى أقسما »(١١٤). كما كان له خزانة شراب يوزع منها على حاشيته قرابة الخمسين قربة يوميا من مختلف أنواع الأشربة (١١٥).

ويفهم من روايات المؤرخين أيضا مدى حرص كافور على أن يكون بلاطه مجمع العلماء والأدباء، رغبة منه في أن يفوق كلا من بلاط الخليفة العباسي، وبلاط سيف الدولة الصمداني، ولذا فقد قرب العلماء والمؤرخين، الذين صاروا يقرأون له كتب السير وأخبار الدول الماضية (۱۱۲). كما قرب الأدباء والشعراء وحسبنا أن نشير هنا إلى ما كان بينه وبين الشاعر المتنبي، إذ من المعروف أن هذا الأخير كان متصلا بسيف الدولة الحمداني وقال في مدحه قصائد خالدات، بيد أن أمرا ما حدث بينهما، أفضى إلى خروج المتنبي ميمما وجهه شطر مصر (۱۱۷). وهنا تروى بعض كتابات المعاصرين أنه صرح قبل دخوله إليها في سنة ٢٤٣هـ/ ١٥٩م (۱۱۷) «أنه إذا دخل مصر لا يقصد العبد كافورا، وإنما يقصد مولاه أونوجور (۱۱۹)». ورغم هذا فقد رحب به كافور وأخلى له دارا، وخلع عليه، بل وحمل إليه مالا كثيرا، حيث بقى المتنبي في بلاط كافور يقول في مديحه القصيدة تلو الأخرى طمعا في أن ينصبه كافور واليا على إقليم من دولته، إلا أن هذا الأخير لم يكن في استطاعته على حد ينصبه كافور واليا على إقليم من دولته، إلا أن هذا الأخير لم يكن في استطاعته على حد قوله «أن يأمن لرجل ادعى النبوة مع خير البشر تا الأخير الم يكن في استطاعته على حد

١١٣- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٧.

۱۱۵- ابن الزيات، الكواكب السيارة، ص ۲۰۰؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص ٤٣.

Wüstenfeld, Statthalter, IV, p.59. - 110

١١٦- ابن تغري بردي، النجوم؛ جـ٤، ص ٢.

١١٧ - ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ١، ص ٥٤؛ ابن إياس، بدائم الزهور، جـ١، ص ٤٤.

١٨٨- ابن خلكان، وفيات الأعبان، جـ١، ص ٥٥.

Wüstenfeld, Statthalter, IV, p.60. - 119

١٢٠ - ابن سعيد، المغرب، ص ٤٧؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٥٥.

بلاطه قرابة العام، في الوقت الذي حرص فيه على الركوب في خدمته خوفا منه. كما أخذ في الاستعداد للرحيل سرا(١٢١)، وقد استطاع بالفعل أن يغادر مصر يوم عرفة سنة ٥٠٠هـ/ ٩٦٢م بعد أن قال قصيدته الدالية المشهورة التي هجا فيها كافورا ومطلعها:

> عيد بأية حال عدت ياعيد كما جاء فيها

عن القرى وعن الترحال محدود من اللسان فلا كاناوا ولا الجود أو خانه فله في مصل تمهليد فالصر مستعبد والعسبد معسود إن العبيد لأنجاس مناكييد أقومه البيض أو أباؤه الصيد أم قصدره وهسو بالفلسين مردود عن الجميل فكيف الخصية السود(١٢٢)

بما مضي أم لأمس فيك تجديد

إنى نزلت بكذابين ضيفهم جود الرجال من الأيدى وجودهم أكلما إغتبال عيد السبوء سيده صار الخصي إمام الآبقين بها لا تشتر العبد إلا والعصبا معه من علم الأسود المخصى مكرمة أم أذنه في يد النضاس دامية وذاك أن القصول البيض عاجزة

وبعد أن توفى كافور اجتمع رجال الدولة وولوا أبا الفوارس أحمد بن على الإخشيد وكان في الحادية عشرة من عمره، ودعى له على المنابر في جمادي الأولى سنة ٧٥٣هـ/ أبريل ٩٦٨م، ثم من بعده للحسن بن عبيد الله، ابن عم أبيه، باعتباره خليفته، وتولى أموره الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات (١٣٢)، الذي أساء التصرف وصادر بعض الناس وفي جملتهم يعقوب بن كلس وكان من أثرياء الناس، ففر إلى المعز لدين الله وأخذ يحرضه على دخول مصر (١٢٤). وكان الفاطميون لمصر بالمرصاد واستطاعوا أن يدخلوا مصر فاتحين وقبض على أحمد بن على ومات بعد قليل (١٢٥)، بعد أن انتهت الدولة الإخشيدية، في شعبان سنة ٨٥٨هـ/ يونيو ٩٦٩م.

١٢١- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٤٦ه؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٨.

١٢٢ - بوان المتنبي، ص ٤٣١ - ٤٣٤.

١٢٢ – المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٣٠.

١٢٤-- حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص ١١٤.

١٢٥- سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ١٥٥.

تلك هي التجربة الإخشيدية، أراد صاحبها من ورائها أن يعيد تجربة أحمد بن طواون فلم يوفق وانقضت سنواتها الأربع والثلاثون وكأنها ظل مر على حائط دون أن يخلف أثرا(٢٢١)، ذلك أنه لم يكن للإخشيديين أثناء حكمهم في مصر عناية حقيقية إلا بشئون المال، وقد وفقوا في ذلك بفضل المادرائيين، وظلوا يجبون مال مصر كل سنة نحو مليونين من الدنانير(٢٧٠) على قول، و ٢٠٠, ٢٧٠, ٣ على قول آخر(٢٨١)، والراجح أن الرقم الأخير أقرب إلى الصحة. إذ تشدد الأخشيديون في ذلك وأرهقوا الناس بالمغارم والجبايات حتى كان الجباة يستخرجون من الناس ضرائب على الأراضى البور(٢١١). وقد ذكر المقدسي أن الضرائب والمكوس كانت ثقيلة وبخاصة في تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل(٢٠٠)، كما عرفنا أن الإخشيد كان لا يتورع عن مصادرة الأموال(٢١١)، وإن كان كافور قد كف يده عن ذلك، إلا أن المصادرات عادت من جديد بعد وفاته، فقد أسرف الوزير أبو المضل جعفر بن الفرات في ذلك(٢٢١). ويبدو أيضا أن رجال الدولة قد أهملوا صيانة الفضل جعفر بن الفرات في ذلك(٢٢١).

ومع هذا يمكن القول بأن التجربة الإخشيدية قد أتاحت للشعب المصرى عددا من السنوات عاشها بعيدا عن العواصف التى هزت بقية أجزاء الدولة العباسية فى ذلك الحين، فلقد شقيت الجزيرة العربية والشام والعراق بغارات القرامطة. وهددت الدولة البيزنطية حدود مملكة الإسلام من الشمال، واجتاحتها فى مواضع، على حين بقيت مصر هادئة تجرى الحياة فيها على مألوف عهدها فى تلك العصور من التشابه والتكاسل. والأمر الذى لاشك فيه أن محمد بن طغج الإخشيد كان حريصا على الدفاع عن مصر والابتعاد بها عن

١٢٦- حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص ٢١٦.

١٢٧ – المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٩٩؛ ابن إياس، نشق الأزهار في عـجانب الأمـصار، باريس ١٨٠٧، ص ١٨٧ عبد الفراعنة إلى الان، الإسكندرية ١٩٣١، ص ٥٢.

١٢٨ - أبو صالح الأرمني، تاريخ، المعروف بكنائس وأديرة مصر، اكسفورد ١٨٩٥، ص ٣٠.

A.Grohmann, Arabic Papyri in Egyptian Library, Cairo, 1936, IV, pp.47, 69-76. - ۱۲۹

١٣١ - انظر على سبيل المثال ابن سعيد، المغرب، ص ١٤ - ٣٦؛ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٥٦.

١٣٢ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ١٣٧ - ١٣٨.

١٣٢ - المقريزي، إغاثة الأمة، ص ١٣ - ١٤.

المعمعة الدائرة، وضبحى في سبيل ذلك بمعظم الشام فلم يحتفظ منه إلا بالرملة وهي كما نعلم مفتاح مصر من ناحية الشام (١٣٤).

وهكذا تشترك الدولة الإخشيدية مع الدولة الطولونية في أمور وتختلف عنها في أمور أخرى. أما وجه الشبه بين الدولتين فإنهما أول تجربتين هامتين في تاريخ مصر الإسلامية هما تجربة الاستقلال الذاتي وتكوين دولة لها كل مقومات الدول بعد قرون طويلة من التبعية سواء قبل الفتح العربي أو بعده، كما أن عمر الدولتين متقارب، وثالث أوجه الشبه أن هاتين الدولتين قامتا على كتفى رجلين طموحين استطاعا بمجهودهما وكفاعتهما السياسية ومقدرتهما الحربية أن يحققا ما بريدان (١٢٥).

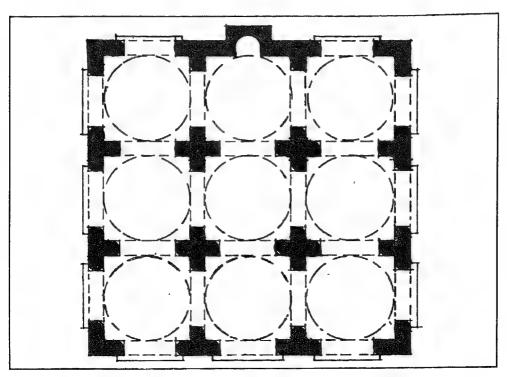
بيد أن وجه الضلاف بين الدولتين وبين الرجلين واضح كما سبق أن نوهنا، فالدولة الطولونية شهدت البلاد في عهدها نهضة عمرانية ورخاء ماديا وأمنا، وذلك على العكس من الدولة الإخشيدية التي لم تخلف وراءها أثرا عمرانيا. كذلك لم يكن ابن طغج على ثقافة واتساع ذهن أحمد بن طولون، ولم يرزق شيئا من مواهبه. هذا عدا جشعه إلى المال وقلة تعففه وتطلعه إلى ما في أيدى الناس (١٣٥).

بقى أن نشير إلى أن العصر الإخشيدى على قصره قد شهد تشييد العديد من العمائر التى لم يصلنا منها سوى مشهد أل طباطبا الذى يرجع إلى سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٣م. وهو يقع على بعد خمسمائة متر غربى مشهد الإمام الشافعى وعلى نحو مائتين وثلاثين مترا شمالى حمامات عين الصيرة بالقاهرة (٢٣١)، وهو عبارة عن مساحة مستطيلة غير منتظمة الشكل يبلغ طولها نحو ثلاثين مترا، وعرضها نحو عشرين مترا، يشغل طرفها الجنوبي قبتان ويحيط بها جدار به مدخل في الجهة الشمالية الشرقية، يوجد على يساره حجرة حديثة البناء مربعة الشكل يعلوها قبة، تضم بداخلها بئرا كانت تغذى المشهد بالمياه، يتصل بها بناء مستطيل الشكل يعلوها قبة، تضم بداخلها بئرا كانت تغذى المشهد بالمياه، مقابر أسرة طباطبا، تفضى من جهتها الغربية إلى مصلى مربع الشكل يبلغ طول ضلعه ثمانية عشر مترا مشيد من الآجر يشتمل على ثلاث بلاطات بواسطة صفين من الدعامات

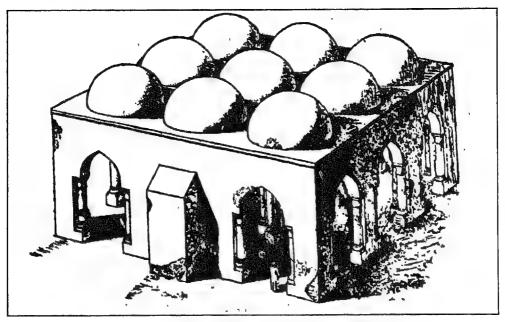
١٣٤ - حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص ٤١٦.

١٣٥- محمد حمدي المناوي، مصدر في ظل الإسلام، جـ١، ص ٧٠.

١٣٦ سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ٢٩٩ سعاد ماهر محمد، مساجد مصر،
 جـ١ ، ص ١٦٦٤؛ عبد الرحمن زكي، موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام، القاهرة ١٩٦٩، ص ٣٤٤.



شكل (٨) مشهد طباطبا، مسقط أفقى، عن فريد شافعى.



شكل (٩) مشهد طباطبا ، منظور لحالته الأصلية، عن فريد شافعي.

ذات أعمدة ملتصقة في الأطراف الأربعة على عكس الصال بالنسبة لدعامات الجامع الطولوني ذات الأعمدة المخلقة في الأركان الأربعة. ويغطى المصلى تسع قباب، بكل بلاطة ثلاث منها، كما يتصدر الجدار الشرقي محراب بسيط له بروز خارجي. ويشبه هذا المشهد في تصميمه، مشهد السبعة والسبعين وليا بأسوان وكذا مئذنة بلال بالقرب من السد العالي (۱۳۷)، مما دفع كريزويل عالم العمارة الإسلامية الراحل، إلى نسبته إلى سنة ٤٣٥هـ/ ١٤٩٥م (۱۳۷)، أي إلى سنة وفاة الشريف طباطبا الأصغر حسبما ورد في تاريخ ابن الزيات (۱۳۹) الذي أشار إلى أسماء كل من دفن في هذا المشهد من أسرة طباطبا من بينهم عبد الله بن أحمد أخو طباطبا الأصغر الذي توفي سنة ١٤٨هه / ١٩٥٩م (۱۶٬۰) والذي كانت تربطه علاقات وثيقة مع كافور، فقد اعتاد أن يبعث إلى كافور كل يومين بصحنين من الحاوي ورغيف في منديل مختوم. فحسده بعض الأعيان وقال لكافور إن إرسال الرغيف إلى الأمير أمر لا يليق، فأرسل كافور إلى الشريف العلوي يسأله أن يعفيه من الرغيف، فأدرك عبد الله أنهم حسدوه وقصدوا إبطال عادته فذهب إلى كافور وقال له.!! أيدك الله فأدرك عبد الله أنهم حسدوه وقصدوا إبطال عادته فذهب إلى كافور وقال له.!! أيدك الله على سبيل التبرك فإذا كرهته قطعناه فقال كافور «لا والله لا تقطعه ولا يكون قوتي سواه». على سبيل التبرك فإذا كرهته قطعناه فقال كافور «لا والله لا تقطعه ولا يكون قوتي سواه». وعاد العلوي إلى ما كان عليه من إرسال الحلوي والرغيف (۱۵٪).

ومن المنشآت الإخشيدية الدارسة تتحدث المصادر التاريخية عن قصر المختار والبستان الذي شيده الإخشيد في جزيرة الروضة سنة ٢٢٥هـ/ ٩٣٦م، وكان يفاخر به أهل العراق (١٤٢). وهناك أيضا البستان الذي أنشأه شمالي الفسطاط والذي عرف فيما بعد باسم البستان الكافوري (١٤٢)، وأصبح جزءا من مدينة القاهرة الفاطمية واتخذه الفاطميون متنزها لهم (١٤٤). وتشير الرويات التاريخية أيضا إلى العديد من المساجد التي

۱۳۷ - سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص ١٦٣.

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, I, pp. 11-15, figs 3-6, pl. 3a,b. - \\A

١٣٩ - ابن الزيات، الكواكب السيارة، ص ١٣٦.

١٤٠ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٣٢٦؛ ابن الزيات الكواكب السيارة، ص ٢٠ - ٣١.

^{181 -} ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ1، ص ٣٢٦؛ ابن الزيات، الكواكب، ص 11؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الاخشيديين، ص ١٤٣.

١٤٢- ابن سعيد، المغرب، ص ١٣ - ١٤٠.

١٤٣ - المقريزي، الخطط، حـ٧، ص ٢٥.

١٤٤ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٥٥٤.

شيدت إبان هذه الفترة ومنها مسجد الريح، ومسجد عبد الله، ومسجد الزمام ومسجد ابن عروس، ومسجد الأقدام، ومسجد موسي (١٤٥). ومسجد الفقاعي في سفح جبل المقطم وقد بناه كافور (١٤٦). ويفهم كذلك من هذه الروايات أن كافورا شيد بعض القصور الجميلة في مصر مثل دار الفيل التي عرفت بهذا الاسم لأنها كانت تضم عددا من الأفيلة وقد سكنها من سنة ٤٦٣هـ/ ١٩٥٧م إلى أن توفي سنة ١٥٣هـ/ ١٩٨٨م (١٤٠١). وكان هناك أيضا البيمارستان الذي ينسب إلى الإخشيد ويعرف في المراجع باسم البيمارستان الأسفل تمييزا له عن المارستان الطولوني (١٤١). الذي ينسب خطأ إلى كافور في سنة ٤٦٣هـ/ ١٩٥٧م، ويجب ألا ننسي كذلك الجوسق الذي شيده في القرافة الوزير أبو بكر محمد بن على المادرائي وكان على هيئة الكعبة. وكان الناس يجتمعون عنده في الأعياد ويوقد كله في ليلة النصف من شعبان ويجتمع القراء حوله لقراءة القرآن (١٤١). هذا عدا العديد من القيساريات لبيع المنسوجات (١٥٠) التي كان يصبس دخلها على البيمارستان الخشيدي (١٥٠).

ومن العمائر الإخشيدية الدارسة نشير في النهاية إلى السبع سقايات التي شيدها الوزير جعفر بن الفرات في سنة ٥٥ هـ/ ٩٦٦م لجلب الماء إلى سكان مدينة الفسطاط في موسم الجفاف، من منطقة الروضة وحفر لها بئرا لينقل منها الماء إلى تلك السقايات التي أنشأها وحبسها لجميع المسلمين التي كانت بخط الحمراء ونقش عليها النص التالى «بسم الله الرحمن الرحيم. لله الأمر من قبل ومن بعد وله الشكر، وله الحمد ومنه المن على عبده جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات، وما وفقه له من البناء لهذه البئر وجريانها إلى السبع سقايات التي أنشأها وحبسها لجميع المسلمين وحبسه وسبله وقفا مؤبدا لا يحل تغييره ولا العدول بشئ من مائه، ولا ينقل ولا يبطل ولا يساق إلا إلى

٥٤٠ - ابن زولاق، أخبار سيبويه المصرى، نشره محمد إبراهيم سعد وحسين الديب، القاهرة ١٩٣٣، ص ٢٣. ٣٦، ٢١ ، ٤٤ ، ٥٦.

١٤٦ - المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٤٥٦.

١٤٧ - ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص ١٢٥؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٣١.

١٤٨ - ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص ٩٩.

١٤٩ - المقريزي، الخطط، جـ٧، ص ٤٥٣.

[•] ١٥- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٦٥.

١٥١- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٤٤.

حيث مجراه السقايات المسبلة، فمن بدله بعدما سمعه فإنما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم، وذلك في سنة خمس وخمسين وثلثمائة وصلى الله على نبيه محمد وآله وسلم».

وبمرور الوقت تخربت تلك السقايات وبني فوق البئر المذكورة، وتولد فيها كثير من الوطاويط، فعرفت ببئر الوطاويط(١٥٢).

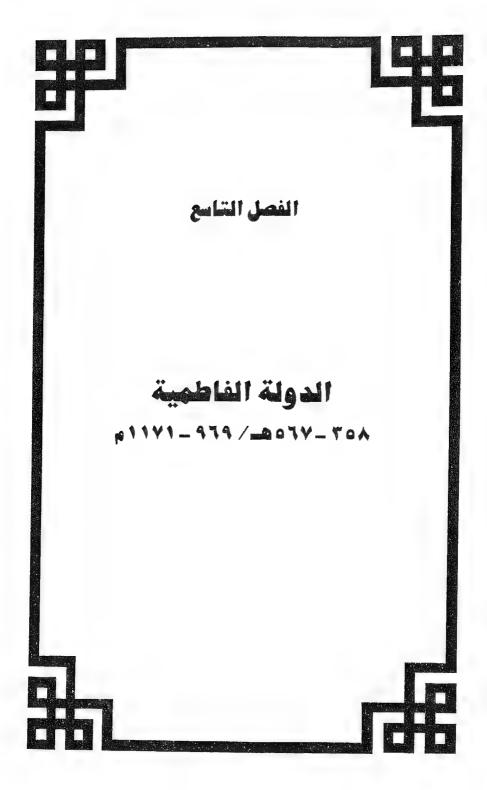
وقد عثر بالفعل على لوحة حجرية كبيرة فى حى الصليبة عند مدخل الشارع الصغير الذى يصل شارع الصليبة بجامع أحمد بن طواون، والذى كان يعرف باسم عطفة بئر الوطاويط، تهشم أغلبها ولم يبق منها سوى ثلاثة أسطر (١٥٢) تؤكد رواية المقريزى.

ثبت بأسماء حكام الدولة الإخشيدية

محمد بن طغج الإخشيد ٣٢٣هـ / ٩٣٤م	١
أبو القاسم أنوجور ٣٣٤هـ/ ٣٤٦م	۲
أبو الحسن على بن الإخشيد ٣٤٩هـ/ ٩٦٠م	٣
أبو المسك كافور ٥٥٣هـ/ ٩٦٦م	٤
أبو الفوارس أحمد بن على ٥٨هـ/ ٩٦٨م.	٥

١٥٢ - المقريزي، الخطط، جـ٧. ص ١٣٥.

G.Wiet, Materiaux Pour un corpus inscriptionum arabicarum, Le Caire, 1930, IV, -\omega pp. 91-94.



ينسب الفاطميون إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول عَلَيْهُ، وزوجة على بن أبى طالب عن طريق جعفر الصادق، وولده إسماعيل، وهم بذلك من الشيعة الإسماعيلية (١).

ولقد اختلف المؤرخون في وقت ظهور الشيعة كفرقة دينية سياسية، إذ ذكر النوبختى أحد كتاب القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى «أنهم فرقة على بن أبى طالب، المسمون بشيعة على، وأنهم ظهروا في زمان النبى على وبعده وعرفوا بانقطاعهم لعلى والقول بإمامته(٢)». على حين أشار ابن النديم في كتابه الفهرست أن هذه التسمية ظهرت للمرة الأولى عندما حارب على طلحة والزبير، اللذين أبيا إلا الطلب بدم عثمان بن عفان واتهما عليا به، فتسمى من اتبع عليا في قتالهما بالشيعة، وكان على يقول: شيعتى(٢).

والحق أن عليا كان يطمع في الخلافة منذ اللحظة الأولى التي تلت وفاة الرسول عليه السلام (٤)، ولكن المنصب فاته باختيار أبى بكر الصديق رضى الله عنه لمنصب الخلافة لما له من مميزات، لعل أهمها أن النبى على الله عنه في الصلاة بالمسلمين عندما أعجزه مرض الموت عن القيام بتلك المهمة (٥).

وكان من الطبيعى ألا يرضى على بذلك وشايعه فى موقفه كثيرون مما أفضى إلى حدوث الانقسام بين المسلمين $^{(7)}$, ولكن بفضل سياسة أبى بكر، وحزم عمر، ظلت بذور الانقسام مكبوبة لا تقوى على الانطلاق إلا فى عصر عثمان بن عفان الذى أدت سياسته إلى نوع من القلق، تطور فيما بعد إلى الفتنة التى أودت بحياته وأدت إلى مقتله $^{(V)}$. وتولى معاوية زعامة المعارضة تحت زعم المطالبة بثأر عثمان والانتقام من قتلته ومن حماة هؤلاء القتلة $^{(A)}$ ، إلا أن هذه الحجة التى اتخذها معاوية شعارا ليثير بها شعور السلمين على على ابن أبى طالب وأتباعه، لم تكن إلا شعارا وهميا اختفى وراءه الصراع السياسى القديم

١- النوبختي، فرق الشيعة، صححه وعلق عليه محمد صادق، النجف ١٩٣٦، ص ٧٣.

٢- النوبختي، فرق الشيعة، ص ٢ ، ١٧ - ١٨.

٣- ابن النديم، الفهرست، تحقيق فلرجل، ليبزج ١٨٧١ - ١٨٧٧ ، جـ١ ، ص ١٧٥.

٤- جمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمي، في تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثاني، ص ٤٢٠.

٥- ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة، القاهرة ١٩٣٧ ، جـ١ ، ص ٦ ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت ١٩٥٧ ؛ جـ٣، ص ١٧٩ ؛ السيوطى، تاريخ الخلفاء، بيروت ١٩٦٩، ص ٥٨.

٦- ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص ١٦ ، ١٧ ؛ الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٣، ص ٢٠٢.

٧- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥٨، جـ٢، ص ٧- المسعودي؛ ابن الأثير، الكامل، جـ٣، ص ١٧٨ - ١٧٩.

٨- ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، جـ١، ص ١٣٣؛ الاصفهانى، الأغانى، طبعة بولاق، جـ٥١، ص ٧٠، السيد
 عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ص ٢١٤؛ يوسف العش، الدولة الأموية، دمشق ١٩٨٥، ص٥٥.

الذى كان على أشده بين بنى أمية وبنى هاشم قبل الإسلام من أجل السيادة (٩)، ولما ظهر محمد على أمية بطبيعة الحال من أشد الناس عداوة له. وكان أبو سفيان يمثل قمة المعارضة لبنى هاشم، وانتهى الصراع فى مرحلته الأولى بانتصار محمد على وانتقال السيادة رغما عن بنى أمية إلى بنى هاشم لانتساب الرسول الما إليهم.

وآلم بنى أمية أن ينال بنو هاشم هذا الشرف، بيد أنهم سكتوا على مضض وخاصية بعد دخولهم في الإسلام إلى أن ولى عثمان بن عفان رضي الله عنه الخلافة وكان من كبار رجال بنى أمية (١٠)، عندئذ استيقظت عوامل الضلاف من جديد والتف رجال بنى أمية حوله يوجهون سياسته كما يريدون (١١) حتى ثارت الفتنة التي أودت بحياته (١٢)، ولم يرض معاوية بن أبى سفيان عن اختيار على بن أبى طالب خليفة عقب مقتل عثمان(١٣)، وقاد النضال في عنف وإصرار شديدين مستعملا كل ما أوتى من مكر ودهاء. فظهر في الدولة حزبان كبيران، حزب عثمان وعلى رأسه قريبه معاوية وهم يمثلون بنو أمية، وحزب على بن أبى طالب، رأس بنى هاشم الأعداء القدامي لبني أمية وقد عرفوا بالمتشيعين لعلى وقد انضم إلى هذا الحزب كل المتذمرين من العرب وغيرهم، ومن الموالي بوجه خاص، ووضع رجال هذا الحزب لأنفسهم مبدأ خاصا، وفلسفوا هذا المبدأ فلسفة تأثروا فيها إلى حد بعيد بنظريات الحكم عند الفرس التي كانت تؤمن بحق الملك المقدس، وحجر الزاوية في هذا المبدأ هو عقيدتهم في الإمامة(١٤). وأسسوا هذه العقيدة على حديث نبوى ذكروا فيه أن الرسول مَلِكُ عند أوبته من حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة/ ٦٣٢م قام بالقرب من غدير خُمّ، وهو مكان بين مكة والمدينة، خاطبا في الحجاج بقوله: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم»، قالوا: «بلي يارسول الله»، قال: «من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، وأخذل من خذله^(۱۵)».

٩- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص ١٢؛ المقريزى، النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم،
 القاهرة ١٩٣٧، ص ١٨ - ٢١.

١٠- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٣، ص ٩٧، ٣٠١، ٣٠٢، ابن الاثير، الكامل، جـ٣، ص ٢٧.

١١- ابن الاثير، الكامل، جـ٣، ص ٤٤ - ٥٥.

١٧- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٣، ص ٤١١ - ٤١٤ ؛ ٤١١ ؛ ابن الأثير، الكامل، جـ٣، ص ٦٨ - ٧٠.

١٣- محمد جمال الدين سرور، الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية القاهرة ١٩٦٦، ص ٣٩.

١٤- جمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمي، ص ٤٢١.

٥١- النعمان، شرح الأخبار، مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٠٦٢ ح، ورقة ٣ - ٥، الغزالي، فضائح الباطنية، ليدن ١٩١٦، ص ٣٨، عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين في مصر، القاهرة ١٩٧٣، جـ١، ص ٥٧؛ ظهور خلافة الفاطمين، ص٧٩.

وقد استنتجت الشيعة من هذا الحديث بأنه يتضمن مبايعة ضمنية من محمد لعلى وأن عليا وصبى الرسول أوصبى له بالإمامة من بعده، وأن الإمامة يجب أن تنتقل من على إلى أولاده الواحد بعد الآخر إلى يوم الدين (١٦).

وقد انتهى الصراع بين الحزبين في موقعة صفين بالتحكيم عند أذرح بين الشام والعراق في رمضان سنة 8 هـ/ فبراير 8 م $^{(1)}$ وظهر الخوارج بزعامة عبد الله بن وهب الراسبي $^{(1)}$ الذين قتلوا عليا رضى الله عنه في رمضان سنة 8 هـ/ يناير 1 م $^{(1)}$.

ولاشك في أن تلك النهاية المؤلمة التي انتهت بها حياة على بن أبي طالب ونجاح خصمه عن طريق الخديعة والعنف في الوصول إلى منصب الخلافة وتأسيس الدولة الأموية. كل ذلك ذاد من شعور العطف على أهل البيت ووقف أتباع الشيعة إلى جانب أولاد على يحرضونهم على المناداة بحقهم في الخلافة، فرشحوا أولا الحسن بن على ليلى أمر المسلمين بعد مقتل أبيه، ولكن الحسن كان رجلا بعيد النظر، ورأى أن أهل الشام ومصر والحجاز واليمن، قلوبهم مع معاوية، ورأى كذلك أن أهل العراق الذين تقاعسوا عن نصرة أبيه لا يمكن أن يعاونوه ضد معاوية (٢٠) لذلك قنع بمسالمة معاوية وتنازل عن حقه في الخلافة حقنا لدماء المسلمين واستقر في مدينة الرسول حيث توفى هناك سنة ٥٠هـ/٢م(٢٠).

ونجح معاوية في أن يستميل الناس ويصطفيهم لنفسه ولأسرته حتى تمكن من أن يخمد دعوة الشيعة ويسكتها مؤقتا وأخذ البيعة لابنه يزيد قبل موته (٢٢)، وبهذا استن للخلافة نظاما جديدا وحولها من الشورى إلى الوراثة (٢٢)، ولذلك تجددت الفتنة بمجرد ولاية يزيد الخلافة، وثارت أهم المدن الإسلامية وخاصة مكة والكوفة وأرسل شيعة الكوفة يطلبون

١٦- النعمان، دعائم الإسلام، تحقيق أصف بن على فيظى، القاهرة ١٩٥١ - ١٩٦٠، جـ١، ص ٤٥؛ عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٨٠.

١٧- ابن حزم، القصل في الملل والأهواء والنحل، القاهرة ١٣٢١هـ، جـ٤، ص ١٥٦٠.

۱۸ – البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، القاهرة ١٩١٠، ص ٥٧ .

١٩٠ ابن الأثير، الكامل، جـ٣، ص ١٩٦؛ عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، القاهرة ١٩٧٥، جـ١، ص ٢٧١.

⁻ ٢- جمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطعي، ص ٤٢٢.

٢١- محمد جمال الدين سرور، الحياة السياسية في الدولة العربية، ص ٩٣.

٢٢ - ابن الأثير، الكامل، جـ٣، ص ١١ه.

٢٣- السبيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ص ٣٤٤.

حضور الحسين بن على إليهم $(^{17})$, ويحرضونه على المطالبة بالخلافة فهو أحق بها من يزيد ابن معاوية، وأحسن الحسين الظن بأهل الكوفة وسارع بالسير إليهم $(^{17})$, غير أنهم تخلفوا عن نصرته وتقدم عبيد الله بن زياد، عامل يزيد على العراق، لمقاتلته ولم يستطع الحسين أن يصمد أمامه بجيشه القليل $(^{17})$, فهزم هزيمة نكراء وقتل قتلة شنيعة في موقعة كربلاء سنة $(^{17})$, بعد أن قاسى كثيرا من شدة العطش، وبعد أن قتل كل رجاله، وحمل رأسه بعد ذلك إلى يزيد $(^{17})$.

وجاءت كارثة كربلاء لتزيد من مضاعفة شعور العطف على آل البيت، فقد أصبح الحسين أبا للشهداء، وأصبحت كربلاء رمزا للاستشهاد، وهب الشيعة في كل مكان يطالبون بثأر الحسين (٢٨) ولهذا نرى أن النزاع بين الأمويين والعلويين قد اشتد واحتدم بعد مقتل الحسين، وزاد اضطهاد الخلافة الأموية للشيعة، وأعلنت سب على ولعنه في الخطب على منابر المساجد (٢٩)، واختاروا له اسم أبى تراب، وحقروا الشيعة وسموهم الترابية (٢٠).

وقد استفاد بنو العباس، وهم فرع آخر من البيت الهاشمى، من هذه الحالة ومكروا بالشيعة العلوية، وجعلوا الدعوة للخلافة عامة شياملة، وخاصة أنهم هم أيضا من أبناء البيت النبوى، أليس العباس عم الرسول على أن تكون الدعوة للفرع العلوى من سلالة على بن أبى طالب ولا تكون للفرع العباسي من سلالة العباس؟ ونجح العباسيون في الدعوة لأنفسهم سرا تحت شعار الدعوة للرضيا من آل محمد (٢١)، وهو شعار واسع عريض يشمل بنى العباس وبنى على جميعا. واشتد ساعد الدعوة السرية للعباسيين عندما نهض

٢٤ ابن الأثير، الكامل، جـ٤، ص ٢٠ الدينورى، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦١،
 مـ ٢٢٩٠.

٢٥- المسعودي، مروج الذهب، جـ٣، ص ٦٠.

٢٦- المسعودي، مروج الذهب، جـ مس ١٦؛ الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٥٠ - ٢٦٠.

٢٧- المسعودي، مروج الذهب، جـ٣، ص ٦٠ - ٦١؛ ابن الأثير، الكامل، جـ٤، ص ٤٦.

٢٨- ابن الأثير، الكامل، جـ٤، ص ١٥٨، ٢١٥؛ الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٨٩. :

٢٩- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٧٦.

[.] ٣- الأصفهاني، كتاب الأغاني، جـ ١٦، ص ١٦٨، ص ٦ - ٧؛ عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي، جـ ٢، ص ٦ - ٧؛ عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي، جـ ٢، ص ٦٩ - ٧٠، ومع هذا فقد ذكر الأصفهاني في مقاتل الطالبين، النجف ١٣٥٣هـ ص ١٥ أن الرسول على عندما وجده في المسجد راقدا وقد زال رداؤه، وأصابه التراب، وأن تلك التسمية كانت أحب التسميات إلى على.

٣١- ابن الأثير، الكامل، جـ٤، ص ٣٠٧.

بها أبو مسلم الخراساني (٢٦)، حتى انتهى الأمر بسقوط الضلافة الأموية سنة ١٣٢هـ/ ٥٠٠م وقيام الخلافة العباسية (٢٦).

وأخيرا أفاق العلويون وأدركوا أن بنى العباس قد خدعوهم عندما جعلوا الدعوة للرضا من آل محمد، دون تحديد لاسم أو فرع (17) ولم يرض العلويون عن تلك النتيجة الفاشلة التى آلت إليها جهودهم، وبدوا صفحة جديدة من النضال لانتزاع حقهم فى الخلافة من أقربائهم بنى العباس، ولما كان العلويون لا يقوون على المقاومة المسلحة فى ذلك الدور، فقد اعتمدوا أساسا على الحيلة والدعوة السرية (٢٥)، ولم يتركوا فرصة إلا اغتنموها للثورة المسلحة ضد العباسيين، حينا فى الحجاز (٢٦) وأحيانا فى جنوب العراق، وفى هذه الثورات المسلحة سقط شهداء جدد من زعماء العلويين فى باخمرا (٢٧) وفخ وغيرها من المواقع، واتصفت الموقعة الأخيرة بالذات قرب مكة سنة ١٦٩هـ/ ٥٨٥م بالعنف (٢٨).

وهكذا عنف العباسيون بالعلويين أضعاف ما كان يفعل بهم الأمويون وأطلقوا على بنى على الطالبيين $\binom{r4}{r}$ وأظهروا أن أبا طالب مات كافرا $\binom{(1)}{r}$ ، كما لعنوا عليا $\binom{r4}{r}$ ، ثم تتبعوا الذرارى العلوية وقتلوهم $\binom{r4}{r}$ ، ولكن الشيعة ثابروا وكان قد كثر عددهم لكثرة أفراد آل على

٣٢- ابن الأثير، الكامل، جـ٤، ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

٣٣- المقريزي، النزاع والتخاصيم، ص ٥٠.

٣٤- عبدالمنعم ماجد، التاريخ السياسي، جـ٢، ص ٣٢٦؛ ظهور خلافة الفاطميين، ص٧٧، العصر العباسي الأول، جـ١، ص ٤٠.

٣٥- أي لجأوا إلى التقية أو التستر انظر، الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٣٣٦.

٣٦- انظر فتنة محمد النفس الزكيه الذي قتله القائد العباسي قحطبة وحز رأسه في ١٤ رمضان سنة ٥٤ هـ/ فبراير ٣٦٧م في موضع بالمدينة يقال له أحجار الزيت. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، جـ٩، ص ١٨٦٧ مجهول، العيون والحدائق في اخبار الحقائق، بريل ١٨٦٩، ص ٥٤٧؛ ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت ١٩٦٠، ص ٣٠٠.

٣٧ انظر الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٩، ص ٢٠٦ ؛ عبد المنعم ماجد، العصر العباسى الأول، جـ١،
 ص ٩٢ – ٩٢.

٣٨- مجهول، العيون والحداثق، ص ٢٨٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٢، ص ٥٩. وعن هذه الحركة انظر عبد المنعم ماجد، العصر العباسي الأول، جـ١، ص ١٨١ - ١٨٧.

٣٩ عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٧٨.

٤٠ - أل كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٨٨.

٤١- المقريزي، النزاع والتخاصم، ص ٢٤.

٤٢ - حسين الهمداني، بحث تاريخي في رسائل إخوان الصفا وعقائد الإسماعيلية، بومباي ١٩٣٥، ص٥١.

وصارت كل فرقة تدعو إلى إمام منهم حتى بلغت فرقهم ثلثمائة فرقة (¹⁷⁾. وكانت أهم هذه الفرق في العصر العباسي، الفرقة التي قالت بإمامة إسماعيل (¹³⁾ بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين، بن الحسين بن على بن أبي طالب (⁶³⁾. وكانت تؤمن مثل غيرها من فرق الشيعة إيمانا لاحد له بوصاية النبي شخة عند غدير خم لتبقى الإمامة في بيت على إلى يوم الدين (⁷³⁾، وكانت عقيدتها: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، على ولى الله (⁴¹⁾». بيد أنها تميزت عن غيرها بأن الإمامة تكون بالنص أو التنصيص (⁶¹⁾ وهو يعنى ضرورة تعيين الإمام الحالى لخلفه، وأن الإمامة تكون في الأعقاب ولا ترجع القهقري (⁶¹⁾، فلا تنتقل من أخ إلى أخيه، بل من الأب إلى الابن. وعلى هذا فإن موت إسماعيل سنة معالم من أخ إلى أخيه، بل من الأب إلى الابن. وعلى هذا فإن موت إسماعيل سنة م المسابع من على المعروف بموسى الكاظم (⁶¹⁾، ولذلك عرفت بالإسماعيلية كما عرفت وليس لاخي إسماعيل المعروف بموسى الكاظم (⁶¹⁾، ولذلك عرفت بالإسماعيلية كما عرفت أيضا بالسبعية (⁶¹⁾، بالسبعية المنابع منذ على المنطورة المنابع منذ على أضطهاد العباسيين، اضطرت هذه الفرقة إلى الدعوة السرية، تقية (⁶⁰⁾ وصيانة لأشخاص الأثمة.

ومنذ أن تستر محمد بن إسماعيل أرسلت الفرقة الإسماعيلية دعاتها إلى كل مكان (٥٦) مثل البحرين ومصر واليمن والهند والمغرب (٥٧)، وقد كتب لها الفوز في الأخيرة

٤٣ - عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٧٩.

²²⁻ النويختي، فرق الشيعة، ص ٧٣.

ه٤- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٩٣.

٢٦- النعمان، شرح الأخبار، ورقة ٣ - ٥؛ دعائم الإسلام، جـ١، ص ٥٥.

٤٧ - عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٨٠.

٤٨- اين حرّم، القصل في الملل، ص ١٠٩.

٤٩- ابن حزم، القصل في الملل، ص ١٤٦.

٥٠ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ١٨٥.

١٥- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٩٣.

٥٢ - ابن حزم، الفصل في الملل، ص ١٤٥ - ١٤٦، ابن خلدون، المقدمة، ص ١٥٨ - ١٥٩.

٥٣- ابن حزم، الفصل في الملل، ص ١٤٦؛ عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٨٠.

٥٥ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٩٣؛ عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين، جـ١ ص ٩.

٥٥- النوبختي، فرق الشيعة، ص ٢٤ - ٥٥.

S.De Sacy, Recherches Sur l'initiation a la secte ismaelienne, JA, 1824, p.302. - 67

٥٧ - عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٨٣.

حيث استطاعوا إنشاء خلافتهم هناك بعد أن قام بالدعوة لهم فى المغرب أبو عبد الله الشيعى الصنعانى $^{(h^0)}$ ونجح فى أن يتغلب على الأغالبة ويدخل دار ملكهم فى رقادة سنة 797a واستنقذ الإمام عبيد الله المهدى الذى كان قد قبض عليه هو ومن معه فى سجلماسة فى جنوب المغرب وسار به إلى أن نزل فى رقادة فى 77 ربيع الآخر سنة 797a مناير 797a وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين 797a وأقام خلافته التى اشتهرت بالعلوية والفاطمية نسبة إلى فاطمة الزهراء 717 وكذا بالعبيدية 717 نسبة إلى عبيد الله.

ولما استقر حكم الفاطميين في شمال أفريقيا، عملوا على الاستيلاء على مصر حتى يمكنهم من هناك مد سيطرتهم على بلاد المشرق، وظلوا أكثر من نصف قرن يتحينون الفرصة حتى واتتهم أخيرا في خلافة المعز الذي انتهز فرصة موت كافور وأخذ يستعد لغزو مصر، فأمر بحفر الآبار على طول الطريق إليها، وإعداد الجيش الذي عقد لواءه لجوهر الصقلي (٦٢)، كما بعث إلى دعاته بالبلاد المصرية أعلاما وأمرهم أن يوزعوها على الجند الذين يؤيدون بيعته لينشروها إذا ما اقتربت عساكره من مصر (١٤).

ولقد ساعد على نجاح هذه الحملة أمور كثيرة لعل أهمها ضعف الخلافة العباسية صاحبة السيادة على مصر والتي استطاعت أن تصد الحملات الفاطمية السابقة، وكذا ضعف الدولة الإخشيدية صاحبة السلطان الفعلى فيها (١٥٠). أما الخلافة العباسية فقد بدأت

٨٥ – المقريزي، اتعاظ الحنفا، ص ٧٤.

۹ه - ابن حماد، أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم، تحقيق Vonderheyden ، الجزائر، باريس ١٩٢٧، جـ١، ص٧.

٦٠- القريزي، اتعاظ الحنفا، ص ٩٢.

السجلات المستنصرية، الإصابة في أخبار الصحابة، القاهرة ١٣٢٨هـ، جـ٤، ص ٣٨٠ السجلات المستنصرية، Massignon, Fatima bint al- Hu- إلى ١٠٥، ١٩٥٠ عبد المنعم ماجد، القاهرة ١٩٥٤، ص ١٠٤، ١٠٠٠ عنوي sayn et l'origine du nom dynastique Fatimites. Akten des XXIV. Intern. Orientalisten kongresses, Műnich, 1957, p.368.

٦٢- السيوطى، تاريخ الخلفاء، القاهرة ١٩٠٣، ١٩٠٤، ص ٢١٤؛ أبو شامة، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، نشره عبد الله بن السعود، القاهرة ١٢٨٧ – ١٢٨٨هـ، جـ١، ص ٢٠١؛ ابن القطان، جزء من كتاب نظم الجمان فى أخبار الزمان، تحقيق محمود مكى، الرباط ١٩٦٤، ص ٢٣٩.

٦٣ - محمد حمدي المناوي، مصر في ظل الإسلام، جـ١، ص ٧٧ - ٧٤.

١٤٧ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ص ١٤٧؛ محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية في مصبر، القاهرة
 ١٩٧٩، ص ٦٦.

٦٥- سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ٣٦٥.

عوامل الضعف تتسلل إلى كيانها فى العصر العباسى الثانى واستبد الأتراك بشئون الحكم حتى غدا الخلفاء كالدمى فى أيديهم يحركونهم كيف شاءوا حتى عرفوا فى المراجع التاريخية بالمستضعفين(٢٦) وانطبق عليهم قول الشاعر:

خليفة في قفص بين وصيف وبغا يقول ما قالا له كما تقول الببغا^(۱۷)

واجتراً كل طموح وراغب فى السلطة إلى الثورة على الخلافة، فقامت ثورة الزنج فى إقليم البصرة والجزء الجنوبى الغربى من فارس، ثم تلتها ثورة القرامطة الذين ملكوا بادية الشام وجنوبه، بل وهددوا حدود مصر الشرقية وعاثوا فى الجزيرة العربية فسادا، واستلبوا الحجر الأسود حيث بقى معهم مدة اثنين وعشرين عاما، كما سبق أن نوهنا من قبل، ولم يردوه إلا بعد أن دفع لهم الخليفة العباسى مبلغا كبيرا من المال، وصاحب هذه الثورات انفصال الإطراف وقيام دول مستقلة فيها (١٨٨).

ففى الشرق قامت الدولة الصفارية والسامانية والطاهرية (¹¹)، وفى الغرب قامت الدولتان الطولونية والإخشيدية، وفى قلب الخلافة نفسها فى العراق قامت دول ملكت زمام الحكم فى أيديها، ففى الشمال قامت الدولة الحمدانية فى الموصل وحلب، وفى العاصمة بغداد قامت الدولة البويهية فى سنة ٣٣٤هـ/ ٥٤٥م واستبدت بأمور الخلافة جميعا (^{٧٠}).

فى هذه الظروف خرج جوهر من القيروان بعد أن ودعه الخليفة المعز فى ربيع الآخر سنة ٢٥٨هـ/ فبراير ٩٦٩م متجها إلى مصر على رأس جيش يزيد على مائة ألف جندى، وهو عدد لم تشهده مصر منذ عهد الإسكندر (٧١) الأكبر، بدليل أن أحد المصريين وصفه عند رؤيته له بأنه «مثل جمع عرفات كثرة وعدة (٧١)». كما صاحب الجيش أسطول

٦٦- ابن خلدون، المقدمة، ص ١٨، عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٧٤.

٦٧- ابن خلدون، المقدمة، ص ١٩، عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٧٤؛ جمال الدين الشيال،
 مصر في العصر الفاطمي، ص ٤٢٨.

٨٨- جمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمي، ص ٤٢٨.

٦٩ عنها انظر فتحى أبو سيف، المشرق الإسلامي بين التبعية والاستقلال، الطاهريون، القاهرة ١٩٧٨،
 ص ٥٥ وما بعدها.

٧٠ - أبن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١٤ - ١٥.

۷۱- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ص ۱۳۸؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٧٣؛ عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ١٠٥.

٧٧ - جمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمي، ص ٤٣٠.

بحرى ليقضى على أى اعتداء من قبل الروم الذين كانوا قد بدأوا يطمعون فى استعادة مصر من جديد. ووصل جوهر إلى الإسكندرية ودخلها دون قتال، فلما وصلت الأنباء إلى الفسطاط، اضطرب أهلها وتملكهم الذعر واتفقوا مع الوزير جعفر بن الفرات أن يرسل فى طلب الصلح والأمان (٧٢)، فأرسل وفدا على رأسه الشريف أبو جعفر مسلم بن عبيد الله، وتمت المفاوضات بالفعل فى تروجه قرب الإسكندرية وكتب جوهر للمصريين أمانا (٤٧) تعهد فيه بحمايتهم والجهاد عنهم، واحترام ملتهم، ونشر الأمن، وتأمين طرق الحج، والعناية بالحالة الاقتصادية للبلاد عن طريق إصلاح السكة، كما تعهد لهم بترميم المساجد وتزينها بالفرش والإبقاد.

وكما يحدث عادة في التاريخ في مثل هذه المواقف لابد أن يرتفع صوب المعارضة فظهر انقسام بين الناس والجند ما بين مؤيد للفاطميين يرى فتح أبواب البلاد لهم، ومعارض يرى ضرورة مقاومة جوهر وجنوده والعمل على طردهم من البلاد، وكان يتزعمهم رجل يدعى فاتك الملقب بالأستاذ (٥٠٠)، الذى قال «ما بيننا وبين جوهر إلا السيف (٢٠٠)». وقاد المعارضة من أتباع الدولة العباسية والإخشيدية، الذين قطعوا جسور الجيزة وانتظروا جوهر وجيشه بمنية شلقان، شرقى القناطر الخيرية، إلا أن جوهر استطاع التغلب عليهم (٧٠٠)، واضطرت المقاومة الإخشيدية والكافورية إلى الهرب إلى الشام (٨٠٠)، وشاع الذعر تأنية بين الناس في الفسطاط وطلبوا إلى الشريف أبي جعفر مسلم أن يسأل جوهر إعادة الأمان، ففعل وأعيد الأمان (٨٠٠) وهدأت النفوس، وخرج الوزير جعفر بن الفرات ومعه الأشراف ووجوه البلد يوم السابع عشر من شعبان سنة ٨٥٣هـ/ الثالث من يوليو ٩٦٩م لقابلة جوهر وتهنئته بسلامة الوصول ونجاح الفتح (٨٠٠).

٧٣ محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية في مصر، ص ٦٧.

٤٧ – المقريزي، اتعاظ الحنفاء ص ١٤٨.

٥٧- الأنبا ميخائيل، ذيل سير الآباء البطاركة، مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم ٦٤٣٤ح، جـ٣، ورقة
 ٢٨ ٠٠.

٧٦ عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ١٠٧.

۷۷ – ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٢٠٠؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ١٥٥؛ ابن تفرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٣١.

٧٨ عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ١٠٧.

٧٩ - المقريزي، اتعاظ الحنفا، ص ١٥١؛ محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية، ص ٨٨.

٨٠ المقريزي، اتعاظ المنفا، ص ١٥٧ - ١٥٨.

ولما دخل جوهر مصر وجاز بالفسطاط وأناخ حيث موضع القاهرة الآن^(١٨). وكان مناخه في منطقة رملية تقع في الشمال الشرقي من مدينة القطائع ولم يكن بها سوى بستان الإخشيد، المعروف بالكافوري، ودير للنصاري، يعرف بدير العظام، في المكان الذي يشغله الآن الجامع الأقمر، وحصن صغير يعرف بقصر الشوك، بني على أنقاضه أحد القصور الفاطمية الذي سمى أيضا بقصر الشوك^(٢٨).

فى هذه البقعة اختط جوهر فى نفس الليلة موقع القصر الذى قرر أن يستقبل فيه المعز تنفيذا لأوامره، وبنى سورا خارجيا من اللبن، اكتشف فى صباح اليوم التالى تعرجات غير معتدلة، فلم تعجبه، بيد أنه تركها على حالها واستمر فى البناء حتى أكمله، كما حفر خندقا من الجهة الشمالية ليمنع اقتحام القرامطة (١٣٠) لهذا الحصن الذى أطلق عليه اسم المنصورية (١٤٠) تقربا إلى خليفته المعز بإحياء ذكرى والده المنصور بنصر الله. وظلت هذه المدينة أو الحصن تعرف بهذا الاسم حتى قدم المعز لدين الله إلى مصر بعد أربع سنوات من الفتح فسماها القاهرة (٥٠٠). وقد روى بصدد ذلك أن المعز قال لجوهر عند خروجه لفتح مصر أمام مجمع من شيوخ كتامة «والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر، ولتدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب، ولتنزلن فى خرابات ابن طولون، وتبنى مدينة تسمى القاهرة، تقهر الدنيا (٢٨١)».

كذلك رأى جوهر ألا يفاجئ السنيين في مساجدهم بشعائر المذهب الفاطمى الشيعى خشيه إغضاب المصريين، ومن ثم فقد عول على بناء مسجد يكون رمزا لسيادة الفاطميين على مصر. وشرع في بناء الجامع الأزهر في 77 جمادى الأولى سنة 70هـ/ مارس 70م، وانتهى من تأسيسه وأقيمت فيه أول جمعة في 70 رمضان سنة 70هـ/ يونيو 70م،

وباستكمال الفتح ووضع أساس القاهرة، وبناء القصر لنزول الخليفة، وتشييد

٨١- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٣١.

٨٢- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٩٥٦؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٣٤.

٨٣- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٢٦١.

٨٤ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٧٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٤١.

٨٥- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٦٦، ٧٧٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٤١.

٨٦- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ص ١٦٢؛ الخطط، جـ١، ص ٣٧٨، جمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمي، ص ٤٣٢.

٨٧- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٣٢.

الجامع، أرسل جوهر إلى المعز يدعوه القدوم إلى مصر مقر ملكه الجديد، فغادر المعز شمال أفريقيا ودخل مصر في ٧ رمضان سنة ٢٦٣هـ/ يونيو ٢٧٩م، حاملا معه توابيت أبائه الثلاثة (٨٨): المهدى، والقائم، والمنصور، الذين تولو الخلافة قبله دلالة على عزمه النهائى على نقل مقر الخلافة الفاطمية إلى مصر، ونزل بالقصر الشرقى الكبير حيث توافدت عليه هناك جموع الناس مهنئين، فتقبل منهم ما قدموه من هدايا وتحف وأمر بإطلاق جميع من اعتقلهم جوهر من الإخشيديين (٨٩)، ثم تسلم المعز من قائدة جوهر دواوين مصر. وبذلك يكون جوهر قد أشرف على شئون البلاد أربع سنين تقريبا.

بدأ الفاطميون حكمهم في مصر بداية طيبة إذ عملوا على استمالة المصريين بشتى الطرق ومن ذلك لم يسمحوا للمغاربة بالسكن في مدينة الفسطاط وكان منادى جوهر ينادى كل عشية بألا يبقى أحد منهم في المدينة، وتم أيضا جلد بعض المغاربة الذين ضايقوا المصريين. هذا ومن المعروف أن المغاربة قد أثاروا بعض المضايقات عقب وصول المعز إلى مصر، ولكن الخليفة أقر سكناهم خارج مصر وجعلهم بالقاهرة (٩٠٠) التي شيدها جوهر، ولما نزل بعضهم في دور المصريين، أنكر المعز ذلك، بل ونقلهم بعيدا إلى عين شمس ويقال أنه ركب بنفسه إليها حتى يشاهد المواضع التي ينزلون فيها (١١٠). ومع هذا فمن الصعب القول بأن الفاطميين عملوا دائما على تدليل الشعب المصري، بل كانوا يحكمونه كما جرت العادة بذلك في العصور الوسطى عملا بالمثل القائل «أنا الملك الزوج، والشعب زوجتي الشرعية»، كناية عن تصرف الحاكم بالشعب على هواه (٢٠٠).

والمتأمل لتاريخ الدولة الفاطمية يمكنه أن يميز بسهولة بين عصرين يتسم كل منهما بسمات وصفات خاصة. ففى العصر الأول الذي يمتد حوالي قرن من الزمن، وينتهى في النصف الأول من حكم الخليفة المستنصر حوالي سنة ١٥٤هـ/ ١٠٦٤م، نجد أن الخلافة قد بذلت أقصى ما تستطيع لتنظيم شئون مصر الداخلية، فنشرت الأمن في ربوعها ووضعت النظم الإدارية الدقيقة، واهتمت بالجيش والأسطول ونمت الزراعة، ونهضت بالتجارة، وشجعت العلوم والفنون. كما امتاز خلفاء هذه الفترة الأولى بقوة الشخصية ولذا فقد كانت السلطة كلها مركزة في أيديهم ولم يكن للوزراء سوى المكانة الثانية. وقد

٨٨ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٥٣.

٨٩ للقريزي، اتعاظ الحنفا، ص ١٨٩.

٩٠ - المقريزي، اتعاظ الحنفا، ص ٢٠٣.

٩١- ابن ميسر، تاريخ مصر، تحقيق ماسيه، القاهرة ١٩١٩، ص ٥٤؛ المقريزي، اتعاظ الحنفاء ص ١٩٧.

٩٢ - عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٢٩١.

استطاع هؤلاء الخلفاء الأوائل مد نفوذهم الخارجي إلى اليمن والحجاز والمغرب وصقلية والشام، بل وخطب لهم في الموصل وبغداد في بعض الأوقات (٩٢). ولا عجب في هذا فقد كان أولهم المعز لدين الله الذي عرف بجبار الشبيعة (٩٤)، وقيل أنه كان على درجة عالية من الذكاء وإحادة اللغات المتعددة كاللاتينية واليونانية والسودانية (١٥٠). والحق أن المعن هذا قد اهتم بشئون مصر المالية اهتماما شديدا كما منع النداء بزيادة النيل كما جرت به العادة قديما منعا للبلبلة وأمر بألا يكتب بذلك إلا إليه وإلى قائده جوهر حتى إذا تم الفيضان ووصل إلى أقبصناه أعلن ذلك للناس^{(٩٦}). ويقهم من المصنادر التباريضية أنه شبارك في الاحتفال بوفاء النيل(٩٧). كما عهد المعز بالإشراف على شئون مصر المالية إلى كل من يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن (٩٨)، فقاما بواجبهما خير قيام، وبذا زادت إيرادات الدولة زيادة ملحوظة في وقت قصير. وأمر أيضًا بإصلاح السكة إذ ضرب الدينار المعزى الذي صارت له المكانة الأولى في المعاملات التجارية وفضل على الدينار الراضي الذي اتضع حاله وقلت قيمته وطرد من السوق شيئا فشيئا ^(٩٩). وتخلص المعز كذلك من تهديد القرامطة الذين هديوا مصر برا ويحرا، ووصل أسطولهم إلى مدينة تنيس، فقاتلهم أهلها، وأخذت عدة من سفنهم وأسر عدد كبير من جنودهم (١٠٠). والحق أن المعن أدرك أيضا منذ الوهلة الأولى ما قد تتعرض له مصر من خطر الهجوم عليها من ناحية البحر، لذلك نراه يعنى بالأسطول عناية كبيرة فشيد دارا جديدة لصناعة السفن في المقس التي أمدت الأسطول بستمائة سفينة حربية لم ير مثلها من قدل(١٠١).

٩٤- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، تحقيق العبادي والكتاني، الدار البيضاء ١٩٦٤، ص ٦١.

[.] ٩٥– عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ١٠٣.

٩٦- القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٥١٦، المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٦١.

٩٧- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٤٧٠؛ محمد حمدي المناوي، نهر النيل في المكتبة العربية، ص ١٥٩.

٩٨- محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية في مصر، ص ١٤١؛ جمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمي، ص ٤٣٩.

٩٩- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ص ١٩٩، ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٤٢؛ مايسه محمود داود، المسكوكات الفاطمية بمجموعة متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، ١٩٩١، ص ٤٨.

١٠٠- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ص ٢٥٠.

١٠١- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ١٩٥؛ عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين في مصر، جـ١، ص ٢٢٠.

ومات المعز في سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٦م (١٠٠٠) بعد أن ترك دولة موطدة مترامية الأطراف وخلفه ابنه العزيز بالله (٣٦٥ – ٣٨٦هـ/ ٩٧٦ – ٩٧٦م) وكان سمحا كريما وامتدت الخلافة في عهده من المحيط الأطلسي غربا إلى الخليج الفارسي شرقا، ومن أقصى الشام شمالا إلى بلاد النوبة واليمن جنوبا، وخاف بأسه إمبراطور الدولة البيزنطية الذي بعث إليه بالرسل والهدايا طالبا الصلح والهدنة، وقد أجابه العزيز بشروط منها إطلاق الأسرى في مملكته وأن يخطب له في جامع القسطنطينية كل جمعة (١٠٠٠).

وهكذا بلغت مصر في عهده الذروة وفاقت الخلافة العباسية قوة ونفوذا وبدأت تهدد ما بقى في أيدى العباسيين من أملاك (١٠٤).

كذلك عرف العزيز بالتسامح مع أهل الذمة الذين نعموا في عهده بالحرية التامة في أداء شعائر دينهم وترميم كنائسهم، بل وبناء كنائس جديدة، ولا غرو في ذلك فقد كانت زوجته مسيحية، ولذا فقد عين أخويها بطريركين ملكانيين في الإسكندرية والقدس (و١٠٠). وفي عهد العزيز نمت أيضا ثروة البلاد، وزادت ثرواتها فعاش الناس في رفاهية كما عاش الخليفة حياة كلها بذخ وترف (٢٠٠) فاقتنى كثيرا من التحف وجوارح الصيد (١٠٠٠) وشيد لنفسه قصرا جديدا عرف بالقصر الغربي (١٠٠٠)، وذلك في مقابل القصر الشرقي الكبير الذي بناه جوهر للمعز من قبل، وصار يفصل بين القصرين ميدان متسع يستخدم لعرض الجند، وإليه يرجع الفضل أيضا في تحويل الجامع الأزهر إلى جامعة بمعنى الكلمة. ففي الجرس والقراءة في أوقات منتظمة مستمرة، على أن تعقد حلقاتهم بالأزهر كل يوم جمعة، للدرس والقراءة في أوقات منتظمة مستمرة، على أن تعقد حلقاتهم بالأزهر كل يوم جمعة، وكان عددهم خمسة وثلاثين فقيها، وقد رتب لهم العزيز أرزاقا وجرايات شهرية، وبني لهم

١٠٢ – المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٥٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٧٧.

١٠٢ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١٥١ - ١٥٢.

١٠٤- جمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمي، ص ٤٤٠.

٥٠٠- يحيى بن سعيد الأنطاكي، تاريخ أو صلة كتاب أوتيخا، ص ١٤٤ - ١٤٥.

١٠٦ – جمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمي، ص ٤٤٠.

۱۰۷ – لذلك عرف بالخليفة الصياد، انظر ابن الحسين، كتاب البيزرة، تحقيق محمد كرد على، دمشق ٢٥٥ – لذلك عرف بالخليف، الخطط، جـ٢، ص ٢٨٤.

۱۰۸ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٥٥٤.

دارا لسكناهم بجوار الجامع الأزهر (۱۰۹). كما بدأ العزيز أيضا بناء جامعه الكبير الذى أتمه فيما بعد ابنه الحاكم الذى عرف به أيضا (۱۱۰).

كذلك رأى العزيز أن الجيش القوى هو السياج الطبيعى لحماية هذه الدولة الكبيرة المترامية الأطراف فصرف همه للعناية بالجيش حيث أدخل فيه عناصر جديدة من الترك والديلم وأخذ يعتمد عليهم ويقربهم على حساب العناصر الأخرى من المغاربة التى كانت تكون العنصر الأكبر في الجيش مما أوجد التحاسد بينهم فدبت بين الترك والمغاربة عوامل الشقاق والنزاع مما أدى إلى قيام الفتن والحروب بينهم فجر ذلك الخراب والدمار على الدولة (١١١).

وقد بدا ذلك واضحا في خلافة الحاكم الذي خلف أباه العزيز في شهر رمضان سنة ٢٨٣هـ/ ١٨ أكتوبر ٩٩٦م، فقد انتهز المغاربة صغر سن الحاكم، الذي بويع بالخلافة وهو في الحادية عشرة من عمره (١٢١)، وفرضوا عليه تولية شيخهم أبي محمد بن عمار الواسطة وهي أشبه بالوزارة ولقب بأمين الدولة (١١٢)، الذي أصبح الحاكم الفعلى البلاد وقرب أبناء جنسه من المغاربة وحط من شأن الأتراك والديلم أي المشارقة، وأساء معاملتهم فهرب كثير منهم إلى الشام (١١٤) ثم اجتمع شمل هؤلاء الترك تحت زعامة أبي الفتوح برجوان الذي كان وصيا على الحاكم والذي قام بتنحية ابن عمار وتولى السلطة بدلا منه (١١٥). وظل برجوان هذا مطلق السلطان حتى قتله الحاكم غيلة في سنة ٩٣٠هـ/ منه (١١٥) بعد أن أنفذ إليه من ينبهه بقوله: «أن الوزغة – أي الحية الصغيرة، وكان برجوان قد أطلقه على الحاكم – صارت تنينا كبيرا (١٧٠)». وباشر الأمور بنفسه حيث أخذ برجوان قد أطلقه على الحاكم – صارت تنينا كبيرا (١٧٠)». وباشر الأمور بنفسه حيث أخذ بتصرف تصرف تصرفا مطلقا في كافة الأمور مع حداثة سنه، وكانت له أهداف في أن يكون

١٠٩ – المقريزي، الخطط، حـ٧، ص ٢٧٣.

١١٠- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٧.

١١١- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ١٢؛ محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية في مصر، ص ١٠١.

۱۱۲- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١٧٦؛ عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، الخليفة المفترى عليه، القاهرة ١٩٥٩، عص ٢٥.

١١٢- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٣٦؛ يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أو تيخا، ص ١٨٠ - ١٨١.

١١٤ - عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ٣٠.

١١٥ – المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٣.

١١١- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٤؛ ابن الأثير، الكامل، جـ٧، ص ١٨٠.

١٩٠٨ - الآنباء ميخائيل، ذيل سير الآباء، جـ٣، ورقة ٥٣؛ ابن القلانسي؛ ذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨،
 حره٤.

الخليفة المثالى فى الخلق والحكم مما جعل سيرته فريدة فى زمانها واتهمه بعض المؤرخين بالشذوذ وعدم اتزان الفكر وبعتوا عهده بالقسوة والعنف وكثرة سفك الدماء (١١٨). وذلك رغم زهده وتقشفه الذى تجلى فى رفضه للنعيم الذى تركه له أبوه وجده إذ أخرج من قصره جماعة من حظاياه (١١٩). وأعتق سبائر مماليكه من الإناث والذكور، كما أخذ من والدته وإخوته وخواصه أملاكهن وعقارهن (١٢٠) محتذيا بذلك الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى جعل زوجته تترك جواهرها لبيت مال المسلمين (١٢١).

كذلك أبطل ما كان يستعمل برسمه من الثياب (۱۲۲)، ولبس الملابس الخشنة من الصوف (۱۲۳)، ومركب حديدى في رجليه (۱۲۲)، وكان لون ثيابه البياض شعار الفاطميين، ثم أصبح السواد مع عمامة زرقاء، ثم جعلها أيضا سوداء زيادة في التقشف (۱۲۵). وصار يركب من غير زينة أو أبهة، بل صار يركب الحمير بدلا من الخيل (۱۲۱) مخالفا عادة آبائه السابقين. ونهى عن تقبيل الأرض بين يديه وكذا تقبيل اليد، والانحناء بالسجود إلى الأرض وقد اعتبر ذلك من صنيع الروم (۱۲۷)، وأمر بألا يصلى أحد عليه في مكاتباته كما جرت به العادة من قبل (۱۲۸).

والحق أن كل هذه الأمور قد قلبت الأوضاع المتعارف عليها في عصره مما جعله في نظر بعض المؤرخين ملتاث العقل غير متزن التفكير خاصة وقد لجأ إلى استخدام القتل كوسيلة من وسائل الحكم لسحق كل من يشك في ولائه ولإصلاح اعوجاج الدولة بعد أن فسدت شئونها، مما جعل اسمه يخيف أي شخص وشبهوه بالأسد الضارى الذي يطلب

١١٨- جمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمي، ص ٤٤٠.

١١٩ - يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص٢٠٦.

١٢٠ - يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص ٢٠٩.

١٢١- ابن الأثير، الكامل، جـ٤، ص ١٥٤؛ عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي، جـ٢، ص ٢٥٩.

١٢٢- يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص ٢٠٠؛ عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ٤٠.

١٢٣- ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة ١٣٥٠ - ١٣٥٣هـ، جـ٣، ص ١٩٤٠.

١٢٤ - يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيحًا، ص ٢٠٨.

١٢٥- يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيضا، ص ٢٠٥ ، ٢١٨ ؛ عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ١٤٥.

١٢٦ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٣، ص٧.

۱۲۷ - يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص ٢٠٥؛ ابن العماد، شذرات الذهب، جـ٣، دن ١٩٩٠، القريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٨٨.

١٢٨- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٨٨؛ عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين، جـ١، ص ٧٦.

فريسة وقد ساعد على ذلك أن منظره كان رهيبا، فعيناه واسعتان إذا نظر إلى إنسان ارتعد منه لعظم هيبته وكان صوته جهيرا مخوفًا (١٢١)، حتى قيل أن عدد من قتلهم بلغوا العشرة آلاف إنسان (١٣٠) وأرجعوا ذلك إلى أنه كان يعبد كوكبى زحل والمريخ، ولاسيما أن الأخير يرمز للحرب، وأنه كان يسفك الدماء تقريا لهما (١٣١). وجدير بالذكر هنا أن معظم من قتلهم الحاكم لم يكونوا من ضعفاء الناس وإنما من أكابر رجال الدولة مما يؤكد أن القتل عنده لم يكن إلا وسيلة من وسائل الحكم (١٣٠). ويبدو أن سياسته هذه قد أثمرت بدليل أن الناس أصبحوا في عهده آمنين على أموالهم فكان التجار يتركون حوانيتهم مفتوحة ولا يخافون عليها (١٣٢).

كذلك أخذ هذا الخليفة، الذى كان الدين يملك عليه كل حواسه، على عاتقه أن يقوم بالحسبة (١٢٤) فكان يصدر عدة أوامر من وقت لآخر بمنع تناول أو بيع بعض المأكولات، التى كان يترتب عليها مضار صحية وأمراض فى عصره، فمنع الناس من أكل وبيع الملوخيا، والجرجير، والقرع والمتوكلية وهى نبات الحساء، والدلينس (١٢٥) وهو نوع من الصدف لعله أم منخول، والترمس العفن، وقد أثارت مثل هذه الأوامر سخرية عدد من المؤرخين فرموه باضطراب الذهن، كما فسرها البعض على أنها تعصب مذهبى، إذ قيل أن الملوخيا كانت محببة لدى معاوية، والجرجير كان ينسب ادخاله فى الطعام السيدة عائشة، والمتوكلية تنسب إلى الخليفة العباسى المتوكل (٢٣١).

ومن الواجبات الأخلاقية التي عمل الحاكم على حمايتها وأثارت حوله الكثير من الجدل تصرفاته إزاء شرب الخمر إذ منع شربه وصنعه وتتبع السكارى، وأمر بقطع كروم الجيزة، وديس العنب في الطرقات تحت أرجل البقر وغرق بعضه في النيل، كما كسر جرار العسلودنانها (١٣٧).

١٢٩- الأنبا ميخائيل، ذيل سير الآباء، جـ٣، ورقة ٥٢ ، ٥٥.

١٣٠ - الأنبا ميخائيل، ذيل سير الآباء، جـ٣، ورقة ٥٣.

١٣١ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤ ، ص ١٧٧؛ عبد الله عنان، الحاكم بأمر الله، القاهرة ١٩٣٢، ص٦٠.

١٣٢ - عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ٤٧.

١٣٣ - عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ٦٣.

١٣٤ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١٨٤.

١٣٥ - المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٨٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، طبعة بولاق، جـ١، ص ٥٢.

١٣٦ - عبد المنعم ماجد، الحاكم، ص ٩١.

١٣٧ – المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٨٦ ؛ ابن تغرى بردى، النجرم، جـ٤، ص ١٧٧.

كذلك حاول وضع حد لسفور النساء منعا للفتنة ما يدل على حمية نادرة، لا تقف عند نسائه، وإنما تشمل أيضا نساء رعاياه $(^{(174)})$ ، إلا أن أعداءه شوهوا حقيقة تصرفه نحو النساء وأرجعوها إلى عقدة في نفسه ناشئة عن شغفه بالنكاح $(^{(174)})$ ، مما يجعله يميل إلى تعذيبهن مع أن تصرفه حيالهن كان متدرجا كما هو شأنه دائما إذ أمر في أول الأمر بمنعهن من الخروج في الليل، وكشف وجوههن وراء الجنائز $(^{(15)})$ ، فلما لم يرتدعن أصدر أوامره بمنعهن من الخروج نهائيا ولضمان تنفيذ ذلك أمر الخفافين بعدم عمل الأخفاف لهن وقد استمر هذا المنع من سنة 3.38 / 1.08 الى وقت خلافة الظاهر في سنة 1.38 / 1.08 الم يسمح خلالها إلا بخروج من دعت الضرورة إلى خروجه من النساء كالقابلة أو الغاسلة أو المرأة الراغبة في السفر $(^{(15)})$.

ومن الأشياء التى أخذت على الحاكم أيضا سياسته إزاء أهل الذمة الذين كانوا قد إشـتد بأسـهم بين المسلمين منذ أن تمكنوا في أيام أبيه العـزيز^(١٤٢) مما اضـطره إلى الرجوع إلى الشروط العمرية^(١٤٢) وألزمهم بالتميز عن المسلمين بعلامات خاصة عرفت بالغيار^(١٤٥) وذلك بوضع زنانير ملونة جلها أسود حول أوساطهم ولبس العمائم السود على رؤوسهم^(٢٤١) وتلفيعات، سوداء طيالس، وجعل القبط يحملون صلبانا واليهود يحملون الخشب ومنعهم من ركوب الخيل، وألزمهم بركوب البغال والحمير، كما أمرهم أن يتميزوا في الحمامات عن المسلمين^(١٤١)، ثم أفرد لهم حمامات على حدة، ولكن أهل الذمة نزعوا

١٣٨ - عبد المنعم ماجد، الحاكم، ص ٩٤.

١٣٩- يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص ٢٠٧.

١٤٠ القريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٨٥؛ عبد المنعم سلطان، المجتمع المصرى في العصر الفاطمي،
 القاهرة ١٩٨٥، ص ١٩٨٥.

١٤١ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١٧٨ - ١٧٩؛ ابن حماد، أخبار ملوك بنى عبيد، ص ٥٥؛ عبد المنعم سلطان، المجتمع المصرى، ص ١٢٠.

١٤٢ - يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيحًا، ص ٢٠٨؛ عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ٩٥.

١٤٣ عيد المنعم سلطان، المجتمع المصري، ص ٩٨.

^{331 –} عن الشروط العربية انظر الماوردي، الأحكام السلطانية، القاهرة ١٣٩٨هـ، ص ١٣٨ – ١٣٩؛ النويري، نهاية الأرب في قنون الأدب، ج٨، ص ٢٣٨ – ٢٣٩؛ قاسم عبده قاسم، أهل الذمة ص ٢٦.

٥٤ - يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص ١٨٧ ، ١٩٥، ٢٠٢، ٢٠٢؛ ابن حماد، أخبار ملوك بنى عبيد، ص ٢٥؛ الأنبا ميخائيل، ذيل سير الآباء، جـ٣، ورقة ٥٤ - ٥٥؛ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص

١٤٠- الأنبا ميخائيل، ذيل سير الآباء، جـ٣، ورقة ٤٥؛ عبد المنعم سلطان، المجتمع المصرى، ص ١٠٠٠.

١٤٧ – المقريزي، الخطط، جـ٧، ص ٢٨٨.

الغيار وتشبهوا بالمسلمين حتى لا يعرفوا (١٤٨) مما أثار غضب الحاكم عليهم واتخذ نحوهم قوانين صارمة لم تعرف قبلا، وذلك بأن جعل النصارى يحملون صلبانا ثقيلة، طولها ذراع ونصف وزنتها خمسة أرطال بعد أن كان طولها شبرا، وختمها بالرصاص، أما اليهود فجعلهم يلبسون الزنار ويحملون الخشب الثقيل (١٤٩). كذلك منع النصارى من تقديم النبيذ في قرابينهم، وأمر بأن يمحو الناس الصلبان المرسومة على أيديهم وسواعدهم (١٥٠٠)، وأكثر من ذلك أمر بهدم الكنائس والبيع والأديرة في مصر وصادر أملاكها (١٥٠١)، كما أصدر سجلا إلى واليه على القدس يأمره بهدم كنيسة القيامة جاء فيه «أمر الإمامة إليك بهدم قمامة فاجعل سماءها أرضا وطولها عرضا» (٢٥٠١)، ولعل السبب وراء هدم الحاكم لهذه الكنيسة هو قيام ملك الروم بهدم جامع القسطنطينية (١٥٠١).

ورغم هذا فإن الحاكم فى آخر سنة من حكمه عدل عما زاده على الشروط العمرية واكتفى من أهل الذمة بلبس الغيار (١٥٤) فقط وهى العلامة المميزة لهم وأصدر بذلك عدة سجلات يأمر فيها بإعادة بناء ما تهدم من الكنائس ورد أوقافها (١٥٥)، كذلك أعيد بناء كنيسة القيامة (١٥٥)، وإن قيل أن ابنه الظاهر هو الذى وافق على ترميمها بعد المعاهدة التى وقعت بينه وبين قسطنطين الثامن ملك الروم (١٥٥)، ولعل أيضا حفيده الخليفة المستنصر هو الذى فعل ذلك فى مقابل ما عرضه عليه رومانوس ملك الروم من إطلاق سراح خمسة آلاف أسير نصراني (١٥٨).

١٤٨ – الأنبا ميخائيل، ذيل سير الآباء، جـ٣، ورقة ٥٦.

١٤٩ القريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٨٧؛ ابن تغري بردي، النجوم، جـ٤، ص ١٧٨.

٠٥٠- الأنبا ميخائيل، ذيل سير الآباء، جـ٣، ورقة ٤٥؛ يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص ٢٠٠، ٢٠٣ عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ٩٩.

١٥١ - يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخار ص ٢٢٩ ، ٢٣٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١٧٧.

۱۵۲ - ابن الأثير، الكامل، جـ٢، ص ٢٤٠؛ يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص ٢٣٠ - ٢٣١؛ الأنبا ميخائيل، ذيل سير الآباء، جـ٣، ورقة ٥٥ وما بعدها، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١٧٨.

١٥٢ - عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ١٠٠.

٤ ١٥ - يحيي بن سعيد صلة تاريخ أوتيخا، ص ٢٣٢.

٥٥١ - يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

١٥٦- عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ١٠٣.

۱۹۰۷ - أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، بيروت ۱۹۰۵ - ۲۰۱۸ - ۱۹۰۸ - ۲۰۱۸ مل ۲۶.

١٥٨ - عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ١٠٣.

ومن الأشياء التي رمى بها الحاكم أيضا ادعاؤه الألوهية ومرجع ذلك أن رجلا فارسيا يدعى الحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بالأخرم(١٥٩) غلا في ذات الصاكم واعتبره المعبود ودعا إلى إبطال النبوة وأسقط اسم الله واسم النبي واعتبر التنزيل والتأويل والتشريع خرافات وقشورا، ودخل الجامع في خمسين رجلا على القاضى ابن أبي العوام وأخذوا أموال الناس وثيابهم وسلموه رقعة ليقرأها على الناس بدأت باسم الحاكم الرحمن الرحيم، فرفع القاضي صوته منكرا وهجم الناس على الأخرم وقتلوا أصحابه، أما الأخرم نفسه فهرب وقيل أنه قتل (١٦٠). كذلك ظهر داعية آخر اسمه محمد بن إسماعيل لقب بالدرزي، التي لا يعرف لها أصل، وكان الحاكم قد قريه في أول الأمر حتى عرف بغلام الحاكم وكان القواد والعلماء يقفون على بابه ولا ينقضى لهم شغل إلا على يده(١٦١). وكان الدرزي هذا يؤمن بالتجسيم ويرى أن روح أدم جاحت عليا، وأن روح على انتقلت إلى أبي الحاكم، ثم انتقلت إلى الحاكم، ودعا الناس إلى أن يعتقدوا أن الحاكم الإله الذي صنع العوالم وصنف كتابا شبهه بالقرآن سماه الدستور(١٦٢). وقد جعل الدرزي له أتباعا عرفوا بالدرزية (١٦٢) بلغ عددهم سنة عشر ألفا، وكانوا يأتون بأمور مبتذلة مثل تلطيخ القبلة، والبول على المصاحف(١٦٤). وقد اختلفت الروايات في نهايته فقيل أنه قتل على يد الأتراك وهو في موكب الحاكم لأنه نصح الحاكم بسلب ألقابهم التي كانوا يتباهون بها، وقيل أيضا أنه هرب إلى الشام ونشر دعوته فيها (١٦٥)، على حين ذهب البعض إلى الترجيح بأنه قتل في إحدى المعارك سنة ١٠١هـ/ ١٠١٩م(١٦٦).

والحق أن الحاكم لم يدع الألوهية إطلاقا وذلك بالاعتماد على أوثق المصادر التاريخية، فضلا عن أنه لم يصلنا نص واحد يشير إلى أن الحاكم نفسه قال أنه هو الإله، بل عظم الأمر عليه لتجاسرهم على هذه الدعوى بألوهيته (١٧٥٧).

٥١ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١٨٣؛ الكرماني، الرسالة الواعظة، تحقيق كامل حسين، مجلة كلية الأداب - جامعة القاهرة، المجلد الرابع عشر، الجزء الأول، مايو ١٩٥٧.

١٦٠ عيد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ١٠٧.

١٦١ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١٨٤.

١٦٢- يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيضا، ص ٢٢٤.

١٦٢ - يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص٢٢٧، محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية في مصر،
 ص ٩٧؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، القاهرة ١٩٤٦، جـ٣، ص ٣٦٧.

١٦٤ - عيد المنعم ماجد، الماكم يأمر الله، ص ١٠٨.

١١٥- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١٨٤.

١٦٦ - عيد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ١٠٨.

١٦٧ - عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ١١٠.

وقد ترتب على كل هذه الأمور اجتراء الخلافتين السنيتين العباسية والأموية على مهاجمة الدولة الفاطمية (١٦٨)، فقد جمع الخليفة القادر بالله عددا من علماء بغداد وقضاتها (١٦٩) وكتبوا محضرا طعنوا فيه في النسب الفاطمي وأعلنوا فيه أن الحاكم وسلفه «أدعياء خوارج لانسب لهم في ولد على بن أبي طالب» وإنما هم «كفار فساق زنادقة، ملحدون معطلون، وللإسلام جاحدون» وأرسلت نسخ منه إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي فكان له صدى قوى (١٠٠٠).

أما الخلافة الأموية بالأنداس فقد اتخذ هجمومها شكلا أكثر إيجابية وخطرا، إذ خرج في الصحراء الغربية خارج اسمه الوليد بن هشام (۱۷۲) المعروف بأبي ركوة (۱۷۲) وادعى انتسابه إلى بنى أمية، وقاد جيشا كبيرا هاجم به حدود مصر الغربية فأرسل إليه الحاكم جيشا لمقابلته فهزم الجيش، فأرسل إليه آخر تتبعه في الصعيد حتى قبض عليه في دلاد النوبة وأرسله إلى القاهرة وقتله (۱۷۲).

ورغم فشل هاتين الحركتين إلا أنهما أثرتا دون شك في الخلافة الفاطمية، إذ أضاعتا ما كان لها من هيبة قديمة، وبدأ الكل يجترئون عليها، وتطور الأمر إلى أن قام النزاع في الداخل بين عناصر الجيش من مغاربة وأتراك وسودان ولم تهدأ الفتنة إلا بعد أن قتل عدد كبير من قادة الجيش.

يضاف إلى هذا ما أقدم عليه الخليفة الحاكم نفسه من محاولة تغيير أصل هام من أصول المذهب الإسماعيلي، وذلك أن نظام الوراثة عند الشيعة الإسماعيلية يقضى أن تكون الإمامة في نسل على بن أبى طالب دون غيرهم، وأن تنتقل دائما من الأب، لأنهم كانوا يعتقدون أن للإمامة صفات وعلوما خاصة تنتقل بالوراثة كما تنتقل الصفات الخلقية تماما.

١٦٨ – جمال الدين الشيال، مصبر في العصبر الفاطمي، ص ٤٤١.

١٦٩ - ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ٢٢٩؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٣٣؛ جـ٢، ص ١٤.

۱۷۰- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٢٢٩ - ٢٣٠؛ ابن العماد، شدرات الذهب، جـ٣، ص ١٦٢ - ١٦٣.

۱۷۱ – عنه انظر ابن خلدون، العبر، جـ٤، ص ٥٨ – ٥٩؛ يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص ١٨٨؛ ابن الأثير، الكامل، جـ٧، ص ٢٣٤ – ٢٣٧؛ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٨٦؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٢٨٦ – ٢١٠؛ عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ١٥٧ – ١٦٣.

١٧٢ عرف بهذا اللقب لأنه كان يظهر النسك ويحتفظ بركوة معه أى وعاء من الجلد للوضوء على عادة الصوفية. انظر عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٢٤٢.

١٧٢ - المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٨٦.

وقد التزم الفاطميون منذ إنشاء دولتهم بهذا النظام، ولكن الخليفة الحاكم حاول مخالفة هذا المبدأ فأوصى بولاية العهد لابن عمه عبد الرحيم بن إلياس وأصدر أوامره بأن يضرب اسمه إلى جانب اسم الخليفة على السكة وأن ينقش على الطراز. وكادت هذه المحاولة أن تفضى إلى انقسام خطير بين الشيعة الإسماعيلية لولا أن الحاكم قتل في شوال سنة ١٨٤ه/ فبراير ١٠٢١م وقضت أخته ست الملك على هذه المحاولة، فأرسلت إلى عبد الرحيم من قبض عليه وقتله وأجلست على بن الحاكم الذي تلقب بالظاهر لإعزاز دين الله على عرش الخلافة (١٧٤)،

وهكذا خلف الصاكم ابنه الظاهر على وكان صبيا في السادسة عشرة من a عمره a عمره (a النصاية عليه عمته ست الملك a النصاية عليه عمته ست الملك a النصرف الخليفة إلى اللهو والمتف حوله نفر من الرجال سيطروا على الأمور دون غيرهم من كبار المسئولين حتى الوزراء، فساءت الحالة الداخلية وتفشى الغلاء في سنة a الأهر على الأمن حتى لم يحج أحد من مصر في هذه السنة، وبلغ بالناس الجوع إلى درجة أن عبيد القصر هجموا على سماط عيد النحر الذي مد في القصر ونهبوه، كما هاجم العبيد والعامة الأهالي فأغلق الناس دورهم وحفروا دونها الخنادق (a الأهالي فأغلق الناس دورهم وحفروا دونها الخنادق (a الأهالي فأغلق الناس دورهم وحفروا دونها الخنادق (a الأهالي فأغلق الناس دورهم وحفروا دونها الخنادة (a المنادق (a المنادق المنادق (a المناد

ومع هذا فيحمد للظاهر أنه عمل على تحسين العلاقات بين مصر والدولة البيزنطية بعد أن كانت قد بلغت من السوء مبلغا كبيرا في عهد أبيه، فجدد الهدنة مع صاحب الروم في سنة ٤١٨هـ/ ٢٠٧٨م بشروط من أهمها إعادة فتح جامع القسطنطينية وأن يخطب فيه للظاهر في مقابل السماح بإعادة بناء كنيسة القيامة بالقدس (١٧٨) كما سبق أن أشرنا من قبل.

ولما مات الظاهر خلفه ابنه المستنصر بالله في سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م، وكان عمره سبع سنين (١٠٣١)، وقد حكم المستنصر ستين عاما (١٨٠٠ (٤٢٧ – ٤٨٧هـ/ ١٠٣٦ – ١٠٩٨م)،

٧٤٤ - جمال الدين الشيال، مصر في العصر القاطمي، ص ٤٤٢.

١٧٥ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص ١٥٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٢٤٧.

١٧٦ - اين تغري بردي، النجوم، جـ٤، ص ٢٤٨.

١٧٧ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٢٥٤ - ٥٥٥.

Zananiri, L'Egypte et l'équilibre du Levant au Moyen اسد رستم، الربم، جـ٢، ص ٢٤؛ Age, Marseille, 1933, p.40.

١٧٩ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص١٠

١٨٠ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٥٥٦.

وهو بذلك أطول خلفاء الفاطميين حكما. وقد تميزت السنوات الأولى من حكمه بالرخاء والشروة، ويتضح ذلك من كتابات الرحالة الفارسى ناصر خسرو الذى زار مصر سنة ٢٣٨هـ/ ١٠٤٧م، ووصف نظمها ومدنها وغناها وثروتها وحضارتها، وصف المعجب بما رأى وشاهد فيها (١٨١).

والحق أن مصر بدأت في النصف الأول من حكم الخليفة المستنصر ترنو بأبصارها ثانية نحو العراق وبغداد، ويبدو أن الخلافة العباسية قد شعرت ببوادر الخطر فأصدرت في سنة 333هـ/ ٢٥٠١م (١٨٢) محضرا ثانيا شبيها بالمحضر الأول الذي صدر في عهد الحاكم للطعن في نسب الخلفاء الفاطميين، ووقع عليه كبار العلماء والقضاة في بغداد وأرسلت نسخ منه إلى أطراف العالم الإسلامي (١٨٢).

بيد أن الخليفة المستنصر استطاع أن يرد على ذلك بقوة وعنف ففى سنة 183هـ/ ١٠٠٥م خرج على الخليفة العباسى أحد قواده وهو أبو الحارث البساسيرى (١٨٤)، وانضم الخليفة المستنصر الذى أمده بالسلاح والأموال (١٨٥٠) فتقدم فى سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م (١٨٦١) ودخل بغداد ففر منها الخليفة القائم بأمر الله العباسى، وأرسل البساسيرى البردة والقضيب والمنبرو الشباك (١٨٨٠)، وخطب الخليفة المستنصر بالله الفاطمى على منابر بغداد نحو أربعين أسبوعا (١٨٨٠)، كما حذت مدن العراق الأخرى حنو بغداد، فخطب المستنصر فى هذه السنة على منابر البصرة وواسط وأعمالهما (١٨٨٠).

١٨١- انظر نامير خسرو، سفر نامة؛ جمال الدين الشيال، مصير في الفاطمي، ص ٤٤٣.

۱۸۲- المقریزی، الخطط، جـ۱، ص ۲۰۳؛ ابن الأثیر الكامل، جـ۸، ص ۱۶؛ ابن تغری بردی، النجوم، جـ۵، ص ۱۸۶.

١٨٣- لم تصلنا صبيغة هذا المحضر، انظر عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ١٦٣.

³٨١ - المؤيد في الدين، سيرة المؤيد داعي الدعاة، ترجمة حياته بقلمه، تقديم وتحقيق كامل حسين، القاهرة ١٩٤٩، ص ١٩٤٩، ص ١٩٤٩؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٢٥٦؛ حـسن إبراهيم، تاريخ الفاطميين،

١٨٥- يذكر ابن تغرى بردى أنه أرسل إليه خمسمائة ألف دينار، انظر النجوم، جـ٥، ص ١١ - ١٢.

١٨٦- ابن الأثير، الكامل، جـ٨؛ ص ٨٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ٦؛ جـمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمي، ص ٤٤٣.

١٨٧ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٥٦؛ عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ١٧٩.

Quatremère, Mémoires géographiques et historiques :۳۵۶ ص ۵۳۱ –۱۸۸ القریزی، الخطط، جـ۱، ص ۵۳۱ sur l'Egypte, Paris, 1811, IV, p.328.

١٨٩ – جمال الدين الشيال، مصبر في العصبر الفاطمي، ص ٤٤٣.

وهكذا بلغت الخلافة الفاطمية في النصف الأول من حكم المستنصر أوج عظمتها، والكن عبوامل الضبعف بدأت تسرى في كيانها في النصف الثاني من حكم الخليفة إذ استطاع طغرل بك السلجوقي دخول بغداد وقتل البساسيرى في ذي الحجة سنة ١٥٤هـ/ ١٠٦٠م (١٩٠٠) وأعاد الخليفة القائم العباسي إلى عرشه من جديد. كذلك أفضي النزاع الذي وقع بين اليازوري، وزير الخليفة المستنصر، وبين المعز بن باديس، عامل الفاطميين على المغرب إلى إسقاط الخطبة للخليفة المستنصر بالمغرب، ولعن الفاطميين وسبهم على المنابر بأبشع الألفاظ (١٩١) حوالي سنة ٤٤٠هـ/ ١٤٨٨م أو بعدها بقليل، وبذا قضى على كل صلة بين الفاطميين والمغرب بعد مرور مائة وخمس وأربعين سنة من دخولهم وإقامتهم الخلافة هناك (١٩٢).

يضاف إلى هذا المجاعات التى انتابت مصر إبان هذه الفترة والتى كانت تنتج غالبا من تقصير النيل عن ارتفاعه مما يترتب عليه ترك الأرض بدون زراعة وبالتالى قلة وجود الأقوات وارتفاع الأسعار، ولقد شهد عصر المستنصر عدة مجاعات فى سنوات ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م، وفى ٢٤٤هـ/ ١٠٥٢م، وفى ١٠٥٨م، وفى ١٠٥٨م، وفى ١٠٥٥هـ/ ١٠٥٠م، وفى ١٠٥٨م، وفى ١٠٥٨م، وفى ١٠٥٨م، وفى الذي عمد إلى الحلول الوقتية فى علاجها بقصد التقرب من الخليفة (١٩٤٠).

وتعد مجاعة سنة ٧٥٤هـ/ ١٠٦٥م من أطول وأبشع المجاعات التي تعرضت لها البلاد إذ امتدت سبع سنين حتى سنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م (١٩٥٥) وعرفت بالشدة المستنصرية، ووصلت آثارها إلى العراق والحجاز وبلاد ما وراء النهر (١٩٦١)، وقد عانى الأهالي خلالها

١٩٠ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص١٠٨.

١٩١- ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار المغرب، تحقيق ليقى بروڤنسال، طبعة ليدن ١٩٤٨، جـ١، من عذارى، البيان المغرب في أخبار المغرب، تحقيق ليقى بروڤنسال، طبعة ليدن ١٩٤٨، جـ١،

١٩٢- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٢٦٠.

١٩٣- ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٦ - ٧؛ المقريزي، إغاثة الأمة، ص ١٨ - ٢٠؛ عبد المنعم ماجد، الإمام المستنصر بالله الفاطمي، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٥٥ - ١٥١.

١٩٤ - عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٣٦٥.

١٩٥ - المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٢٤ وما بعدها.

٦٩٦- العينى، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية، تحت رقم ٧٨٥٨ تاريخ، ورقة ١٨٧٠ - ١٨٨؛ ابن أيبك الدوادار، كنز الدرر وجامع الغرر، الدرة إلمضيئة في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح المنجد، القاهرة ١٩٦١، جـ٦، ص ٣٦٩.

الأمرين، فعدمت الأقوات وارتفعت الأسعار، واضطر الناس إلى آكل الميتة من القطط والكلاب (۱۹۷)، ثم انقلبوا يأكلون بعضهم بعضا (۱۹۸) بعد بيع رغيف الخبز كبيع الطرف بأربعة عشر دينارا وقيل أربعة عشر درهما، وبيع أردب القمح بمائتي دينار (۱۹۹)، واضطر الخليفة المستنصر إلى بيع كل ما كان في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره وصار يجلس على حصير وقد تعطلت دواوينه، وذهب وقاره (۲۰۰۰).

وقد ترتب على هذه المجاعة أيضا أن منعت مصر ما كانت ترسله إلى الحجاز من غلال ومؤن، فقطعت الخطبة للمستنصر في مكة والمدينة، وخطب للخليفة العباسي في سنة ٢٦٤هـ/ ٢٠١٩م، وإن كانت قد أعيدت للمستنصر ثانية في سنة ٢٤٩هـ/ ٢٠١٠م (٢٠١) وهكذا توالى انفصال أجزاء الدولة، كما دخل النورمان صقلية في سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م واستولوا عليها (٢٠٢)، فخرجت بذلك عن حكم الفاطميين، بعد أن ظلت جزءا من أملاكهم منذ أن قامت دولتهم في سنة ٢٩٧هـ/ ١٩٠٠م.

وفي سنة ٢٦٦هـ/ ١٠٧٣م تفاقم الحال واضطريت الأمور اضطرابا شديدا وعجز المستنصر عن مواجهة الموقف فاستدعى بدر الجمالي والي عكا الذي سارع بدوره إلى تلبية نداء الخليفة وبخل مصرعلي رأس جنده من الأرمن (٢٠٢)، واستطاع بعد مجهود مضن أن يعيد الأمن والنظام، وأن يضرب على أيدى المفسدين (٢٠٤). ويعتبر هذا الحادث

١٩٧- حتى بيع الكلب بخمسة دنانير والقط بثلاثة دنانير، المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٢٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، طبعة بولاق، جـ١، ص ٢٠.

۱۹۸- المقریزی، الخطط، جـ۱، ص ۳۳۷؛ إغاثة الأمة، ص ۲۶؛ ابن تغری بردی النجوم، جـ٥، ص ۱۷؛ ابن إیاس، بدائع الزهور، جـ۱، ص ۱۰؛ عبد المنعم ماجد، الإمام المستنصر، ص ۱۵۸.

۱۹۹- ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة ۱۹۸۱ ص ٥٨؛ المقريزي، إغاثة الأملة، ص ٢٤؛ ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، جــــ، ص ٣٧١ الذي أشار إلى بيع الأردب بثمانين دينارا؛ على حين أشار ابن تغرى بردى إلى بيعه بمائة دينار، انظر النجوم، جــه، ص ٧٧؛ E.Ashtor, Histoire des prix et des salaires dans l'Orient médieval, Paris, 1969, pp.125.132

٢٠٠- المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٢٤ - ٢٥؛ جمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمي، ص ٤٤٤.

٢٠١ عبد المنعم ماجد، الإمام المستنصر بالله، ص ١٢٢؛ جمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمي،
 حد ٤٤٤.

٢٠٢ - ابن الأثير، الكامل، جـ٨، ص ١٥٩.

٢٠٣- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٥٦؛ ابن الصيرفى، الإشارة إلى من نال الوزارة، القاهرة ١٩٢٤، ص ٥٦-

٢٠٤- عبد المتعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٣٩٤.

فى حد ذاته بداية دور جديد فى تاريخ الخلافة الفاطمية وهو دور اتسم باضمحلال سلطة الخلافة ونفوذها، وظهور نفوذ الوزراء العظام (٢٠٠) الذين سيطروا على مقاليد الأمور فى الدولة، الذى اصطلح على تسميته بعصر وزراء التفويض أو العصر الفاطمى الثانى بعد انتهاء العصر الأول الذى عرف أيضا فى المصطلح التاريخي بعصر وزراء التنفيذ، وكان الوزراء فيه من أرباب الأقلام أى من العلماء والفقهاء (٢٠٠٠). أما بدر الجمالي فقد كان من أرباب السيوف أى من العسكريين، ولعل خير ما يوضح ذلك لقبه الخاص وهو السيد الأجل أمير الجيوش، ذلك اللقب الذي ظل يتلقب به من بعده وزراء التقويض في العصر الفاطمي الثاني، إذ كانوا جميعا رجال سيف (٢٠٠٠).

وفى هذا العصر ظهرت أيضا ظاهرة تولى أبناء الوزراء الوزارة بعد آبائهم فتولى شاهنشاه بعد أبيه بدر الجمالى، حيث وزر للمستنصر $(^{(7.7)}$ ثم للمستعلى $(^{(7.7)}$ ثم للمر بأحكام الله $(^{(6.7)}$ ثم للآمر بأحكام الله $(^{(6.7)}$ ع $(^{(7.7)}$ أم للآمر بأحكام الله $(^{(6.7)}$ ع $(^{(7.8)}$ وقد زيد فى ألقابه الأفضل، الذى اشتهر به حتى أصبح يعرف بالأفضل شاهنشاه $(^{(71)}$ ، ومن المعروف أن هذا اللقب أضيف كذلك للوزراء من بعده $(^{(717)}$.

ودراسة الألقاب التي تلقب بها الوزراء إبان العصر الفاطمى الثانى توضح لنا مدى تزايد سلطان الوزراء تباعا، وكان ذلك يصاحبه بالضرورة نزول الخط البيانى إلى أسفل معلنا تدهور سلطات الخليفة تدريجيا، وبالتالى تدهور الخلافة الفاطمية برمتها. فمنذ عهد الخليفة الحافظ لدين الله (٢٤٥ – ٤٤٥هـ/ ١١٣٠ – ١١٤٩م) لقب الوزير بلقب الملك، وكان

٥٠٠ - محمد حمدى المناوي الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، القاهرة ١٩٧٠، ص ٣٧.

٢٠٦ جمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمي، ص ٤٤٥ عبد المتعم ماجد، نظم الفاطميين، جـ١،
 ٨٠٠ ص ٨٢٨.

٢٠٧ السجلات المستنصرية، تقديم وتحقيق عبد المنعم ماجد، القاهرة ١٩٥٤، أرقام ١٥، ١٩، ٢٠، ٢٧،
 ٣٧، ٢٤، ٣٥، ٣٢، ٤٢؛ جمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمي، ص ٤٤٥.

٢٠٨- الأنبا ميخائيل، ذيل سير الآباء، جـ٣، ورقة ١٠٢؛ محمد حمدي المناوي، الوزارة، ص ٢٧١.

٢٠٩- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٤١٥.

٠١٠- السيوطي، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ١٤ - ١١؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٨، ص ٢٣٧

۲۱۱ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٤٤٠؛ M.Van Berchem, Corpus, Egypte, I, nos18,38 ؛ حسن الخطط، جـ١، ص ١٦٤.

٢١٢- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٤٤٠ - ٤٤١؛ جسال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمي، ص ٤٤٠.

أول من لقب به رضوان بن ولضشى الذى لقب بالسيد الأجل الملك الأفضل (٢١٢)، ولقب به كذلك من أتى بعده من الوزراء مثل طلائع بن رزيك الذى عرف بالملك الصالح (٢١٤)، وابنه رزيك بن طلائع، الذى لقب بالملك العادل والناصر وضرغام، وشاور وشيركوه، الذى عرف كل منهم بالملك المنصور، وأخيرا صلاح الدين الذى تلقب بالملك الناصر (٢١٥).

والحق أن كل هذه الألقاب تكشف لنا قوة ونفوذ وزراء العصر الفاطمى الثانى، الذين شيدت لهم دار خاصة فى القاهرة بجوار قصر الخليفة، ليباشر فيها الوزير شئون الحكم والإدارة عرفت بدار الوزارة الكبرى (٢١٦). وقد ساعد على ازدياد قوة الوزراء واستقلالهم بأمور الحكم صغر سن الخلفاء، فقد تولى الخليفة الآمر والفائز وعمر كل منهما خمس سنوات، بل إن الفائز مات وهو فى الحادية عشرة من عمره. كذلك ولى العاضد الخلافة وهو فى الحادية عشرة من عمره. كذلك ولى العاضد

ولعل السبب الرئيسى في تولى الخلفاء الفاطميين وهم في هذه السن المبكرة، هو نظام الوراثة عند الشيعة الإسماعيلية الذي كان يقضى بأن تكون الإمامة أو الخلافة في نسل على بن أبى طالب دون غيرهم، وأن تنتقل دائما من الاب إلى الابن كما أشرنا من قبل، وهم بذلك يختلفون عن الأمويين والعباسيين الذين كانوا يبيحون أن تنتقل الخلافة أحيانا إلى الأخ أو إلى ابن العم أو إلى أكبر أفراد الأسرة سنا، لأنهم كانوا يشترطون في الخلافة شروطا أخرى كثيرة من أهمها أن يكون بالغا، عاقلا، سليم الحواس (٢١٨). ومع ذلك فهناك من يقول بأنه كان لنظام الوراثة عند الفاطميين فوائد كثيرة من أهمها أنه كان عاملا من عوامل استقرار الدولة، لأنه جنب الأسرة والدولة إلى حد كبير، عوامل المنافسة والنزاع والتخاصم على العرش (٢١٩).

٢١٢- القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٦، ص ٨٥٤ - ٢٦٤؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ٤٩٩.

٢١٤ - لقبه المقريزي خطأ بالملك المنصور انظر الخطط، جـ١، ص ٤٤٠؛ حسن الباشاء الألقاب الإسلامية، ص ٤٩٠.

ه ۲۱- أبو شامة، الروضتين، جـ ۱، ص ۱۸۸ - ۱۲۰؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ۱، ص 1۸۷، جـ ۱، ص 1۸۷.

٢١٦- عنها انظر المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٤٣٧ - ٤٤٠.

٢١٧- جمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمي، ص ٤٤٧.

٢١٨ عن الشروط الواجب توافرها فيمن يلى الخلافة انظر الماوردى، الأحكام السلطانية، ص ٤، ١٤، ابن خلاون المقدمة، ص ٤٧ أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية، ص ٤٧ - ٤٨.

٢١٩- جمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمي، ص ٤٤٧.

وكان من الشروط الهامة لصحة الإمامة عند الشيعة الإسماعيلية، الوصية أوما يسمى بالنص أو التنصيص (٢٢٠)، أى أن ينص الإمام السابق على الإمام اللاحق من أولاده، فهم يعتبرون النص بمثابة أمر تعيين صادر عن الإمام السابق. وكان يشترط فى النص عندهم أن يصدر عن الإمام وقت نقلته، أى عند موته، بمعنى أنه إذا صدر عن الإمام أكثر من ولد من أولاده، فإنه لا يؤخذ إلا بالنص الأخير، الذى صدر عنه وقت نقلته وانتقاله إلى الدار الآخرة، لأنه فى رأيهم يجب كل النصوص الأخرى السابقة.

والواقع أن الفاطميين عملوا على احترام هذا النظام الوراثى إلا فى حالات ثلاث، الأولى عندما حاول الخليفة الحاكم بأمر الله ان يحرم ابنه الظاهر، فعهد بولاية العهد لابن عمه عبد الرحيم بن إلياس كما ذكر سابقا، غير أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح فقد قتل الحاكم، وسعت أخته ست الملك حتى أقامت ابنه الظاهر لإعزاز دين الله على عرش الخلافة في سنة ٤١١هـ/ ٢٠٢١م.

والحالة الثانية عندما توفى الآمر بأحكام الله سنة ٤٢٤هـ/ ١٩٣٠م وتولى الخلافة بعده ابن عمه الحافظ لدين الله.

أما الحالة الثالثة فقد حدثت عقب وفاة الخليفة الفائز بنصر الله في سنة ٥٥٥هـ/ ١٦٠ م، إذ تولى الخلافة بعده ابن عمه العاضد لدين الله، الذي يعد آخر الخلفاء الفاطمين(٢٢١).

والحق أنه في كل مرة خولف فيها نظام الوراثة، كان يحدث انقسام مذهبي يترتب عليه هزات عنيفة في الدولة، ساعدت فيما بعد على إضعافها وتدهورها، وحسبنا دليلا على ذلك ما حدث عقب وفاة الخليفة المستنصر في سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م من خلاف بصدد تحديد النص، إذ قال نزار الابن الأكبر بأن النص والوصية له (٢٢٢)، على حين ذكر الوزير الأفضل شاهنشاه بأن النص والوصية للابن الأصغر أبي القاسم أحمد، وانتهى النزاع بهزيمة نزار وتولية أبي القاسم الذي تلقب بالمستعلى (٢٢٢)، وانقسم الإسماعيلية إلى نزارية ومستعلية (٢٢٢)، وقد ناصبت النزارية (الحشيشية (٢٢٠٠)) التي نجح دعاتها في إقامة ملك لهم في الشام، الفواطم في مصر العداء، وانتهزت كل فرصة ممكنة الكيد لهم والإضرار بهم.

٢٢٠- ابن حزم، الفصل في الملل، ص ١٠٩.

٢٢١~ جمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمي، ص ٤٤٧ – ٤٤٨.

٢٢٢- السيوطي، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ١٥٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ١٤٢، ١٤٢.

٢٢٣- اين تغرى بردى، النجوم، جه، ص ١٤٣.

٢٢٤- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ١٩٤٠.

٥٢٧- كامل حسين، طائفة الإسماعيلية، تاريخها، نظمها، عقائدها، القاهرة ١٩٥٩، ص ٧٤، ٥٧، ١٨٥.

ولقد كان إبعاد نزار وتولية أخيه المستعلى بمثابة انقلاب سياسى قام به الوزير الأفضل شاهنشاه، محافظة منه على السلطان القوى الذي كان يتمتع به منذ أواخر عهد الخليفة المستنصر بالله (٢٢٦)، إذ من المعروف أن نزارا كان عند موت أبيه شابا مكتمل الرجولة (٢٢٧)، بيد أن العلاقات بينه وبين الأفضل لم تكن طيبة أثناء حياة المستنصر، بل على العكس كان يشوبها دائما الكراهية المتبادلة (٢٢٨).

وهكذا واصل الوزراء إبان هذه الفترة استبدادهم بالخلفاء وبشئون الحكم، حتى بات منصب الوزارة محط أنظار قواد الجيش وكبار رجال الدولة، فقامت بين بعضهم والبعض الآخر منافسات دامية في سبيل الوصول إلى هذا المنصب. ويعد النزاع الذي قام بين شاور وزير العاضد آخر الخلفاء الفاطميين، وضرغام صاحب الباب، آخر حلقة من حلقات هذه المنافسة، وقد انتهى الصراع بين الرجلين بانتصار ضرغام وتوليه الوزراة، وفرار شاور إلى الشام (٢٢٩).

وكانت الشام قد انسلخت من ملك الفاطميين واقتسم ملكها قوتان: قوة نور الدين محمود بن زنكى في الداخل، وقوة الصليبيين في الساحل وفي فلسطين.

وقد لجأ شاور إلى القوة الإسلامية، أى نور الدين، فى سنة ٥٩٥هـ/ ١٦٤م وسأله أن يرسل معه جيشا إلى مصر ليساعده فى نضاله ضد خصمه ضرغام وفى إعادته إلى منصب الوزارة، وعرض أن يدفع له فى مقابل هذا ثلث إيرادات مصر سنويا، وأن يمنح جنده الإقطاعات، وأن يدين له بالولاء (٢٣٠) إن عادت إليه مقاليد الحكم والوزارة.

ورحب نور الدين بشاور وأكرم ضيافته، ولكنه تردد في أول الأمر في إجابته إلى مطلبه، بيد أنه لم يلبث أن وافق تحت إلحاح قائده أسد الدين شيركوه الذي كان يرغب في الذهاب إلى مصر (٢٣١) على رأس هذه الحملة، ولعل نور الدين رأى في موافقته على طلب

٢٢٦ – جمال الدين الشيال، مصر في العصر القاطمي، ص ٤٤٨.

٣٢٧ - ابن ميسر، أخبار مصر، تحقيق ماسيه، ص ٣٧، الذي يذكرأن مولده في سنة ٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م.

٢٢٨ يتحدث المؤرخون عن مباينة وقعت بين نزار والأفضل، فقد خرج نزار ذات يوم من بعض أماكن القصر، فوجد الأفضل قد دخل من أحد الأبواب وهو راكب فصاح به: انزل ياأرمني يانجس، فحقدها الأفضل عليه وظهرت كراهة أحدهما للآخر، انظر ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٣٥؛ ابن تغري بردى، النجوم، ج٥٠، ص ١٤٢.

٢٢٩ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٥٨؛ جمال الدين الشيال مصر في العصر الفاطمي، ص ٤٥٤.

٢٣٠ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ٣٤٦؛ عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٢٦٤.

٣٣١- ابن الاثير، الكامل، جـ٩، ص ٨٤ - ٨٥؛ ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٧ - ١٩٥٨، جـ١، ص ١٣٧ وما بعدها.

شاور، تحقيقا لخطته التى كان يهدف من ورائها إلى توحيد الجبهة الإسلامية توطئة لمقاومة الخطر الصليبي والقضاء عليه (٢٣٢).

وأرسل نور الدين مع شاور جيشا بقيادة أسد الدين شيركوه الذى صحب معه ابن أخيه يوسف صلاح الدين، الذى لم يكن قد تجاوز خمسة وعشرين عاما، والذى لم يكن متحمسا للمغامرة فى مصر، فقد نسب إليه أنه قال: «خرجت مع عمى كارها وأنا كمن يقاد إلى المذبح (٢٣٣)»، ويبدو أيضا أن شاور لم يكن يرغب فى حضور شيركوه وصلاح الدين، ولكنه أسقط فى يده. وعلم ضرغام بخروج هذا الجيش وقرب وصوله إلى مصر، فأصابه الفزع إذ لم يكن الجيش الفاطمى فى حالة تمكنه من المقاومة أو إحراز النصر، وأرسل ضرغام يستنجد بالقوة الثانية فى الشام ونعنى بها الصليبين (٢٢٤).

ووصل أسد الدين شيركوه إلى مصر وانتصر على جيش ضرغام بعد قتال عنيف اشترك فيه طوائف الجند الفاطمى من مصريين وسودانيين وتفرق عن ضرغام قواده وأعوانه، ثم قبض عليه وقتل (٢٢٥)، وأعيد شاور نتيجة لهذا النصر إلى دست الوزارة وتلقب بالملك المنصور، وكتب له العاضد سجلا بتوليه الوزارة (٢٢٦)، ذكر فيه أنه ما اختاره إلا لحنكته في السياسة والتدبير، كما قلد ابنه المعروف بالكامل الوزارة نيابة عن أبيه (٢٢٧).

غير أن شاور كان خلقه الغدر والخيانة، فلم يلبث أن حنث بوعده، ورفض أن يدفع الشيركوه وجيشه المقيم بظاهر القاهرة المبلغ المتفق عليه، بل طلب إليه الانسحاب بجيشه والعودة إلى الشام، وآلم شيركوه مسلك شاور، وأبى أن يستمع له، وأسرع إلى بلبيس بناء على إشارة صلاح الدين وتحصن بأسوارها (٢٢٨)، وهنا فعل شاور ما فعله ضرغام من قبل إذ لجأ إلى الفرنجة، وأرسل يستنجد بعمورى ملك بيت المقدس، ووعده بمال كثير، ورحب عمورى المسمى بأملريك بالدعوة وأسرع بالخروج بجيشه، لأنه كان يخشى أن يملك نور الدين مصر فتصبح قوى الصليبيين وأملاكهم فى الشام محاصرة بقوى نور الدين من الشمال والجنوب (٢٢٩).

٣٣٢ - جمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمي، ص ٤٥٤.

٣٣٣ - ابن طباطبا، الفخرى في الأداب السلطانية، ص ٧٢.

٢٣٤ - حسن حبشي، نور الدين والصليبيون، القاهرة ١٩٤٨، ص ١٠٦.

٥ ٢٣- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٢٥٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ٣٤٧.

٢٣٦- القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١، ص ٢١٠ - ٢١٨.

٢٣٧- المقريزي، السلوك، جـ١، ص ٤٤.

۲۳۸- ابن تغری بردی، النجوم، جه، ص ۳٤٧.

٣٣٩- جمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمي، ص ٥٥٥؛ محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية، ص ١٢٧.

اتجه عمورى بجيشه فى سنة ٥٥٩هـ/ ١٦٤ م نحو مصر، وحاصر أسد الدين شيركوه فى بلبيس شهورا ثلاثة (٢٤٠)، وأحس نور الدين بما يهدد جيشه فى مصر من خطر فبدأ يضغط على أملاك الصليبيين فى الشام مما جعل عمورى يفكر جديا فى الانسحاب، واتفق أخيرا مع شيركوه أن ينسحبا معا فى وقت واحد من مصر (٢٤١).

خرجت القوتان من مصر ولكن اتعودا إليها ثانية وثالثة وكل منهما يحاول أن يستولى على مصر القضاء على القوة الأخرى، فقد رأى شيركوه ضعف حالها ووصفها بأنها بلاد بغير رجال وأخذ يحرض نور الدين من جديد لإرساله على رأس حملة ثانية (٢٤٦) وضرح بالفعل في سنة ٦٢هه/ ١٦٧٧م (٢٤٢)، يصحبه المرة الثانية ابن أخيه صلاح الدين وبخل مصر عن طريق ساحل البحر الأحمر من ناحية الصعيد ونزل بالجيزة حتى لايحاصر ببلبيس مرة أخرى. عندئذ أرسل شاور يستنجد بالفرنجة ويعدهم بالمال فأتاه عمورى إلى الجيزة وأرسل رسله إلى قصر الخليفة العاضد للاتفاق على المبلغ الذي سيدفع عمورى إلى البلاد، فحاربهم شيركوه وهزمهم، ونجا عمورى بحياته بمعجزة (١٤٤٠). وسار شيركوه عقب ذلك إلى الإسكندرية التى رفض أهلها وأعيانها أن يسلموها إلى شاور عميل الصليبيين وسلموها لشيركوه (١٤٥٠) الذي تركها لصلاح الدين وسار هو إلى الصعيد، فأسرع شاور تسانده مراكب الصليبيين إلى حصارها حوالي أربعة أشهر (٢٤٦) ولكن صلاح الدين كافح عنها كفاحا شديد، وعبثا حاول شاور استمالة أهل الاسكندرية على أن يسلموه صلاح الدين في مقابل رفع الضرائب عنهم بيد أنهم رفضوا تسليم المسلمين للفرنج على حسب قولهم، عندئذ سعى شاور إلى الصلح وقبله شيركوه لسوء موقف جيشه وليخرج حسب قولهم، عندئذ سعى شاور إلى الصلح وقبله شيركوه لسوء موقف جيشه وليخرج الصليبيين من مصر بأى ثمن، وقبل ترك مصر مقابل مبلغ من المال، على أن يخرج

٢٤٠ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٥٨؛ ابن واصل، مقرج الكروب، جـ١، ص ١٤٠؛ تظير سعدادي، التاريخ الحربي المصرى في عهد صلاح الدين، القاهرة ١٩٥٧، ص٨.

٢٤١- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٨٥٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ٣٤٨.

٢٤٢ - ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق دومنيك سورديل، دمشق ١٩٥٣، حدا، ص ٢٤٨.

٢٤٣ - ابن الاثير، الكامل، جـ٩، ص ٩٤ - ٩٦؛ ابن واصل، مـفـرج الكروب، جـ١، ص ١٤٨؛ ابن تغـرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ٢٤٨؛ حسن حبشى، نور الدين، ص ١١٠.

Récueil des historiens des croisades, Hist. Occ., Paris, 1844, p.928; Schlumberger, -YEE Campagnes du roi Amaury Ier, de Jérusalem en Egypte au XIIe siècle, Paris, 1906, pp.142-143.

٥٤٧- أبو شامة، الروضتين، جـ١، ص ١٦٨.

٢٤٦- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٨٥٦؛ ابن تغرى، بردى، النجوم، جـ٥، ص ٣٤٩.

الصليبيون أيضا (٢٤٧) الذين اشترطوا منحهم مبلغا من المال أيضا وأن يكون لهم بأبواب القاهرة حامية (٢٤٨)، ووافق شاور على هذا العرض، وخرجت القوتان.

بيد أن الصليبيين صمموا هذه المرة على سباق جيش نور الدين في الوصول إلى مصر بغية احتلالها وأسرع عمورى بالوصول إلى الريف المصرى شرقى الداتا المعروف بالحوف الشرقى في سنة ٢٥هـ/ ١٩٨٨م (٢٤١) وقتل الرجال والنساء والشيوخ في بلبيس مما جعل شاور يرتعد من الفرنجة وجمع جاليتهم في مصر وقتل منهم جماعة كبيرة وحفر غندقا وبني حصنا، ثم أحرق الفسطاط وهجر أهلها إلى القاهرة بعد أن وزع عليها عشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل (٢٥٠)، ووصلت الانباء إلى نور الدين فأسرع بارسال شيركوه ومعه صلاح الدين على رأس حملة ثالثة، وقيل أنه كان ينوى أن يخرج بنفسه على رأسها الأرها، فلما سمع الصليبيون بخروج جيش نور الدين قبلوا الصلح مع شاور الذي عرض عليهم مائة ألف دينار (٢٥٠) على أن يرد إليهم بقية مليون دينار أخرى فيما بعد (٢٥٠)، ورحل الفرنج عن مصر بعد أن اقترب جيش نور الدين من القاهرة، وقتل شاور الحدره وخيانته واستعانته بالصليبيين المرة بعد الأخرى على يد شيركوه بعد أن أخذ شاور امن الخليفة العاضد بأنه هو الذي أوصى بقتله لخيانته (١٥٥٠)، ولم يجد الخليفة من بين رجاله من يصلح للوزارة فاختار أسد الدين شيركوه ليكون وزيره وتلقب بالسيد الأجل، رجاله من يصلح الوزارة فاختار أسد الدين شيركوه ليكون وزيره وتلقب بالسيد الأجل، الملك المنصور، سلطان الجيوش (٢٥٥)؛ اسيطرته على جيش الفاطميين وجيش نور الدين (٢٥٦).

٧٤٧ - عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٧٦٧.

۲٤٨- ابن واصل، مفرج الكروب، جـ١، ص ١٥٢؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٥٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ٣٤٩.

۲٤٩- ابن الاثير، الكامل، جـ٥، ص ٩٨؛ ابن واصل، مفرج الكروب، جـ١، ص ١٥٧؛ أبو شامة، الروضتين، جـ١، ص ١٥٧؛ أبن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ٣٥٠.

٢٥٠ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٣٥، ٣٣٩؛ ابن تغرى بردي، النجوم، جـ٥، ص ٣٥٠.

٢٥١ - عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٤٧٠؛ الناصر صلاح الدين يوسف الايوبي، بيروت ١٩٦٧ مص ١٩٦٨ مص ١٩٦٨.

۲۵۲ - ابن تغرى بردى، النجوم، جه، ص ۲۵۰.

٢٥٣- ابن واصل، مفرج الكروب، جـ١، ص ١٦٠؛ عبد المنعم ماجد، الناصر صلاح الدين، ص ٦٨.

۲۵۶ – ابن الأثير، الكامل، جـ٩، ص ١٠١؛ أبو شامـة، الروضـتين، جـ١، ص ١٧١ – ١٧٢؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٣٩٤؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ص ٤٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص حم١ ٢٥٠ ـ ٢٥٢.

٥٥٠ - القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٠ ، ص ٨٠ ، ٩٠ .

٢٥٦ - عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين، جـ١، ص ٨٤؛ الناصر صلاح الدين، ص ٧٢.

سمه (۲۰۷)، واختير صلاح الدين مكانه، وتلقب بالملك الناصر في ٢٥ جمادى الآخر سنة 3٢٥هـ/ ٢٦ مارس ١٦٩م (٢٠٨)، وكتب له العاضد سجل الوزارة بخط يده، وألبسه خلعة الوزارة أمام جمع عظيم من موظفى الدولة (٢٥٩).

كان موقف صلاح الدين منذ ولى الوزارة موقفا غريبا، فهو وزير لخليفة مصر العاضد الشيعى المذهب، وفي الوقت نفسه قائد لجيش نور الدين صاحب الشام السنى المذهب، وهذا يعنى أنه كان موزع الولاء، ومع ذلك فقد اتبع سياسة الحكمة والتؤدة إزاء الرجلين (٢٦٠).

وكان نور الدين يود أن يبادر صلاح الدين إلى القضاء على الدولة الفاطمية، وقطع الخطبة عن آخر خلفائها العاضد، والخطبة للخليفة العباسى المستنجد بالله، وذلك لكراهية نور الدين للشيعة، ورغبة منه في تلبية مطلب الخليفة العباسى، فقد كان دائم الإلحاح عليه بأن يسارع بإقامة الخطبة له على منابر مصر (٢٦١). بيد أن صلاح الدين كان أعرف من نور الدين بأحوال مصر، ولهذا آثر التمهل حتى يمكنه تمهيد الطريق قبل أن يضرب ضربته الأخيرة، خاصة وقد شعر بأن أعيان المصريين يميلون صراحة إلى الخلافة الفاطمية، وأن المذهب الشيعى قد انتشر بينهم انتشارا هائلا، بل «إنه خالط من المصريين اللحم والدم» على حسب تعبير القاضي الفاضل (٢٦٢).

بدأ صلاح الدين بالخطوات التمهيدية لتقليم أظافر الخليفة العاضد وقواد جيشه ورجال قصره، فأبعد هؤلاء القواد عن القاهرة واستولى على إقطاعاتهم ومنحها لقواده هو ليضمن ولاءهم وإخلاصهم، ثم أرسل إلى نور الدين يستأذنه في أن يرسل إليه آباه نجم الدين أيوب، الذي كان بعد وصوله خير عضد ونصيح لابنه صلاح الدين، كما سوف نرى عند الحديث عن قيام الدولة الأيوبية، وذلك لما كان يتمتع به من مكر ودهاء وخبرة طوبلة (٢٦٣).

كذلك عمل على محاربة الدعوة الفاطمية وساعده على ذلك أنه كان له الإشراف على القضاء والدعوة معا، فعزل قضاة مصر الشيعة وقطع أرزاقهم، وعين صدر الدين عبد الملك

٢٥٧- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٣، ص ٤٧٩؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ص ٥١.

٨٥١- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص٤٧٤؛ الناصر صلاح الدين، ص ٧٢.

٥٩٩- القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٠، ص ٣٠٨.

٣٦٠ جمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمي، ص ٤٥٥.

٢٦١- السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ١٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٦، ص ٧.

٢٦٢- ابن واصل، مفرج الكروب، جـ١، ص ٢٠٠؛ عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة القاطميين، ص ٤٧٧.

٣٦٣- جمال الدين الشيال، مصبر في العصر الفاطمي، ص ٢٥١؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٥٩٣.

بن درباس الشافعي قاضيا القضاة (٢٦٢)، كما شرد الدعاة وألغي مجالس دعوتهم، وأزال أصول المذهب الشيعي مثل الأذان «بحي على خير العمل»، بدلا من الأذان «بحي على الفلاح» وحذف من على العملة والطراز العبارات الشيعية مثل «على ولى الله» (٢٦٥)، ومنع صلاة الجمع بالجامع الأزهر (٢٦٦). ولتنفيذ ذلك أخذ في تعميم إنشاء المدارس في مصر مقتديا في ذلك بنور الدين، الذي أكثر من بناء المدارس في الشام (٢٦٧) لمحاربة المذهب الشيعي والدعوة للمذهب السنى وتدريسه. وكانت أول مدرسة أنشأها صلاح الدين في مصر هي المدرسة الناصرية التي شيدت في الفسطاط لتدريس المذهب الشافعي (٢٦٨). وهكذا «اشتهر مذهب الشافعية واندرس مذهب الإسماعيلية بالكلية وانمحي أثره ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به «على حد تعبير المؤرخ ابن واصل (٢٦٩)».

وتدانا هذه العبارة الأخيرة على مدى أهمية الخطوات التى قام بها صلاح الدين فى حرص وحذر للتمهيد لتحقيق رغبة الخليفة العباسى وبور الدين بقطع الخطبة عن العاضد أخر الخلفاء الفاطميين، ولما تم لصلاح الدين إضعاف جانب الخلافة الفاطمية لم يتردد فى إلغائها فى مصر وذلك فى أول جمعة من المحرم سنة ٢٧هه/ العاشر من سبتمبر ١٧٧١م وأعاد الخطبة من جديد للخلافة العباسية وللخليفة المستضى بنور الله الذى كان قد تولى بعد أبيه المستنجد بالله فى سنة ٢٦هه/ ١٧٧٠م، بعد انقطاع دام حوالى قرنين من الذمن (٢٧٠٠).

وتروى المصادر التاريخية روايات متعددة بصدد قطع الخطبة عن الخليفة العاضد منها أن صلاح الدين لما خطب لبنى العباس اغتم العاضد ومات، وقيل أيضا أنه كان فى يده خاتم فيه سم فتناوله ومات، وروى كذلك أن الطبيب الذى كان يعالجه لما رأى رغبة صلاح الدين فى عزله، امتنع عن مداواته (٢٧١). كما زعمت بعض مصادر الفرنجة أن توران شاه أخو صلاح هو الذى تولى قتل العاضد بنفسه (٢٧٢).

٢٦٤- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٥٩.

٥٢٦- مايسه محمود داود، المسكوكات الفاطمية، ص ٤٧.

٢٦٦- المقريزي، المصطم، جـ٢، ص ٢٧٦؛ حسن عبد الوهاب، المساجد الأثرية، جـ١، ص ٥٢ - ٥٠.

⁷⁷ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص 77، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٦، ص 30-00؛ أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية، العلوم العقلية، ص 79-70.

٢٦٨- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٣٦٣؛ السيوطي، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ١٤٢.

٢٦٩ - ابن واصل، مفرج الكروب، جـ ١، ص ٢٠٠ - ٢٠١؛ المقريزي، الخطط، جـ ١، ص ٥٥٣.

۲۷۰ ابن تغری بردی، النجوم، جه، ص ۳٤۱.

۲۷۱ - ابن تغری بردی، النجوم، جه، ص ۳۳۶ - ۳۳۰.

Ency. de l'Islam, art. al-Adid, IV, p88. فا الفاطميين، ص ٤٨٤؛ . Ency. de l'Islam, art. al-Adid, IV, p88. المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص

خلاصة القول أن الدولة الفاطمية انتهت بعد أن حكمت مصر قرابة قرنين من الزمان كانت مصر في خلالهما إمبراطورية مستقلة واسعة مترامية الأطراف ذات حضارة مجيدة مزدهرة (٢٧٣). وجدير بالملاحظة أيضا أن هذه الدولة كانت لا تعرف وسطا، فهي إما في قمة المجد والشموخ، أو في حضيض الضعف والمهانة، وتتسع رقعتها تارة حتى تمتد من أقصى المغرب إلى العراق، ثم نراها تنكمش على نفسها في مصر محاولة الدفاع عن كيانها ضد الطامعين فيها.

ونجدها تارة دولة غنية كأغنى ما تكون الدول، تبهر العالم بثرائها وكنوزها، ونراها وقد خيم عليها الفقر وحطمتها المجاعة حتى لا يجد خليفتها ما يأكله. ونراها دولة نشرت لواء التسامح الدينى، حتى وجد الكل على اختلاف عقائدهم الأمن والأمان، ونراها في وقت أخر كأشد ما تكون تعصبا واضطهادا لغير شيعتها.

حقيقة أنه كان لهذه الدولة أعظم شأن في تاريخ مصر الإسلامية بل إنها صبغت مصر بصبغة لاتزال آثارها باقية إلى اليوم.

فمن الناحية السياسية نلاحظ أن الدولة الفاطمية قامت في وقت بلغت فيه الخلافة العباسية أدنى درجات الضعف ولم يعد لخلفائها من الأمر إلا الاسم فقط، ولم يعد نفوذ الخليفة يتعدى جدران قصره الذى أصبح فيه أشبه بالسجين في يد أمير الأمراء، وقد ترتب على هذا قيام الفتن والثورات في كل مكان وانفصلت الولايات البعيدة وقامت الدول المستقلة (٢٧٤). في هذا الجو العام من الضعف والانقسام قامت الدولة الفاطمية قوية فتية وبسطت نفوذها على أرض تمتد من شاطئ المحيط إلى حدود العراق، بل دعى لها بعض الوقت على منابر بغداد (٢٧٥) كما سبق أن نوهنا من قبل.

وكان الخلفاء الأوائل رجالا أقوياء استطاعوا أن يفرضوا هيبة الحكم وسلطان الخلافة على هذه الدول المترامية الأطراف، وظلت هذه الدولة متماسكة حتى كانت خلافة المستنصر فكان ذلك إيذانا بتفككها وضياع أملاكها، وكانت العوامل التى ساعدت على ذلك كثيرة منها ضعف الخلفاء، وانقسام الجيش، والأزمة الاقتصادية التى تعرضت لها مصر في أواخر عهد الخليفة المذكور (٧٥٧ – ٤٦٤هـ/ ١٠٥٥ – ١٠٧٠م) (٢٧١). على أن أهم هذه الأسباب وأكبرها أثرا، ظهور قوة جديدة في الشرق، هي قوة السلاجقة التي عملت على الاستيلاء على أملاك مصر في الشام والحجاز، ونجحت في ذلك حتى أنهم حاولوا غزو

٣٧٣ - جمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمي، ص ٤٥٧.

٢٧٤ محمد حمدي المتاوي، مصر في ظل الإسلام، جـ١، ص ٨٥.

٥٧٧- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ٦، ١٢.

٢٧٦ - المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٢٤ وما بعدها.

مصر نفسها (۲۷۷) لولا جهود بدر الجمالى، وإن كان هذا الأخير لم يستطع أن يستعيد أملاك مصر بالشام، ومات وليس لها سوى بعض مدن ساحلية سرعان ما فقدتها أمام الغزو الصليبى الذى أخذ بدوره يهدد مصر نفسها كما سبق أن أوضحنا.

أما من الناحية الدينية فقد قامت الدولة الفاطمية على عقيدة معينة تخالف عقيدة الدولة العباسية المنافسة لها، فكانت خلافة الفاطميين خلافة عقائدية مذهبية تقوم على الإمامة وانتقالها من الأب إلى الابن عن طريق الوصية أو النص. وكان هناك فقه إسماعيلى يخالف الفقه السنى كما أن المذهب نفسه كان في حاجة إلى دعاة يقومون بنشره في مختلف الأرجاء، ويعملون على جذب الناس بالحجة والإقناع. ولما كان الخليفة هو رأس السلطة الدينية فقد كان يجمع شئون المذهب في يده كالقضاء والدعاة تحت إشرافه المباشر، كما كان يختار بنفسه القضاة والدعاة، بيد أن كل هذا لم يستمر طويلا وسرعان ما انتقلت كل هذه السلطات إلى الوزراء في العصر الثاني الذين تدخلوا أيضا في اختيار الخلفاء أنفسهم مما أفضي إلى انقسام المذهب الإسماعيلي إلى فرق متعادية وجعل الناس في النهاية ينصرفون عنه حتى أن صلاح الدين قضي على الدولة الفاطمية والمذهب الإسماعيلي دون أي معارضة، أو كما يقول المؤرخ ابن الأثير «ولم ينتطح فيه عنزان» ومر الأمر بهدوء وعاد المصريون إلى المذهب السنى من جديد كأنه لم يكن هناك مذهب أخر عاش بينهم قرنين من الزمان (٢٧٨).

وشهد العصر الفاطمى فى مصر أيضا ازدهاراً أدبيا وعلميا نتيجة إغداق الخلفاء الأموال على العلماء والأدباء والمفكرين، فأصبحت القاهرة فى عهدهم كعبة العلوم والفنون ومركز إشعاع جذب إليه العلماء والشعراء وأهل الفنون من مختلف أنحاء العالم الإسلامى، كما اهتم الفواطم بمحاولة نشر العلم على أوسع نطاق وبين مختلف الطبقات وذلك بتشجيع نسخ الكتب وإنشاء المكتبات مثل دار الحكمة (٢٧١). ويشير المقريزى إلى أن مكتبة الخلفاء الفاطميين كانت فى القصر الكبير، وكانت تتألف من أربعين حجرة وتضم عددا ضخما من الكتب التى تخصصت فى فنون العلوم المختلفة. كما يذكر أيضا أن أحد العامة تحدث مرة أمام الخليفة عن كتاب العين الذى ألفه الخليل بن أحمد، فما كان من هذا الخليفة إلا أن أحضر من مكتبته أكثر من ثلاثين نسخة من هذا المؤلف ومن بينها نسخة بخط المؤلف نفسه، وروى كذلك أن أحد الناس قدم إلى الخليفة العزيز نسخة من تاريخ الطبرى كان قد

٧٧٧ - عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ١٩١.

٢٧٨ - محمد حمدى المناوي، مصر في ظل الإسلام، جـ١، ص ٨٨ - ٨٩.

٢٧٩ - المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٤٥٨ - ٤٥٩؛ جـ٢، ص ٣٤٢.

اشتراها بمائة دينار، فأخبره الخليفة بأن لديه أكثر من عشرين نسخة من هذا الكتاب من بينها أيضا نسخة المؤلف نفسه. وقد قيل أن مكتبة هذا الخليفة كانت تضم علاوة على ما تقدم ثمانية عشر ألف مجلد عن علوم القدماء كان من بينها على عهد الخليفة المستنصر ٢٩٠٠ نسخة من القرآن مجلدة تجليدا جميلا وكتبها أمهر الخطاطين وأشهرهم ومذهبة ومفضضة، وتزينها عناصر زخرفية غاية في الدقة والروعة (٢٨٠).

وإذا كان غالبية التراث الأدبى للفاطميين قد فقد فيما فقد من تراثهم فإن أعظم مآثرهم جعل الأزهر معهدا للدراسات الفقهية المنظمة، وهى الخطوة الأولى التي جعلت الأزهر فيما بعد تلك الجامعة الإسلامية الشامخة (٢٨١).

والواقع أنه كان للرخاء الذي عم البلاد في معظم فترات الحكم الفاطمي أثره الواضح على تلك النهضة الفنية والعمرانية التي شهدها هذا العصر، والتي شارك فيها الخلفاء وكبار رجال الدولة بما أولوه الفنانين من تشجيع ورعاية. ولعل أهم الآثار الفاطمية التي مازالت باقية إلى يومنا هذا هي أسوار وأبواب القاهرة التي أعاد بناءها بدر الجمالي، والجامع الأزهر، وجامع الحاكم، ومشهد أمير الجيوش بالمقطم والجامع الأقمر، وجامع الصالح طلائع والحمام الفاطمي وغيرها مما سوف نتعرض له بالتفصيل في الفصل التالي.

ولا جدال في أن الشعب المصرى قد سعد طوال حكم الفاطميين بالأعياد الكثيرة التي كان ينعم فيها ببر الفاطميين وبذخهم مثل عيد أول العام الهجرى الذي كان يعمل فيه عدة خراف كثيرة، والكثير من الرؤوس حيث يتم توزيعها على أرباب الرتب وأصحاب الدواوين مع جفان الألبان والخبز وأنواع الحلوى وذلك في ليلة أول المحرم من كل عام (٢٨٣)، وعيد مولد النبي على الذي كان يصنع فيه عشرون قنطارا من الحلوى (٢٨٣)، وليالي الوقود الأربعة وهي أول رجب ونصفه وأول شعبان ونصفه التي وصفها أحد المؤرخين بأنها من أبهج الليالي وأحسنها (٢٨٤)، وعيد الغدير نسبة إلى غدير خم بين مكة والمدينة، الذي يقال أن الرسول على نزل به عند عودته من مكة إلى المدينة بعد حجة الوداع في السنة العاشرة من

۲۸۰ المقریزی، الخطط، ج.، ص ۲۰۸ - ۶۰۸؛ زکی محمد حسن، کنوز الفاطمیین، القاهرة ۱۹۳۷، ص ۲۷ - ۲۷.

٢٨١ - حسن إبراهيم، الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص، القاهرة ١٩٣٢، ص ١٢٧ محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية في مصر، ص ١٧٥.

۲۸۲- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٤٩٠.

٧٨٣ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٤٣٣؛ عبد المنعم سلطان، المجتمع المصري، ص ١٣٢.

٢٨٤- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٢٦٥ - ٤٦٧.

وهناك أيضا بعض الأعياد التى اتخذت صبغة قومية مثل عيد جبر أو كسر الخليج (٢٨٦) الذى يعقب الاحتفال بوفاء النيل، وعيد النوروز (٢٨٧) ونعنى به عيد الربيع، وعيد خميس العهد الذى أطلق عليه العامة اسم خميس العدس، وهو أحد الأعياد المسيحية التى احتفل بها الفاطميون مشاركة منهم للنصارى الذى كان من عادتهم طبخ العدس فى هذا اليوم (٢٨٨).

خلاصة القول أن الفاطميين بالغوا في إحياء الأعياد والمواسم مبالغة تستحق منا إمعان النظر لأن الثراء لم يكن السبب الوحيد وراء هذا الإسراف، فقد عرفت مصر حكاما غيرهم كانوا أيضا على درجة كبيرة من الثراء، لم نسمع عنهم كل هذا الإسراف في إقامة الأعياد ومد الأسمطة والولائم التي اشتهر بها رجال العصر الفاطمي.

وعلى هذا فالمسألة تبدو في نظرنا أبعد من إظهار الثراء وخاصة إذا تذكرنا أن الدولة الفاطمية قامت على أساس الدعوة لمبدأ جديد ومذهب جديد في أرض لم يسبق لها به معرفة من قبل، وكان لابد إذن لنشر تعاليم هذا المذهب الشيعي أن تقوم الدولة بعمل دعاية واسعة تنفذ إلى قلوب الناس وعقولهم وفق المستويات الفكرية السائدة في تلك العصور، ولم يجد هؤلاء الخلفاء أحسن من وسيلة إشباع البطون سبيلا للدعاية إلى مذهبهم والنفاذ إلى القلوب، وكسب ولاء الناس ومحبتهم وإعجابهم بالنظام الجديد. هذا في الوقت الذي دأب فيه رجال الفكر من دعاة الفاطميين على اكتساب جماهير الناس عن طريق نشر مبادئ المذهب الجديد، حيث اتخذوا من الجوامع ودور العلم والحكمة مراكز لهذه الدعوة الفكرية وخاصة أثناء هذه الأعياء والاحتفالات، تلك الأعياد التي لا تزال قائمة في المجتمع المصرى حتى يومنا هذا (٢٨٩).

٢٨٥ - القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٢، ص ٢٠٦؛ جـ١٦، ص ٢٤١؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٨٨.

⁻ ۲۸۲ عن هذا العيد انظر ناصر خسرو، سفر نامة، ص ٥٢ - ٥٤؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٤٧٧ - ٢٨٨. ٤٧٩؛ اتعاظ الحنقا، جـ٣، ص ١٠٨؛ عبد المنعم سلطان، المجتمع المصري، ص ١٨٦ - ١٨٩.

٧٨٧ - عنه انظر، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٢، ص ٤٠٨ ، ٤١٠ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٩٦ - ٤٩٤ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٩٤ - ٤٩٤؛ طه ندا، الأعياد الفارسية في العالم الإسلامي، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، المجلد ٧١، سنة ١٩٦٣، ص ٧ - ٣١.

٨٨٨ - القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٢، ص ٤١٧ المقريزي، خطط، جـ١، ص ٢٦٦.

٧٨٩ عبد المنعم سلطان، المجتمع المصرى، ص ١٢٦.

بقى ان نشير فى نهاية الحديث عن العصر الفاطمى أن المصريين وجدوا تحت حكم هذه الخلافة، على اختلاف أديانهم ومذاهبهم الحرية فى أداء شعائرهم الدينية، كذلك لقى غير المسلمين من أهل الذمة معاملة طيبة لاسيما وقد استعان بهم الفاطميون فى كثير من الأعمال وخصوصا الأعمال المالية، بل وصل الأمر بالخلفاء إلى الاستعانة بالوزراء الأقباط الذين تعصبوا بدورهم لأبناء دينهم وخصوهم بالوظائف العليا فى الدولة وأبعدوا عنها المسلمين بل عملوا على اضطهادهم فى بعض الأحيان (٢٩٠) مما أدى إلى قيام الفتن والاضطرابات بين المسلمين والنصارى مما أدى إلى تدخل بعض الخلفاء كما حدث مثلا فى أيام الخليفة الحاكم سنة ٣٩٣هـ/ ٣٠٠/م الذى قاد حملة اضطهاد عنيفة ضدهم لإلزامهم بالشروط العمرية، انتهت إلى التسامح من جديد معهم قبيل قتله فى سنة ١١٤هـ/ ١٠٠٠م.

ثبت بأسماء خلفاء الدولة الفاطمية

المعن أبو تميم معد ٣٤١هـ/ ٩٥٢م	١
العزيز أبو منصور نزار ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م	4
الحاكم أبو على المنصور ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م	٣
الظاهر أبو الحسن على ٤١١هـ/ ١٠٢١م	٤
المستنصر أبو تميم معد ٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م	٥
المستعلى أبق القاسم أحمد ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م	7
الآمر أبو على منصور ٤٩٥هـ/ ١١٠١م	٧
الحافظ أبى ميمون عبد المجيد ٢٤٥هـ/ ١١٣٠م	٨
الظافر أبو منصور إسماعيل ٤٤٥هـ/ ١١٤٩م	٩
الفائز أبو القاسم عيسى ٥٤٥هـ/ ١١٥٤م	١.
العاضد أبو محمد عبد الله ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م	11
i e	1

J.Mann, The Jews in Egypt and على ۱۹۳۰ من ۱۹۳۰ ابن القالانسى، ذيل تاريخ دمشق، بيروت جـ ۱۹۰۱ من ۱۹۳۰ Palestine under the Fatimid caliphs, Oxford, 1920, pp. 14-20.

٢٩١- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطمين، ص ٣٥٦ - ٣٥٨.



يرتفع عدد الآثار الباقية من العصر الفاطمى إلى سبعة وعشرين أثرا عدا ما اندثر منها، بيد أننا لن نستطيع أن نتعرض هنا إلا للبارز والهام من هذه الآثار الفاطمية.

مدينة القاهرة

في ١٧ شعبان سنة ٨٥٣هـ/ ٦ يوليو ٩٦٩م(١) سار الجيش الفاطمى بقيادة جوهر الصقلى في مدينة الفسطاط، بعد الاستيلاء عليها من بقايا الإخشيديين، وهو يحمل لواء النصر، حتى حط الرحال في السهل الرملى الواقع إلى الشمال من الفسطاط، وهو سهل يحده من الشرق جبل المقطم، ومن الغرب خليج أمير المؤمنين. وكان هذا السهل خاليا من البناء إلا قليلا، مثل بقايا بستان كافور الإخشيد، وحمىن صغير يسمى قصر الشوك، ودير مسيحى يعرف بدير العظام، وهو المكان الذي يشغله حاليا الجامع الأقمر(٢).

فى هذا السهل اختط جوهر فى ليلة وصوله رابعة مدن مصر الإسلامية، التى قرر تأسيسها لتكون مدينة ملكية حصينة للخليفة وأتباعه؛ كما اختط القصر الفاطمى، الذى أعده ليستقبل فيه مولاه المعز لدين الله. وحينما أتت وفود أعيان الفسطاط فى صباح اليوم التالى لتهنئته بالفتح، وسلامة الوصول، وجدوا أن مواضع أسس البناء الجديد كانت قد حفرت (٢). وبنى جوهر سورا خارجيا من اللبن على هيئة مربع. طول كل ضلع من أضلاعه حوالى ١٢٠٠ متر (١٤)، أدرك المقريزي فى القرن التاسع الهجري إلخامس عشر الميلادى جزءاً منه فيما بين باب البرقية ودرب بطوط، خلف السور الحالى الذى بناه فيما بعد صلاح الدين الأيوبي، وأبدى دهشت من كبر حجم الطوب المستخدم فى البناء، إذ بلغ طول الواحدة منه قدر ذراع فى ثلثى ذراع، كما أشار أن هذا السور كان من السمك بحيث يستطيع أن يمر فوقه فارسان جنبا إلى جنب (٥). ومن الظريف أن ياقوت الحموى قد أشار إلى روابة مشابهة عند حديثه عن جدران مدينة المهدية، عاصمة الفاطميين الأولى فى شمال

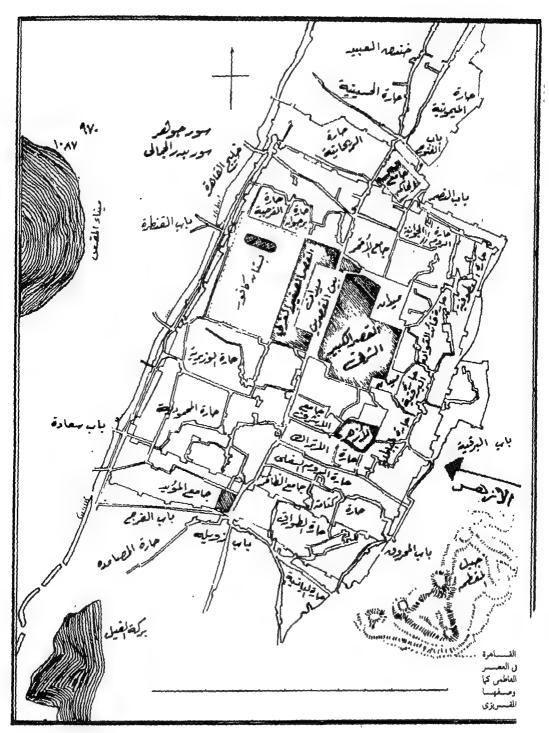
١- ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٤٣٥؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص ١٦٦؛ ابن دقماق، الانتصار،
 جـ٥، ص ٣٥٠ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٤٩؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص ٣٦١.

۲- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٥٩؛ . K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.20

٣٦- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ١٦٨؛ جـ٢، ص ٥ - ٧؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٥، ص ٣٦؛
 المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٦١.

٤- ابن دقماق، الانتصار، جه، ص ٣٦، المقريزي، الخطط، ج١، ص ٣٧٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور،
 طبعة بولاق، ج١، ص ٤٥.

٥- المقريزي الخطط، جـ١، ص ٣٧٧.



شكل (١٠) خريطة لمدينة القاهرة في العصر الفاطمي، عن الأزهر في عيده الألفي.

أفريقيا⁽¹⁾. ولعل السبب في بناء الأسوار بهذا السمك راجع إلى تمكين الحامية المدافعة عن المدينة من التجمع السريع عند أية نقطة معرضة لأن يتسورها الأعداء، أو يهاجموها بطريقة أو بأخرى^(٧).

ونظرا لأن الأعمال الإنشائية قد تمت في ليلة وصول الجيش الفاطمي، فإن جوهر الصقلي قد لاحظ في صباح اليوم التالي أن جدران السور والقصر جاء غير معتدلة، فلم تعجبه، ومع ذلك فقد تركها على حالها، واستمر في تشييد البنيان حتى أكمله^(٨). وكان كل ضلع من أضلاعه يواجه إحدى الجهات الأصلية إلى حد كبير، فقد كان الضلم الشرقي في محاذاة جبل المقطم، والضلع الغربي في محاذاة الخليج، والضلع الجنوبي في مواجهة مدينة الفسطاط، والضلع الشمالي في مواجهة السهل الرملي. وقد ضم هذا السور جميع المنشات الداخلية بالقاهرة، فبدت المدينة كأنها حصن عظيم يدور حوله سور سميك. وقد اختلف المؤرخون في الغرض الذي أقيم من اجله، فمن قائل أن جوهراً «قصد باختطاط القاهرة- حيث هي اليوم- أن تصير حصنا فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر ليقاتلهم من دونها، فأدار السور اللبن على مناخه الذي نزل فيه بعساكره، وأنشأ داخل السور جامعا وقصرا، واعتبرها معقلا يتحصن به، وتنزله عساكره، واحتفر الخندق من الجهة الشمالية ليمنع اقتحام عساكر القرامطة إلى القاهرة وما وراعها من المدينة»^(٩). على حين رأى بعض آخر في هذا السور هدفا أرستقراطيا يختلف عن هدف التحصين، كما يفهم من عبارة المؤرخ ابن دقماق حين يقول إن جوهرا «بني اسبيده القاهرة والقصور، ليكون هو وأصحابه وأحفاده بمعزل عن العامة. وعلى هذه العادة فعل ملوك بني عبد المؤمن ذلك في مراکش و تلمسیان و غیر ها »^(۱۰).

وعلى هذا فمن المرجح أن يكون جوهر قد قصد الغرضين معا، بمعنى أنه استطاع أن يحصن المدينة تحصينا كافيا، وأن يعوق في الوقت نفسه عامة الشعب في كل من الفسطاط والمسكر والقطائع من الوصول إلى القاهرة، فقد كان محظورا على أى فرد اجتياز أسوار القاهرة إلا إذا كان من جند الحامية الفاطمية، أو من كبار موظفى الدولة،

٦- ياقوت الحموى، معجم البلدان، جـ٤، ص ٦٩٤.

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.21. -V

٨- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٦١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ١٦٨؛ ابن دقماق، الانتصار،
 جـ٥، ص٣٢؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٤٩.

٩- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٦١.

١٠- ابن دقماق، الانتصار، جه، ص ٣٦.

كما كان الدخول إليها وفق تصريح خاص (۱۱)، عن طريق الأبواب الثمانية التى فتحها جوهر فى السور، وهى: اثنان فى السور الشمالى هما باب الفتوح وفى شرقه باب النصر، وپاب بعقدين فى السور الجنوبى يطلق عليه باب رويلة، افتتح جوهر إلى الغرب منه بابا أخر أسماه باب الفرج. أما بابا الضلع الشرقى للسور فهما باب البرقية، الذى كشف عنه فى عام 100 م فى أثناء إزالة تلال البرقية، وهو يعرف أيضا بباب التوفيق (۱۲). أما الباب الثانى فى هذا الضلع فهو باب القراطين (۱۲)، الذى عرف فيما بعد بالباب المحروق. وقد عرف بهذا الاسم تتيجة لما فعله سبعمائة مملوك كانوا قد هربوا من القاهرة عندما علموا بمقتل الأمير أقطاى فى 11 شعبان سنة 100 أكتوبر 100 م، حيث تركوا منازلهم فى أثناء الليل، وتقدموا نحو هذا الباب فوجدوه مغلقا كما جرت العادة بذلك، فأوقدوا النار فى الباب حتى سقط من الحريق، وخرجوا منه. ومنذ ذلك الوقت عرف هذا الباب بالباب المدوق المنار المنار المار المنار ال

وفى الضلع الغربى كان هناك بابان كذلك، أولهما باب القنطرة الذى بناه جوهر بعد سنتين من بناء السور نفسه، وأقام أمامه قنطرة فوق الخليج ليمشى عليها إلى المقس ليدافع عن القاهرة ضد القرامطة الذين هاجموا مصر فى شوال سنة ٣٦٠هـ/ أغسطس ١٩٧٩م (١٠٠). أما الباب الثانى فهو باب سعادة، الذى عرف بهذا الاسم تيمنا باسم سعادة ابن حيان ، غلام الخليفة المعز لدين الله، الذى يقال إنه دخل بجيشه مدينة القاهرة من هذا الباب فى رجب سنة ٣٦٠هـ/ مايو ٩٧١م (١٠٠).

ويجمع الباحثون الذين تناولوا موضوع تأسيس مدينة القاهرة على صحة القصة المتواترة في المصادر بصدد اعتماد جوهر على المنجمين عند ابتداء بناء السور، إذ أصدر إليهم الأوامر باختيار طالع سعيد لتأسيس أسوار القاهرة وأبوابها وقصورها. وعندما حفرت الخنادق لبناء أساس الجدران، ثبتت فيها قوائم ربطت بحبال علقت عليها أجراس.

١١- عبد الرحمن فهمي، أسوار القاهرة وأبوابها، كتاب القاهرة، ص ٤٦٩.

١٢ -- عبد الرحمن فهمي، أسوار القاهرة، كتاب القاهرة، ص ٤٧١.

١٧- نسبة إلى باعة القرط حيث كان يوجد سوق للغنم أمامه انظر، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص

١٤- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٨٣ السلوك، جـ١، ص ٣٨٩- ٣٩١؛ على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٢، ص ٩٨.

٥١- المقريزي، الخطط ، جـ١، ص ٣٨٢.

١٦- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٨٣.

حتى إذا حانت الساعة المحددة، أرسل المنجمون الإشارة الخاصة بالبدء في العمل، وأمر العمال بأن يقفوا على تمام الأهبة لإلقاء مواد البناء في الخنادق المعدة لذلك، عندما تصدر إليهم الإشارة بذلك، وهي دق الأجراس. ولكن قبل أن تحين اللحظة المقررة، وقع غراب على الحبال المشدودة، فدقت الأجراس، فظن العمال أن المنجمين قد أعطوا إشارة البدء في العمل، فألقوا الأحجار ومواد البناء في الخنادق المحفورة. وفي هذه اللحظة كان كوكب المريخ في الطالع، وكان يطلق عليه قاهر الفلك، فسيميت المدينة «القاهرة»(١٧). ومع هذا هناك بعض الباحثين الذين يشكون في صحة هذه الرواية، استنادا إلى قصة مشابهة رواها المسعودي بصدد بناء الإسكندر لمدينة الإسكندرية(١٨). وهذا بدفع إلى الاعتقاد أن هذه الرواية خرافة من الخرافات التي أراد بها المؤرخون القدامي تفسير إطلاق اسم القاهرة على هذه المدينة، فقد عرفت في أول الأمر باسم المنصورية تيمنا باسم المنصورية، التي أنشأها المنصور بالله، ثالث الخلفاء الفاطميين، خارج مدينة القيروان بشمالي أفريقيا (١٩)، ولم تعرف بالقاهرة إلا بعد أربع سنوات، بعد أن حضر الخليفة المعز إلى مصر، ورأى من قراءاته الخاصة للطالع أن هذه التسمية فأل حسن، إذ رأى أن اسم القاهرة مشتق من القهر والظفر، فأطلق عليها اسم القاهرة. ومع هذا أشارت بعض المصادر إلى أن موقع القاهرة لم يرق في نظر الخليفة لأنها بغير ساحل، وأنه وجه اللوم إلى جوهر قائلا: «فاتك عمارة القاهرة على الساحل»- عند المقس- «فهلا كنت بنبتها على الجرف(٢٠)»، أي منطقة الرصد في جهة مصر القديمة، لأن هذه المنطقة كانت تشرف على النيل وبركة الحبش، وجمعت بين السهل والجبل، وبين الخضرة والماء.

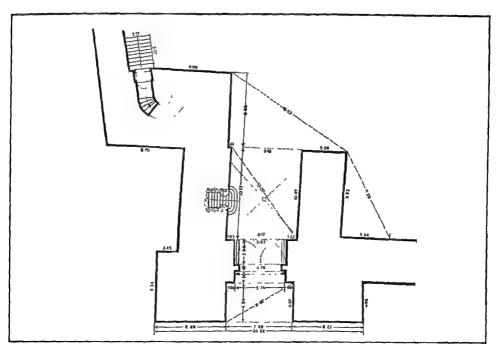
ويفهم من المصادر التاريخية أن سرق القاهرة الذي بناه جوهر لم يعمر أكثر من ثمانين سنة، إذ كان قد تهدم في عصر الخليفة المستنصر بالله(٢١)، فاستبدل به بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر سورا آخر بناه ثلاثة من الإخوة، أحضرهم من مدينة

١٧- المقريزي، السلوك، جـ١، ص ٣٧٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، طبعة بولاق، جـ١، ص ٤٤، ٥٥.

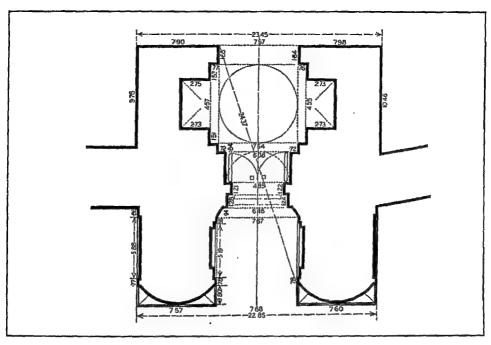
۱۹ - المقريزى، الخطط، جـ ۱، ص ۳۷۷؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ ۱، ص ۳۵؛ عبد الرحمن زكى، أسوار القاهرة وأبوابها من جوهر القائد إلى الناصر صلاح الدين، مجلة المجلة، العدد (۱۹)، ۱۹۲۱، ص ۳۲.

٢٠- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٧٧ ابن دقماق، الانتصار، جـ٥، ص ٣٦.

١٧- لاحظ ناصر خسرى عند زيارته لمصر فيما بين ٤٣٩ - ١٤٤هـ/ ١٠٤٧ - ١٠٤٩م أن مدينة القاهرة لم يكن لها سور محصن وكانت أبنيتها الداخلية أعلى من بقايا أسوارها. انظر سفر نامة، ص ١٨٩ عبد الرحمن فهمى، أسوار القاهرة، القاهرة، ص ٤٦٩.



شكل (١١) باب النصر، مسقط عن كريزويل

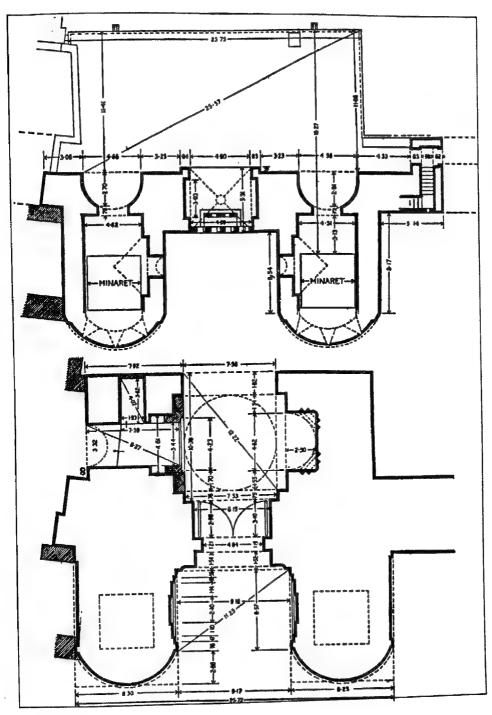


شكل (١٢) باب الفتوح، مسقط أفقى عن كريزويل

«الرها» في شمال العراق بأرض أرمينية (٢٢)، وذلك بعد أن وسع رقعة القاهرة بمقدار ١٥٠ مترا إلى شمال السور القديم (٢٢)، وحوالي ثلاثين مترا إلى الشرق، ومثلها إلى الجنوب (٢٤). وقد تم تشييد هذا السور فيما بين سنة ٤٨٠ – ٥٨٥هـ/ ١٠٨٧ – ٢٩٠٩م (٢٥)، سورا موازيا للأسوار والأبواب القديمة، من الحجر (٢٦) المنحوت، المصقول السطح، المثبت في مداميك منتظمة (٢٢)، ليكون أوفى بأغراض الدفاع عن القاهرة. وقد بقى من هذا السور الجديد ثلاثة أبواب مهمة، هى: باب النصر، وباب الفتوح شمالا، وباب زويلة جنوبا. وأقدمها جميعا باب النصر المعروف بباب العز، الذي شيد بين برجين مربعين، نقش على أحجارهما رسوم تمثل بعض آلات القتال من دروع وسيوف. ويعلو الباب فتحات أعدت لكي أحجارهما رسوم تمثل بعض آلات القتال من دروع وسيوف. ويعلو الباب فتحات أعدت لكي الدور الأرضى المصمت. وبالدور الأوسط حجرات تسقفها أقبية متقاطعة شيدت من أحجار منحوتة (٢٨). ويتوج باب النصر شريط به نقش كتابي بالحظ الكوفى، يسبط لنا تاريخ إنشاء هذا الباب والسور الشمالي في سنة ٨٤هـ/ ١٨٠٧م. ويعلو المدخل عقد مستقيم من صنج معشقة في شكل زخرفي، يعد الأول من نوعه في عمارة القاهرة الفاطمية (٢٩).

وقد أقيم باب الفتوح المعروف بباب الإقبال في السنة نفسها، ولكنه يختلف من حيث التخطيط عن باب النصر، إذ نجد أن برجيه مقوسا القاعدة، وقد حليت جوانبهما بعقدين مغلقين نحتت حجارتهما على هيئة وسائد حجرية صغيرة متلاصقة، تعد الأولى من نوعها، كما يتوج مدخله مجموعة من العقود، زينت بأشكال متنوعة من معينات وأزهار ونجوم ٢٧ المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٢٩ المعتودة عن معينات وأزهار ونجوم ١٩٥٤. المعتودية الخطط، جـ١، ص ١٩٥٤. وقد المعتودة المعتود

- ٢٣ أحمد فكرى، مساجد القاهرة ومدارسها، القاهرة ١٩٦٥، جـ١، ص ٢٤؛ فؤاد فرج، المدن المصرية
 وتطورها مع العصور، القاهرة ١٩٤٣ ١٩٤٦، جـ٣، ص ٤٢٩.
- ٢٤ عبد الرحمن فهمى، أسوار القاهرة وأبوابها، القاهرة، ص ٤٧٧؛ انظر أيضًا أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص ٢٤، الذي يذكر مساحة مائة وخمسين بالنسبة للاتساع جنوبا.
- ٢٥ المقريزي، الخطط، جـ ١، ص ٣٧٩، ٣٨٠؛ اتعاظ الحنفا، جـ ٢، ص ٣٢٧؛ ابن الصيرفى، الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٩٠، ص ٩٧؛ ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٥١.
 - ٢٦- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٧٩؛ على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٣، ص ٢٦١.
 - ٢٧ عبد الرحمن فهمي، أسوار القاهرة وأبوابها، القاهرة، ص ٤٧٢.
- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, pp. 166-176, الزيد من التفاصيل راجع –٢٨ Hautecaeur et Wiet, Les mosquées du Caire, I, pp. 234-237; D.B. Abouseif, Islamic Architecture, p.68.
 - ٢٩- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص ٢٦؛ عبد الرحمن فهمى، أسوار القاهرة، ص ٤٧٤.



شكل (١٣) باب زويلة، مسقط أفقى، عن كريزويل

ومحارات وفصوص تذكرنا بزخارف العمارة المغربية في تونس. كما أن ممر البوابة تعلوه قبة ضحلة، مشيدة من الحجر فوق مثلثات كروية، على حين سقفت أبراج الدور الأوسط بقبوات متعارضة (٣٠).

أما باب زويلة فقد تم تشييده مع السور الجنوبى للقاهرة في سنة ٥٨٥هـ/ ١٩٨م. وكان يتقدمه زلاقة كبيرة تغير بعض مظاهرها في زمن السلطان الكامل الأيوبي. ويفهم من المقريزي أن بدنتي هذا الباب كانتا أكثر علوا مما هما عليه الآن، إلا أن السلطان المؤيد شيخ هدم أعلاهما عند بناء مسجده في سنة ٨٨٨هـ/ ١٤٥٥م، وأقام عليهما مئذنتي مسجده. ويرجى باب زويلة مقوسى القاعدة، ويشبهان برجى باب الفتوح، ولكنهما أكثر استدارة. وممر الباب يعلوه أيضا قبة ضحلة، ترتكز على مثلثات كروية، وإن كانت أغلب زخارف واجهته قد اختفت تماما، في الوقت الذي بقيت فيه جدرانه خير شاهد على عظمة في البناء في زمن الدولة الفاطمية، وبذا صدق الشاعر محمد بن على النيلي حين قال:

یاصاح لو أبصرت باب زویلة لعلـمت قدر محله بنـیانا لو أن فرعـونا رآه لم یـرد صرحا ولا أوصی به هامانا (۲۱)

فى قلب هذه المدينة نمت أول بذور العمارة الفاطمية، حيث وضع جوهر أساس السور المحيط بالقاهرة، والقصر الكبير الذى أعده لنزول الخليفة المعز. وقد تلاشى هذا القصر عقب سقوط الدولة الفاطمية، ولم يبق لنا منه سوى الوصف الذى جاء فى بعض المصادر التاريخية، ويفهم منه أنه كان يشتمل على تسعة أبواب (٢٣)، وأنه كان يشغل مساحة تقرب من سبعين فدانا (٢٣) من جملة مساحة القاهرة البالغة ٣٤٠ فدانا (٣٤)، وأنه

Hautcoaeur et Wiet, Les mosquées I, pp. 237-238; K.A.C. Creswell, Muslim عنه انظر -٣٠ Architecture, pp. 176-181, D.B. Abouseif Islamic Architecture, p. 69; D. Brandenburg, Islamische Baukunst in Agypten, Berlin, 1966, pp. 246-247.

۳۱ – القريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٠ – ٣٨١؛ يراجع أيضا ماكتبه K.A.C. Creswell, Muslim

٣٢-القريزي، الخطط، جـ١، ص ٤٣٢؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٥، ص ٣٧.

٣٣ - ذكر أحمد فكرى أن هذا القصر كان يشغل مساحة تقرب من أربعين فدانا. انظر مساجد القاهرة، جـ١، ص ٢٧ على حين أشار عبد الرحمن زكى أنه كان يشغل مساحة ٣٣ فدانا، انظر موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام، القاهرة ١٩٦٩، ص ٢١٠.

٣٤- عبد الرحمن زكى، أسوار القاهرة وأبوابها، ص ٣٢؛ شحاته عيسى، القاهرة تاريخها ونشاتها، امتدادها وتطورها، القاهرة (د. ت)، ص ٥٥.

كان بتالف من خطط وأحياء تخترقها الطرقات والمسالك التي تفضى إلى أجزائه المختلفة فوق الأرض، أو في داخل السراديب المارة تحت الأرض، وكانت تضيئه الرحبات الكبيرة غير المسقوفة، أو الأفنية الداخلية الصغيرة. ويفهم من الوصف الذي جاء بالمصادر التاريخية أن بعض السراديب كان مظلما تماما، وحسبنا دليلا على ذلك الوصف الفريد الذي وصل إلينا عن هذا القصر عند زيارة رسولي الملك عموري (أماريك) للخليفة العاضد في سنة ٢٦٥هـ/ ١١٦٧م ليعقدا معه، باسم سيدهما، تحالفا قوامه أن يدفع الخليفة للصليبيين مائتي ألف دينار معجلة، ومثلها مؤجلة، نظير دفاعهم عن مصر وصد الأعداء عنها. وقد نقل لنا غليوم رئيس أساقفة صور وصف هذه الزيارة، وعبر عن حماسة الرسولين، وإعجابهما بعظمة ما رأياه، بقوله: «وسار السفراء الفرنج يقودهم الوزير شاور بنفسه إلى قصر له رونق وبهجة عظيمان، وفيه زخارف أنيقة نضيرة... ووجدوا في هذا القصر حراسا عديدين، وسار الحراس في طليعة الموكب، وسيوفهم مسلولة، وقادوا الفرنج في دهاليز طويلة ضبيقة، وأقبية حالكة الظلمة، ولا يستطيع إنسان أن يتبين فيها شبيئا... ولما خرجوا إلى النور اعترضتهم أبواب كثيرة متعاقبة، كان يسهر على كل منها عدد من الحراس المسلحين... ثم وصل الموكب إلى فناء مكشوف، تحيط به أروقة ذات عمد، وأرضيته مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان، وفيها تذهيب خارق للعادة بنضارته وبهائه، كما كانت ألواح السقف تزينها الزخارف الذهبية الجميلة... وكان في وسط الفناء نافورة يجرى الماء الصافى منها في أنابيب من الذهب والفضة إلى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام... وكانت ترفرف في الفناء أنواع لاحد لها من الطيور الجميلة. ولم يكن أحد يرى هذه الطيور دون أن تصيبه الحيرة والدهشة إعجابا بها... ومن هذا الفناء سار الموكب إلى أفنية عديدة أشد جمالا وإبداعا، ثم إلى بستان لطيف رأوا فيه أنواعا غريبة من الحيوانات ذات الأربع. وبعد أن عبروا أبوابا عديدة أخرى، وساروا في تعاريج كثيرة، وصلوا إلى القصر الكبير حيث يقطن الخليفة. وقد فاق هذا القصر كل ما رأوه قبل ذلك، وكانت أفنيته تفيض بالمحاربين المسلمين، متقلدين أسلحتهم، وعليهم الزرد والدروع، تلمع بالذهب والفضة. ثم أدخل المبعوثون في قاعة واسعة، تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والصرير المتعدد الألوان، وعليها رسوم الحيوان والطير وبعض المناظر الآدمية. وكانت تلمع بما عليها من الياقوت والزمرد والأحجار الكريمة... والخليفة جالس على عرش من الذهب المرصع بالجواهر والأحجار الثمينة»(٣٥).

۳۰- Lane- Poole, History of Egypt, pp. 180-181. وركي محمد حسن، كنوز الفاطميين، ص ٧٤ -- ١٩٦٨ باستون فيت، القاهرة مدينة الفن والتجارة، ترجمة مصطفى العبادى، بيروت ١٩٦٨، ص ٣٠ - ٥٤.

وكان بالقاهرة عدا هذا القصر قصر آخر إلى الغرب منه، عرف بالقصر الغربى، شيده الخليفة العزيز بالله، ووصفه المسبحى بأنه «لم يبن مثله فى شرق ولا فى غرب». وكان له أيضا عدة أبواب، أهمها باب السباط، وباب التبانين، وباب الزمرد، وكان يتصل بالقصر الكبير الشرقى بواسطة سرداب تحت الأرض كان ينزل منه الخليفة ممتطيا ظهر بغلته، تحيط به فتيات القصر. وقد تم بناء هذا القصر فى سنة ١٥٧هـ/ ١٠٥٥م فى زمن الخليفة المستنصر، الذى أقام فيه وغرم عليه ألفى ألف دينار وكان يشتمل على عدة أماكن، من جملتها قاعة كبيرة سكنتها ست الملك، أخت الخليفة الحاكم بأمر الله، وأقيم عليها فيما بعد بيمارستان المنصور قلاوون (٢٦).

وكان أمام القصر الكبير الشرقى، وفيما بينه وبين القصر الغربى، ميدان فسيح، كانت تقام فيه حفلات عرض الجيش، حيث يقف فيه عشرة آلاف بين فارس وراجل، واشتهر فيما بعد باسم بين القصرين، كما كان هناك ميدان آخر بجوار القصر الغربى، يجاور البستان الكافورى المطل على الخليج.

وإلى جانب هذه القصور التى عرفت فى المصادر التاريخية باسم القصور الزاهرة، احتوت القاهرة على مجموعة أخرى من المبانى، نذكر منها: دار الضيافة، ودار الضرب، ونعنى بها دار سك النقود، والمنظرة بالجامع الأزهر، والمنظرة بجوار الجامع الأقمر، ودار الحكمة، والتربة المعزية التى عرفت بتربة الزعفران، وغيرها من المنشأت التى حفلت بها هذه المدينة، والتى لم تستطع فى الواقع أن تقاوم عوادى الزمن، فاندثرت وتلاشت، ولم تعد سوى مجرد ذكرى تقيض بأخبارها المصادر والمراجع (٢٧).

الجامع الازهر

إلى الجنوب الشرقى داخل مدينة القاهرة، وعلى مقربة من القصر الشرقى الكبير، فيما بين حى الديلم فى الشمال، وحى الترك فى الجنوب، أقام جوهر الصقلى الأزهر، رابع المساجد الجامعة فى مصر، ليكون المسجد الرسمى لمدينة القاهرة. وقد بدأ فى بنائه فى يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة ٥٦٩هـ/ ٤ أبريل ٥٩٠٠م. وانتهى العمل منه، وأقيمت أول جمعة فيه فى السابع من رمضان سنة ٢٦١هـ/ ٢٢ يونيو ٢٧٢م، وكتب بدائر القبة على يمين المحراب ما نصه:

٣٦- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٤٥٧ - ٨٥٨؛ عبد الرحمن زكي، موسوعة القاهرة، ص ٢٠٧.

٣٧- أحمد عبد الرازق، عمارة الأزهر الشريف وما حوله من الآثار، كتاب الأزهر الشريف في عيده الألفى،
 القاهرة ١٩٨٣، ص ١٣٣.

«بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد، الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى وذلك في سنة ستين وتلثمائة» (٢٦). ولكن هذه الكتابة لم تعمر طويلا، واندثرت مع القبة بسبب التغيرات التي طرأت على عمارة الجامع على مر العصور المختلفة. والجدير بالذكر هنا أن الجامع الأزهر، وقت إنشائه، كان يشغل مساحة مستطيلة، تبلغ مقاييسها الخارجية ٨٥ مترا طولا و ٧٠ مترا عرضا (٢٩)، ويتألف من صحن أوسط مكشوف مستطيل الشكل، طوله ٩٥ مترا، وعرضه ٣٤ مترا (٤٠٠)، يحيط به ثلاثة أروقة: الشرقى منها يتألف من خمس بلاطات موازية لجدار القبلة، عرض كل منها حوالى أربعة أمتار وربع. وكان يعلو بلاطة المحراب ثلاث قباب: واحدة أمام المحراب، وواحدة في الطرف الشمالي الشرقى، وثالثة في الطرف الجنوبي الشرقي. وهذا ما يستشف من وقفية الخليفة الحاكم بأمر الله، التي وقفها على هذا الجامع، والتي جاء فيها أنه أوقف أربعة وعشرين دينارا «لمؤنة النحاس والسلاسل والتنانير والقباب التي فوق سطح الجامع الأزهر (١٤)».

ويقطع امتداد هذه البلاطات الخمس مجاز أو بلاطة تتجه عموديا على المحراب، ارتفعت عقودها على عمد مزدوجة، كما ارتفع سقفها عن مستوى بقية رواق القبلة. وقد زينت حافات عقودها بأشرطة كتابية بالخط الكوفى، تحتوى على آيات قرآنية، كما زينت واجهات عقودها بزخارف نباتية مورقة (٢٤١). ويلاحظ أن ظاهرة استخدام المجاز القاطع تظهر في الجامع الأزهر لأول مرة، ولعلها من بين التأثيرات المغربية التي وفدت على مصر مع الدولة الفاطمية (٢٤١). وكان هذا الرواق الشرقي يطل على الصحن بواسطة بائكة تتألف من ثلاثة عشر عقدا، عرض كل منها فيما بين الاعامات أربعة أمتار تقريبا، فيما عدا بلاطة المجاز العمودية، التي تبدو أكثر اتساعا، إذ يبلغ عرضها حوالي سبعة أمتار تقريبا.

أما بالنسبة للرواقين الشمالي والجنوبي، فهما أقل حجما من رواق القبلة، ويحتوى

٣٨- المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٢٧٢.

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.43. - ٣٩

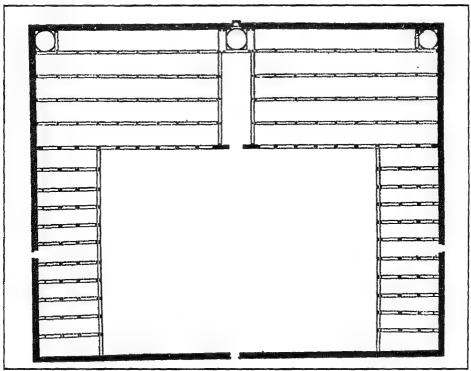
[.] ٤ - أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ ١، ص ٤٩.

١٤- المقريزي، الخطط، جـ٧، ص ٢٧٤.

٤٢ - حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، ج١، ص ٤٩.

Hautecoeur et Wiet, Les mosquées du Caire, I, pp. 219-220, K.A.C. Creswell, Mus--ET lim Architecture, pp.60,62.

كل منهما على إحدى عشرة بلاطة موازية للمحراب، بكل منها ثلاثة عقود $(^{(5)})$. أما الحد الغربى فكان يخلو من الأروقة $(^{(5)})$ ، وكان يتوسطه المدخل الرئيسى للجامع، الذى رجح بعض المؤرخين أنه كان بارزا على مثال جامع الحاكم بأمر الله، وأنه كانت تعلوه منارة المسجد $(^{(5)})$ ، التى قبل إنها كانت رشيقة قصيرة. وكان يزين أعلى الجدران شبابيك من الجص، فرغت بأشكال هندسية، تتخللها مضاهيات مزخرفة، يتوجها أشرطة كتابية، نقش بها آيات قرآنية بالخط الكوفى $(^{(5)})$ ، الذى شاع فى إبان العصر الفاطمى. وما تزال آثار منها تزين جدران رواق القبلة الشرقية والشمالية والغربية $(^{(15)})$.



شكل (١٤) الجامع الأزهر في العصر الفاطمي، مسقط أفقى، عن برندنيرج

٤٤ - أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص ٤٨.

ه ٤٠ عبد الرحمن فهمى، الجامع الأزهر، القاهرة، ص ٤٥٤؛ أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص ٤٩؛ D.B. Abouseif, Islamic Architecture p.59.

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.59. - ε٦

٤٧ - حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٤٩.

المد فكري، مساجد القاهرة، جـ١، ص ٥٣. D.B. Abouserf, Islamic Architecture, P.59. ومد فكري، مساجد القاهرة، جـ١، ص

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, pp. 53-58. عنها بالتفصيل انظر

بقى أن نشير إلى أن الجامع كان مزودا وقت تشييده بثلاثة مداخل فى جدارنه الشمالية والجنوبية والغربية (٥٠)، أما عن سبب تسميته بالأزهر فلعله مستمد من لفظ الزهراء، لقب السيدة فاطمة بنت الرسول علله على نحوما رجح بعض الباحثين (١٠)، ويخاصة أنه سميت باسمها مقصورة أقيمت فى هذا الجامع (٢٠). وربما كانت هذه التسمية نسبة إلى القصور الزاهرة، التى بنيت حينما أنشئت القاهرة، فى حين يرى بعض آخر أنه سمى كذلك تفاؤلا بما سيكون له من الشأن والمكانة فى ازدهار العلوم، وبخاصة أن هذه التسمية تشبه بعض الأسماء التى أطلقت على بعض منشآت هذا العصر، مثل مدينة الزهراء فى الأندلس، التى شيدت سنة ٢٥٠هـ/ ٢٩٧م، بل ربما كانت هذه التسمية من باب المنافسة لها (١٥).

خلاصة القول أن الهدف من إنشاء الأزهر كان واضحا منذ البداية؛ فقد رأى الفاطميون في إقامته مجاراة للتقاليد الإسلامية التي شرعها المسلمون عند تأسيس المدن، من ضرورة إقامة جامع لأداء فريضة الصلاة، ومناقشة شئونهم السياسية والاجتماعية، ومن ناحية أخرى فإن جوهر الصقلي رأى من حسن السياسة وبعد النظر، إقامة جامع خاص بالفاطميين الشيعة، ليكون موطن تعاليمهم (أأه)، حتى لا يفاجأ المسلمون من أهل السنة في جامعي عمرو بن العاص بالفسطاط، وأحمد بن طولون بالقطائع، بخطب الشيعة الدينية، التي تنص على مذاهبهم، ودعوتهم لعلي، أفضل الوصيين، ووزير خير المرسلين.

لذلك كان طبعيا أن يحظى هذا الجامع بعناية الفواطم؛ فلم تكد تمضى مدة على إنشائه حتى عنى بإصلاحه الخليفة العزيز بالله. وقد استجاب الخليفة لطلب وزيره يعقوب ابن كلس بأن يصل رزق جماعة من الفقهاء، فقرر لهم مرتبات، وأعد دارا لسكناهم بجوار الجامع الأزهر، فإذا كان يوم الجمعة حضروا، حسب رواية المقريزي، إلى الجامع، وعقدوا حلقات دروسهم بعد الصلاة إلى صلاة العصر(٥٠).

٥٠ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٤٩.

Prisse D'Avennes, L'Art arabe, Texte, p. 95; Margoliouth, Cairo, Jerusalem and Da--o\
mascus, p. 42; K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.36.

٥٢- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٥.

٥٣ عبد الرحمن فهمى، الجامع الأزهر، القاهرة، ص ٤٥٣.

٥٤- الموسوعة، تاريخ وأثار مصر الإسلامية، القاهرة (بدون تاريخ)، ص ٧٢٩.

ه ٥- مفضل بن أبى الفضائل، النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تحقيق بلوشية، Patrologia و٥- مفضل بن أبى الفضائل، النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تحقيق بلوشية، orientalis, Paris 1919, IV, p.500

وكذلك عنى بأمره الخليفة الحاكم بأمر الله، الذى جدد مئذنته فى سنة ١٠٠٠م، وأوقف عليه، وعلى جامع المقس، والجامع الحاكمي، ودار العلم، أعيانا دونها فى وقفية كبيرة، نقلها إلينا المقريزى فى خططه، عن المؤرخ ابن عبد الظاهر، يفهم منها أنه خص الجامع الأزهر بحصة كبيرة، وزعت على جميع مرافقه وشئونه (٢٥).

وقد بقى من هذا العهد باب من الخشب التركى، محفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة، يتألف من مصراعين، فى كل مصراع سبع حشوات مستطيلة، العليا منها تتضمن كتابات كوفية مورقة، نقشت بالحفر البارز، نصها: «مولانا أمير المؤمنين، الإمام الحاكم بأمر الله، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه». أما بقية الحشوات فيعلوها زخارف نباتية محفورة حفرا عميقا. ويلاحظ على هذا الباب أن الحشوات المكتوبة عليه قد قلبت، ريما عند إصلاحها وإعادة تركيبها(٥٠).

كذلك جدد الخليفة المستنصر بالله المسجد في أثناء خلافته الطويلة، التي امتدت من سنة ٤٢٧ - ٤٨٧هـ/ ١٠٣٦ - ١٠٩٤م، في وقت لم تحدده لنا المصادر التاريخية (٨٥).

وقد بقى من عصر الخليفة الآمر بأحكام الله محراب من الخشب المنقوش؛ وهو محفوظ كذلك فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة، يعلوه لوح نقشت عليه كتابات تذكارية بالخط الكوفى المورق، يفهم منها أنه عمل برسم الجامع الأزهر فى زمن الخليفة الآمر فى شهور سنة ١٩٥هـ/ ١٩٢٥م.

والجدير بالذكر والملاحظة هنا أن أغلب عمارة المسجد قد ظلت حتى هذا التاريخ محتفظة بحال إنشائها، لم يطرأ عليها أية تغييرات بالحذف أو الإضافة؛ وأن كل الأعمال التى أجريت بالجامع، طيلة المائتى السنة الأولى من حياته، اقتصرت على دعم مبانيه وترميمها، وتجديد زخارفها. ولذا فإن الخليفة الحافظ لدين الله يعد أول من أجرى فيه أعمالا مهمة، أضافت إليه عناصر جديدة في التخطيط والعمارة والزخرفة، في المدة بين سنة ٢٤٥ – ١٢٢٤هـ/ ١٢٩ – ١١٢٩م، إذ أضاف إلى الصحن رواقا يدور حوله من جهاته

٥٠ - المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٣ - ٢٧٥؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٥٠.

۷ه- زکي محمد حسن، کنوز الفاطميين، ص ۲۰۱ - ۲۰۲، لوحة رقم ۲ه؛ K.A.C. Creswell, Muslim محمد حسن، کنوز الفاطميين، ص ۲۰۱ - ۲۰۲، لوحة رقم ۲ه؛ Architecture, p.47, pl. 118c.

٥٠ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٥؛ حسن عبد الهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٥٠.

J.D. Weil, Les bois à épigraphes jusqu' à l'époque mamlouke, Le Caire, 1931, p.5, -09
Pl. 12, K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.37, pl118 c.

زكى محمد حسن، كنوز الفاطميين، ص ٢١٩.

الأربع، وجعل في منتصف الرواق الملاصق لرواق القبلة مدخلا إلى المجاز، تعلوه قبة، حفلت جوانبها وقطبها بالزخارف والكتابات الكوفية، التي تحتوى على آيات قرانية؛ وهي من أجمل نماذج الكتابات الكوفية التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي (١٠) وتعد القبه كذلك من أقدم النماذج التي وصلت إلينا من القباب المنقوشة من الداخل (١١). هذا وقد جعل الحافظ هذا الرواق يطل على الصحن بعقود قائمة على أعمدة، بدلا من الدعامات المحيطة بالصحن من عهد جوهر.

ولا يزال الجامع الأزهر يحتفظ حتى الآن بأجزاء مهمة من عناصره المعمارية الأصلية، بالرغم من أعمال التجديد والإضافة التى أجريت فيه على مر العصور المختلفة، فقد بقى مثلا كثير من العقود والدعامات الفاطمية التى أمكن الاستدلال عليها من شكلها ونظام زخارفها، فضلا عن الأوتار والروابط الخشبية بين العقود. وإذا حاولنا أن نلخص البقايا الفاطمية في الجامع الأزهر كانت على الوجه التالى:

ا- عقود المجاز الأربعة الأولى من الجانبين، وما اشتملت عليه من زخارف وكتابات كوفية، وهي ترجع إلى عهد جوهر.

٢- الزخارف الكتابية حول الشبابيك الجصية الباقية في الجانبين الشرقي والغربي،
 وفي أول الجانب الجنوبي من رواق القبلة، وكلها من عصر جوهر.

٣- المحراب الكبير الأصلى بكتاباته ونقوشه التي اكتشفها المرحوم حسن عبد الوهاب في سنة ١٩٣٣م.

٤- زخارف وكتابات مؤخر الجامع من داخل رواق القبلة، وهي ترجع فيما يبدو إلى
 عصر الخليفة الحاكم بأمر الله، بسبب تشابها مع زخارف جامع الحاكم.

٥- القبة التي تقع على رأس المجاز من جهة الصحن، وهي من عصر الإصلاحات أو الإضافات التي تمت بالجامع في عصر الخليفة الحافظ لدين الله(٢٣).

وبسقوط الدولة الفاطمية في سنة ٦٧هـ/ ١٧٧١م، أقل نجم الجامع الأزهر، ومرت عليه حقبة انطوت فيها ذكراه، ذلك أن السلطان صلاح الدين الأيوبي أمر بأن تبطل فيه

D.B. Abouseif, Islamic Architecture, p.59. -٦٠ ؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١؛ ص

٦١- يسبقها قبة مشهد الجيوشي بالمقطم الذي يرجع إلى سنة ٢٧٨هـ/ ١٠٨٥م.

٢٢- حسن عبد الهاب، تاريخ المساجد الأثرية، جـ١، ص ٥١ - ٥١؛ عبد الرحمن فهمى، الجامع الأزهر،
 القاهرة، ص ٥٥٥.

صلاة الجمعة، اكتفاء بإقامتها في الجامع الحاكمي، عملا بمذهب الشافعي، وهو امتناع إقامة خطبتين للجمعة في بلد واحد (٦٢)، كما نقل من محرابه المنطقة الفضية، وكان وزنها خمسة آلاف درهم (^{۱۱)}. واستمر الأزهر في ظل النسيان حتى عصر السلطان الظاهر بيبرس، الذي أذن للأمير أيدمر الحلى في سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م بإعمار الجامع، فشرع في استعادة الأراضي التي اغتصبت من ساحة الأزهر كما جمع له كثيراً من التبرعات والأموال. وكذلك أطلق له السلطان الظاهر بيبرس مبلغا كبيرا من المال. ثم شرع الأمير عز الدين بإعمار الواهي من أركانه وجدرانه، وأصلح سقوفه وبلاطه، وعمل له منبرا، ثم فرشه وكساه، حتى عاد للجامع بعض رونقه، ودبت فيه الحياة من جديد، بعد أن احتفل بإقامة صلاة الجمعة فيه يوم ١٨ ربيع الأول ١٦٥هـ/ نوفمبر ١٢٢٦م(١٥٠). وقد بقى من هذه العمارة الكسوة الخشبية، التي كانت تغطى طاقية المحراب الفاطمي، والشرافات المسننة التي تحيط بصحن الجامع، وبقي من منبره اللوحة التذكارية، التي توجد حاليا في متحف الجزائر، وتتضمن كتابة تذكارية بخط النسخ الملوكي نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم، مما أمر يعمل هذا المنيس الميارك لجامع الأزهر مولانا السلطان الملك الظاهر المجاهد المرابط المؤيد المنصور ركن الدنيا والدين أبو الفتح بيبرس الصالحى قسيم أمير المؤمنين بالديار المصرية أعز الله أنصاره بتاريخ الثالث عشر من ربيع الأول سنة خمس وستين وستمائة من الهجرة النبوبة»^(٦٦).

ومنذ ذلك التاريخ أخذ الجامع «يتزايد أمره حتى صار أرفع الجوامع بالقاهرة قدرا»، فقد استحدث فيه الأمير «بيلبك الخازندار» مقصورة كبيرة، عين فيها بعض الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الإمام الشافعي، ومحدثا للحديث النبوي(١٧). وبذا بدأ الأزهر مشارك بقية مدارس مصر والقاهرة في أداء رسالته العلمية.

ونظرا لما أصباب الجامع من تصدع من جراء زلزال سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٣م، أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون، نائب السلطنة الأمير سلار بعمارته، وتجديد مبانيه،

٦٢- المقريزي، الخطط، ج١، ص ٢٧٥ - ٢٧٦.

³ ٢- المقريزي، السلوك، جـ ١، ص ٥٤٠ مفضل ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ص ١٠٤؛ السيوطي، حسن المحاضرة، طبعة بولاق، جـ ٢، ص ١٨٣.

٥٥- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٥، السلوك، جـ١، ص ٢٥٥٠

٧٧- المقريزي، الخطط، جـ٧، ص ٢٧٥.

وما تهدم منها (١٨٠). ثم توالت عليه الإضافات والإصلاحات طوال زمن المماليك، إذ أنشأ الأمير علاء الدين طيبرس، نقيب الجيوش في زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، مدرسة على يمين الداخل إلى الجامع، وجعلها مسجدا، وقرر بها دروسا الفقهاء الشافعية، كما ألحق بها ميضاة وحوضا لسقى الدواب، وتأنق في رخامها وتذهيب سقوفها، حتى جات في أبدع زي، وأبهج ترتيب. وانتهى من عمارتها في سنة ٩٠٧هـ/ ٩٠٣٠م (٢٠١). وقد بقى منها محرابها الذي يتألف الجزء الأسفل منه من طاقات مقرنصة، محمولة على عمد رخامية صغيرة، مزودة بتيجان من الرخام؛ على حين زينت تواشيح عقودها بزخارف نباتية، استخدمت فيها قطع صغيرة من الرخام الملون. أما باقى المحراب فهو من الرخام الأبيض الملبس بألوان أخرى في أشكال زخرفية بديعة، وحليت تواشيحه وأعلاه بفسيفساء مذهبة. وبقى أيضا من عمارة هذه المدرسة الشبابيك النحاسية المفرغة في أشكال هندسية، التي تعد في الواقع ثاني مثل من الشبابيك النحاسية، بعد شبابيك قبة الصالح نجم الدين أيوب بشارع المعز لدين الله (١٠٠٠).

ويؤثر عن الأمير طيبرس أنه عند الفراغ من بناء هذه المدرسة، أحضر المشرفين على عمارتها حساب مصروفها؛ فلما قدم إليه، طلب طستا به ماء، وغسل أوراق الحساب كلها من غير أن يقف على شئ منها، وقال: «شئ ضرجنا منه لله تعالى لا نحاسب عليه»(٢١).

وفى سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م أصلح الجامع القاضى نجم الدين محمد بن حسين الأسعردى، محتسب القاهرة (٢٢٠)؛ وكان من أثر عمارته الزخارف الجصية ذات التأثيرات الأندلسية الجميلة، التي تعلى عقد المحراب الفاطمي (٢٢٠).

K.A.C. Creswell, Muslim Archi- : ۱۹٤٢ من ۲۷۲؛ السلوك، جـ ۱۱ من ۲۷۲؛ السلوك، جـ ۱۸ من ۲۷۲، السلوك، ۱۹ من ۲۷۲، السلوك، جـ ۱۸ من ۲۷۲، السلوك، جـ ۱۸ من ۲۷۲، السلوك، ۱۸ من ۲۷۲، السلوك، جـ ۱۸ من ۲۷۲، السلوك، جـ ۱۸ من ۲۷۲، السلوك، ۱۸ من ۲۷۲، السلوك، ۱۸ من ۲۷۲، السلوك، ۱۸ من ۲۷۲، السلوك، ۱۹ من ۲۷۲، السلوك، ۱۹ من ۲۷۲، السلوك، ۱۸ من ۲۷۰، السلوك، ۱۸ من ۲۰۰۰، ۱۸ من ۲۰ من ۲

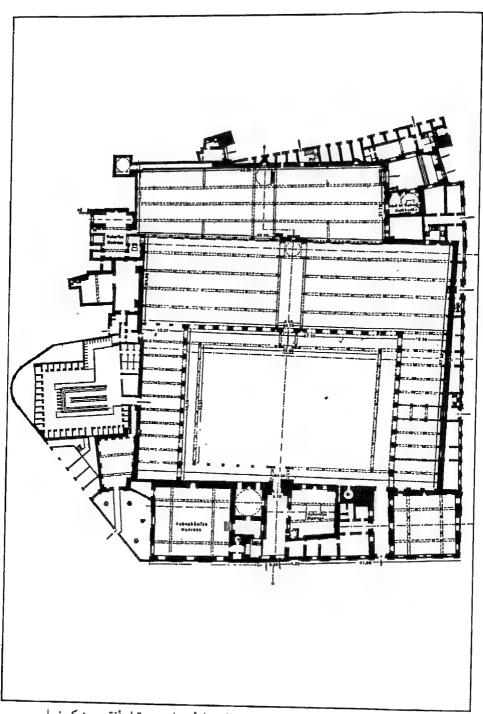
٦٩- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٣٨٣؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٥٤.

حسين مصطفى حسين، المحاريب الرخامية في قاهرة المماليك البحرية، رسالة ماجستير، كلية الآثار – جامعة القاهرة، ١٩٨١ ، ص ١٦٢ – ١٦٧.

٧١- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٣٨٣؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص ٢٠١.

Ahmad Abd ar- Raziq, La وعن شغله لوظيفة الحسبة انظر ٢٧٦ من ٢٧٦ من ٢٧٦ من ٢٧٦ القريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٦ وعن شغله لوظيفة الحسبة انظر hisba et le muhtasib en Egypte au temps des mamluks, Annales Islamologiques, XIII,

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, pp.38,55. -VT



شكل (١٥) الجامع الأزهر بعد الإضافات التي طرأت عليه، مسقط أفقى، عن كريزويل

كذلك أضيف إلى الجامع مدرسة أخرى في سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٢م على يسار الداخل إلى الجامع، هي المدرسة الأقبغاوية(٧٤)، التي أنشاها الأمير علاء الدين أقبغا من عبد الواحد، استادار السلطان الناصر محمد بن قلاوون، مكان دار الأمير أيدمر الحلي، وعهد ببنائها إلى ابن السيوفي، كبير مهندسي عصر الناصر محمد. ويصف المقريزي هذه المدرسة بأنها: «مظلمة ليس عليها من بهجة المساجد، ولا أنس بيوت العبادة، شيئ ألبتة». ويفسر لذا المقريزي ذلك «بأن أقبغا أقرض ورثة أيدمر الحلى مالا، وأمهل حتى تصرفوا فيه، ثم أعسفهم في الطلب، وألجأهم إلى أن أعطوه دارهم، فهدمها وبني موضعها هذه المدرسة... بأنواع الغصب، وأخذ قطعة من سور الجامع حتى ساوى بها المدرسة الطيبرسية، وحشر لها الصناع من البنائين والنجارين والحجارين والمرخمين والفعلة... وحمل إليها سائر ما تحتاج إليه من خشب وحجر ورخام ودهان، من غير أن يدفع ثمنا ألبتة، وإنما كان يأخذ ذلك إما بطريق الغصب من الناس، أو على سبيل الخيانة من عمائر السلطان، فإنه كان من جملة ما بيده شد العمائر السلطانية»(٥٧). وأتم أقبغا بناء هذه المدرسة في سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م(٧٦)، وجعل بجوارها قبة ومنارة من حجارة منحوتة، بقى منها الآن مدخلها، وواجهة القبة ومحرابها، وكذا محراب المدرسة (٧٧)، والمنارة التي أكملت قمتها مصلحة الآثار في سنة ١٩٤٥م. وتشير بقايا هذه المدرسة إلى أنها كانت حافلة بشتى النقوش والزخارف البديعة الدقيقة الصنع، فقد حفلت محاريبها بالرخام الملون الدقيق الصنع، والفسيفساء المذهبة المتعددة الألوان(٧٨).

وجددت أيضا عمارة الجامع الأزهر سنة ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م على يد الطواشى سعد الدين بشير، الجمدار الناصرى، الذى أزال المقاصير الكثيرة التى استجدت بالجامع، كما أخرج الخزائن والصناديق التى ضاق المكان بها، وتتبع جدران المسجد وسقوفه بالإصلاح، حتى عاد إليها رونقها، وبدت كأنها جديدة، كما طلى الجامع بالدهان، وبلطه، ومنع الناس من المرور فيه، ورتب فيه مصحفا، وجعل له قارئا، وأنشئ على باب الجامع القبلى سبيلا

M.Van Berchem, Corpus, Egypte, I, pp. 183-189. -V£

٥٧- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٣٨٣- ٢٨٤.

M.Van Berchem, Corpus, Egypte, I, p. 187; K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, -V\

٧٧- حسين مصطفى حسين، المحاريب الرخامية، ص ٢٠٣ - ٢٠٩.

٧٨- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٥٨.

وكتابا لا أثر لهما اليوم، كما رتب لفقراء المجاورين طعاما يطبخ كل يوم، وقرر فيه درسا لفقهاء الحنفية، ووقف على ذلك أوقافا جليلة (٧٩).

كذلك أبدى سلاطين الماليك الجراكسة عناية كبيرة بالجامع الأزهر، تجلت بشائرها في ذلك المرسوم الذي استصدره الطواشي بهادر، مقدم المماليك من السلطان الظاهر برقوق في سنة ٧٩٧هـ/ ١٣٩٠م، في أثناء نظارته للجامع، وينص هذا المرسوم على أن من مات من مجاوري الأزهر من غير وارث شرعي، وترك ثروة، فإنها تئول إلى مجاوري الجامع، ونقش ذلك على حجر كان مثبتا، حسب رواية المقريزي، عند الباب الكبير (٨٠٠)، ومازلنا نراه منقوشا إلى اليوم أمام المكتبة.

ونفهم من المصادر المملوكية أن مئذنة الجامع هدمت في سنة ١٨٠٠مم / ١٣٩٧م، وأنها كانت قصيرة رشيقة، فشيد مكانها أخرى أطول منها، ولكنها هدمت بدورها في شوال سنة ١٨٨هم ديسمبر ١٤١٤م، لظهور خلل بها، فأعيد بناؤها من الحجر فوق الباب الغربي للجامع؛ وقد استلزم هذا هدم الباب وإعادة بنائه بالحجر، حيث ركبت المنارة فوق عقده في سنة ١٨٨هم / ١٤١٥م، ولكنها ما لبثت أن تهدمت كذلك، فأعيد بناؤها في سنة ١٨٨هم / ١٤٢٤م. وفي شهر شوال من السنة المذكورة شرع السلطان الأشرف برسباي في عمل صهريج بالصحن، تم تشييده في صفر سنة ١٨٨هم ديسمبر ١٤٢٤م، حيث عثر في أثناء حفر الأساس على آثار فسقية قديمة، وعمل بأعلى الصهريج قبة على رقبة مرتفعة، وكان الماء يسيل من تلك القبة أشبه ما يكون بالنافورات التي نراها حديثا، كما غرس بصحن الجامع أربع شجرات، ولكنها لم تفلح وماتت (١٨٠٠).

كذلك أضيفت إلى الجامع الأزهر في إبان عصر المماليك الجراكسة مدرسة ثالثة في الطرف الشمالي الشرقي عند باب السر، هي المدرسة الجوهرية، وقد أنشأها الأمير جوهر القنقبائي، خازندار السلطان الأشرف برسباي، ودفن بها عند وفاته في شعبان سنة 33/ه/ ديمسبر 33/م(٨٢). وهي مدرسة صغيرة، تتألف من أربعة إيوانات، يتوسطها صحن، أرضيته من الرخام الملون، وكذا أرضية الإيوانات. وتمتاز بتماثل أجزائها بعامة، وبأن نوافذها العليا مغطاة بجص مفرغ مملوء بزجاج ملون. وقد ألحق بها في الطرف

٧٩- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٢.

٨٠ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٦؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٥٨.

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.38 ٬۲۷٦ من ۲۷۸ القریزی، الخطط، جـ۲، ص

M.Van Beichem, Corpus, Jérusalem, I, p.330 – ۸۲ السفاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة ١٩٣٤ – ١٩٣٦ ، ص ٨٣.

الجنوبى الغربى غرفة صغيرة مربعة الشكل، يعلوها قبة حجرية تعد أصغر قباب مصر الإسلامية بعد قبة المدرسة القاصدية. وقد حلى سطح هذه القبة الخارجى بزخارف نباتية مورقة (٨٣)،

على أن أهم الإصلاحات التى تمت بالجامع الأزهر، هو ما قام به السلطان الأشرف قايتباى فى سنة ٩٨هه/ ٢٦٩م؛ فقد هدم الباب الغربى للجامع، وهو الباب القديم الذى أقيمت فوقه المنارة، وأقيام مكانه بابا آخر هو القائم حاليا، وشيد على يمينه منارة رشيقة (١٨٥)، حفلت بنقوش وكتابات بالخط الكوفى والنسخ. وتتألف هذه المنارة من ثلاثة طوابق، وتمتاز بدقة الصناعة وجمال التناسب. ويعد الباب من طرف العمارة الإسلامية فى مصر، فقد زين بنقوش وكتابات كوفية تحتوى على آيات قرآنية (١٨٥)، كما كتب على جانبيه اسم السلطان قايتباى وتاريخ الفراغ من عمارته (١٨١). ويبدو أن اهتام السلطان قايتباى بالأزهر كان متصلا، فقد ذكر المؤرخون أنه زار الجامع فى سنة ١٨٨هه/ ١٧٧٧م، وأمر بتجديد الأجزاء والحوائط المتداعية فيه، وترميمه وإصلاحه، كما أمر بهدم الخلاوى، التى كتابى (١٨٨م).

وفى سنة ٩٠٠هـ/ ١٩٥٥م أذن قايتباى للخواجا مصطفى بن محمود بن رستم الرومى بإجراء بعض إصلاحات فى الجامع، بقى منها مقصورة خشبية تحيط بالأروقة الشمالية والجنوبية والشرقية من جهة الصحن، مدون عليها بالخط النسخ المملوكي العبارة التالية: «أمر بتجديد هذا الجامع سيدنا ومولانا السلطان الملك الأشرف قايتباى، على يد الخواجا مصطفى بن الخواجا محمود بن الخواجا رستم، غفر الله لهم، بتاريخ شهر رجب عام إحدى وتسعمائة»، وقد بلغ مجموع ما أنفقه الخواجا مصطفى على هذه العمارة نحو خمسة عشر ألف دينار، دفعها من ماله الخاص (٨٩).

وحظى المسجد كذلك بعناية السلطان قانصوه الغورى، الذي قام في سنة ٩١٥هـ/

٨٣- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، جـ١، ص ٥٨.

٨٤ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٦، ص ٢٠٩؛ ٢٤ A7-48 و M.Van Berchem, Corpus, Egypte, I, pp. 47-48

٥٥ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٥٥.

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.39. - A7

M. Van Berchem, Corpus, Egypte, I, pp. 45-46 - AA

٨٩- ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٨٥؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٥٥.

١٥١٠م ببناء منارة ضخمة (٩٠)، ذات رأس مزدوج، ما تزال باقية إلى يومنا هذا إلى جوار منارة السلطان قايتباى. وهي تمتاز بتلبيس القاشاني ببدن طابقها الثاني، كما تحتوى على سلمين فيما بين طابقيها الأول والثاني، لا يرى الصناعد في أحدهما الآخر، كما هو الحال في منارتي «قوصون» و «أزبك اليوسفي»(٩١)،

وينسب كريزويل إلى السلطان الغورى أيضا تجديد القبة التى تعلى المحراب الفاطمى، نظرا للتشابه الشديد بين مقرنصات هذه القبة ومقرنصات قبة الإمام الليث، التى ترجع إلى شهر رجب سنة ٩١١هـ/ نوفمبر ١٥٠٥م(٩٢٠).

وتمتع الجامع الأزهر بنصيب كبير من اهتمام ولاة مصر وأعيانها في العصر العثماني؛ فقد أجروا به كثيرا من أعمال الترميم والتجديد، كما وقفوا عليه أوقافا كثيرة، أهمها ما قام به والى مصر السيد محمد باشا في سنة ١٠٠٤هـ/ ١٩٥٥م إذ قام بتجديد ما تخرب منه (٩٢)؛ كما أجرى به الوزير حسن باشا، والى مصر، بعض الإصلاحات، وعمر رواق الحنفية في سنة ١٠١٤هـ/ ١٠٠٥م، وفرش أرضيته بالبلاط (٩٤). وأصلح سقفه الأمير «إسماعيل بك إيواظ»، الذي تولى الإمارة والسنجقية في سنة ١١٣٤هـ/ ١٧٢١م (١٠٥).

وروى الجبرتي كذلك في تاريخه أن الأمير عثمان كتخدا أنشأ سنة ١١٤٨هـ/ ٥٣٧٨م زاوية للعميان خارج الأزهر أمام المدرسة الجوهرية؛ وأن هذه الزاوية كانت تشتمل على أربعة أعمدة من الرخام؛ ولها محراب وميضاة ومغطس؛ وبها ثلاث حجرات. واشترط هذا الأمير ألا يلى مشيختها إلا كفيف. على أن هذه الزاوية قد اندثرت. وكذلك أنشأ رواق الأتراك، ورواق السليمانية، ورتب لذلك مرتبات من وقفه الخاص (٢٦).

وفى سنة ١١٦٣هـ/ ١٧٤٩م أهدى الوزير أحمد باشا كور، والى مصر، إلى الجامع مزولتين، مازالت إحداهما مثبتة فى أعلى الواجهة الفربية المطلة على الصحن، ومدوناً عليها:

٠٩- ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٢.

٩١- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٥٦.

K.A.C. Creswell, Brief Chronology, p.154; Muslim Architecture, pp. 39-40. - 97

۰۲۰۸ صسن عبد الهاب، تاریخ المساجد، جـ۱، ص ۵۸؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ۱، ص ۲۰۸ K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.40

٩٤ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٥٥؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، ص ٢٠٨.

٥٥- على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٤، ص ١٢؛ الجبرتي، عجائب الآثار، جـ١، ص ١١٤.

٣٠- عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الاثار، ج١، ص ١٦٨ - ١٦٩، وثيقة وقف الأمير عثمان كتخدا،
 الأرشيف التاريخي, بوزارة الأوقاف، تحت رقم ٢٢١٠.

مزولــة متقـنة نظيرها لا يوجد راسمها حاسبها هذا الوزير الأمجد تاريخها أتقنها وزير مصــر أحمد

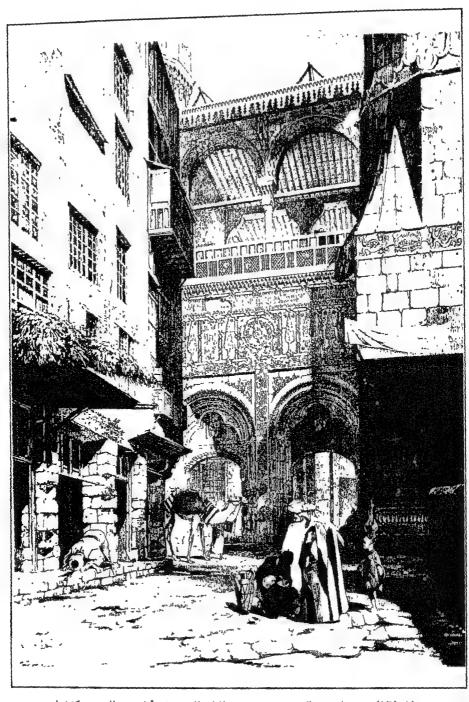
أما المزولة الثانية فقد كانت ملقاة على سطح الجامع الأزهر، ثم نقلت إلى داخل المكتبة، ومازالت محفوظة بها. وقد روى عبد الرحمن الجبرتى بصدد هذه الهدية أن هذا الوالى قد احترف صناعة المزاول على يدى والده الشيخ حسن الجبرتى، حتى أتقنها، «ورسم على اسمه عدة منحرفات على ألواح كبيرة من الرخام، صناعة، وحفرا بالأزميل، كتابة ورسما» (٩٧).

ولعل أهم عمارة أجريت بالجامع الأزهر منذ إنشائه ما أجراه الأمير عبد الرحمن كتخدا في سنة ١٦٧هـ / ١٧٥٣م، فقد أمر بهدم جدار القبلة، عدا المحراب، وجزءا من الجدار على يساره، وأضاف إلى رواق القبلة الشرقى من تلك الجهة رواقا آخر متصلا به، يشتمل على أربع بلاطات موازية للمحراب وبنى جدرا آخر للقبلة يتوسطه محراب، تعلوه قبة. وتبلغ مساحة هذا الرواق الجديد نصف مساحة الرواق القديم، وهو يشتمل على خمسين عمودا من الرخام، تحمل مثلها من البوائك المرتفعة المشيدة بالحجر المنحوت، وسقف أعلاها بالخشب النقى أى المدهون .. وأنشئ لتلك الزيادة بابا عظيما من جهة حارة كتامة، وهو المعروف بباب الصعايدة، وبنى بأعلاه مكتبا بقناطر معقودة على أعمدة من رخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن، وبداخله رحبة متسعة وصهريج عظيم، وسقاية الشرب المارين، وأنشأ لنفسه مدفنا بتلك الرحبة، عليه قبة معقودة، وتركيبة من رخام بديع الصنعة، وجعل بها أيضا رواقا خصص لمجاورى الصعيد المنقطعين لطلب العلم .. وبنى بجانب هو باب السارية .. كما أنشئ بابا آخر جهة مطبخ الجامع، وبجواره منارة أيضا"، هو باب السورية.

ولم تقتصر أعمال عبد الرحمن كتخدا على هذه الإضافات الكثيرة، التي جعلت من القبلة أكبر أروقة المساجد الجامعة في مصر، بل أنشأ أيضا بابا كبيرا في الجهة الغربية من الجامع، مقابلا للباب العتيق، وهذا الباب ينقسم إلى بابين عظيمين، لكل منهما مصراعان. وعلى يمين هذا الباب منارة، وفوقه مكتب (٩٨) وقد أدرك هيز هذا الباب المسمى

٩٧ - عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار، جـ١، ص ١٨٧ - ١٨٨.

٩٨- عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار، جـ٢، ص٥٢٥.



شكل (١٦) رسم تاريخي للمصور هيز يوضح الباب الغربي في أيام عبد الرحمن كتخدا، يعلوه الكتاب، وتجاوره المنارة.

بباب المزينين؛ وترك لنا صورة فريدة له، يظهر فيها الكتاب الذى كان يعلوه، والمنارة التى كانت تجاوره جنوبا.

على أن كل هذه المعالم قد اختفت عند فك مبانى هذا الباب والرجوع بها إلى خط التنظيم في سنة ١٣١٣هـ / ١٨٩٦م (١٩٩) ومع هذا فقد تمت المحافظة على طراز الباب المعمارى والفنى عند إعادة تركيبه، إذ أعيدت إليه الزخارف والكتابات الرخامية وبلاطات القاشانى على وضعها القديم، الذي يتجلى فيه براعة الخطاط في كتابة عجلوا بالصلاة قبل الفوات – الصلاة عماد الدين بشكل زخرفي نادر. وقد سجل في أعلى الباب أبيات من الشعر، تضمنت اسم عبد الرحمن كتخدا وتاريخ تلك العمارة، بحساب الجمل، نصها:

إن للعلم أزهرا يتسامى كسماء ماطاولتها سماء حين وافاه نو البناء ولولا منة الله ما أقيم البناء رب إن الهدى هداك وآيا تك نور تهدى به من تشاء مذ تناهى أرّخت باب علوم وفخار به يجاب الدعاء (۱۰۰۰)

ويفهم أيضا مما جاء في تاريخ الجبرتي أن عبد الرحمن كتخدا قد جدد بناء المدرستين الطيبرسية والأقبغاوية، لأنه يقول إن الباب الكبير "جاء ومابداخله من الطيبرسية والأقبغاوية والأروقة من أحسن المباني في العظم والوجاهة والفخامة "(١٠١) وما تزال آثار هذه الأعمال تبدو واضحة على الواجهة الغربية للمدرسة الطيبرسية بأحجارها الملونة، التي بقى اسمه منقوشا عليها، في الوقت الذي احتفظت فيه هذه الواجهة بشبابيكها النحاسية ذات الطراز المملوكي.

والواقع أنه نتج عن إضافات عبد الرحمن كتخدا بالجامع الأزهر أن صار له ست مآذن، وكانت به ثلاث مآذن من قبل، واحدة أقامها الأمير علاء الدين أقبغا في زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والثانية أقيمت في أيام السلطان الأشرف قايتباي، والثالثة ترجع إلى عهد قانصوه الغوري، غير أن مصلحة الآثار قد عمدت إلى هدم المنارة التي كانت تقع إلى يمين باب المزينين، استجابة لرغبة الخديو عباس، عند بناء الرواق العباسي (١٠٢) وقد بقى

K.A.C.Creswell, Muslim Architecture, pp.42-43. -99

١٠٠- سعاد ماهر مساجد مصر، جـ١، ص٢٢٥.

١٠١- عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار، جـ٢، ص٦.

Comité de conservation des monuments de l'art arabe, Le Caire, 1899, -\. Exércice 1896, pp 24-29.

من هذه المآذن خمس، هي منارات أقبغا، وقايتباي، والغوري، ومنارتا كتخدا على بابي الشورية والصعايدة (١٠٢).

ويقى أيضا بالرواق الشرقى الذى أضافه عبد الرحمن كتخدا محراب من الرخام الدقيق، على يساره قطعة مثمنة الشكل من الرخام، مدون عليها بالخط الكوفى المربع: الله، محمد، وأسماء العشرة المبشرين بالجنة، وقد كانت هذه اللوحة موجودة فى الأصل فى مدفن عبد الرحمن كتخدا بالجامع، ثم نقلت إلى جوار المحراب، ويجاور هذا المحراب منبر خشبى، يقع إلى الجنوب منه محراب آخر صغير، يعرف بمحراب الدردير، وبالقرب منه محراب ثالث، أنشئته لجنة حفظ الآثار العربية، لتركيب الكسوة الخشبية المملوكية التى كانت تغطى المحراب الفاطمى القديم.

وقد توالت على الجامع الأزهر بعد ذلك أعمال التجديد والترميم، كما أضيف إليه بعض المنشآت التي تمثلت في مجموعة من الأروقة، مثل رواق الشرقاوية، الذي أقيم شمالي المدرسة الجوهرية وملاصقا لها، على عهد الأمير إبراهيم بك فيما بين سنتي ١١٩٢ – ١٢١٣هـ / ١٧٧٨ – ١٧٧٨م، تحقيقا لرغبة الشيخ الشرقاوي (١٠٤).

وهناك أيضا رواق السنارية، الذي أضيف إلى الغرب من رواق المغاربة مما يلى جنوب الصحن في سنة ١٢٢٠هـ/ ٥٠٨٠م بناء على طلب الشيخ محمد وداعة السناري (٥٠٠) ثم أصاب الأزهر زلزال شفيف في سنة ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م، سقطت على أثره شرفة منه (١٠٦).

كذلك أقبل ولاة مصر من أسرة محمد على، على تجديد مبائى الجامع الأزهر، مثل باب الصبعايدة الذي جدد في سنة ١٨٦٧هـ/ ١٨٦٠م في زمن الخديو إسماعيل على يد أدهم باشا ناظر الأوقاف، الذي نقش عليه أربعة أبيات من الشعر، نصها:

باليمين أقبل باب سعد الأزهر وسمت محاسنه بأعجب منظر وغدا مجازا للحقيقة بالهدى موصول مورده جميل المصدر

۱۰۲ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ۱، ص۲۲۶.

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.40.-1.2

ه ١٠- محب الدين الخطيب، الأزهر، القاهرة ١٣٤٥هـ، ص٢٢.

١٠١- الجبرتي، عجائب الأثار، جا، ص٢١١.

باب شريف للنجاح مجرب إنشاؤه نادى بخير الأعصر في دولة إسماعيل داور عصرنا يمن يسر كمال باب الأزهر (۱۰۷)

وفى عهد الخديو توفيق جددت أجزاء مهمة من رواق القبلة العتيق فى سنة ٢٠٦١هـ/ مدد رواق القبلة الخيق فى سنة ٢٠٦١هـ/ مدد رواق القبلة الذى أضافه عبد الرحمن كتخدا، وكذلك المدرسة الأقبغاوية، ورواق السنارية، وأضيفت عمد إلى الرواقين الشمالي والجنوبي، فأصبحت العمد مزدوجة، بعد أن كانت مفردة عند إنشاء المسجد على يد جوهر الصقلي (١٠٨).

أما الأعمال التي أجرتها لجنة حفظ الآثار العربية منذ سنة ١٣٠٨ه / ١٨٩٠م لإصلاح الجامع ودعم عقود الصحن المختلة (١٠٠١)، واستجابة لرغبة الخديو عباس حلمى فى بناء رواق باسمه (١١٠٠) فقد بدأت بتجديد العقود المحيطة بالصحن جميعا، وهى التي كانت من إنشاء الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمى، ومن حسن الحظ أن هذه الاعمال قد أبقت على القبة التي تعلو مقدم المجاز من جهة الصحن، ولم تغير معالمها الزخرفية. وشملت هذه الأعمال أيضا هدم المبانى التي تعلو الواجهة الغربية للجامع، ونعنى بها الكتاب والمنارة عند باب المزينين كما سبق أن نوهنا. وقد أصدر الخديو عباس أمره بانشاء مكتبة الأزهر في سنة ١٣١٤هـ / ١٩٨٦م فاختيرت لها المدرسة الأقبغاوية، كما اتخذت بقايا المدرسة الطيبرسية التي تواحهها ملحقا لها (١١١).

وهكذا توالت أعمال التجديد والإصلاح والترميم والإضافة في الجامع الأزهر منذ إتمام بنائه في العصر الفاطمي حتى يومنا هذا لدرجة أنه كادت تتوارى الآن مظاهر عمارته الأولى وصار الجامع في شكله الحالى بناء فسيحا يقوم على أرض مساحتها ٢٠٠٠ متر مربع، ويحيط به سور مربع الشكل تقريبا به ثمانية أبواب: في الجانب الغربي المطل على ميدان الأزهر باب المزينين، والباب العباسي، في الجانب الجنوبي باب المغاربة تجاه درب الأتراك، وباب الشوام وباب الصعايدة، وفي الجانب الشمالي باب الجوهرية، وهو باب

١٠٧ - حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الآثرية، جـ١، ص ٦٠ - ٢١.

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.41 - \.A

١٠٩- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٢٦.

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.61- \\.

١١١- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٦١٠.

صغيره كان في الأصل من إنشاء جوهر، وفي الجانب الشرقى باب الحرمين وباب الشوربة، وهما من إنشاء عبد الرحمن كتخدا.

وينقسم حرم الأزهر الشرقى حاليا إلى رواقين، الرواق الكبير وهو العتيق، ويلى الصحن ويمتد من باب الشوام إلى رواق الشراقوة؛ الرواق الجديد الذى أضافه عبد الرحمن كتخدا، وهو يلى الرواق العتيق ويرتفع عنه بعدة درجات وسقف الرواقين من الخشب المتقن الصنع وترتكز عقود المسجد على عمد من الرخام الأبيض يزيد عددها على ٣٨٠ عمودا(١١٢) جلبت نبجانها من المعابد والكنائس القديمة، ويحتوى الجامع حاليا على تسعة وعشرين رواقا، وأربع عشرة حارة، وثلاثة عشر محرابا(١١٢) بالإضافة إلى المحاريب الموجودة بالمدارس التي الحقت به، هذا فضلا عن خمس مآذن تسمو فوق جدران المسجد.

جامع الحاكم

ينسب هذا الجامع إلى الخليفة الحاكم بأمر الله مع أن الذى أمر بإنشائه هو أبوه الخليفة العزيز بالله فى شهر رمضان سنة ٣٨٠هـ / نوفمير - ديسمبر ٩٠٠م (١١٤). كما يقهم من المقريزى الذى ذكر أنه صلى وخطب فيه الجمعة مرتين الأولى فى الرابع من شهر رمضان سنة ٣٨٦هـ / مضان سنة ٣٨٦هـ / المفعيل ٣٨٠ في شهر رمضان سنة ٣٨٦هـ / اكتوبر - نوفمبر ٩٩٣م (١١٥).

كما يفهم من المقريزي أيضا أن أعمال البناء لم تكن قد انتهت في أيام العزيز بدليل أنه ذكر في حوادث سنة ٣٩٣هـ / ٢٠٠٣م (١١٦) ان ابنه الخليفة الحاكم بأمر الله أمر أن يتم بناء الجامع، فقدر للنفقة عليه أربعون ألف دينار، وإبتدئ العمل فيه. وأشار كذلك إلى أن الخليفة الحاكم أمر في سنة ٣٠٤هـ / ١٠١٣م بعمل تقدير مايحتاج إليه الجامع من الحصر والقناديل والسلاسل، فكان تكسير ماذرع للحصر سنة وثلاثين ألف ذراع، بلغت النفقة عليها

١١٧ - عبد الرحمن زكي، موسوعة القاهرة، ص١١.

۱۱۳ – سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ۱، ص ۲۱۲، ۲۲۲،

١١٤- ذكر القلقشندى أن أساسه اختط في العاشر من رمضان سنة ٢٧٩هـ، انظر صبح الأعشى، جـ٣، صبح ٢٠٠.

١١٥ - المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٢٧٧؛ انظر مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، ص١٥٠.

١١٦- يعلق المدخل الغربي للجامع نقش بالخط الكوفي نصبه" ... مما أمر بعمله عبد الله ووليه أبو على المنصور الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى أبنائه الطاهرين في شهر رجب M. Van Berchexm, Corpus, Egypte, I, p.50; سنة ثلاث وتسبعين وثلث مائة انظر Répertoire, VI, p.44.

خمسة آلاف دينار وذكر أيضا أنه بعد الفراغ من البناء علق على سائر أبواب الجامع ستور دبيقة عملت له خصيصا، كما علق فيه تنانير فضة عدتها أربع، بالإضافة إلى كثير من قناديل الفضة، وفرش جميعه بالحصر التي عملت له، ونصب فيه ألمنبر. ثم أذن في ليلة الجمعة سادس شهر رمضان سنة ٢٠٤هـ / ٢١ مارس ١٠٢٨م لمن بات في الجامع الأزهر أن يمضوا إليه فمضوا، وصار الناس طول ليلتهم يمشون في كل واحد، ولا اعتراض عليهم من عسس القصر ولا من أصحاب الطوف إلى الصبح، وذكر كذلك أن الخليفة الحاكم صلى فيه بالناس صلاة الجمعة بعد الفراغ منه في السنة المذكورة، كما روى أن الحاكم وقف على هذا الجامع عدة قياصر وأملاك في شهر ذي القعدة سنة ٤٠٤هـ / مايو١٠٠٥م (١٠١٠) وأنه كان يعرف أولا بجامع الخطبة ثم صار يعرف بجامع الحاكم وبالجامع الأنور، وقيل له أيضا جامع باب الفتوح (١٨٠٠).

وتخطيط هذا الجامع يذكرنا بتخطيط الجامع الطولوني فهو عبارة عن مستطيل طوله × ١٢٠, ١٨٠ م وعرضه ١١٣م (١١٩)، ويتألف من صحن أوسط مكشوف مستطيل الشكل ٧٨ × ٥٥, ٧٦م (١٢٠) أكبرها رواق القبلة الذي يشتمل على خمسة صفوف من العقود المدببة المحمولة على دعائم مستطيلة أركانها مستديرة على هيئة أعمدة ملتصقة (١٢١) تشبه دعامات الجامع الطولوني (١٢٢)، وتسير موازية لجدار القبلة. ويقطع هذا الرواق في الوسط مجاز مرتفع يمتد من الصحن إلى المحراب حيث ينتهي أمامه بقبة، كما نجد في طرفي بلاطة المحراب، الشمالي الشرقي، والجنوبي الشرقي، قبتين (١٢٤) كما هو الحال في الجامع الأزهر، تقوم كل منها على أربع حنيات ركنية تشكل منطقة الانتقال من المربع إلى المثمن تحصر بينها أربع منها على أربع حنيات الكوفية المقبة فقد زينت بثمانية شبابيك معقودة على حين زين مربع القبة بشريط من الكتابات الكوفية المورقة (١٤٠).

⁻۱۱۷ المقريزي، الخطط، جـ ۲، ص۷۷، مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، ص ٥٠١ - ٥٠٠.

١١٨- المقريزي، الخطط، جـ١، ص٤١، جـ٢، ص٧٧.

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.64, D. Brandenburg Islamische-\\9
Baukunst, p.123.

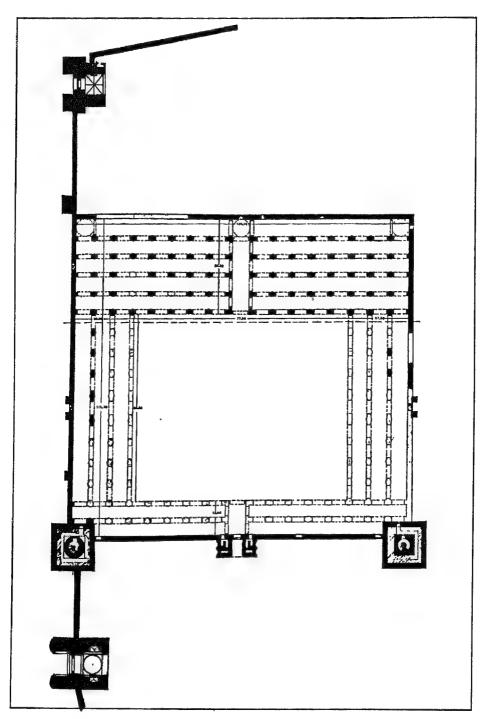
K.A.C Creswell, Muslim Architecture, p.64; D. Brandenburg, Islamische - V. Baukunst, P.123.

۱۲۱ -- سبعاد ماهر، مساجد مصير، جـ١، ص٢٣٨.

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.76 -177

١٢٤ أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص٦٧.

Hautecoeur et Wiet, Les Mosquées du Caire, I, p.222.-1Yo



شكل (١٧) جامع الحاكم بأمر الله، مسقط أفقى عن برندنبرج.

ويطل رواق القبلة على الصحن بواسطة بائكة تتالف من أحد عشر عقدا مدببا شبيهة بواجهة الرواق الغربي المقابل له الذي يشتمل على بلاطتين فقط، موازية لجدار القبلة. أما الرواقان الشمالي والجنوبي فيشتمل كل منهما على ثلاث بلاطات عمودية على جدار القبلة، ويطل كل منهما على الصحن بواسطة بائكة تتالف من تسعة عقود مدببة (٢٢١)، ويربط عقود الجامع بين الدعامات روابط خشبية ضخمة محلاة بنقوش نباتية (٢٢٠) كما فتحت في جدران الجامع نوافذ معقودة، كانت جميعا مكسوة بستائر جصية يزينها زخارف هندسية ونباتية مفرغة، وكان يحيط بكل نافذة إطار من كتابة كوفية بها آيات قرآنية (٢٨٨).

ويتميز هذا الجامع بجدرانه السميكة المشيدة بخليط من الحجارة والآجر فيما عدا الأجزاء الظاهرة من البوابة الغربية، فهى من الحجارة المصقولة، وكان يعلو واجهات الصحن صف من الشرافات الهرمية المدرجة، بكل واحدة منها خمس درجات يتوسطها فتحة صغيرة مدببة، تقوم فوق شريط ضيق به عناصر زخرفية مفرغة تتالف من وريدات وأشكال خياهة (١٢٩)

ويمتاز جامع الحاكم باحتوائه أيضا على ثلاثة عشر مدخلا، خمسة بالواجهة الغربية وثلاثة بالواجهة الشمالية ومثلها بالواجهة الجنوبية، ومدخلين بجدار القبلة (١٣٠) نجد بينها ثلاثة مداخل بارزة تتوسط الواجهات الشمالية والجنوبية والغربية يعنينا منها المدخل الرئيسى الذي يتوسط الواجهة الغربية لأنه يعد أقدم مدخل بارز في عمارة مصر الإسلامية. فهو يتألف من برجين ضخمين من الحجارة المصقولة يبلغ طول كل منهما ثمانية أمتار، وعرضه ستة، ويبرز عن سمت جدران الواجهة المذكورة بحوالي ستة أمتار، ويتوسطه ممر طويل يعلوه قبو نصف أسطواني، ويفضى إلى داخل الجامع عن طريق الرواق الغربي (١٣١).

K.A.C. Creswell Muslim Architecture, p.67. ، ٦٧ مساجد القاهرة، جـ١، ص١٦٧ - ١٢٦ المحد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص١٢٦ المعدود المعادد ا

أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص٧٠.

K.A.C. Creswell Muslim Architcture, ۱۷۳ مد فکری، مساجد القاهرة، جـ۱، ص۱۲۸ pp.82-83.

Hautecoeur et Wiet, Les mosquées du Caire, I, pp.221,223; K.A.C. Creswell, -۱۲۹ . Muslim Architecture, pp.84-85

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.76; D.Branderburg, Islamische - 17.

Baukunst, p.125.

١٣١- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص٧٣.

ومن المعروف أن هذا النوع من المداخل البارزة منقول عن مسجد المهدية بتونس الذي يرجع إلى أوائل القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادي وسوف يعاود المطهور في عمارة القاهرة في مسجد السلطان بيبرس البندقداري الذي ينسب إلى الفترة الممتدة من 77-77 م 77-77 .

ويكتنف هذا المدخل البارز في الزاويتين الشمالية والجنوبية منارتين ضخمتين تم بناؤهما في شهر رجب سنة ٣٩٣ هـ / مايو ١٠٠٣م كما يفهم من الكتابات الأثرية المنقوشة على كل منهما (١٣٣)، في أيام الخليفة الحاكم بأمر الله الذي عاد في شهر صفر سنة ١٠٤هـ/ سبتمبر أكتوبر ١٠١٠م (١٣٤) وأمر بإحاطة كل منهما بكسوة خارجية من الحجارة بفرض تدعيمهما تكون في كل منارة شكل مكعبين مدرجين، الأسفل منهما بارز عن المكعب العلوي. وترتفع الكسوة في المئذنة الجنوبية أربعة وعشرين مترا فوق أرضية الشارع، أما في المئذنة الشمالية فيصل ارتفاعها إلى ستة وعشرين مترا أي بزيادة مترين فقط.

أما فيما يتعلق بالمنارتين الأصليتين فقد شيدتا بدورهما من حجارة مصقولة باستثناء الأجزاء العليا التي شيدت من الآجر بعد زلزال سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٣هـ الذي خرب أعالى المئذنتين (١٣٠٥). هذا وتتكون المنارة الجنوبية من ثمانية طوابق مثمنة تتدرج في ارتفاعها تدرجا ملحوظا حتى تنكمش في الطابق الخامس الذي يعلوه طابقان مثمنان من الآجر، يلتف حول الثاني منهما صفان من المقرنصات، ويعلو هذا القسم، الذي أضيف أثناء الإصلاحات التي قام بها بيبرس الجاشنكير، قبة مضلعة، كما تتميز هذه المنارة بكثرة زخارفها النباتية والهندسية والكتابية وبصف من الشرافات التي تذكرنا بشراريف الجامع الطولوني (١٣٦).

وبتكون المئذنة الشيمالية أيضيا من قاعدة مربعة يعلوها ثلاثة طوابق أسطوانية مستديرة يقوم فوقها أربعة طوابق مثمنة من الآجر من بناء بيبرس الجاشنكير، يحيط بثلاثة منها صفوف من المقرنصات، ويتوج قمتها أيضا قبة مضلعة. وهذه المنارة تقوق المنارة

Hautecoeur et Wiet, des mosquées du Caire, I, p.221; K.A.C. Creswell, Muslim-۱۳۲
. ۱٤٣٥م. أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـا، ص ٨٤٢.

Répertoire Chronologique, VI, pp.45-46.-177

١٣٤ – المقريزي، الخطط، جـ٢، ص١٧٧ حيث يقول زيد في منارة جامع باب الفتوح وعمل لها أركان طول كل ركن مائة ذراع".

ه ١٣- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٢٧٧.

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, pl.240. - 177

الجنوبية طولا، إذ يصل ارتفاعها إلى حوالى ستة وأربعين مترا فوق سطح الأرض، أي بزيادة خمسة أمتار (١٣٧).

هذا وقد شهد جامع الحاكم بأمر الله العديد من الإصلاحات والإضافات لعل أولها ماقام به بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر عند تجديده لأسوار القاهرة الشمالية في عام ١٨٥هـ / ١٨٨٧م فقد أصبح جامع الحاكم داخل تلك الأسوار بعد أن كان خارج مدينة القاهرة، والتصق الجدار الشمالي منه بها فيما بين بابي الفتوح والنصر (١٣٨).

ويفهم من المقريزي أيضا أن الصاحب عبد الله بن على بن شكر أضاف إلى صحن الجامع فسقية وأجرى الماء إليها بيد أن قاضى القضاة تاج الدين بن شكر سرعان ما أمر بإزالتها في سنة ٦٦٠هـ / ١٣٦١م (١٣٦٩) ويستشف منه كذلك أن الفرنج عملوا بالجامع كنائس قام بهدمها الملك الناصر صلاح الدين وجعل مكانها اصطبلات (١٤٠٠).

وفى ذى الحجة سنة ٧٠٧هـ / أغسطس ١٣٠٣م تزلزلت أرض مصر والقاهرة فتهدم الجامع الحاكمى وسقط كثير من الدعامات التى فيه وخرب أعالى المئذنتين، وتشعشت سقوفه وجدرانه، فأنتدب السلطان الناصر محمد الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير الذى نزل إليه بنفسه ومعه القضاة والأمراء وأمر برم ما تهدم منه وإعادة ما سقط من الدعامات، فأعيدت وأقام سقف الجامع وبيضه حتى عاد جديدا وأوقف عليه عدة أوقاف بناحية الجيزة وفى الصعيد وفى الإسكندرية، كما رتب فيه دروسا أربعة لإقراء الفقه على المذاهب الأربعة ودرسا للحديث النبوى، وجعل لكل درس مدرسا وعدة كثيرة من الطلبة. وعمل فيه خزانة كتب جليلة، وحفر فيه صهريجا بصحن الجامع ليملأ في كل سنة من ماء النيل، ويسبل فيه الماء

Hautecoeur et Wiet, Les mosquees I, pp.223 224; الجامع انظر -۱۳۱ K.A.C.Creswell, Muslim Architecture, pp.85-101, figs33-43, pls.23-32; D. Brandenburg, Islamische Baukunst, pp.125-126; D.B.Abouief, Islamic .۷۹-۷٤، مساجد القاهرة، جـ١، ص٧٤-٢٥.

١٣٨- انظر المقريزى الذى أخطأ فى ذكر التاريخ إن ذلك بنى سنة ٤٣٠هـ فى زمن المستنصر بالله ووزارة أمير الجيوش فيكون بينهما سبع وثمانون سنة الخطط، جـ٢، ص٢٧٨. ولاسيما أن الفرق الذى أشار إليه ٨٧ سنة هو الفرق الفعلى بين تاريخ بناء بدر الجمالي للأسوار الشمالية سنة ٤٨٠هـ وتاريخ بداية الأعمال بالجامع فى زمن الحاكم سنة ٣٩٣هـ.

١٣٩- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٢٧٨.

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.66.-11.

فى كل يوم ويستقى منه الناس يوم الجمعة، حتى بلغ جملة ما أنفقه على الجامع زيادة على أربعين ألف دينار (۱۶۱). ويفهم من النقوش الأثرية التى تعلو عقد المدخل الرئيسى للجامع أن الفراغ من تلك الأعمال تم فى شهر ذى الحجة سنة ٧٠٣هـ / يوليو – أغسطس ١٣٠٤م (١٤٢).

وجدد الجامع مرة أخرى وبلط جميعه في أيام السلطان الناصر حسن في سنة 150 - 100 مرة أخرى وبلط جميعه في أيام السلطان الناصر حسن في المراحلي في 100 - 100 م 100 - 100 م

وفى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر للميلاد، أضاف أحد الباعة مئذنة ثالثة إلى الجامع أعلى الباب المجاور للمنبر، اكتملت في شهر جمادى الآخرة سنة 770 مايو 751 بيد أنها اندثرت ولم يعد لها وجود 751 ، إذ تعرض الجامع للخراب إبان هذا القرن كما يفهم من رواية المقريزي الذي كتب يقول والجامع الآن متهدم وسقوفه كلها مامن زمن إلا ويسقط منها الشئ بعد الشئ فلا يعاد 751 . ويبدو أنه ظل كذلك حتى أدركته الحملة الفرنسية فاتخذت منه حامية ومن منارتيه برجين للمراقبة 751 . وفي سنة 771 هـ 700 ما بالرخام وجعل بجواره منبرا 751 . ومع ذلك فقد صار الجامع في أوائل القرن الثالث عشر للهجرة / التاسع عشر للميلاد مقرا لقوم من أهل الشام، أقاموا فيه منازل ومعامل لصناعة الزجاج ونسح الحرير 751

١٤١ - المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٢٧٨.

M. Van Berchem, Corpus, Egypte, I,p.52-53; Repertoire, XIII,p.242.-187

D.B. Abouseif, Islamic Architecture, p.65: ۲۷۸ مریزی، الخطط، جـ۲، مس۱۸۵

³ ٤ / – المقريزي، الخطط، جـ ٢، ص ٢٨٠؛ على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ ٤، ص ٨٠؛ أحمد فكري، مساجد القاهرة، جـ ١، ص ٦٤٠.

٥٤١ - المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٠٢٠؛ على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٤، ص٨١.

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.64, note(1), D.B.Abouseif, Islamic -\ \text{\chi}\text{\chi} \text{Architecture, p.65.}

١٤٧ - المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٢٨٠؛ على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٤، ص٨١.

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.64. - \ \ \ \

١٤٩ - على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٤، ص٨١.

٥٠ - محمود أحمد، دليل مهجر لأشهر الأثار العربية، القاهرة ١٩٣٨، ص٦٢

D.B. Abouseif, Islamic Architecture p.64;

١٥١- على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٤، ص١٨.

وفى سنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م استخدم بقايا رواق القبلة كأول متحف للفن الإسلامى أطلق عليه اسم دار الآثار العربية جمعت فيه التحف الفنية التى كانت توجد فى المساجد والمبانى الآثرية وبقيت هناك حتى نقلت إلى المبنى الحالى بباب الخلق الذى افتتح رسميا فى التاسع من شوال سنة ١٣٢١هـ/ ٢٨ ديسمبر ١٩٠٣م وتغير اسمه من دار الآثار العربية إلى متحف الفن الإسلامى فى سنة ١٩٥٢م (١٥٥٠). وحل محله فى الجامع مدرسة السلحدار الابتدائية (١٥٠٠).

وظل الجامع خربا حتى قامت لجنة حفظ الآثار العربية بإصلاح دعامات وعقود النصف الجنوبي من الرواق الشرقي، كما أعادت بناء المجاز ونزعت الكسوة الرخامية التى وضعها السيد عمر مكرم على المحراب العتيق وأقامت لها محرابا حديثا على يمين المحراب الفاطمي (١٥٤).

بقى أن نشير فى النهاية إلى أن هذا الجامع قد شهد فى العصر الحديث أكبر عملية ترميم وصبيانة مرت به منذ إنشائه على أيدى طائفة البهرة التى رصدت له مبلغا كبيرا من المال لإعادته إلى حالته الأولى التى كان عليها وقت تشييده فى العصر الفاطمى وقد انتهت بالفعل من اصلاحه وافتتاحه للصلاة وإن كانت قد وقعت فى بعض الأخطاء الفنية أثناء الترميم لانعدام الرقابة على تقوم به من أعمال.

مشهد الجيوشي

أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالى (١٥٥) في المحرم سنة ٢٧٨هـ/ مايو ١٠٨٥م (٢٥١)، أعلى قمة جبل المقطم، فوق مشهد إخوة يوسف (١٥٥) مباشرة، لذا كان يشرف على منطقة القرافة الصغرى بالإمام الشافعي وعلى الجزء المطل على النيل من جهة مصر القديمة وعلى المراعى الخضراء المعروفة ببساتين الوزير (١٥٨). ويرجع بعض الباحثين سبب اختياره لهذه

٥٠١- محمد مصطفى، متحف الفن الإسلامي، دليل موجز، القاهرة ١٩٥٨، ص٩.

١٥٣- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جدا، ص٥٥٠.

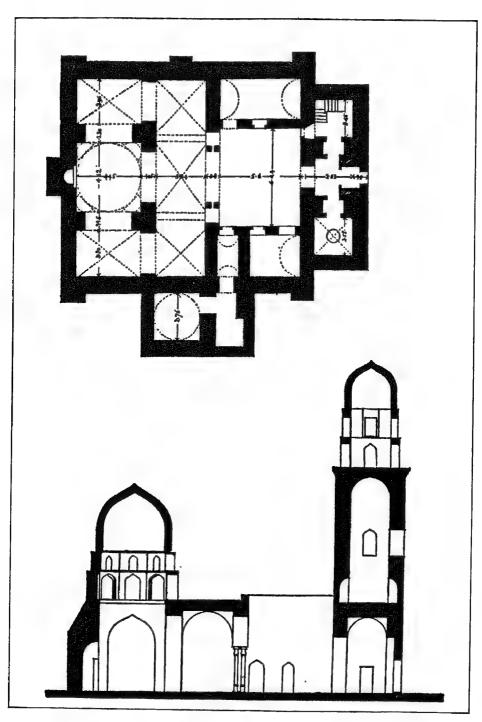
١٥٤ - محمود أحمد، دليل موجز، ص٥٦.

٥٥١ - نسبه المؤرخ ابن ميسر إلى ابنه الأفضل شاهنشاه انظر أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد، ص٨٥٠.

M.Van Berchem, أخطأ قان برشم في قراءة التاريخ فذكر أنه في المحرم من سنة ٤٩٨هـ أنظر Une mosquée du temps des fatimides, Mémoires de l'Institut d'Egypte, II, 1889,p.606.

١٥٧ - عن هذا المشهد انظر، عبد الرحمن زكى، موسوعة القاهرة، ص ٢٤١ - ٢٤٢.

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.154; D. Brandenburg, Islamische-NoA Baukunst, p.124.



شكل (١٨) مشهد الجيوشي، مسقط أفقى وقطاع، عن برندنبرج.

البقعة هو رغبته في أن يدفن في موقع مرتفع حتى يشرف منه على قباب السبع بنات (١٥٩) الأثر ة لديه (١٢٠).

ويعرف هذا المشهد اليوم لدى العديد من الباحثين باسم مسجد الجيوشى (١٦١) مع أنه لا علاقة له بطراز المساجد (١٦٢) الفاطمية المألوفة فهو عبارة عن بناء مستطيل الشكل طوله ثمانية عشر مترا وعرضه خمسة عشر مترا (١٦٢) يشتمل على ثلاثة أقسام رئيسية: كتلة المدخل، الصحن، وبيت الصلاة (١٦٤)، وأضيف إليه في وقت لاحق بناء مستطيل الشكل يتوسط ضلعه الشمالي (١٦٥).

يشكل المدخل كتلة معمارية بارزة بامتداد الجدار الغربي ويشتمل بدوره على ثلاثة أقسام، تشغل فتحة المدخل القسم الأوسط منها، وهو يقع أسفل المئذنة مباشرة ويتألف من باب صغير معقود بعقد مدبب يعلوه لوحة رخامية تتضمن خمسة أسطر بالخط الكوفي المزهر جاء فيها مما أمر بعمارة هذا المشهد (١٦٦) المبارك فتى مولانا وسيدنا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الأئمة الطاهرين وأبنائه الاكرمين وسلم إلى يوم الدين / السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين، عضد الله به الدين، وأمتع بطول / بقائه أمير المؤمنين، وأدام

۱۵۹ منها أنظر المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٥٥٨، ابن الزيات، الكواكب السيارة، ص١٧٨؛ . K.A.C. (١٧٨ منها أنظر المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٥٥٨) المناطقة المناطق

Hautecoeur et Wiet, Les mosquées du Caire, I, p..229. - \7.

M. Van Berchem, Une mosquec, p.606, Corpus, Egypte I,انظر على سبيل المثال، p.54; K.A.C. Creswell, Brief Chronology, p.53; Muslim Architecture, p.155; D.Brandenburg, Islamische Baukunst, p.124; Y. Rägib Un Oratoire Fatimde au sommet du Mugattam, Studia, Islamica, LXV,1984, p.51.

Hautecoeur et Wiet, Les mosquées du Caire, I, p.229.-\77

۱۹۳ - ذكر أحمد فكرى أن طوله ۲۲، ه وعرضه ۱۷م أنظر مساجد القاهرة، جـ١، ص ٩٠، وهو يخالف بذلك -١٦٣ K.A.C. Creswell Muslim Architecture, p.154; D.Brandenburg, أغلب الباحثين انظر. Islamische Baukunst, p.127 ؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص ۲۸۲.

Hautecoeur et Wiet, Les mosquées, I,p.229-178

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.154.-170

۱۹۲۰ قرأها كريزويل زاوية انظر K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.155 وقد سار على دربه كل من كمال الدين سامح، العمارة الإسلامية في مصر، ص٢٨، الذي أطلق عليه جامع وزاوية في أن واحد، وسعاد ماهر، مساجد مصر جـ١، ص٢٨٢، التي أطلقت عليه أيضا زاوية ومسجد.

قدرته وأعُلى كلمته وكيد عدوه وحسدته، ابتغاء مرضاة الله في المحرم سنة ثمان وسبعين وأربعمائة (١٦٧)».

وهو يفضى إلى ممر مغطى بقبو يعلوه ممر آخر مسقوف بقبة صغيرة ترتكز على الجدران مباشرة بدون مثلثات كروية أو أية مناطق انتقال. يوجد على جانبيه غرفتان صغيرتان اليمنى التى تشغل الزاوية الجنوبية الغربية مكشوفة وتشتمل على درج سلم يفضى إلى سطح المشهد وإلى المئذنة، أما اليسرى التى تشغل الزاوية الشمالية الغربية فهى مغطاة بقبو متقاطع ويعلو جدارها الشمالى نافذة وكانت تشتمل على صهريج للمياه (١٦٨).

ويفضى هذا المدخل إلى القسم الثاني وهو عبارة عن صحن مكشوف مستطيل الشكل ($7, 5 \times 7, 5$

وهو يشتمل بدوره على قسمين: قسم غربى مستطيل يعلوه بقايا قبو وقسم شرقى مربع يعلوه قبة تقوم على حنيات ركنية يعتقد كريزويل أنه خاص بأحد الأولياء الصالحين (۱۷۱).

ويطل على الصحن من الجهة الشرقية بائكة ثلاثية العقود، العقد الأوسط منها أكثر ارتفاعا وإتساعا من العقدين الجانبيين، والعقود من النوع المدبب وترتكز على عمودين مزدوجين (۱۷۲) صنعا من الرخام، لكل منها تاج ناقوسي على هيئة مشكاة وقاعدة ذات شكل

M. Van Berchem, Corpus, Egypte, I,p.54; Répertoire, VII, pp.229-230.-\\V

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture,p.154.-\٦٨

۱٦٩ - أشار أحمد فكرى أن طوله سنة أمتار ونصف وعرضه أقل من ذلك مترا انظر مساجد القاهرة، جـ١، ص١٦٩ - فقد سارت على دربه سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص٢٨٢.

F.Shafi'i, The يعتقد فريد شافعى أن هذا القسم يمثل أحد عناصر البناء الأساسية أنظر المحالية. Mashhad al- Juyushi, Archéalogical Notes and Studies, Studies in Islamic Art and Architecture in Honor of professor K.A.C. Creswell. Cairo, 1965, pp.237ff.

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.154.-\\\

D.B.Abouseif, Ialamic Architecture, p.67;-1VY

مماثل لكنه مقاوب (۱۷۲) وتفتح هذه البائكة على بيت الصلاة الذى يحتل أكثر من نصف مساحة المشهد، وهو يتألف من ثلاثة عقود تسير في موازاة المحراب، تقوم على دعامتين، غطيت البلاطة الغربية منها بثلاثة أقبية متقاطعة، على حين يعلو بلاطة المحراب الشرقية قبوان من نفس النوع يتوسطهما قبة أمام المحراب (۱۷۲)، ترتفع قمتها اثنى عشر مترا فوق الأرضية، وترتكز على عقود من ثلاث جهات وعلى جدار القبلة من الجهة الرابعة، يحيط بمربعها شريط عريض من الكتابات الكوفية المزهرة ويتوج أركانها أربعة حنيات ركنية معقودة، فتح بينها أربعة نوافذ مسدودة في الوقت الحالي، يعلوها رقبة مثمنة بكل ضلع من أضلاعها نافذة معقودة، ويعلو الرقبة قبة ملساء على شكل نصف كرة، يتوسط قمتها من الداخل كتابات قرآنية من سورة يس" والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم"، وفي الوسط نقش اسما محمد وعلى ثلاث مرات على شكل نجمة ذات ستة رؤوس (۱۵۷۰).

وينتصف المصراب جدار القبلة الشرقى ويشكل بروزا خارجه، وهو من أجمل المحاريب الفاطمية ذات الزخارف الجصية، ويعلو تجويفه عقد مدبب يرتكز على عمودين لم يعد لهما وجود في الوقت الحالي، ويزينه شريطان من الكتابات الكوفية المزهرة بالإضافة إلى نقوش نباتية بديعة (١٧٦) وقد كسيت جدران القبلة وحنية المحراب في القرن الثاني عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد بزخارف جصية تتضمن نقوشا نباتية رسمت باللون الأخضر تشبه زخارف البلاطات الخزفية العثمانية الطراز نجد بينها تاريخ سنة ١١٤٤هـ/ ٢٣٧٨م (١٧٧٧).

والمشهد مئذنة رشيقة تعلى مدخله الغربي شيدت من الآجر تسمى عشرين مترا فوق سطح الأرض، وتضم ثلاثة طوابق، الأول مربع الشكل، فتحت في واجهتيه الشمالية والغربية نافذة، وزينت قمته باطار يضم صفين من المقرنصات، شيدت من الأجر وكسيت بالجص، تعد

١٧٣ - أحمد فكري، مساجد القاهرة، جـ١، ص٩٢.

Hautecoeur et Wiet, Les mosquées, I, p.230.-\YE

ه ۱۷۰ أحمد فكرى، مساجد القاهرة، ج۱، ص ۹۳؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، ج۱، ص ۲۸٤، م ۱۸۵. D.B. Abouscif, Islamic Architecture, p.640

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, pp.157,158; D.Brandenburg, Islamische-\V\\
Baukunst, p.129.

M. Van Berchem, Une mosquée, p.618; K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, -\vv pp.158-159; D.B. Abouseif, Islamic Architecture, p.67.

أقدم مثال معروف في العمارة الإسلامية بمصر (١٧٨)، يعلوه طابق ثان مربع أقل حجما، فتحت في كل واجهة من واجهاته الأربع نافذة معقودة، يعلوه طابق ثالث عبارة عن رقبة مثمنة بكل ضلع من أضلاعها نافذة ذات عقد مدبب، يتوجه قبة ملساء نصف كروية (١٧٨).

ومن خصائص هذا المشهد أن واجهته الشمالية والجنوبية زودتا بدعامات تعلوها فوق السطح خلاوى صعيرة يغطيها قباب ملساء، بقى اثنان منها فى الجهة الجنوبية وهى مزودة من الداخل بمحاريب لتحديد اتجاه القبلة، استند البعض إليها فى محاولة تحديد طبيعة هذا المبنى الذى أقامه بدر الجمالى فى هذه البقعة المنعزلة من جبل المقطم (١٨٠).

بقى أن نشير إلى أن تصميم هذا المشهد المعمارى قد استوحى فى العصر الحديث لتصميم ضريح أغا خان الثالث الذى أقامه المرحوم فريد شافعى فى مدينة أسوان عام ٥٠١/(١٨١)

الجامع الأقمر

أنشأه الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله فى سنة ١٥هـ / ١١٥٥م، وهو يقع على يمين السالك إلى شارع المعز لدين الله بقرب حارة برجوان وجامع السلحدار (١٨٢). وكان مكانه علافون فتحدث الخليفة الآمر مع الوزير المأمون أبى عبد الله محمد بن مختار بن فاتك البطائحى (١٨٢) فى إنشائه جامعا، فلم يترك قدام القصر دكانا (١٨٤). ويفهم من ابن ظهيرة أيضا أن هذا الموقع كان مكانه برية أى صحراء تعرف ببئر العظمة والعظام (١٨٥) وهى بئر قديمة قبل الملة الإسلامية كانت فى دير من ديارات النصارى، فلما قدم جوهر بجيوش المعز

Hautecoeur et Wiet, Les mosquées du Caire, I, ٩٣ مساجد القاهرة، جـ١، ص١٩٨ –١٧٨ احمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص ٩٠ –١٧٨

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.159; D.Brandenburg, Islamische-۱۷۹
Baukunst, p.129.

D.B. Abouseif, الموضوع انظر فريد شافعي، العمارة العربية الإسلامية ص١٦٤. Abouseif, العمارة العربية الإسلامية الموضوع انظر فريد شافعي، العمارة العربية الإسلامية ص١٦٤.

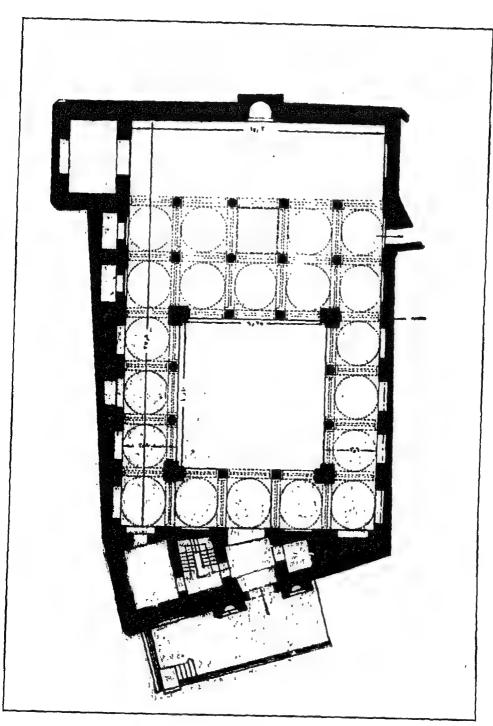
D. Brandenburg, Islamische Baukunst, p.129. - \ A\

١٨٢- على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٤، ص٠٦.

١٨٣-محمد حمدي المناوي، الوزارة والوزراء، ص٢٧٢-٢٧٥.

١٨٤- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٢٩٠.

١٨٥ - ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا، وكامل المهندس،
 القاهرة ١٩٦٩، ص١٨٠.



شكل (١٩) جامع الأقس، مسقط أفقى عن أحمد فكرى.

لدين الله فى سنة ثمان وخمسين وتلثمائة، أدخل هذا الدير فى القصر، وهو موضع الركن المخلق، وجعل البئر مما ينتفع به فى القصر. وقد عرفت بهذا الاسم لأن جوهرا نقل من الدير المذكور عظاما كانت فيه من رمم قوم يقال إنهم من الحواريين، فسميت بئر العظام، والعامة تقول بئر العظمة (١٨٦١).

ويذكر ابن عبد الظاهر أنه لما كمل بناء الجامع في سنة ١٩٥هـ / ١٩٢٥م ذكر اسم الآمر والمأمون عليه، وهذه الرواية أكدتها النقوش الأثرية التي بقيت على الواجهة الغربية للمسجد ($^{(NN)}$) كما يذكر المقريزي أن الخليفة الآمر اشترى له حمام شمول ودار النحاس بمصر وحبسهما على سدنته ووقود مصابيحه، ومن يتولى أمره ويؤذن فيه، وبني تحته دكاكين ومخازن من جهة باب الفتوح $^{(NN)}$ أي في الجهة الشمالية، مما جعل المرحوم حسن عبد الوهاب يعتقد أنه من المساجد المعلقة $^{(NN)}$ رغم أنه منخفض عن مستوى أرضية الشارع $^{(NN)}$ ويفضى إليه مجموعة من الدرج ويتقدمة سور من الحديد.

وهو جامع صغير صمم بحيث تتفق واجهته وتخطيط الشارع الذى يطل عليه، إذ نجد أطرافه الخارجية غير منتظمة، وواجهته الغربية ليست فى موازاة جدار القبلة الشرقى، بسبب التقاء الشارعين اللذين أقيم الجامع على حافتيهما فى زاوية حادة، لذا عمد المعمار إلى ملء الفراغ الناتج بين الجدار الشمالي والواجهة الغربية بثلاث غرف واحدة على يمين المدخل واثنتان على يساره (١٩١١).

وتمتد واجهة المسجد الغربية التي حفلت بالعديد من أنواع الزخارف النباتية والهندسية والكتابية، بطول عشرين مترا، وارتفاع اثنى عشر مترا، وهي من الحجارة المصقولة وتنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية، الجنوبي منها كان متواريا خلف منزل حديث البناء، قامت إدارة حفظ الآثار العربية بنزع ملكيته (١٩٢١) منذ زمن بعيد، لكن لم يهدم إلا مؤخرا، وتم إعادة بنائه على نمط القسم الشمالي الذي يمتد أيضا بطول ٢٩٢،٢م ويزينه

١٨٦- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٢٩٠.

M. Van Berchem, Corpus, Egypte, I, pp.64-69; Répertoir, VIII, pp.146-148. - \ AV

١٨٨- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٩٠.

١٨٩ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، ج١، ص ٧٠.

[.] ١٩- زكي مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٤، ص ١٢٤.

١٩١- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص٩٩؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص ٢٣٣.

١٩٢- حسن عبد الرهاب، تاريخ المساجد، ج١، ص ٧٠.

دخلة صماء مستطيلة الشكل يعلوها عقد مفصص يزينه صفان من المقرنصات ويملأ حشواته أضلاع مشعة أشبه بشمس مشرقة حول جامة مستديرة (١٩٢١) نقش بدائرها اسم محمد عدة مرات بالإضافة إلى اسم على الذي يحتل مركز الجامة. ويعلو هذا العقد طاقة مستديرة اندثرت زخارفها الجصية، يكتنفها من يمين ويسار نافذتان مستطيلتان تنوعت زخارفهما، صيغت النافذة اليسرى منهما على هيئة محراب يرتكز على عمودين ويتدلى من قمته مشكاة، كأنها ترتل قوله تعالى: «مثل نوره كمشكاة فيها مصباح (١٩٤١)»، تعد أول مثال من نوعه في عمارة مصر الإسلامية (١٩٥٠)، ويوجد أسفل النافذتين في تواشيح العقد نقش لمعينين بهما زخارف نباتية. وينتهي هذا القسم الأيسر من الواجهة الغربية عند التقائه بالواجهة الشمالية للمسجد بشطف يتوجه مقرنص من صفين كتب على جانبيه محمد وعلى، وفي طاقاته «إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون» (١٩٦١)، نجد نظيرا له في الركن الجنوبي الغربي الذي سبق للمقريزي أن عبر عنه بالركن المخلق (١٩٦٠)، وهو يعد أيضا الأول من نوعه في العمارة الإسلامية في مصر (١٩٨١) وسوف نصادفه بعد ذلك بكثرة في العديد من العمائر الدينية (١٩٨١).

أما القسم الأوسط من الواجهة فهو بارز عن سمت الجدران بحوالى ثلاثة أرباع المتر ويمتد ما يقرب من سبعة أمتار، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام رأسية، يقع المدخل فى القسم الأوسط منها وهو عبارة عن فتحة مستطيلة الشكل يعلوها عقد مستقيم يتألف من صبخات معشقة نجد نظيرا لها فى بوابتى الفتوح والنصر، ويتوج قمته حنية صماء معقودة بعقد مدبب تملأ حشواته أضلاع مشعة كأنها شمس ينبثق النور من حولها يتوسطها جامة نقش بمركزها اسما محمد وعلى يحيط بهما شريط ضيق من زخارف نباتيه، يليه شريط أخر من كتابات قرأنية بالخط الكوفى نصها «بسم الله الرحمن الرحيم إنما يريد الله

١٩٣- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص ١٠٠.

١٩٤ - قران كريم، سورة النور، أية رقم ٣٥.

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p. 243; D.Brandenburg, Islamische - \\ Baukunst, p. 130; D.B. Abouseif, Islamic Architecture, p.73.

١٩٦ - حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، ج١، ص ٧٠.

۱۹۷ – المقريزي، الفطط، جـ٢، ص ٢٩٠؛ على مبارك، الفطط التوفيقية، جـ٤، ص ١٢٤؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص ٢٢٤.

۱۹۸ - أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ ١، ص ١٠٠.

Ahmad Abd ar- Rāziq, Trois fondations, REI, XLI/I, p.105. - \99

ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا (٢٠٠٠)». يحيط بها حلقة ثالثة تضم بدورها زخارف نباتية مفرغة (٢٠٠٢)، على حين يزين كوشتى العقد زهرة متعددة البتلات (٢٠٠٢).

يكتنف هذا القسم الأوسط قسمان متماثلان نجد في القسم الأسفل منهما حنية أشبه بمحراب يعلوها عقد على هيئة محارة أو شمس مشعة، يعلوها إطار مستطيل الشكل به أربعة صفوف من المقرنصات الصجرية، تعد الأولى من نوعها بعد مقرنصات مئذنة الجيوشي المشيدة من الآجر والجص، يعلوه حنية أخرى يكتنفها عمودان رشيقان، ويتوجها عقد مدبب به محارة أو شمس صغيرة. ولعل الهدف من وراء نقش هذه الشموس أن تعبر عن قوله تعالى: «جعل الشمس ضياء والقمر نورا» (٢٠٢) إذ تضم هذه الواجهة سبعة أشكال مختلفة الأحجام منها (٢٠٤).

وتضم هذه الواجهة أيضا ثلاثة أشرطة من الكتابات الكوفية المزهرة تمتد عليها أفقيا من أولها إلى آخرها، الأول أسفل العقد المستقيم الذي يعلو المدخل، والثاني فوق العقد المستقيم والثالث فوق قمة الواجهة ويستمر في امتداده حول الواجهة الشمالية إلى مسافة تبلغ أحد عشر مترا ونصه «بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر بعمله... فتى مولانا وسيدنا الإمام الآمر بأحكام الله بن الإمام المستعلى بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليهما وعلى آبائهما الطاهرين وأبنائهما الأكرمين تقربا إلى الله الملك الجواد... أمين... السيد الأجل المأمون أمير الجيوش سيف الإسلام وناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين وهادي دعات (كذا) المؤمنين أبو عبد الله محمد الآمري، عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته في سنة تسع عشرة وخمسمائه (٢٠٠٠)».

ويشكل تخطيط الجامع من الداخل مستطيلا منتظم الأضلاع، طوله 7 مترا وعرضه 1 ، 1

٢٠٠- قرآن كريم، سورة الأحزاب، الآية رقم ٣٣.

D.B.Abouseif, Islamic Architecture, p.74. K.A.C.Creswell, Muslim Architecture, - Y · \ p.242.

۲۰۲ - سعاد ماهر، مساجد مصر، چـ۱، ص۲۲۶.

٢٠٣ - قرآن كريم، سورة يونس، أية رقم ٥.

٢٠٤ - أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص١٠٢.

ه ۲۰ – راجع الهامش رقم ۱۸۷ .

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.242; D. Brandenburg, Islamische-Y.\[3\]
Baukunst, p.129.

يحيط به أربعة أروقة يطل كل منها على الصحن بواسطة بائكة ثلاثية العقود من النوع المنفرج، تقوم على عمودين في الوسط ودعامتين في الأركان، كان يزين حافتها شريط من الكتابات القرآنية، نقشت بالخط الكوفي المزهر، في الوقت الذي زينت فيه تواشيح العقود بجامات تضم وريدات متعددة الفصوص.

ويعد رواق القبلة أكبر أروقة الجامع إذ يتألف من ثلاث بلاطات تفصلها بائكتان تشتمل كل منها على خمسة عقود موازية اجدار القبلة، تقوم على أربعة أعمدة قديمة ذات تيجان كورنثية الشكل (٢٠٧)، أكثرها اتساعا بلاطة المحراب التى يغطيها سقف خشبى مسطح، وبنتهى في الركن الشمالي الشرقي بقاعة مستطيلة (٥ × ٣م)، ويرجح أنه كان يفصلها عن بقية الرواق مقصورة خشبية ماتزال آثار قوائمها باقية في قواعد الاعمدة (٢٠٨)، أما البلاطتان الثانية والثالثة فقد قسمت كل منها إلى خمسة مربعات، يطو كل مربع قبة ضحلة تقوم على مثلثات كروية باستثناء المربع الأوسط في البلاطة الثانية الذي يشغله فتحة مربعة للإضاءة أمام المحراب الذي يتوسط جدار القبلة وهو مكسو برخام دقيق ملون ويعلوه لوحة رخامية تسجل الاعمال التي قام بها الأمير يلبغا السالمي في الجامع عام ١٩٧ه/ ١٩٧٩م نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيى الأرض، أمر بعمل المنبر والمنارة وغيره بعد اندراسه في أيام مولانا السلطان الملك الظاهر أبى سعيد برقوق حرس الله نعمته، العبد الفقير إلى الله تعالى أبو المعالى عبد الله يلبغا السالمي الحنفي الصوفي. الظاهري لطف الله به في الدارين وجعله... في شهر رمضان المعظم سنة تسع وتسعين. وكان بني هذا الجامع على أيام الخليفة الآمر بأحكام الله بن المستعلى في سنة تسع وتسعين. وكان بني هذا الجامع على أيام الخليفة الآمر بأحكام الله بن المستعلى في سنة تسع عشرة وخمسمائة من الهجرة النبوية (٢٠٩)».

وإلى يمين الحراب يوجد منبر من الخشب يرجح أنه من بقايا المنبر الفاطمى، وإن كان يعلوه لوحة خشبية جاء فيها ما يلى: «وقالوا الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا. أمر بعمل هذا المنبر فى أيام مولانا السلطان الملك الظاهر برقوق نصره الله غرس نعمته العبد الفقير إلى الله تعالى عبد الله يبغا السالمي الحنفي الصوفى الظاهري لطف الله به فى الدارين أمين فى شهر رمضان المعظم سنة تسع وتسعين وسبعمائة (٢١٠)».

K.A.C Creswell, Muslim Architecture, p.243.-Y.V

٢٠٨- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جدا ،ص٧٧.

M. Van Berchem, Corpus, Egypte, I, pp.69-70.- Y. 4

[.] M. Van Berchem, Corpus, Egypte, I, p.70;-۲۱ ؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، ج١، ص٢٧؛ سعاد ماهر مساجد مصر، ج١، ص٣٢٥.

وهذا يعنى أن منبر يلبغا قد فقد ولم يبق منه سوى اللوحة التأسيسية التى تعلو منبر الآمر، وهذا يعنى بدوره أن جامع الأقمر كان معدا لصلاة الجمعة، على عكس زعم المقريزى الذى ذكر أنه «لم تكن فيه خطبة، لكن يعرف بالجامع الأقمر»، وأن أول جمعة جمعت فيه كانت في الرابع من شهر رمضان سنة ٩٩٩هـ/ أول يونيو ١٣٩٧م(٢١١).

أما فيما يتعلق بأروقة الجامع: الشمالي والجنوبي والغربي، فيتألف كل منها من بلاطة واحدة نجدها عمودية على جدار القبلة في الرواقين الشمالي والجنوبي ويسقفها ثلاث قباب ضبطة، وموازية في الرواق الغربي ويعلوها خمس قباب من نفس النوع. وظاهرة تغطية الأروقة هنا بقباب ضبطة تقوم على مثلثات كروية سبق أن شوهدت للمرة الأولى في مشهد طباطبا وفي بابي الفتوح والنصر وفي مشهد إخوة يوسف (٢١٢)، مما يؤكد أنها فاطمية الطراز (٢١٢) وليست من أعمال يلبغا السالمي في زمن السلطان برقوق كما يعتقد كريزويل استنادا إلى ظهورها في خانقاه فرج بن برقوق (٢١٤).

ويستلفت النظر أيضا في الرواق الشمالي أنه جعل على امتداد جدرانه الداخلية، دخلات أو تجاويف تزداد فسحة واتساعا كلما اقتربنا من جدار القبلة الذي ينتهي عند بلاطة المحراب بغرفة مستطيلة الشكل كما سبق أن أوضحنا من قبل، وذلك تجنبا للانحراف في الجدار الشمالي للمسجد، نجد نظيرا لها على طول امتداد الجدار الجنوبي ولكن أصغر جيما (٢١٥).

وقد شهد هذا الجامع العديد من أعمال التجديد والإضافة فقد روى المقريزى أنه فى شهر رجب سنة ٩٩٩هـ/ أبريل ١٣٩٧م قام الأمير الوزير المشير الأستادار يلبغا بن عبد الله السالمى، أحد المماليك الظاهرية بتجديده، وأنشأ بظاهر بابه البحرى أى الشمالى حوانيت يعلوها طباق، وجدد فى صحن الجامع بركة لطيفة يصل إليها الماء من ساقية، وجعلها مرتفعة ينزل منها الماء إلى من يتوضأ من بزابيز نحاس، ونصب فيه منبرا. وجعل فوق المحراب لوحا مكتوبا فيه ما كان فيه أولا، وذكر فيه تجديده لهذا الجامع، ورسم فيه

٢١١- المقريزي، الخطط، جـ٧، ص٢٩٠.

٢١٢ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٧٢؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص٥٣٥.

J. Franz, Kairo, 1903, p.30 - Y\Y

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.244; D.B. Abouseif, Islaimc Architecture, - T\ \varepsilon p.74.

٢١٥- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص٩٨-٩٩.

نعوته وألقابه. كما روى أيضاً أنه بنى على يمنة المحراب البحرى، بالواجهة الغربية، مئذنة، وبيض الجامع كله ودهن صدره بلازورد وذهب وجدد حوض الجامع الذى تشرب منه الدواب وهو في ظهر الجامع تجاه الركن المخلق (٢١٦).

والحق أن رواية المقريزي هذه تتفق مع نقوش اللوحة الرخامية السابق الإشارة إليها بأعلى المحراب (٢١٧).

ويبدو أن المقريزى لم يستحسن بعض هذه الأعمال وذهب إلى الأمير يلبغا السالمي ليعاتبه عليها وسجل لنا ما دار من حديث بينهما قائلا:

«فقلت له: قد أعجبنى ما صنعت بهذا الجامع، ما خلا تجديد الخطبة فيه وعمل بركة الماء فإن الخطبة غير محتاج إليها ها هنا لقرب الخطب من هذا الجامع، وبركة الماء تضيق الصحن، وقد أنشئت ميضئة بجوار بابه الذى من جهة الركن المخلق» فاحتج عليه الأمير يلبغا قائلا: أما الخطبة والمنبر فما أنا بالذى أحدثته، فقد قال: ابن الطوير فى كتاب «نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين» عند ذكر جلوس الخليفة فى المواليد الستة: ويقدم خطيب الجامع الأزهر فيخطب كذلك، ثم يحضر خطيب الجامع الأقمر ويخطب كذلك. فهذا أمر قد كان فى الدولة الفاطمية. وأما البركة ففيها عون على الصلاة لقربها من المصلين (٢١٨)."

وفى سنة ٥٨٥هـ/ ١٤١٢م ولى نظر الجامع بعض الفقهاء، فرأى هدم المئذنة من أجل ميل حدث بها فهدمها، كما أبطل الماء من البركة لإفساد الماء بمروره بجدار الجامع القبلى (٢١٩). ومع ذلك فإن من يتأمل المئذنة التى توجد على يسار المدخل الغربى سوف يلاحظ أن الذى هدم منها هو علوها فقط، لأن قاعدتها المستديرة ما تزال قائمة حتى بداية الطابق الأول وهى تحتفظ بنقوشها الغريبة ويصفوف من المقرنصات التى تلتف حولها (٢٢٠) أما الطابق الأول فمن الواضح أنه بناء حديث أضيف فى تاريخ نجهله (٢٢١).

٢١٦- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٩٠؛ على مبارك، الخطط الترفيقية، جـ٤، ص ٣٠.

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.245.-Y\V

٨١٨ – المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٩٠؛ على مبارك، الخطط التوفيقية جـ٤، ص ٢٠٠ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص ٣٢٢.

٢١٩ – المقريزي، الخطط، جـ٧، ص-٢٩.

⁻ ٢٢٠ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جا، ص٧٠؛ انظر أيضا أحمد فكرى مساجد القاهرة جا، ص٧٠٠ الذي يذكر أنها هدمت وبنيت عوضا عنها مئذنة في عصر غير معروف، هدمت هي الأخرى، وبنيت في موضعها مئذنة حديثة، دون أن يشيرا إلى المصدر الذي اعتمد عليه.

D.B. Abouseif, Islamic Architecture, p.43.-YY\

وجدد الجامع الأقمر أيضا في أيام محمد على على يد سليمان أغا السلحدار في شهر شعبان سنة ١٣٦٦هـ/ مايو ١٨٢١م (٢٢٢) وقد لاحظ قان برشم آثار هذه الأعمال على نفيس بعض العقود المطلة على الصحن (٢٢٢). كما عنيت لجنة حفظ الآثار العربية بإصلاحه في سنى ١٣٢٠ – ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٠م (٢٢٤).

هذا ويشهد الجامع الأقمر حاليا أكبر عملية ترميم تقوم بها طائفة البهرة التي يرجع إليها الفضل في إعادة بناء القسم الجنوبي من الواجهة الغربية.

الجامع الأفخر

يقع هذا الجامع على رأس حارة خوش قدم بشارع المعز لدين الله بحى الغورية، التى كانت تعرف قديما بسوق السراجين ثم بسوق الشوايين، وكان يعرف قديما بالجامع الأفخر ثم قيل له بعد ذلك جامع الفاكهيين. وهو من المساجد الفاطمية المعلقة. عمره الخليفة الظافر بنصر الله أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله، ووقف حوانيته على سدنته ومن يقرأ فيه وذلك في سنة ٤٣٥هـ/ ١١٤٨م، وقدر به دروسا وفقهاء ومعلمين للقرآن الكريم (٢٢٥).

أما عن سبب تشييده فيذكر المؤرخ ابن عبد الظاهر أن مكانه كان زريبة تعرف بدار الكباش، وأن خادما رأى من مشرف عال ذباحا وقد أخذ رأسين من الغنم فذبح أحدهما ورمى سكينته ومضى ليقضى حاجته، فأتى رأس الغنم الآخر وأخذ السكين بغمه ورماها في البالوعة، فجاء الجزار يطوف على السكين فلم يجدها. وأما الخادم فإنه استصرخ وخلصه منه. وطولع بهذه القضية أهل القصر فأمروا بعمله جامعا، ويسمى الجامع الأفخر تعقد به حلقة تدريس وفقهاء ومتصدرون للقرآن (٢٢٦).

وفى سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٣م كانت الزلزلة العظيمة فيستقطت متدنة جامع الفاكهيين (٢٢٧) فقام السلطان الظاهر جقمق بتجديده في سنة ١٤٤٤هـ/ ١٤٤٠م (٢٢٨) بعد أن

٢٢٢- الجبرتي، عجائب الآثار، طبعة بولاق، جـ٤، ص٢١٨.

M. Van Berchem, Notes d'archéologie arabe, JA,8me sér., XVIII,1891,p.50.-YYY

٢٢٤- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٧٢.

٢٢٥- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٢٩٣.

٢٢٦ - المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٢٩٣؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص٢٤٣.

٢٢٧- المقريزي، السلوك، جـ١، ص ٩٤٤.

۲۲۸ - ابن تغری بردی، النجهم، جه۱، ص۳٤۸.

تهدم الكثير من أروقته وجدرانه (۲۲۱) وألحقت به ميضاة أمر بعملها محمد بن أحمد بن محمد الجلالي المحلى المتوفى سنة ٦٤٨هـ/ ١٥٥٩م (۲۳۰)، كما جدد ثانية في نهاية هذا القرن على الأمير يشبك بن مهدى الذي عنى بزخرفته وتجميله وإزالة المباتى التي كانت تحصه (۲۲۱).

وفى العصر العثمانى تم هدم الجامع وأعيد بناؤه بعناية أحمد كتخدا الخربطلى الذى عهد بالإشراف على تجديده إلى عثمان شلبى الرومى شيخ طائفة العقادين، الذى انتهى من عمارته فى شوال سنة ١١٤٨هـ/ ١٧٣٦م (٢٣٢) وجعله معلقا كما كان من قبل، وأقام تحته حوانيت، وألحق به سبيلا، فى طرف الواجهة الغربية بيعلوه كتاب، كما أنشأ بجواره وكالة (٢٢٢) لتجارة الفاكهة (٤٢٤). وقد بلغت جملة النفقات عليه مائة كيس (٥٣٠). وتاريخ هذه العمارة مدون على لوحة تذكارية فوق الباب الشمالى نصها «بسم الله الرحمن الرحيم جدد هذا المكان المبارك وقصد الثواب من الملك التواب الفقير إلى الله تعالى الحاج أحمد كتخدا مستحفظان سابقا فى شهر رمضان سنة ١١٤٨هـ (٢٣٠)».

وهكذا لم يبق من الجامع الفاطمى سوى المصاريع الخشبية للبابين الشمالى والغربى (٢٢٧) وهى منقوشة بزخارف نباتية، كذلك بعض المداميك الحجرية التى تعلو المدخل الغربى كتب عليها بالخط الكوفى عبارة الشهادة بقسميها «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

والجامع الحالى يتألف من صحن صغير مربع الشكل يغطيه سقف منقوش في وسطه فتحة مثمنة الشكل للإضاءة، يحيط به أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة الذي

۲۲۹ – سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ، ص٤٤٧.

[.] ٢٣- السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة ١٣٥٤هـ، ج٧، ص٤١.

٣٣١- السفاوي، الضوء، اللامع، جـ١، ص٢٧٤.

١٣٢- عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار، جـ١، ص١٦٨.

٢٣٢ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، ج١، ص٧٤، ٧٥.

٣٣٤- سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص٧٤٧.

ه ٢٣- الكيس وحدة من النقد العثماني، استخدمت في القرن ١١هـ / ١٧م وهي تعادل ٢٥٠٠٠٠ بارة انظر S.J. Shaw, The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt,1517-1798, p.XXII.

٢٣٦ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٧٥؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص٧٤٧.

٣٢٧ عبد الرحمن زكى، موسوعة القاهرة، ص ٣٢٥.

يتصدره محراب مغشى برخام متعدد الألوان، على حين كسيت طاقيته وعقده وكوشتيه ببلاطات من القاشانى ذات الطراز العثمانى، يتوسطها واحدة مربعة كتب عليها عبارة «ما شاء الله» وتاريخ سنة ١٤١هـ/ ١٧٢٨م. ويعلو المحراب شباك مستدير مكسو أيضا بالقاشانى (٢٣٨).

وللجامع منارة رشيقة، تقع إلى يسار المدخل الغربى، ذات شكل أسطوانى ينتهى بقمة مخروطية مدبيه تشبه القلم الرصاص شأن باقى المنارات العثمانية (٢٣٩).

وفى سنة ١٩٠٨ قامت لجنة حفظ الآثار العربية بتنظيف المصاريع الخشبية، الفاطمية الطراز، وأزالت ما كان يعلوها من دهانات، وأكملت الناقص من كسوتها البرونزية، كما أزالت الدكك التي كانت تتقدم مكسلتي الجامع وأصلحت أرضيته الداخلية (٢٤٠).

جامع الصالح طلائع

يقع بشارع الدرب الأحمر في أحد المواضع التي عمرت في زمن الخلفاء الفاطميين خارج باب زويلة (٢٤٢)، أنشاه الملك الصالح طلائع بن رزيك أبو الغارات (٢٤٢) وزير الخليفة الفاطمي الفائز بنصر الله في سنة ٥٥٥هـ/ ١٦٠٠م (٢٤٣) ليدفن فيه رأس الحسين رضى الله عنه، بعد أن خيف على مشهده الذي بعسقلان من استيلاء الفرنج عليها (٢٤٤٤)، إلا أن

٣٣٨ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ٧٥.

۲۲۹ – سعاد ماهر، مساجد مصبر، چـ۱، ص۳٤۷.

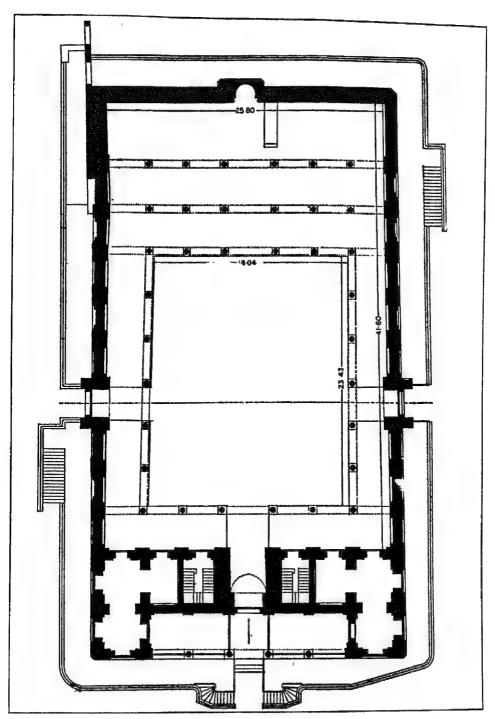
Comite de conservation des monuments de l'art arabe, Le Caire, Exercice1909, -75.

٢٤١ - المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٢٩٣.

٢٤٢ عنه انظر ابن خلكان، وقيات الاعيان، ج١، ص٣٧٧ محمد حمدى المناوى الوزارة والوزراء، ص٥٨٨-٢٨٧.

Repertoire, 1X, pp.20-21; K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.284;-YEY D.Brandenburg, Islamische Baukunst, p.133.

^{3 3}٢- أبن ميسر، اخبار مصر، ص ٣٨؛ العمرى، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، القاهرة ١٩٢٤، ج١، ص١٩٢١، ج١، ص١٣١، ج١، ص١٣٠، القلقشندى، صبح الاعشى جـ٣، ص١٥٠؛ المقريزي، الفطط، جـ١، ص٢٧٠.



شكل (٢٠) جامع الصالح طلائع، مسقط أفقى، عن برندنبرج.

الخليفة لم يمكنه من ذلك وقال لا يكون إلا داخل القصور الزاهرة وبنى له خصيصا المشهد الموجود الآن (٢٤٥).

ولما تم بناء الجامع جعل فيه صهريجا عظيما خصص له ساقية على الخليج بالقرب من باب الخرق تملؤه بالماء أيام فيضان النيل. ومع ذلك فإن الجامع لم يستخدم لصلاة الجمعة إلا في أيام السلطان الملوكي عز الدين أيبك في سنة بضع وخمسين وستمائة/ ١٢٥٨م بحضور رسول بغداد الشيخ نجم الدين عبد الله البادراني (٢٤٦).

ويعد هذا الجامع آخر الجوامع التي شيدت زمن الضلافة الفاطمية، كما يعد أول جامع معلق في مصر الإسلامية (٢٤٧) له أربع واجهات حجرية، شيد أسفل ثلاث منها: الشمالية والجنوبية والغربية، مجموعة من الحواينت يبلغ ارتفاعها ٨٠, ٣ متر، يتوجها شريط زخرفي يضم عناصر شتى، نجد نظيرا لها في المنارة الجنوبية لجامع الحاكم بأمر الله (٢٤٨)، ويسقفها أقبية متقاطعة.

أما أرضية الجامع فترتفع فوق هذه الحوانيت بمقدار نصف متر عن مستوى الشارع في الوقت الذي تسمو فيه جدران المسجد إلى ارتفاع ٢٤ ، ١٤ متر، فيما خلا الشرافات (٢٤٩) التي كانت تتوج أعلاها وهي تتألف من طابقين الأول مسطح ارتفاعه متر والثاني مدرج ارتفاعه متر ويضعة سنتيمترات (٢٥٠).

وتعد الواجهة الغربية أهم واجهات المسجد إذ يتوسطها المدخل الرئيسى الذى أقيم أمامه سقفية تنتهى في طرفيها الشمالي والجنوبي بغرفتين. وهي تطل على الطريق بواسطة بائكة تتألف من أربعة أعمدة رخامية ذات قواعد مرتفعة، يعلوها خمسة عقود منفرجة،

٥٤٠ القريزي، الخطط، جـ١، ص٤٢٧، جـ٢، ص٢٩٣.

٢٤٦ - المقريزي، الخطط، ج٢، ص٢٩٣؛ أنظر أيضا القلقشندي، صبح الأعشى جـ٣، ص٢٣٦، الذي يحدد التاريخ بسنة ٢٥٢هـ / ٢٥٤م.

٧٤٧ - أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص١١٢.

D.B. Abouseif Islamic Architecture, إمام مراه المهاب، تاريخ المساجد، جا، ص ١٩٩، مراه عبد الوهاب، تاريخ المساجد، عبد المساج

K.A.C Creswell, Muslim Architecture, p.276; D. Brandenburg, Islamische-YEA
Baukunst, p.134.

K.A.C Creswell, Muslim Architecture, احمد فكرى، مساجد القاهرة، ج١، ص١٢٠ - ١٥٠ أحمد فكرى، مساجد القاهرة، ج١، ص١٢٠ - ١٥٥. p.280, pl.100c,d.

نقشت إطاراتها بزخارف هندسية وزينت تواشيحها بصرر دائرية، ويسقفها سقف خشبى منقوش بزخارف فاطمية الطراز عثر على بقايا منها أثناء عمارة الجامع في العصر الحديث فأكمل الباقي على نمطه (٢٥١) ويزين صدر هذه السقفية وجانبيها زخارف على هيئة أشكال محارية تشع ضلوعها حول جامة مركزية، وتنتهى الأضلاع بفصوص يلتف حولها عقد منفرج يزينه إطار من زخارف هندسية، على حين تحتل تواشيحه جامات دائرية (٢٥٢).

وكان هذا المدخل يغلق بواسطة باب من الخشب، محفوظ حاليا في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة يتألف من مصراعين غشى وجههما بالنحاس المنقوش بأطباق نجمية مفرغة على حين نقش خلفهما بحشوات مستطيلة قائمة وعمودية زينت بزخارف نباتية محفورة حفرا عميقا، وهو من أقدم الأبواب المصفحة بالنحاس في مصر الإسلامية وقد عمل الباب الحالى على نمطه (٢٥٢).

ويعلونهاية هذه الواجهة وبداية الواجهة الشمالية شريط من الكتابات الكوفية المزهرة نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا المسجد [بالقا] هرة المعزية المحروسة هتى مولانا وسيدنا الامام عيسى أبى القاسم الفائز بنصر الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين [وأبنائه الاكرمين السر]يد [الأجل] الملك الصالح ناصر الأئمة وكاشف الغمة أمير الجيوش سيف الإسلام غياث الأنام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين وأدام [أبوا] لغا [رات] طلائع الفائزى عضد الله به الدين وأمتع بطوله بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته ونصر ألويته وفتح له وعلى يديه مشارق الأرض ومغاربها في شهور سنة خمس وخمسين وخمس مائة والحمد لله أله على سيدنا محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين، وعلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب أفضل الوصيين ... (٢٥٥)

E. Pauty, Un dispositif du plafond, الماب، تاريخ المساجد، جا، ص١٩٨٨، مسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جا، ص١٩٨٠، fatimite Bulletin de l' Institut d' Egypte, XV, p.106. pl.7.

K.A.C. Creswell, Mulim Architecture, p.244.-YoY

۱۹۹۰ زکی محمد حسن، کنوز الفاطمین، ص۲۲۲ - ۲۲۳؛ حسن عبد الوهاب تاریخ المساجد، جـ ۱، ص ۹۹؛ E. Pauty, Les bois sculptés jusqu'à, l' époque ayyaubide, Le Caire.1931, p.69,p1.89

٢٥٤ - انظر .21-Répertoire,IX, pp.20 عيث يتوقف النص عند كلمة الحمد.

٢٥٥- راجع بقية النص في حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٩٩؛ سعاد ماهر، مساجد، جـ١، ص٧٠٠. مدرد ٤٠٧

وكان يعلق المدخل الغربي مئذنة سقطت في سنة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٣ م (٢٠٦) وشيدت أخرى عوضًا عنها، لكنها سقطت بدورها في أكتوبر ١٩٢٣ (٢٠٥٧).

ولجامع الصالح مدخلان أخران، ينتصف أحدهما الواجهة الشمالية، على حين ينتصف الآخر الواجهة الجنوبية في مقابله تماما، وكلاهما يبرز عن سمت الجدران بحوالي ٩٠ سم ويتوجه من أعلى عقد منفرج فتحت في داخله نافذة معقودة (٢٥٨)، ويربطه بالمسجد معبرة فوق الحوانيت السفلية كما هو الحال بالنسبة للمدخل الرئيسي الغربي(٢٠٩) الذي يفضي إلى داخل الجامع عن طريق ممر مسقوف يقبق أسطواني مشجد من المجارة. والجامع من الداخل عبارة عن مستطيل طوله ٢٠, ٥١ متر وعرضه ٨, ٢٥ متر، بتوسطه صحن مكشوف ٢٣ , ٢٣ × ١٨,٧٠م، يوجد أسفله صهريج كبير، لعله الصهريج الذي ذكر المقريزي أنه كان يملأ من ماء الخليج وقت الفيضيان (٢٦٠)، يحيط به أربعة أروقة بتالف كل منها من بلاطة واحدة فيما عدا رواق القبلة الشرقي الذي بشتمل على ثلاث بلاطات موازية لجدار القبلة، وهي تطل على الصحن من الشمال والجنوب بواسطة بائكة ذات ستة عقود، ومن الشرق والغرب ببائكة ذات خمسة عقود يحتل تواشيحها حنية محارية على هيئة محراب، في حين يعلق قمة كل عقد جامة بها وريدات متعددة البتلات^(٢٦١) على عكس العقود الداخلية التي نقشت أطرها من الداخل والخارج بأشرطة من الكتابات القرآنية بالخط الكوفي المزهر، وفتحت في تواشيحها صور زخرفية فرغ وسطها بأشكال هندسية ونباتية متنوعة (٢٦٢) كما يعلو قمة كل عقد نافذة مريعة يغطيها ستائر جصية مفرغة بأشكال نباتية من وجهيها، وتقوم هذه العقود فوق طبالى خشبية يزين الأجزاء الظاهرة منها زخارف نباتية مورقة نجد نظيرا لها على الأوتار أو الروابط الخشبية(٢٦٢) التي تربط العقود ببعضها البعض التي تذكرنا زخارفها بأسلوب الحفر على الخشب إبان العصر الفاطمي.

٢٥٦ - أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص١١٩.

حهد - Comité de conservation, Exércices1920-1924, pp285-286 - ۲۵۷ في الوقت الذي أشار فيه حسن عبد الوهاب إلى أنها أزيلت في سنة ١٩٢٦ لحدوث خلل بها انظر تاريخ المساجد، جـ١، ص٩٩.

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.279. -YoA

٥٩٧- محمود أحمد، دليل موجز لأشهر الآثار العربية، ص٧٧.

٢٦٠ للقريزي، الخطط، جـ٢، ص٢٩٢.

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.281. - YTV

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture: احمد فكرى، مساجد القاهرة، جا، صه١١ -٢٦٢ | pls.106,107.

٢٦٢ - حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٠٠١.

وينتصف جدار القبلة محراب مجوف تسوده البساطة يتصدره عمودان من الرخام الأحمر ويعلوه عقد منفرج بداخله طاقية من الخشب المنقوش بزخارف ملونة من المرجح أنها حلت محل الكسوة الرخامية المتعددة الألوان التي شاهد بريس داڤن أجزاء منها في عام ١٨٧٧م في الزاوية اليسري من المحراب (٢٦٤) ووصلنا بالفعل قطعة منها (٢٦٥).

وعلى يمين المصراب يقوم منبر من الخشب، صنعت ريشتاه، أى جانباه، من حشوات مجمعة على شكل أطباق نجمية مطعمة بالصدف والعاج والأبنوس ، بها زخارف نباتية محفورة غاية في الدقة والإبداع، يعلو بابه لوحة خشبية بها نص تذكارى يتألف من سطرين نقشا بخط النسخ المملوكي «أمر بعمارة هذا المنبر المبارك ابتغاء لوجه الله الكريم المقر العالى الأمير الكبيرى السيفي سيف الدين مقدم الجيوش بكتمر الجوكندار المنصوري السيفي أمير جندار الناصري وذلك بتاريخ شهر جمادي الآخر سنة تسع وتسعين وستمائة رحم الله من كان السبب (٢٦٦)».

كما نقش على جلسة الخطيب النص التالى: "إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبتعدون (٢٦٧) أمر بإنشاء هذا المنبر المبارك الجناب العالى الأميرى الكبيرى سيف الدين بكتمر الجوكندار أمير جندار وذلك بتاريخ سنة تسع وتسعين وستمئة (٢٦٨)".

ولقد حل هذا المنبر محل المنبر الفاطمى الذى يرجح البعض أنه كان طرفة نادرة كما يستشف من زخرفة الأخشاب الفاطمية الباقية بالجامع (٢٦٠١)، وكما يستشف من منبر الصالح طلائع بالمسجد العمرى بقوص (٢٧٠٠)، ومن المقصورة الخشبية التي كانت تغطى واجهة رواق

Prisse d'Avennes, L' Art arabe, texte, pp.100-101.-Y7£

ن المهاب، تاريخ المساجد، جـ١، K.A.C. Creswell, Muslim Architecture,p.284; -٢٦٥ ؛ حسن عبد المهاب، تاريخ المساجد، جـ١،

M Van Berchem, Corpus, Egypte, I, p.45; Répertoire, XIII, pp.190-191. - ٢٦٦ قرأن كريم، سورة الأنبياء، الآية رقم ٢٦٠

٣٠٢٨ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص١٠١؛ Répertoire, XIII, p.191

٢٦٩- حسن عبد الوهاب، تاريخ الساجد، جـ١، ص١٠١.

C. J.Lamm, Fatimid Woodwork, BIE,1936, XVIII, pp.84-85,88,pl.XI; عنه أنظر -۲۷۰ E.Pauty, Le minbar de Qous, Mélange Maspero, III, pp.41-48, pls.I-III; J.C. Garcin, Un Centre musulman de la haute-Egypte médievale, Qûs, Le Caire,1976, pl. IX.

القبلة وذكر بريس داڤن أنها كانت مصنوعة من خشب الخرط المنقوش بزخارف نباتية محفورة (۲۷۱).

ورواق القبلة مزود أيضا بملقف عبارة عن فتحة مستطيلة الشكل يزينها إطار من الزخارف الجصية المحفورة بعناصر نباتية دقيقة، نفذ فيما بين رأس المحراب والنافذة المجاورة له، فوق الموضع المخصص اظهر المنبر، لعله كان يستخدم لترطيب الهواء على الخطيب أو يجلب له مزيدا من الضوء أثناء النهار، وهو يعد الأول من نوعه في عمارة القاهرة، وقد وجد نظير له في عمارة العصرين الأيوبي والملوكي في كل من المدرسة الكاملية ومدرسة الناصر محمد وخانقاه بيبرس الجاشنكير (٢٧٣).

ويحيط بجدران الجامع الداخلية مجموعة من النوافذ العلوية نجد سبعا منها فى جدار القبلة، وتسعا فى كل من الجدارين الشمالى والجنوبى يستدل من بقايا بعضها فى رواق القبلة أنها كانت جميعا معقودة بعقود مدببة يحيط بكل منها شريط من الكتابات الكوفية المزهرة، ويغطيها ستائر جصية مزدوجة مفرغة بأشكال زخرفية متنوعة، يحتفظ متحف الفن الإسلامى بالقاهرة بأحد أمثلتها (٢٧٣)، على عكس النافذة التى تعلو المحراب والتى يحيط بها إطار مستطيل الشكل، والنافذة التى توجد فى أقصى الجنوب إلى يسار المحراب التى استبدلت ستارتها الجصية بسبعة سطور من الكتابات النسخية (٢٧٤).

ويستشف من النصوص التذكارية المنقوشة فوق المنبر ومن الكتابات النسخية على النافذة الأخيرة أن الأمير بكتمر الجوكندار قام بعمارة الجامع في شهر جمادي الآخر سنة ١٩٩هـ/ فبراير مارس ١٣٠٠م أي قبل زلزال سنة ١٧٠هـ/ ١٣٠٣م بما يقرب من أربع سنوات، على عكس مارواه المقريزي الذي ذكر أنه: "لما حدثت الزلزلة سنة ١٧٠٨هـ/ ١٣٠٣م تهدم الجامع فعمر على يد الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار (٢٠٥)".

Prisse d'Avennes, L'Art arabe, texte, p.100; K.A.C Creswell, Muslim-YV\
Architecture, p.287.

K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.285.-YVY

۱۱۰۰ - حسن عبد الوهاب، تاریخ المساجد، جـ۱، ص۱۰۰ أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ۱، ص۲۷۳ K.A.C Creswell, Muslim Architecture, p.285; D.B. Abouseif, Islamic-۲۷٤ Architecture, p.77.

٥٧٧- المقريزي، الخطط، جـ٧، ص٢٩٣.

ولعله عمر مرة ثانية بعد الزلزلة الأخيرة على يد الأمير المذكور وإن كان ينقصنا الدليل المادى على ذلك. كما جدد مرة أخرى في سنة 33 هد/ 185 م على يد رجل من الباعة يقال له عبد الوهاب العيني (٢٧٦) وإن كنا نجهل طبيعة الأعمال التي قام بها، وجدد كذلك في أيام السلطان الأشرف قايت باى سنة ٨٨٨ه / ١٤٧٧م، وكانت الأرض قد ارتفعت عن منسوب باب زويلة وعن هذا الجامع فقام الأمير يشبك من مهدى دوادار السلطان بالكشف عن عتبة باب زويلة وعن سلم الجامع فانكشفت الدرجات التي كانت مردومة وعدتها عشر كما كشف عن أبوابه وظهر منه عواميد رخام فجلاهم ونعمهم، وأزال ما كان بواجهته من ربوع وحوانيت من بينها ربع لخوند شقراء ابنة الناصر فرج بن برقوق، وأجرى به إصلاحات عديدة (٢٧٧).

ومع هذا فقد أدركت لجنة حفظ الآثار العربية هذا الجامع في حالة سيئة للغاية، فالدكاكين أسفله إحتجبت تحت الأرض وأقيمت المنازل والدكاكين بداخله ولصق واجهاته فأخفتها، كما تهدمت الأروقه حول الصحن ولم يبق منها سوى رواق القبلة (٢٧٨). فوضعت برنامجا شاملا لتخليته منذ سنة ١٩١١، واستطاعت في سنة ١٩١٥ أن تسير في نزع ملكية هذه المنشآت، وأعيدت الأرض إلى مستواها، وظهرت الدكاكين أسفل الجامع وعمل أمامها خندق، كما هدمت المنازل فأنكشفت الواجهتان ففكتا وأعيد تركيبهما واستكمل الناقص منهما على قدر الإمكان، كما تم كشف سلم الجامع القديم بوسط الواجهة الغربية وتم إعادة بناء السقفية التي تتقدم الواجهة المذكورة (٢٧٩).

بقى أن نشير فى النهاية إلى أنه ظهر فى عام ١٩٤٥ أثناء هدم أحد المنازل الملاصقة للجامع عن بقايا أبنية متصلة بالنهاية الشرقية للواجهة الشمالية كانت مختفية خلف المنزل المذكور، وهى من نفس طراز الواجهة وتمتد فى اتجاه الشمال وتضم بابا كبيرا يناظر فى التفاصيل أبواب الجامع كما عثر على بقايا نقش كتابى مدون بالخط الكوفى أعلى هذا الجدار نصه "بسم الله الرحمن الرحيم فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال* رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله وإقام الصلاة

۲۷۱ - ابن تغری بردی، النجوم، جـه ۱، ص ۳٤۸-۳٤۸.

۷۷۷ – السخاوى، الضوء اللامع، جـ ۱، ص ۲۷٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، طبعة محمد مصطفى، جـ ۳، ص ۱۰۲ - ۱۰۳ .

K.A.C Creswell, Muslim Architecture, p.276. - TVA

٢٧٩ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جدا، ص١٠٣٠.

وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار (٢٨٠)، أمر بإنشاء هذا المسجد المبارك فتى مولانا وسيدنا عبد الله أبو محمد . . ." ويتوقف النص عند نهاية فتحة الباب الذى نقش حول عقده المستقيم النص التالى" بسم الله الرحمن الرحيم الخلوها بسلام أمنين * ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين * لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين" (٢٨١).

وفى محاولة لتفسير وجود تلك المبانى ذكر المرحوم حسن عبد الوهاب أنها تمثل بقايا المشهد الذى أقامه الصالح طلائع لاستقبال رأس الحسين استنادا إلى أن الآية الشريفة المنقوشة على البباب المذكور" الدخلوها بسلام أمنين" كثيرا ماتدون على مداخل المدافن، واستنادا إلى ماذكره المؤرخ ابن دقماق من أن الصالح طلائع" هو الذى بنى جامع الصالح بظاهر باب زويلة، وبنى مشهد الحسين عليه السلام فى سنة ٥٥هـ / ١٥٨٨م كما دلل على وجهة نظره هذه بأن المسقط الأفقى الذى رسمه بريس داڤن للجامع يشتمل على بابين فى طرفى جدار القبلة، كانا يوصلان على حد زعمه إلى المشهد المذكور (٢٨٢).

الحمام الفاطمي

وآخر مانذكره من آثار العصر الفاطمى، الحمام الفاطمى الذى كشفت عنه حفائر متحف الفن الإسلامى بالقاهرة، أو دار الآثار العربية كما كانت تسمى فى ذلك الوقت فى صيف عام ١٩٣٢ (٢٨٢٢) بمنطقة كوم الجارح، إلى الشمال الشرقى من ضريح أبو السعود الجارحى، وهو يقع على حافة تل كوم الجارح ومبنى على الصخر مباشرة للاستفادة من الانحدار الطبيعى للتل فى الإمداد بالماء والصرف (٢٨٤٤).

ويستشف من تخطيطه وبقايا جدرانه أنه مازال متأثرا بتخطيط الحمامات الرومانية، إذ نجد حجرة فسيحة تمثل القاعة الباردة أى ذات الجو العادى Frigidarium أو أو نجد حجرة فسيحة تمثل القاعة الباردة أي ذات الجو العادي Apoditarium أو المخلع

[.] ٢٨ - قرآن كريم سبورة النور، الآيات ٣٦ - ٣٧.

٢٨١ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٥٠١.

^{7/}۸۳ مصاضر اللجنة الدائمة للكثار الإسلامية والقبطية، ١٩٥٤ - ١٩٦١، الكراسة الصادية والأربعون، القاهرة ١٩٦٢، مس٢٢.

L.A Ibrahim - Adil Yasin, A Tulunid Hammam in Old Cairo, Kunst der -YAE
Orients, 1979, p.35.

٢٨٥ فريد شافعي، العمارة العربية، جـ١ ، ص١٠٧.

في حمامات القاهرة (٢٨٦) ، يوجد إلى اليسار منها حجرة تالية تمثل القاعة الدافئة Tepidarium التى تؤهل المستحم للدخول إلى الغرفة الساخنة، وهي ترتفع فوق غرفة التسخين المعروفة في الحمامات الرومانية باسم Hypocaust ، ويوجد بها حوض صغير لصق الجدران مشيد من الطوب ومكسو بطبقة من الملاط، ربما كان الغرض منه تعويض بخار الماء المتناقص في الحجرة نتيجة للهواء الساخن المتصاعد من غرفة التسخين أسفلها، وتفضى هذه الأخيرة إلى الوحدة الثالثة وهي القاعة الساخنة أو قاعة الاستحمام التي كان يطلق عليها Calidarium ومي مشيدة أيضا فوق غرفة التسخين وتضم في صدرها حوض الاستحمام الذي يبلغ عمقه ١٠ ، ١ م ويعلوه مايشبه السلسبيل، على شكل دخلة في الجدار تضم ثلاث حنيات معقودة، الوسطى منها أكثر اتساعا من الجانبيتين، وبها أنبوبة أسفل منها اثنتان من الفخار تخترق الجدران لتوصيل المياه من القدور التي تعلو المستوقد بغرفة التسخين (٢٨٨).

ويستشف من بقايا جدران هذا الحمام أنه كان مزودا بفرن آخر يقع خلف الجدار الشمالي لحجرة الاستحمام، لم يتبق منه سوى أطلال جدران أربعة، لعله كان مخصصا لتسخين قدور المياه، لأنه غير متصل بممرات غرفة التسخين السابق الإشارة إليها (٢٨٩).

وقد عثر في أنقاض هذا الحمام على بقايا تصاوير جصية نفذت بطريقة الفريسكو كانت تزين حنايا بعض جدرانه، تطرق المتلف إلى بعضها (٢٩٠٠)، أهمها صورة تمثل شابا جالسا يمسك بيده كأسا، ويرتدى ثوبا تزينه حليات من زخرفة نباتية حمراء اللون، وحول كل من العضدين شريط، وعلى رأسه عمامة ذات طيات وحول رأسه هالة كاملة الاستدارة (٢٩١). ويضع الشاب حول ظهره وشاحا يضرج طرفاه من تحت الإبطين، وينثيان إلى أسفل مع

٢٨٦ محمد سيف النصر أبو الفترح، منشأت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عصر المماليك، رسالة دكتوراه، كلية آداب سوهاج جامعة أسيوط، ١٩٨٠، ص٢٢٦.

٧٨٧ – فريد شافعي، العمارة العربية، جـ١، ص٧٠١.

L.A. Ibrahim, A Tulunid Hammam, p.37.-YAA

L.A. Ibrahim, A Tulunid Hammam, p.40.-YA9

٢٩٠- أحمد تيمور، التصوير عند العرب، القاهرة ١٩٤٢، ص٥٦ - ١٥٢، ٢١٦ - ٢١٧.

٣٩١- أخذ المسلمون عن المسيحيين هالة النور التي فقدت لديهم دلالة التقديس وأصبحت تعنى لفت النظر E. Kühnel, Isamische Kleinkunst, إلى أهمية الشخص الذي ترسم حول رأسه، انظر Berlin,1925,p.4.

التعلق في الهواء، ويتدلى من رأسه خصلتان من الشعر إحداهما في الخلف والأخرى في الأمام، وهو منقوش في وضعة أمامية، ولكن وجهه في وضعة ثلاثية الأرباع، ويحف بالحنية شريط من حبات اللؤلؤ(٢٩٢).

ومن الصور التى عثر عليها فى أنقاض هذا الحمام جزء من رسم يمثل رأس شاب يلتفت إلى اليسار، وصورة سيدة تتدلى عصابة رأسها جهة اليمين، ورسم يمثل طائرتين متقابلين يفصلهما رسوم نباتية ويحف بالحنية أيضا شريط من حبات اللؤلؤ(٢٩٣).

ومع أن أغلب علماء الآثار والفنون الإسلامية قد أجمعوا على نسبة هذه الصور الجصية الملونة إلى القرنين الرابع والخامس للهجرة / الصادى عشر والثانى عشر للميلاد (٢٩٤)، ومن ثم فقد تمت نسبة هذا الحمام وتسجيله ضمن آثار العصر الفاطمى (٢٩٥)، إلا أن إحدى الباحثات ناقضت الجميع وأرجعته إلى العصر الطولونى تحت زعم أن هذه الرسوم لم يعثر عليها على الجدران القائمة، بل وجدت بين الأنقاض، كما أن الحنيتين لايصلح أى منهما، بناء على الحسابات الهندسية، لأن تكون منطقة انتقال لأى قاعة من قاعات الحمام (٢٩٦). وقد سار على دربها أحد الباحثين الجدد بحجة أنه عثر على بعد خطوات من هذا الحمام على بقايا منزل من العصر الطولونى لايختلف من حيث طريقة البناء ونوعية وحجم الطوب والملاط عن المواد المستخدمة في بناء هذا الحمام (٢٩٧)، وهي أدلة واهية ليست جديرة بالمناقشة لأنه فاتهما طرح سؤال هام هو من أين جاءت تلك الرسوم الجصية الملونة التي عثر عليها في أنقاض الحمام والتي أجمع جمهرة العلماء المتخصصين على نسبتها إلى العصر الفاطمي؟

٢٩٢ - زكى محمد حسن، كنوز الفاطميين، لوحة رقم ٥ أ ؛ حسن الباشا، التصوير الإسلامي في العصور
 الوسطى، القاهرة ١٩٥٩ ، ص٧٧؛ فن التصوير في مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٦٦ ، ص١٤.

٢٩٣ - زكي محمد حسن، كنوز الفاطميين، لوحة ٣ ، ٤.

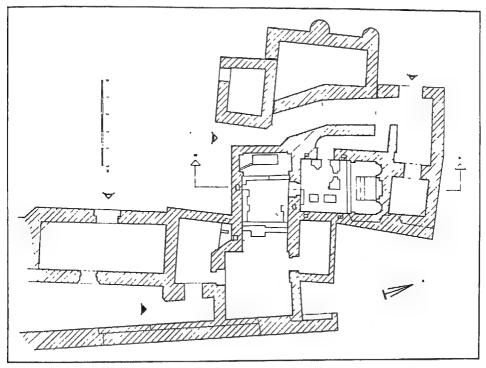
G.Wiet, Exposition d' art persan, Le Caire,1935, pp.75,76 سبيل المثال ٢٩٤ حسن الباشا، التصوير الإسلامي، ص ١٤٠ فن التصوير، ص ١٤٠ وسعاد ما هر محمد، كتاب الفنون الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٦، ص ١٩٧٠، أبو الحمد محمود فرغلي، التصوير الإسلامي نشأته وموقف الإسلام منه وأصوله ومدارسه، القاهرة ١٩٩١، ص ١١٥٠.

ه ٢٩- تم تسبجيل هذا الحمام يوم الاثنين ٢٧ يناير سنة ١٩٥٨. انظر محاضر اللجنة الدائمة للآثار الإسلامية، ص٦٢. ٦٢.

L.A. Ibrahim, A Tulunid Hammam, p.43.-Y97

٢٩٧- راجع الفصل السابع من هذا الكتاب، ص ١٣١ - ١٣٧.

خلاصة القول أنه رغم أهمية هذا الحمام الذي يعد مثالا فريدا لأقدم الحمامات الفاطمية التي أطنب المقريزي في ذكرها والحديث عنها (٢٩٩) والتي اندرس أغلبها (٢٩٠٠)، إلا أنه في طريقه أيضا إلى الزوال بسبب ما يتعرض له من اعتداء مستمر من قبل أصحاب المدابغ الذين اتخذوا منه مركزا لإلقاء نفاياتهم دون أن تتصدى لهم هيئة الآثار ناسية أو متناسية أن هذا المثال الباقي يعتبر أحد النماذج الذي سارت على نمطه الحمامات المصرية في العصور التالية، فقد ذكر المقريزي أن الحمامات في أيامه أي في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر للميلاد كانت تنشأ على غرار الحمامات الفاطمية القديمة (٢٠١).



شكل (٢١) الحمام الفاطمي، مسقط أفقى عن ليلي على إبراهيم

٢٩٨ - مجمد سيف النصر أبو الفتوح، منشآت الرعاية الاجتماعية، ص٢٢٣.

۲۹۹ - المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٧٧ - ٨١.

[•] ٣٠٠ لم يبق من هذه الحمامات سوى حمام الفاضل الذى عرف فيما بعد بحمام السكرية وهو يقع فى مقابل جامع المؤيد شيخ بالقرب من باب زويلة. وقد طرأ عليه العديد من الإضافات فى عصر المماليك الجراكسة. انظر على مبارك، الخطط التوفيقية، ج٤، ص٦٩؛ محمد سيف النصر، منشأت الرعاية الاجتماعية، ص٢٤٢.

٣٠١- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٨٣.

ثبت المصادر والمراجع أولا: المصادر والمراجع العربية ثانيا: المراجع الأجنبية

أولا: المصادر والمراجع العربية:

- إبراهيم أحمد العدوى، الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم، القاهرة ١٩٥٨.
- إبراهيم أحمد العدوى، مصر الإسلامية درع العروبة ورباط الإسلام، القاهرة ١٩٩٢.
- إبراهيم على طرخان، النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٨.
- إبراهيم نصحى، مصر في عصر الرومان، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثاني، القاهرة (بدون تاريخ).
 - ابن أبي اصبيعة، كتاب عيون الانباء في طبقات الأطباء، القاهرة ١٨٨٢ ، ١٨٨٨.
 - ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ليدن ١٨٦٦ ١٨٧٤؛ بولاق ١٢٩٠هـ.
 - ابن الاخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة، نشررو بن ليفي، كمبردج ١٩٣٧.
- ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، طبعة بولاق ١٨٩٣ ١٨٩٥، وطبعة بول كالة ومحمد مصطفى، القاهرة ١٩٦٠ ١٩٦٣.
 - ابن إياس، نشق الازهار في عجائب الامصار، باريس ١٨٠٧.
- ابن أيبك، درر التيجان وغرر تواريخ الزمان، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم ه ٢٦٠ تاريخ.
- ابن أيبك الدوادار، كنز الدرر وجامع الغرر، الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح المنجد، القاهرة ١٩٦١.
 - ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٣٠ ١٩٧٢.
 - ابن الجوزى، مرآة الزمان في تاريخ الاعيان، شيكاغو ١٩٠٧.
- ابن حماد أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق Vonderheyden، الجزائر، باريس المراد المراد باريس المراد المراد
 - ابن حجر، الاصابة في أخبار الصحابة، القاهرة ١٣٢٨هـ.
 - ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، القاهرة ١٩١٠.
 - ابن الحسين، كتاب البيزرة، تحقيق محمد كرد على، دمشق ١٩٥٢.
 - ابن الخطيب، أعمال الاعلام، تحقيق العبادي والكتاني، الدار البيضاء ١٩٦٤.
 - ابن خلدون، المقدمة، بيروت (بدون تاريخ).

- ابن خلكان، وفيات الاعيان، بولاق ١٢٩٩هـ.
- ابن الداية، المكافأة، القاهرة ١٩١٤، بولاق ١٩٤١.
- ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، القاهرة ١٩٨٣.
- ابن الراهب، تاريخ ابن الراهب، نشر لويس شيخو، بيروت ١٩٠٣.
 - ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ليدن ۱۸۹۱.
- ابن زولاق، أخبار سيبويه المصرى، نشره محمد إبراهيم سعد وحسين الدين، القاهرة ١٩٣٣.
 - ابن سعد، الطبقات الكيري، بيروت ١٩٥٧.
 - ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، نشر زكى محمد حسن وأخرين، القاهرة ١٩٥٣.
- ابن شداد، الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق دومنيك سورديل، دمشق ١٩٥٣.
- ابن الصبيرفي، الاشارة إلى من نال الوزارة، القاهرة ١٩٢٤؛ تحقيق ايمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٩٠.
 - ابن طباطبا، الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت ١٩٦٠.
- ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا، وكامل المهندس، القاهرة ١٩٦٩.
- ابن عبد الحكم، كتاب فتوح مصر وأخبارها، عنى بنشره وتصحيحه هنرى ماسيه، القاهرة ١٩١٤؛ وطبعة تورى، نيوهافن ١٩٢٢؛ ليدن ١٩٢٠.
 - ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، نشر كانار، الجزائر ١٩٣٤.
- ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار المغرب، تحقيق ليڤي بروقنسال وكولان، ليدن ١٩٤٨ ١٩٥١ م طبعة بيروت ١٩٥٠.
 - ابن العميد، تاريخ المسلمين، ليدن ١٨٢٥.
 - ابن قتيبة، الامامة والسياسة، القاهرة ١٩٣٧.
- ابن القطان، جزء من كتاب نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق محمود مكى، الرباط،
 ١٩٦٤.
 - ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨.

- ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، القاهرة ١٩٣٩.
- ابن مماتى، قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٤٣.
- ابن میسر، تاریخ مصر، تحقیق هنری ماسیه، القاهرة ۱۹۱۹؛ تحقیق ایمن فؤاد سید، القاهرة ۱۹۸۱؛
 - ابن النديم الفهرست، تحقيق فلوجل، ليبزج ١٨٧١ ١٨٧٢.
- ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٨ - ١٩٥٨.
- أبو الحمد محمود فرغلى، التصوير الإسلامي نشأته وموقف الإسلام منه ومدارسه، القاهرة ١٩٩١.
- أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، نشر عبد الله بن السعود، القاهرة ١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٨هـ.
 - أبو يوسف، كتاب الخراج، بولاق ١٣٠٧هـ.
- أحمد تيمور، التصوير عند العرب، أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات زكى محمد حسن، القاهرة ١٩٤٢.
- أحمد عبد الرازق أحمد، بيوت الفسطاط الاثرية، المتحف العربي، السنة الرابعة، العدد الأول، بوليو -- سيتمبر ١٩٨٨.
 - أحمد عبد الرازق أحمد، الحضبارة الإسلامية في العصبور الوسطي، القاهرة ١٩٩٠.
- -- أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، العلوم العقلية، القاهرة ١٩٩١.
 - أحمد عبد الرازق، دراسات تاريخية، القاهرة ١٩٨٤.
 - أحمد عبد الرازق أحمد، شرطة القاهرة زمن سلاطين الماليك، القاهرة ١٩٨٢.
- أحمد عبد الرازق، عمارة الازهر الشريف وما حوله من الآثار، كتاب الأزهر الشريف في عيده الألفي، القاهرة ١٩٨٣.
 - أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دمشق ١٩٣٩.
 - أحمد فكرى، مساجد القاهرة ومدارسها، المدخل، القاهرة ١٩٦١.
 - أحمد فكرى، مساجد القاهرة ومدارسها، القاهرة ١٩٦٥.

- ادم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة ١٩٤٠.
- أسامة طلعت عبد النعيم خليل، أسوار صلاح الدين وأثرها في إمتداد القاهرة حتى عصر الماليك، رسالة ماجستير، كلية الاثار- جامعة القاهرة ١٩٩٢.
- اسحق عبيد، الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، مع دراسة في مدينة الله، القاهرة ١٩٧٢.
- اسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، بيروت ه ١٩٠٠.
 - الاصطخرى، مسالك الممالك، ليدن ١٩٢٧.
 - الاصفهائي، كتاب الاغائي، طبعة بولاق.
 - الاصفهاني، مقاتل الطالبين، النجف ١٣٥٣هـ.
 - الفرد بتلر، فتح العرب لمصر، تعريب محمد فريد أبو حديد، القاهرة ١٩٤٦.
 - أل كاشف الغطاء، أميل الشيعة وأصولها، القاهرة ١٩٥٨.
 - أمين سامي، تقويم النيل، القاهرة ١٩١٦.
- الأنبا ميخائيل، ذيل سير الآباء البطاركة، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 1872م.
 - أنور الرفاعي، النظم الإسلامية، دمشق ١٩٧٣.
 - أومان، الامبراطورية البيزنطية، ترجمة مصطفى بدر، القاهرة ١٩٥٣.
- هـ. ايدرس بل، مصر من الأسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، ترجمة عبد اللطيف أحمد على، محمد عواد حسين، القاهرة ١٩٤٥.
- الباز العريني، الحسبة والمحتسب، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد الثاني، العدد الثاني، ١٩٥٠.
 - الباز العريني، الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٦٠.
 - البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، الجزائر ١٩٩١.
 - البلاذري، كتاب فتوح البلدان، ليدن ١٨٦٦.
 - البلوى، سيرة أحمد بن طواون، حققها وعلق عليها محمد كرد على، دمشق ١٣٥٨هـ.

- الجاحظ، البيان والتبين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٣٨١هـ.
- جاستون فيت، القاهرة مدينة الفن والتجارة، ترجمة مصطفى العبادي، بيروت ١٩٦٨.
 - الجبرتي، عجائب الأثار في التراجم والاخبار، بولاق ٢٩٧هـ.
- جروهمان، أوراق البردى العربية، ترجمة حسن إبراهيم حسن، مراجعة عبد الحميد حسن، القاهرة ١٩٣٤ ١٩٧٤.
- جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي، القاهرة ١٩٦٧.
- جمال الدين الشيال، الفسطاط، مجلة كلية الآداب- جامعة الاسكندرية، المجلد الثانى عشر، ١٩٥٨.
- -جمال الدين الشيال، مصر في العصر لفاطمي، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثاني (بدون تاريخ).
 - الجهشياري، كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق السقا والابياري، القاهرة ١٩٣٨.
- جيلان محمد عباس، آثار مصر الإسلامية في كتابات الرحالة العرب والأجانب، رسالة
 ماجستير، كلية السياحة والفنادق- جامعة حلوان، ١٩٨٨.
 - حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، القاهرة ١٩٤٦.
- حسن أحمد محمود، حضارة مصر الإسلامية في العصر الطولوني، القاهرة، (بدون تاريخ).
 - حسن الباشا، الالقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والاثار، القاهرة ١٩٥٧.
 - حسن الباشا، التصوير الإسلامي في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٩.
 - حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٧٥.
 - حسن الباشا، فن التصوير في مصر الإسلامي، القاهرة ١٩٦٦.
 - حسن الباشا، الفنون والوظائف على الآثار العربية، القاهرة ١٩٦٦ ١٩٦٧.
 - حسن الباشا، القاهرة تاريخها، فنونها، اثارها، القاهرة ١٩٧٠.
 - حسن حبشى، نور الدين والصليبيون، القاهرة ١٩٤٨.

- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الاثرية التي صلى فيها فريضة الجمعة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول، القاهرة ١٩٤٦.
- حسنى نويصر، مجموعة سبل السلطان قايتباى بالقاهرة، رسالة ماجستير، كلية الاداب - جامعة القاهرة، ١٩٧٠.
 - حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٨٣.
- حسين مصطفى حسين، المحاريب الرضامية في قاهرة المماليك البحرية، رسالة ماجستير، كلية الآثار جامعة القاهرة، ١٩٨١.
- حسين مؤنس، تاريخ مصر من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثاني، القاهرة (بدون تاريخ).
- حسين الهمداني، بحث تاريخي في رسائل اخوان الصفا وعقائد الاسماعيلية، بومباي المعادر.
 - الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦١.
 - رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة، ثيود وسيوس وأمبرون، القاهرة ١٩٨٣.
 - رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة، قسطنطين، القاهرة ١٩٨٢.
 - زكى محمد حسن، الفن الإسلامي في مصر، القاهرة ١٩٣٥.
 - زكى محمد حسن، كنوز الفاطميين، القاشرة ١٩٣٧.
 - ساويرس بن المقفع، سير الآباء البطاركة، باريس ١٩٠٧، ١٩١٠.
 - السجلات المستنصرية، تقديم وتحقيق عبد المنعم ماجد، القاهرة ١٩٥٤.
 - سعاد ماهر، كتاب الفنون الإسلامية، القاهرة ١٩٨٦.
 - سعاد ماهر محمد، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، القاهرة ١٩٧١.
- سعيد بن بطريق المعروف باوتيخا، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق تحقيق لويس شيخو، بيروت ١٩٠٥،
 - سعيد عبد الفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، القاهرة ١٩٧٢.
 - سهيلة الجبوري، أصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الأموي، بغداد ١٩٧٧.
- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، الاسكندرية ١٩٨٢.
- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، الاسكندرية (بدون تاريخ). ۲۷۸

- السيد عبد العزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب، تاريخ الدولة العربية، الاسكندرية (بدون تاريخ).
 - سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طولون، القاهرة ١٩٦٥.
 - سيده إسماعيل كاشف، مصر في عصر الاخشيديين، القاهرة ١٩٧٠.
- -- سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الولاة من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية، القاهرة (يدون تاريخ).
 - -- سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، القاهرة ١٩٧٠.
 - السيوطي، تاريخ الخلفاء، بيروت ١٩٦٩، القاهرة ١٩٠٣.
 - السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة ١٣٢٧هـ.
 - شحاته عيسى، القاهرة تاريخها ونشئتها وامتدادها وتطورها، القاهرة (بدون تاريخ).
 - صفوان التل، تطور الحروف العربية على آثار القرن الهجري الأول، الاردن ١٩٨٠.
 - الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، القاهرة ١٩٢٩.
 - طة باقر، فاضل عبد الواحد، عامر سليمان، تاريخ العراق القديم، بغداد ١٩٨٠.
- طه ندا، الأعياد الفارسية في العالم الإسلامي، مجلة كلية الاداب جامعة الاسكندرية، المجلد السابع عشر، ١٩٦٣.
- عباس حلمى عمار، تطور المسكن المصرى الإسلامي من الفتح العربي حتى الفتح العثماني، رسالة دكتوراه، كلية الأداب جامعة القاهرة ١٩٦٨.
- عبد الرحمن ذكى، أسوار القاهرة وأبوابها من جوهر القائد إلى الناصر صلاح الدين، مجلة المجلة، العدد (٥١)، ١٩٦١.
 - عبد الرحمن زكى، القاهرة، تاريخها وأثارها، القاهرة ١٩٦٦.
 - عبد الرحمن زكي، الفسطاط وضاحيتاها العسكر والقطائع، القاهرة ١٩٦٦.
 - عبد الرحمن زكى، موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام، القاهرة ١٩٦٩.
 - عبد الرحمن فهمي، صنج السكة في فجر الإسلام، القاهرة ١٩٥٧.
 - عبد العزيز الدورى، النظم الإسلامية، بغداد ١٩٥٠.
 - عبد المنعم سلطان، المجتمع المصرى في العصر الفاطمي، القاهرة ١٩٨٥.
 - عبد المنعم ماجد، الامام المستنصر بالله الفاطمي، القاهرة ١٩٦٠.

- عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، القاهرة ١٩٧٥.
- عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه، القاهرة ١٩٥٩.
- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، التاريخ السياسي، الاسكندرية ١٩٦٨.
 - عبد المنعم ماجد، العصير العباسي الأول، القاهرة ١٩٧٣.
 - عبد المنعم ماجد، الناصر صلاح الدين يوسف الايوبي، بيروت ١٩٦٧.
 - عبد المنعم ماجد، نظم القاطميين في مصر، القاهرة ١٩٧٣.
- على بهجت والبيرجبرييل، كتاب حفريات الفسطاط، نقله إلى العربية على بهجت ومحمود عكوش، القاهرة ١٩٢٧.
 - على مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة، بولاق ١٨٨٧ ١٨٨٨م.
 - عمر طوسون، مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن، الاسكندرية ١٩٣١.
 - العمرى، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، القاهرة ١٩٢٤.
- العينى، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم ۲۵۷۸ تاریخ.
- فتحى أبو سيف، المشرق الإسلامي بين التبعية والاستقلال، الطاهريون، القاهرة ١٩٧٨.
- فريد شافعى، العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، الرياض ١٩٨٢.
 - فريد شافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية، عصر الولاة، القاهرة ١٩٧٠.
- فريد شافعي، مئذنة مسجد ابن طولون، رأى في تكوينها المعماري، مجلة كلية الاداب -جامعة فؤاد الأول، المجلد الرابع عشر، جـ١، مايو ١٩٥١.
 - فؤاد فرج، المدن المصرية وتطورها مع العصور، القاهرة ١٩٤٣ ١٩٤٦.
 - قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر العصور الوسطى، القاهرة ١٩٧٧.
 - قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى في عصر سلاطين الماليك، القاهرة ١٩٧٨.
 - القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، القاهرة ١٩١٤ ١٩٢٨.
 - كامل حسين، طائفة الاسماعيلية، تاريخها، نظمها، عقائدها، القاهرة ١٩٥٩.
- الكرمائي، الرسالة الواعظة، تحقيق كامل حسين، مجلة كلية الاداب- جامعة القاهرة، المجلد الرابع عشر، الجزء الأول، مايو ١٩٥٢.

- كلوت بك، لمحة عامة إلى مصر، تعريب محمد مسعد، القاهرة (بدون تاريخ).
 - كمال سامح، العمارة الإسلامية في مصر، القاهرة ١٩٧٠.
 - الكندى، كتاب الولاة والقضاة، بيروت ١٩٠٨.
- لينبول، سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن، على إبراهيم حسن، الوارد حليم، القاهرة ١٩٥٠.
 - الماوردي، الأحكام السلطانية، القاهرة ١٢٩٨هـ.
- مايسة محمود داود، المسكوكات الفاطمية في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، القاهرة مايسة محمود داود،
 - المتنبي، ديوان المتنبي، بيروت ١٩٠٠.
 - مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، بريل ١٨٦٩.
- محاضرة اللجنة الدائمة للأثار الإسلامية والقبطية، ١٩٥٤ ١٩٦١، الكراسة الحادية والاربعون، القاهرة ١٩٦٣.
 - محب الدين الخطيب، الازهر، القاهرة ١٣٤٥هـ.
- محمد جمال الدين سرور، الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية، القاهرة ١٩٦٦.
 - محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية في مصر، القاهرة ١٩٧٩.
- محمد حمدى المناوى، مصر في ظل الإسلام من الفتح العربي إلى نهاية العصس الفاطمي، القاهرة ١٩٧٠.
 - محمد حمدي المناوي، نهر النيل في المكتبة العربية، القاهرة ١٩٦٦.
 - محمد حمدى المناوى، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، القاهرة ١٩٧٠.
- محمد سيف النصر أبو الفتوح، منشأت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عصر
 المماليك، رسالة دكتوراه، كلية آداب سيهاج جامعة أسيوط، ١٩٨٠.
 - محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، القاهرة ١٩٨٠.
 - محمد مصطفى، متحف الفن الإسلامي، دليل موجز، القاهرة ١٩٥٨.
- محمود رزق محمود، المجتمع المصرى في العصر الطولوني، رسالة دكتوراة، كلية الآداب جامعة عين شمس، ١٩٨٥.
 - محمود عكوش، تاريخ ووصف الجامع الطواوني، القاهرة ١٩٢٧.

- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محيى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥٨.
 - مصطفى محمد مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٠.
- مفضل بن أبى الفضائل، النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تحقيق بلوشيه، Patrologia orientalis, Paris,1919.
 - المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ليدن ١٩٠٦.
- المقريزى، اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا، نشر جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٨.
 - المقريزي، البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب، القاهرة ١٣٥٦هـ.
- المقريزي، السلوك في معرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسبعيد عاشبور، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٧٢.
 - المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة بولاق ١٢٧٠هـ.
 - المقريزي، النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم، القاهرة ١٩٣٧.
- المؤيد في الدين، سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، ترجمة حياته بقلمه، تقديم وتحقيق كامل حسين، القاهرة ١٩٤٩.
 - ناصر خسرو، سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٥.
 - نظير سعداوي، التاريخ الحربي المصرى في عهد صلاح الدين، القاهرة ١٩٥٧.
 - النعمان، دعائم الإسلام، تحقيق أصف بن على فيظى، القاهرة ١٩٥١ ١٩٦٠.
 - النعمان، شرح الأخبار، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٠٦٢-.
 - النويختي، فرق الشيعة، صححه وعلق عليه محمد صادق ، النجف ١٩٣٦.
- وهيب عطا الله جرجس، تعليم كنيسة الأسكندرية فيما يختص بطبيعة السيد المسيح، القاهرة ١٩٦١.
 - ياقوت، معجم البلدان، القاهرة ١٩٠٦.
 - اليعقوبي، كتاب البلدان، ليدن ١٨٩١.
 - يوسف العش، الدولة الاموية، دمشق ١٩٨٥.

ثانيا: المراجع الأجنبية:

- A. Abd ar Rāziq, Deux jeux sportifs en Egypte au temps des mamlūks, Annales Islamologiques, XII,1974.
- A.Abd ar- Rāziq, La hisba et le muhtasib en Egypte au temps des mamlūks, Annales Islamologiques, XIII,1977.
- A. Abd ar- Rāziq, Trois fondations féminines dans l'Egypte mamlouke, REI, XLI/1 Paris,1973.
- D.B. Abouseif, Islamic Architecture in Cairo, An Introduction, Cairo, 1989.
- M. Ahmad, Guide des principaux monuments arabes du Caire, Le Caire, 1939.
- M. Ahmad La mosquée de Amr Ibn al- 'As, Le Caire, 1939.
- E. Ashtor, Histoire des prix et des saleires dans l'orient médiéval, Paris,1969.
- C.H. Becker, Briträge zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam, Strasbourg,1902-1903.
- C.H. Becker, Islamstudien, Leipzig,1924.
- G. Bell, Palace and Mosque at Ukhaidir, Oxford,1914.
- D. Brandenburg, Islamische Baukunst in Agypten, Berlin, 1966.
- M. S. Briggs, Muhammadan Architecture in Egypt and Palestine, Oxford,1924.
- L. Caetani, Annali dell 'Islam, Milano, 1911, 1912.
- H. De Castries, L' Islam, Paris,1896
- C.N. Cochrance, Christianity and Classical Culture, Oxford, 1940.
- Comité de conservation des monuments de l'art arabe, t.I-XLI, Le Caire1892-1961.
- Corbett, The Life and Works of Ahmad Ibn Tulun, JRAS, 1891.
- Chronique de Jean évêque de Nikiou, Paris,1883.

- K.A.C. Creswell, A Short Account of Early Muslim Architecture, Revised and Supplemented by James W. Allan, Cairo, 1977.
- K.A.C. Creswell, Brief Chronology of the Muhammadan Monuments of Egypt to A.D.1517, BIFAO, XVI, le Caire,1919.
- K.A.C. Creswell, Early Muslim Architectuse, Oxford,1932-1940.
- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture in Egypt, I, Oxford,1952.
- R.L. Devonshire, L'Egypte musulmane et les fondateurs de ses monuments, Le Caire, 1982.
- Encyclopédie de l' Islam,1re et 2e éd.
- A. Fattal, La mosquée d'Ibn Toulun, Beyrouth,1960.
- S. Flury, Samarra und die Ornamenik der Moschee des Ibn Tulun, Der Islam IV,1913.
- J.C. Garcin, Un centre musulman de la haute- Egypte médiévale, Qūs, Le Caire, 1976.
- K.O. Ghaleb Le miqyas ou nilomètre de l'ile de Rodah, Le Caire,1951.
- H.Glück Und Diez, Die Kunst des Islam, Berlin,1929.
- A. Grohmann, Arabic Papyri in Egyptian Library, Cairo, 1934, 1937.
- Z.M. Hassan, Les Tulunides, Paris,1933.
- L.Hautecoeur et G. Wiet, Les mosquées du Caire, Le Caire, 1932.
- H. al Hawary, Une maison de l'époque toulounide, BIE,XV,1933.
- M Herz, Index général des Bulletins du Comité des années1882 à 1910, Le Caire,1914.
- L.A. Ibrahim, Adil Yasin, A Tulunid Hammam in Old Cairo, Kunst der Orients, 1979.
- Ibn Said, La biographie d'Ibn Tulun d'après Ibn al Dāya, éditée Par Vollers, Weimar, 1895.
- E. Kühnel, Die Islamische Kunst, Springer Handbuch der Kunstgeschichte, IV, Leipzig,1929.

- E. Kühnel, Islamische Kleinkunst, Berlin,1925.
- C.J. Lamm, Fatimid Woodwork, BIE, XVIII,1936.
- Lane- Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1925,1936.
- J. Mann, The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs, Oxford,1920.
- Massignon, Fatima bint al- Husayn et l'origine du nom dynastique Fatimides. Akten des XXIV, Intern. Orientalisten Kongresses, Munich, 1957.
- H. Munier, L'Egypte byzantine, le Caire, 1932.
- E.Pauty, Les bois sculptés jusqu' à l, époque ayyoubide, Le Caire, 1931.
- E. Pauty, Le minbar de Qous, Mélange Maspero. III.
- E.Pauty, Un dispositif du plafond fatimite, BIE, XV,1933.
- W. Popper, The Cairo Nilometer, Studies in Ibn Taghribirdi 's Chronicles of Egypt, Part I, Berkeley, 1951.
- Quatremère, Mémoires géographiques et historiques sur l'Egypte, Paris,1811.
- Quatremère, Recherches citiques et historiques sur la langue et la littérature de l' Egypte, Paris,1808.
- Y. Rāgib, Un Oratoire fatimide au sommet du Muqattam, Studia Islamica, LXV,1987.
- Recueil des historiens des croisades, Hist. Occ., Paris, 1844.
- Répertoire Chronolgoque d'épigraphie arabe, Le Caire, 1931-1982.
- E.T. Richmond, Moslem Architecture, London, 1926.
- S.De Sacy, Recherches sur l'initiation a la secte ismaelienne, JA,1824.
- Sarre und Herzfeld, Archaologische Reise in Euphart und Tigris, Berlin,1911.

- J. Sauvaget, Le poste aux chevaux dans l'empire des Mamlouks, Paris, 1951.
- Schlumberger, Campagnes du roi Amaury Ier, de Jérusalem en Egypte au XIIe siècle, Paris,1906.
- F. Shafii, An Early Fatimid Mihrab in The Mosque of Ibn Tulun, Bulletin of Faculty of Arts Univ. Of Cairo, XV/1,1953.
- F. Shafii, The Mashhad al- Juyushi, Archeological Notes and Studies, Studies in Islamic Art and Architecture in Honor of professor K.A.C. Creswell. Cairo, 1965.
- S.J. Shaw, The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798, Princeton, 1962.
- Tayan, Histoire de l'organisation judiciaire en pays de l' Islam, Paris,1943.
- M. Van Berchem, Materiaux pour un Corpus inscriptionum arabicarum, MIFAO,19, Le Caire,1894-1903.
- M. Van Berchem, Notes d'archéologie arabe, JA, XVII, XIX,1891.
- A.A Vasiliev, History of Byzantine Empire, Madison,1961.
- J.D. Weil, Les bois à épigraphes jusqu' à l'époque mamlouke, Le Caire, 1931.
- G. Wiet, Corpus inscriptionum arabicarum, Egypte, Le Caire,1930.
- G. Wiet, Exposition d'art persan, Le Caire,1935.
- G. Wiet, L' Egypte arabe, dans Histoire de la nation égyptienne, IV,Le Caire,1938.
- G.Wiet, L' Egypte musulmane, dans Prècis de l'histoire d'Egypte, Le Caire, 1932.
- F. Wüstenfeld, Die Statthalter von Agypten zu Zeit der Chalifen,-Gottingen, 1875.
- Zananiri, L'Egypte et l'équililbre du Levant au Moyen Age, Marseille, 1933.

